الخلق الكامل

تأليف

محمد أحمد جاد المولى

بك

المفتش بوزارة المعارف



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م

الثمن

يطلب من المكتبة التازية بشارع الصنادقية بمصر
لصاحبها عبد الواحد محمد التازي

مطبعة حجازي

تليفون رقم ٥٥٤٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

لله ذى العلم والحكمة والجود والنعمة - أجمل الثناء على ما أسداه من سوابغ الآلاء، ولخيرته من أنبيائه ومجتباه من رسله وأصفيائه، سيدنا ومولانا محمد منقذ العالم من جهالاته، ومخرجه من حالك ظلماته - أزكى صلاة وأتم تسليم .

وبعد فقد كان مالقيه الجزء الأول من كتاب الخلق الكامل، من إطراء أهل العلم وثناء ذوى الفضل، وإقبال أولى العرفان - أكبر مشحذ لغرار همتنا وأقوى حافز لعزيمتنا على إنجاز الجزء الثانى على القصد الذى نهجناه، والسبيل الذى سلكناه : من توخّى خير الآراء الغربية والشرقية قديمها وحديثها، وتمحيصها فى ضوء كتاب الله تعالى، والصحيح من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

الخير

معنى الخير :

يتمثل الخير فى أمور ثلاثة : أولها شرف الإنسانية :

ذلك بأن الإنسان مخلوق ، حر ، عاقل ، مسئول عما يصدر عنه من الأعمال المرادة . ممتاز بخلائق كريمة يجدر به أن يحتفظ بها ، حتى لا يندمج فى طبقة الموجودات الخاضعة للفواعل الكونية دون اختيار ومقاومة ؛ ولذلك كان أول ركن من أركان القانون الخلق أن يحترم الإنسان فى نفسه (شرف الإنسانية) وأن يجتنب الرذائل ، ويتمسك بالفضائل التى تقاوم الشهوات النفسانية .

وأمهات الفضائل التى تصون شرف الإنسانية ثلاث : الفطنة ، والاعتدال ، والشجاعة :

أما الفطنة فهى : صفاء العقل ولطافة الحس ، وهى ضرورية لصحة إرادة الإنسان ؛ لأن من لا يميز بين الحق والباطل ، يخشى عليه ألا يميز بين الخير والشر ، وأن صغائر الآثام تؤدى إلى كبائرها بالعادة والمباشرة : فمن تلك التشاؤم برقم ١٣ ، ونعيق البوم وغيرهما من الخرافات التى تدل على خمود الفطنة وضعف التمييز ، والتى ينكرها أصحاب الأحلام الراجحة والأفهام النيرة .

وللفطنة آيتان : التعقل والتسامح ، وهما خلتان لا يستحق المرء أن يدعى بدونهما إنسانا حقا .

وأما الاعتدال فهو مزية من أشرف المزايا الإنسانية ، وليس المراد منه نظام الطعام والشراب ، ولكنه التوسط فى كل شىء : فليس من الاعتدال أن يتيه الرجل الذى أثرى ، (وقد نشأ فقيرا) على زملائه الذين لم ينجحوا مثله ، أو أن يحقد الرجل الفقير على جاره الغنى ، ولا يرضى بما قسم الله له .

بل الاعتدال — الاعتراف بالجميل لوالديك ؛ لأنهما سبب حياتك ونعمتك

فمكافأتك لهما هو الاعتراف الحق ، والرجل المعتدل هو من يعترف بفضل العلماء ، والمفكرين ، والباحثين ، والمخترعين ؛ لأنه ماظهر ذو رأى جديد فى العلم أو الصناعة ـ إلا وجد أمامه كثيراً من الحاسدين والمبغضين ، فأنكروا جميله ، وسفهوا آراءه . فلما انقرضوا حكم التاريخ بسقوطهم ، ورفعه إلى ذروة المجد الخالد :

حكى أن كرستوف كولمب بعد كشفه أميركا وعودته إلى إسبانيا احتفل به الشعب على اختلاف الطبقات ، ولم يَعقل ذلك الاحتفاء ألسنة الحساد والمكابرين ، بل انطلقت بالتنديد والتعريض ، والسخرية والتسفيه . فنمى إليه الخبر ، فلم يحفل به ، بل دعاهم إلى وليمة وأتى كل واحد منهم طبقاً وبيضة وقال :

الحاذق منكم من يجعل بيضته تقف على طرفها . فحاول كلٌ ساعة ، فلما أعجزتهم حيلته ـ أخذ هو واحدة وضربها بقوة فانكسر طرفها فاستقامت فصاح الكل : (إن كان كذلك فالأمر هين) فقال : ولكن سبقت إلىّ الفكرة قبل أن ترد على بال أحدكم . وهكذا كان كشفى لأمريكا .

فضيلة الاعتراف بالجميل ـ هى التى وقفت ببطرس الأكبر (قيصر الروس) على قبر ريشليو وزير فرنسا ليقول : ليتك حىٌ فأعطيك نصف ممالكى ؛ لأتعلم منك كيف أسوس النصف الآخر .

وأما الشجاعة فهى : ألايجبن الإنسان ، أو يستسلم لما يعتريه أو يعترى مواليه ، أومعاشريه ، أوذويه من مصائب الحياة ؛ لأن الحيوانات والطيور تدافع عن أنفسها وعن أبنائها ، والإنسان أولى منها بهذه الفضيلة .

وقد حكى أن ذئباً خاطر بنفسه لصيانة أولاده ، حتى اخترق الرصاص جسمه وهو ثابت لايتحرك ، مخافة أن يزعج أولاده بأنينه وصياحه . وقد قال شاعر فرنسوى مامعناه :

« ويلاه ؛ فكّرت بالرغم منى فى هذا الاسم العظيم ! (اسم الإنسان) ،

ولكنى خجلت مما شاهدت من مظاهر الضعف فى النوع البشرى ، كيف لا ، وهذه معائبه التى تعرفينها أيتها الحيوانات الضارية .

فالبكاء والعويل ، والأنين والتضرع - كل ذلك من ضروب الجبن .

أيها الانسان ، اعمل عملك الشاق بقوة حيث واتاك حظك ، مثل الذئب الذى احتمل حتى مات ، ولم يبد صيحة ولا نبأة .

قال شكسبير شاعر الإنكليز : « يموت الجبان ألف مرّة ، والشجاع لا يموت غير مرّة واحدة »

وأعلى مراتب الشجاعة - الشجاعة الأدبية ، وهى قول الحق ، والسعى وراء الحق ؛ وبها يكون الإنسان أمينا مخالفا لهوى النفس ، شديد الحرص على واجباته وإن اعتورته الأحداث المطيفة به .

الرجل إذا قوى ضميره ظهرت عليه علائم الشجاعة الأدبية ، وكان أقوى جنانا ، وأربط جأشا فى أعظم المواقف وإليك القصة الآتية :

حكى أن رجلا من أهل دمشق سُعِي به إلى أبى جعفر المنصور : أن عنده ودائع وأموالا لبنى أمية ، فأمر بإحضاره إلى بغداد ، فدخل عليه ، وكان المنصور شديد البطش ، سريع الغضب . فقال له : رفع إلينا خبر الودائع والأموال التى عندك لبنى أمية ، فأخرجها لنا . فقال يا أمير المؤمنين : أوارث أنت لبنى أمية ؟ قال: لا . قال : أفأنت لهم وصى ؟ قال: لا . قال : أثبت لك قضاء ذلك المال عندى ؟ قال: لا . قال : إذاً فما سبب سؤالك عما فى يدى من ذلك ؟ فأطرق المنصور هنيهة ثم رفع رأسه متبسما وقال لحاجبه الربيع : اقض للرجل حاجته ثم رده لأهله .

الأمر الثانى من الأمور التى يتمثل فيها الخير - النزاهة والإيثار :

إن الفضائل الثلاث التى تقدم ذكرها ليست كل مايطلبه قانون الأخلاق ؛ لأنها خلال يرى الإنسان من واجب نفسه عليه أن يحصلها لها ، فهو مؤثر لذاته

من بعض الوجوه، وهو لذلك لايصلح أن يكون مثـلا حقا للنزاهة والخليق به أن يعمل فى هذه الحياة وفق الموعظة الآتية :

(أبنائى ، انظروا فى هذا العالم ـ تروا أن ليس الغرض من الحياة الحصول على مطالبنا دون سواها .

فما الأرض إلا نقطة فى فضاء الله الواسع ، تدور حول الشمس كسائر الكواكب ، وكم من كوكب ينتظم عالما كهذا العالم ، ويدور حول كوكب آخر أعظم منه جرما : (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

نحن وإن كنا على الأرض لسنا لها بمالكين ؛ لأن حدوث أى غرق أو زلزال ـ يدمر ما عليها تدميراً

وإذا كانت هذه هى الحقيقة فليس من الصواب أن يعتقد فرد أو شعب أن الدنيا خلقت له وحده ، ويتجاهل هذا النظام الإلهى .

حقا يجب علينا أن نعتقد أن الإنسان لم يخلق منفرداً ، وأن من المتعين عليه أن يشرك غيره ، ويخلص لأسرته ووطنه ولبنى الانسان عامة ؛ مراعاة لذلك النظام الاجتماعى .)

ومن النزاهة والإيثار : ما حكى أنه لما آلت الخلافة لسيدنا عمر رضى الله عنه ـ أمر بعزل خالد بن الوليد ، وهو من كبار قواد الجيوش الإسلامية التى كانت مشتغلة يومئذ بالفتوحات الشامية لأسباب اقتضت ذلك ، فتقبل خالد أمر عزله بالطاعة والإذعان ، وحارب جنديا كعامة الجند ، حتى تم فتح الشام . ففرح عمر بنصر الله ، ورضى عن خالد ، فلم ير خالد فى عزله إلا حادثا مألوفا ، لم يَثْنِه عن واجب الجهاد لإعلاء كلمة الله يوماً واحداً بل ولا لحظة واحدة

ومن الإيثار أن يموت الجندى ، وقلبه يخفق سروراً ؛ لأنه يعلم أنه يحيى بلاده بموته . ومنه أن يواسى الإنسان الفقراء ، ويعلم الجهلاء ، ويستسهل الصعاب فى كشف الحقائق التى ترقى العلم .

لاجرم أن الانسان الذى يرعى المصلحة العامة ـ أفضل ممن يحصر نفسه

فى مستوى منافعه الشخصية ، ولا يسمو بها إلى مكان أعم وأشرف من هذا المستوى . وضد الايثار الأثرة وهى ليست مقصورة على الاستئثار بالمنافع والاختصاص بالملاذ ، ولكنها تصل بالانسان إلى حد نسيان حقوق الآخرين : مما ينافى الفضيلة ، ويضاد الخير من جميع الوجوه .

إن رعاية المصلحة العامة هى النزاهة ، والنزاهة فضيلة من عقائل الفضائل التى يجب على الإنسان أن يتحلى بها ، والتى أجمعت الكتب السماوية ، والآثار الحكمية على امتداحها . فكن نزيها ، ولا تكن محبا لنفسك . وإذا شرعت فى فعل خير فانظر ماذا يصيب العالم أجمع من جراء امتناعك إذا اقتدى بك غيرك . . . .

قال أحد الفلاسفة : «اعمل دائما بحيث يكون عملك قدوة لأبناء جنسك» مثلا : إذا مر غلام فى مزرعة فاعترضه صاحبها . فأجاب الغلام بأنه لم يتلف شيئاً : فعارضه الزارع بقوله : وإذا تركتك وشأنك ألا يعمل الناس مثلك وينتهجون نهجك ؟

وصفوة القول أن الانسان يبلغ درجة الكمال بأمرين : الحرص على ما فى نفسه من ضروب الشرف ، وإيثار المصلحة العامة

الأمر الثالث — بقاء الخير :

إن أهل العقيدة الصحيحة وذوى العقول السليمة يعتقدون أن للخير نتائج باقية وأن هذا الاعتقاد هو الذى يحبب إلى الجندى بذل روحه فى خدمة وطنه .

وهو الذى يبعث بالمحسنين إلى بذل أموالهم فى سبيل البر ، وهو الذى يدفع دعاة الإصلاح وهداة الأمم إلى استعذاب ما يقاسون من أنواع العذاب . وليس من المعقول أن الأخيار والأشرار متساوون بعد مماتهم ، وأن العمر الطويل الذى يقضيه صاحبه فى إسداء الخيرات وعمل المبرات ، يكون بلا نتيجة . وإذا لم يكن من المعقول ذلك وجب أن نسلم بخلود الروح .

فالخير كامن فى النفس كمون النار فى الزند ، والنفس خالدة لا تفنى بفناء

الجسم ، كما أجمعت عليه الشرائع السماوية كلها :

قال الإمام الشيخ محمد عبده :

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها ، وحشيها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ـ لا يمكن أن يعد ضلة عقلية ، أو نزعة وهمية ، وإنما هو من الإلهامات التى اختص بها النوع الإنسانى .

مذاهب الفلاسفة الغربيين فى الخير

افترق هؤلاء الفلاسفة فى تعريفه : فقال بعضهم : إنه غاية . وآخرون : إنه نظام ، وغيرهم : إنه تعميم أو كمال .

فمن القائلين بأن الخير غاية أرسطو إذ يقول فى رسالته إلى نيقوماخ : الخير ما يسعى إليه كل كائن . وقال جوفروى (١٧٩٦ - ١٨٤٢ jouffroy) إنه غاية الغايات وهو أعظم ما يصبو إليه الإنسان : فمن عمل الخير فقد أدرك الغاية التى من أجلها خلق ، ومن عمل الشر حرم الوصول إلى هذه الغاية . إننا لا نشك أن غاية الانسان خيره ، ولكن يستحسن حد الغاية بالخير ، وليس الخير بالغاية ؛ لأن فكرة الخير هى الأولى ؛ لأننا نحكم أن هذا الشىء خير مما لدينا . فنسعى إليه بوصفه غاية . وفوق ذلك فان جوفروى لم يوضح لنا ماهذه الغاية العظمى النهائية التى يقول بها .

ومن القائلين بأن الخير فى النظام مونتسكيو (١٦٨٩ ـ ١٧٧٥) إذ يقول فى كتابه روح الشرائع : إن الخير هو توثيق عرا العلاقات الجوهرية بين طبائع الأشياء ، وتوهينها هو الشر . وبمجموع هذه العلاقات تكون النظام . وفى هذا الرأى لبس وإبهام ؛ لأننا لا ندرى عن أى النظم يتكلم : أهى الخلقية ؟ أم المنطقية ؟ أم الرياضية ؟ أم الطبيعية ؟ الخ ولا يوجب علم الأخلاق إطاعة جميع النظم ؛ إذ كثير منها ليس من موضوعه ، وإنما نخضع للسنن الكونية ؛ لأننا لا نستطيع عنها فكاكا لأنها ضرورة خلقية .

ومن القائلين بأن الخير هو التعميم « كانت » فى كتابه الأسس اللاطبيعية

للأخلاق إذ يقول : إن الخير هو الإرادة العامة . ونحن لانشك فى أن الإرادة الشاملة هى إحدى الأركان الأساسية للأخلاق ، ولكنها ليست الأساس الوحيد له . فالتعميم نوع يتطلب شيئاً يحويه أو يتضمنه ، وهذا الشيء هو « جودة » العلاقات القائمة بين الكائنات ، وهذه الجودة هى الكمال الذى يسمح للعقل بالتمييز بين الغايات التى يتشوف إليها عامة الخلق وبين غيرها ؛ وكأن « كانت » يقول بهذا الكمال كما يستخلص من نظريته حيث يقول : إن الشخصية الأدبية غاية الغايات لأنها محط آمال بنى البشر جميعهم ، وهذه الشخصية هى الكمال نفسه . ولا يسع المتأمل إلا أن يرى أن مذهب كانت متفرع من مذهب القائلين : بأن الخير هو النظام

ومن القائلين بأن الخير هو الكمال ملبرانسن الفرنساوى ١٦٣٧ — ١٧٧٥ إذ جاء فى كتابه علم الأخلاق : « كما أن موضوع العلوم الرياضية نسبة الأشياء بعضها إلى بعض كبرا وصغرا كذلك موضوع علم الأخلاق نسبة الأمور بعضها إلى بعضها كمالا ونقصاً : فالأولى توجد بين الأشياء التى يمكن قياسها بدقة كقولنا : إن حاصل ضرب ٢ فى ٢ = ٤ ولا يمكن أن يكون ٥. أما الثانية فتوجد بين الأشياء التى فيها تفاوت كقولنا : إن الانسان أكمل من الحيوان ونفس الإنسان أكمل من بدنه والعقل فى النفس أكمل من الحواس وهلم جرا .

هذه النظرية صحيحة بشرط أن نزيدها إيضاحا من قول الفيلسوف الألمانى ليبنتز (Lei bniz ١٦٤٦ — ١٧١٦) إذ يرى أنها تتلخص فى معنيين : الأول العمل . الثانى النظام أو التآلف . ولكل قوة من قوى الإنسان ميل إلى الخير الذى من أجله وجدت وإليه تسعى . فخيره إذن فى تمامه أو كماله . ولما كان الإنسان مركباً لم يجز أن يكون كماله وفعله الخاص به كمالَ كلّ قوة على حدة ، بل يجب ترتيبها حتى لاتتغالب ، وحتى تتسالم فتنتظم . ولا يتأتى هذا الترتيب والنظام إلا بخضوع الوظائف السفلى للحياة النباتية ، والحسية للوظائف العليا للحياة الروحية العقلية ؛ إلا أن الانسان لا يعيش

منفرداً بعيداً عن الاجتماع ، فيجب إذن أن يكون نمو شخصيتنا لا يضر بنحو شخصيات بنى جنسنا الذين لهم مالنا من الحقوق والواجبات ، وباحترامنا المتبادل لهذه الحقوق والواجبات نصل إلى غايتنا التى هى كمالنا ، فنكون بذلك فضلاء أى معتادين عمل الخير ، وسعداء أى نائلين جميع رغائبنا التى هى نتيجة وجزاء لفعل ذلك الخير .

فالخير هو الأمر الذى يحصل للإنسان بإرادته وسعيه فى الأمور الموافقة لطبيعته العاقلة المميزة ، والشرور هى الأمور التى تعوقه عن هذه الخيرات بإرادته وسعيه أو كسله وانصرافه .

إلا أن دَنْس اسْكوت (١٣٧٤ — ١٣٠٨ duns scot) ودِيكارْت (١٥٩٦ — ١٦٥٠ des cartes) وغيرهما يقولون : إن كل شىء بإرادة الله وما هذا بخير أو ذاك بشر إلا لأن الله أراد ذلك ، وليس لأنه خير أو شر فى ذاته . بيد أن هذه النظرية تؤدى حتما إلى القول بنكران الحكمة الإلهية ؛ لأن الله تعالى لم يأمر بأمر إلا لأن فيه صفة الخير

سيأتى فى تعريف الواجب أنه التزام عمل الخير ولتفسير ماهية الواجب تنبغى الإجابة عن سؤالين :

الأول : ماذا يتضمن الخير الذى هو مادة الواجب ؟ والجواب أنه يتضمن ركنين : التمام والنظام

الثانى : من أين نشأت هذه الصفة الالزامية التى يتضمنها الواجب ؟ ونحن نجيب هذا السؤال بما يأتى :

يقول بعض اللاهوتيين والفلاسفة : ليس الخير إلزامياً فى ذاته بل بأمر الله ولولاه ما كان للخير صفته الجبرية .

ورأينا أن الأمر الالهى يزيد فى قوة وضوح خيرية الواجب ؛ لأننا نلمح فى بعض الأشياء صفة الخير فى ذاتها دون علم بالحكم الإلهى فيها

مثلا : من وعد آخر بشىء اعتقد وجوب الوفاء ؛ ليس فقط لأن الله أمر بوفاء الوعد ، بل لأن هذا خير فى ذاته ويجب عمل ماهو خير ، ويتمشى ذلك

مع مايقوله المحققون : من أنه تجب طاعة الله فيما أمر به ؛ لأنه عدل وخير في ذاته . فاذن يكون هذا العدل أو الخير في ذاته هو سبب الوجوب وليس مجردَ صدور الأمر الإلهي .

رأى الفلاسفة الشرقيين فى الخير

قال هؤلاء الحكماء : قد يطلق الخير على الوجود والشر على العدم . فالوجود خير محض والعدم شر محض . وقد يطلق الخير على حصول كمال الشيء والشر على عدم حصوله .

وذهب فريق منهم إلى أن الخير قسمان : خير بالذات ، وخير بالعرض وكذلك الشر : فان القتل مثلا إذا تأملناه وجدناه شراً باعتبار ما يتضمنه من العدم ، فانه ليس شراً من حيث إن القاتل كان قادراً عليه ، ولا من حيث إن الآلة كانت قاطعة ، ولا من حيث إن العضو المقطوع كان قابلا للقطع ، بل من حيث إنه أزال الحياة وهو قيد عدمي ، وباقي القيود الوجودية خيرات .

وقال بعض الصوفية : إن الوجود خير محض وبالذات لكونه مستندا إلى العزيز الحكيم ، والعدم شر محض وبالذات لعدم استناده إليه . وإذا قابلت المنافع بالمضار ، وجدت المنافع أكثر ، وإذا قابلت الشر بالخير ، وجدت الخير أكثر : وعلة ذلك أن المؤمن يقابله الكافر ، ولكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه شر أصلا ، ويستحيل عادة أن يوجد كافر لا يسق العطشان شربة ماء أو يطعم الجائع خبزاً ؛ لأنه خلق على الفطرة المقتضية للخيرات ، فالخير في هذا العالم راجح ، ولذا كان ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل منافيا للحكمة ، ووقوع الخير المشوب بقليل الشر دليل على اللطف الالهي . تأمل قوله تعالى : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ) أي أني أعلم أن هذا القسم يناسب الحكمة ؛ لأن

الخير فيه كثير. وبين للملائكة خيره بالتعليم إذ يقول: (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا) وقد يقال: إن الله قادر على تخليص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر، والجواب هو ما قال الله تعالى: (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) يعنى لو شئنا خلصنا الخير من الشر، وكان فى هذا تفويت لحكمة اتصال الشر بالخير.

وجاء فى شرح المواقف فى خاتمة مقصد أنه تعالى مريد لجميع الكائنات: إن الحكماء قالوا: الموجود إما خير محض لا شر فيه أصلا كالعقول والأفلاك، وإما الخير غالب فيه كما فى هذا العالم: فان المرض مثلا وإن كان كثيرا فالصحة أكثر منه، وكذلك الألم كثير واللذة أكثر منه. فالموجود عندهم منحصر فى هذين القسمين.

ورأى القائلين بأن الخير غالب على الشر، أو بأن الوجود خير محض ـ روعى فيه نسبته إلى الخلاق العليم، وهم على حق فى وجهتهم، بيد أن من نظر فى الموجودات من حيث هى لا يسعه إلا أن يرى الشر ضاربا بجرانه باسطا لسلطانه: تأمل ذلك فى قوله تعالى: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ»

صورة من صور الخير

فى رأى الامام على كرم الله وجهه

قال: إنه ليس شىء بشر من الشر الا عقابه، وليس شىء بخير من الخير إلا ثوابه، وكل شىء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وكل شىء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه، فليكفكم من العيان السماع، ومن الغيب الخبر، واعلموا أن ما نقص

من الدنيا وزاد فى الآخرة خيرمما نقص فى الآخرة وزاد فى الدنيا: فكم من منقوص رابح ومزيد خاسر. إن الذى أمرتم به أوسع من الذى نهيتم عنه، وما أحل لكم أكثر مما حرم عليكم، فذروا ماقل لما كثر، وماضاق لما اتسع قد تكفل لكم بالرزق وأمرتم بالعمل. فلا يكونن المضمون لكم طلبه أولى بكم من المفروض عليكم عمله، مع أنه والله لقد اعترض الشك ودخل(١) اليقين حتى كأن الذى ضمن لكم قد فرض عليكم، وكأن الذى قد فرض عليكم قد وضع عنكم. فبادروا العمل وخافوا بغتة الأجل؛ فانه لا يرجى من رجعة العمر مايرجى من رجعة الرزق: مافات من الرزق رجى غدا زيادته، وما فات أمس من العمر لم يرج اليوم رجعته. الرجاء مع الجائى واليأس مع الماضى، فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

اجمال مافى دين الاسلام من وجوه الخير

إن حاجة الناس إلى الشريعة أكثر من حاجتهم إلى علم الطب: ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب، ولا يكون الطبيب إلا فى بعض المدن الجامعة. وأما أهل البدو كلهم وعامة بنى آدم فلا يحتاجون إلى طبيب، وهم أصح أبدانا وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب، ولعل أعمارهم متقاربة بل أعمار أصل البدو فى الغالب أطول وقد فطر الله بنى آدم على تناول ماينفعهم واجتناب ما يضرهم وجعل لكل قوم عادة وعرفا فى استخراج ما يهجم عليهم من الأدواء حتى إن كثيراً من أصول الطب إنما أخذت عن عادات الناس وعرفهم وتجاربهم فى حين أن الشريعة قائمة على بيان مواقع رضا الله وسخطه فى حركات العباد الاختيارية. وهذا مستمد من الوحى المحض الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. أضف إلى ذلك أن غاية مايقدّر فى عدم التنفس والطعام والشراب هو موت البدن وتعطل الروح عنه، وأما مايقدر عند عدم الشريعة ففساد العقل والخلق جملة، وفى هذا مسخ النفس وهلاك البدن، وشتان بين ذلك

(١) دخل كفرح: خالطه فساد الأوهام.

وهلاك البدن بالموت . من ذلك يتجلى أن الناس ليسوا قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والقيام به والدعوة إليه والصبر عليه ، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه ، وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة ، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسر .

على أن الشرائع كلها متفقة فى جوهرها وإن اختلفت فى مظهرها مركوز حسنها فى العقول ، ولو وقعت على غير ماهى عليه لخرجت عن الحكمة والمصلحة والرحمة ، بل من المحال أن تأتى بخلاف ماأتت به : (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) . وكيف يجوز ذو العقل أن ترد شريعة أحكم الحاكمين بضد ماوردت به : فالصلاة قد وضعت على أكمل الوجوه وأحسنها التى تَعَبَّدَ بها الخالق تبارك وتعالى عباده من تضمنها للتعظيم له بأنواع الجوارح : من نطق اللسان وعمل اليدين والرجلين والرأس وحواسه ، وسائر أجزاء البدن : كل يأخذ حظه من الحكمة فى هذه العبادة العظيمة المقدار مع أخذ الحواس الباطنة حظها منها ، وقيام القلب بواجب عبوديته فيها : فهى مشتملة على الثناء والحمد ، والتمجيد والتسبيح والتكبير وشهادة الحق ، والقيام بين يدى الرب مقام العبد الذليل الخاضع المدبر المربوب ، ثم التذلل له فى هذا المقام والتضرع والتقرب إليه بكلامه ، ثم انحناء الظهر ذلا له وخشوعا واستكانة ، ثم استوائه قائماً ليستعد لخضوع أكمل له من الخضوع الأول ، وهو السجود من قيام فيضع أشرف شيء فيه وهو وجهه على التراب خشوعا لربه واستكانة وخضوعاً لعظمته وذلا لعزته ، قد انكسر له قلبه وذل له جسمه وخشعت له جوارحه ، ثم ليستوى قاعداً يتضرع له ويتذلل بين يديه ويسأله من فضله ، ثم يعود إلى حالة من الذل والخشوع والاستكانة ، فلا يزال هذا دأبه حتى يقضى صلاته ، فيجلس عند إرادة الانصراف منها مثنياً على ربه مسلماً على نبيه وعلى عباده ، ثم

يصلى على رسوله ثم يسأل ربه من خيره وبره وفضله . فأى شيء بعد هذه العبادة من الحسن ؟ وأى كمال وراء هذا الكمال ؟ وأى عبودية أشرف من هذه العبودية ؟ فمن جوّزَ عقله أن ترد الشريعة بضدها من كل وجه فى القول والعمل ، وأنه لا فرق فى نفس الأمر بين هذه العبادة ، وبين ضدها من السخرية والسب والبطر والضحك والصفير وأنواع المجون وأمثال ذلك ـ فليضرب بعقله عرض الحائط وليسأل الله أن يهبه عقلا سواه .

وأما حسن الزكاة وما تضمنته من مواساة ذوى الحاجات والمسكنة والخلة من عباد الله الذين يعجزون عن إقامة نفوسهم ويخشى عليهم التلف إذا خلاهم الأغنياء وأنفسهم ، وما فيها من الرحمة والاحسان والبر ، وإيثار أهل الايثار والاتصاف بصفة الكرم والجود والفضل ، والخروج من سيماء أهل الشح والبخل والدناءة ـ فأمر لا يستريب عاقل فى حسنه وصلاحه ؛ وأن الآمر به أحكم الحاكمين . وليس يجوز فى العقل ولا فى الفطرة البتة أن ترد شريعة من الحكيم العليم بضد ذلك أبدا .

وأما الصوم فناهيك به من عبادة تكف النفس عن شهواتها وتخرجها عن شبه البهائم إلى شبه الملائكة المقربين ؛ فان النفس إذا خليت ودواعى شهواتها التحقت بعالم البهائم ، فاذا كفت شهواتها لله ضيقت مجارى الشيطان وصارت قريبة من الله بترك عادتها وشهواتها محبة له وإيثاراً لمرضاته ، وتقربا إليه ، فيدع الصائم أحب الأشياء إليه وأعظمها لصوقا بنفسه من الطعام والشراب من أجل ربه ، فهو عبادة لا تتصور حقيقتها إلا بترك الشهوة لله ، . فالصائم يدع طعامه وشرابه وشهواته من أجل ربه ، وهذا معنى كون الصوم له تبارك وتعالى . وبهذا فسر النبى صلى الله عليه وسلم هذه الاضافة فى الحديث فقال : (يَقُولُ اللهُ تَعالَى كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعِفُ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أمْثَالِهَا قالَ اللهُ إلاّ الصَّوْمَ فإنَّهُ لِى وَأنا أجْزِى بِهِ ، يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَرابَهُ مِنْ أجْلِى) وأى حسن يزيد على حسن هذه العبادة التى تكسر الشهوة وتقمع النفس ، وتحيى القلب وتشرحه وتزهد فى الدنيا وشهواتها ،

وترغب فيما عند الله ، وتذكر الأغنياء بشأن المساكين وأحوالهم ، وأنهم قد أخذوا نصيبا من عيشهم ، فتعطف قلوبهم عليهم ، ويعلمون ماهم فيه من نعم الله ، فيزدادون له شكرا .

وبالجملة فعون الصوم على تقوى الله أمر مشهور : فما استعان أحد على تقوى الله وحفظ حدوده واجتناب محارمه بمثل الصوم ؛ فهو شاهد لمن شرعه وأمر به بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، وأنه إنما شرعه إحسانا إلى عباده ورحمة بهم ولطفاً ، لابخلا عليهم برزقه ولا مجرد تكليف وتعذيب خالٍ من الحكمة والمصلحة ، بل هو غاية الحكمة والرحمة والمصلحة ، وأنَّ شَرْع هذه العبادات لهم من تمام نعمته عليهم ورحمته بهم .

وأما الحج فشأن آخر لا يدركه إلا الحنفاء الذين ضربوا فى المحبة بسهم ، وشأنه أجل من أن تحيط به العبارة وهو خاصة هذا الدين الحنيف حتى قيل فى قوله تعالى : « حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ » أى حجاجا . وجعل الله بيته الحرام قياما للناس ، فهو عمود العالم الذى عليه بناؤه ، فلو ترك الناس كلهم الحج سنة لخرّت السماء على الأرض . هكذا قال ترجمان القرآن ابن عباس ، فالبيت الحرام قيام العالم فلا يزال قياما ما زال هذا البيت محجوجا . فالحج هو خاصة الحنيفية ، وسر قول العبد : لا إله إلا الله ؛ فإنه مؤسس على التوحيد المحض والمحبة الخالصة : وهو استزارة المحبوب لأحبابه ، ودعوتهم إلى بيته ومحل كرامته . ولهذا إذا دخلوا فى هذه العبادة فشعارهم لبيك اللهم لبيك — إجابة محب لدعوة حبيبه . ولهذا كان للتلبية موقع عند الله . وكلما أكثر العبد منها كان أحب إلى ربه وأحظى ؛ فهو لا يملك نفسه أن يقول : لبيك لبيك حتى ليقطع نفسه .

وأما أسرار ما فى هذه العبادة : من الإحرام ، وكشف الرأس ، ونزع الثياب المعتادة ، والطواف ، والوقوف بعرفة ، ورمى الجمار ، وسائر شعائر الحج — فما شهدت بحسنه العقول السليمة والفطر المستقيمة ، وقد علمت بأن الذى شرع هذه لاحكمة فوق حكمته .

وأما الجهاد فناهيك به من عبادة هى سنام العبادات وذروتها ، وهو المحك والدليل المفرق بين المحب والمدعى : فالمحب قد بذل مهجته وماله لربه وإلهه متقربا إليه يبذل أعزّ ما بحضرته ، يودّ لو أن له بكل شعرة نفسا يبذلها فى حبه ومرضاته ، ويود أن لو قتل فيه ثم أحيي ، ثم قتل ثم أحيي ، ثم قتل . فهو يفدى بنفسه حبيبه وعبده ورسوله ولسان حاله يقول :

يفديك بالنفس صب لو يكون له * أعز من نفسه شيء فداك به

فهو قد سلم نفسه وماله لمشتريها ، وعلم أنه لاسبيل إلى أخذ السلعة إلا ببذل ثمنها : « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » (سورة التوبة) وإذا كان من المعلوم المستقر عند الخلق ـ أن علامة المحبة الصحيحة بذل الروح والمال فى مرضاة المحبوب ـ فالمحبوب الحق الذى لا تنبغى المحبة إلاّ له ، وكل محبة سوى محبته باطلة ـ أولى بأن يشرع لعباده الجهاد الذى هو غاية مايتقربون به إلى إلههم وربهم. وكانت قرابين من قبلهم من الأمم فى ذبائحهم وقرابينهم تقديم أنفسهم للذبح فى الله مولاهم الحق . فأى حسن يزيد على حسن هذه العبادة ؟ ولهذا ادخرها اللهُ لأكمل الأنبياء وأكمل الأمم عقلا وتوحيداً ومحبة لله .

وأما الضحايا والهدايا فقربان إلى الخالق سبحانه تقوم مقام الفدية عن النفس المستحقة للتلف فدية وعوضا وقربانا إلى الله وتشبهاً بامام الحنفاء وإحياءً لسنته أن فدى الله ولده بالقربان ، فجعل ذلك فى ذريته باقيا أبدا .

وأما الايمان والنذور فعقود يعقدها العبد على نفسه يؤكد بها ما ألزم نفسه إياه من الأمور فهى تعظيم للخالق ولأسمائه ولحقه ، وأن تكون العقود به وله . وهذا غاية التعظيم ؛ فلا يعقد بغير اسمه ولا لغير القرب اليه ، بل إن حلف فباسمه تعظيما وتبجيلا وتوحيدا وإجلالا . وأن نذر فلله توحيداً وطاعة ومحبة وعبودية ، فيكون هو المعبود وحده والمستعان به وحده .

وأما المطاعم والمشارب والملابس فهى داخلة فيما يقيم الأبدان ويحفظها من الفساد والهلاك وفيما يعود ببقاء النوع الانسانى ليتم بذلك قوام الأجساد وحفظ النوع فيتحمل الأمانة التى عرضت على السموات والأرض ، ويقوى على حملها وأدائها ، ويتمكن من شكر مولى الانعام ومسديه . وفرّق فى هذه الأنواع بين المباح والمحظور والحسن والقبيح والضار والنافع والطيب والخبيث : فحرم منها القبيح والخبيث والضـار ، وأباح منها الحسن والطيب والنافع.

فمن غير المعقول أن يكون الدم والبول والرجيع مساويا للخبز والماء والفاكهة ونحوها ، وإنما الشارع فرّق بينهما فأباح هذا وحرّم هذا مع استواء الكل فى نفس الأمر ، وكذلك من غير المعقول أن يكون أخذ المـال بالبيع والهبة والوصية والميراث مساويا لأخذه بالقهر والغلبة والغصب والسرقة والجناية حتى يكون إباحة هذا وتحريم هذا راجعاً إلى محض الأمر والنهى المفرق بين المتماثلين . وكذلك الظلم والـكذب والزور والفواحش كيف يسوّغ عقل عاقل أنه لافرق قط فى نفس الأمر بين ذلك وبين العدل والاحسان والعفة والصيانة ، وإنما الشارع يحكم بإيجاب هذا وتحريم هذا .

حقاً لو عرض هذا على العقول السليمة التى لم تدنسها المفاسد بمباشرتها أو تعظيم أهلها وحسن الظن بهم ـ لكانت أشد إنكاراً له وشهادة ببطلانه من كثير من الضروريات . وهل ركب الله فى فطرة عاقل قط أن الاحسان والاساءة والصدق والـكذب والفجور والعفة والعدل والظلم وقتل النفوس وإيجادها بل السجود لله والصنم سواء فى نفس الأمر لافرق بينهما وإنما الفرق بينهما الأمر المجرد ؟ وأى جحد للضروريات أعظم من هذا ؟ وهل هذا إلا بمنزلة من يقول: إنه لافرق بين الرجيع والبول والدم والقىء وبين الخبز واللحم والمـاء والفاكهة والـكل سواء فى نفس الأمر وإنما الفرق بالعادات ؟ فأى فرق بين مدعى هذا الباطل وبين مدعى ذلك الباطل ؟ وهل هذا إلا بهت للعقل والحسّ والضرورة والشرع والحـكمة ؟ وإذا كان لامعنى عندهم للمعروف إلا ما أمر به فصار

معروفا بالأمر، ولا للمنكر إلا مانهى عنه فصار منكراً بنهيه - فأى معنى لقوله: «يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ». وهل حاصل ذلك زائد على أن يقال: يأمرهم بما يأمرهم به وينهاهم عما ينهاهم عنه، وهذا كلام ينزه عنه آحاد العقلاء. فضلا عن كلام رب العالمين. وهل دلت الآية إلا على أنه أمرهم بالمعروف الذى تعرفه العقول، وتقرّ بحسنه الفطر، فأمرهم بما هو معروف فى نفسه عند كل عقل سليم، ونهاهم عما هو منكر فى الطباع والعقول بحيث إذا عرض على العقول السليمة أنكرته أشد الانكار كما أن ما أمر به إذا عرض على العقل السليم قبله أعظم قبول، وشهد بحسنه كما قال بعض الأعراب وقد سئل بم عرفت أنه رسول الله فقال: ماأمر بشىء فقال العقل ليته ينهى عنه، ولا نهى عن شىء فقال ليته أمر به. فهذا الأعرابى أعرف بالله ودينه ورسوله من هؤلاء، وقد أقرّ عقله وفطرته بحسن ما أمر به وقبح مانهى عنه حتى عدّه من إعلام نبوته وشواهد رسالته، ولو كان سبب كونه معروفا ومنكراً هو الأمر المجرد - لم يكن فيه دليل، بل كان يطلب له الدليل من غيره. ومن سلك ذلك المسلك الباطل لم يمكنه أن يستدل على صحة نبوته بنفس دعوته ودينه.

ومعلوم أن نفس الدين الذى جاء به والملة التى دعا اليها من أعظم براهين صدقه وشواهد نبوته، ومن لم يُثْبِتْ لذلك صفات وجودية أوجبت حسنه وقبول العقول له، ولضده صفات أوجبت قبحه ونفور العقل عنه - فقد سد على نفسه باب الاستدلال بنفس الدعوة، وجعلها مستدلاً عليه فقط: تأمل قوله تعالى: «وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ» فهذا صريح فى أن الحلال كان طيباً قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثا قبل تحريمه. ولم يستفد طيب هذا، وخبث هذا من نفس الحل والتحريم لوجهين اثنين:

أحدهما أن هذا علم من أعلام نبوته التى احتج الله بها على أهل الكتاب. فقال: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي

التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم » فلو كان الطيب والخبيث إنما جاء من طريق التحريم والتحليل لم يكن فى ذلك دليل ؛ فانه بمنزلة أن يقال : يحل لهم ما يحل ويحرم عليهم ما يحرم . وهذا أيضاً باطل ؛ فانه لا فائدة فيه وهو الوجه الثانى . فثبت أنه أحل ما هو طيب فى نفسه قبل الحل فكساه باحلاله طيباً آخر فصار منشأ طيبه من الوجهين معا . فتأمل هذا الموضع حق التأمل يطلعك على أسرار الشريعة ويشرفك على محاسنها وكمالها وبهجتها وجلالها ، وأنه من الممتنع فى حكمة أحكم الحاكمين أن ترد بخلاف ما وردت به وأن الله تعالى يتنزه عن ذلك كما يتنزه عن سائر ما لا يليق به . وتأمل أيضاً قوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ » - تجد الدليل واضحا على أنها فواحش فى نفسها لا تستحسنها العقول ، فتعلق التحريم بها لفحشها ؛ فان ترتيب الحكم على الوصف المناسب المشتق يدل على أنه هو العلة المقتضية له ، وهذا دليل فى جميع هذه الآيات التى ذكرناها ، فدلّ على أنه حرمها لكونها فواحش ، وحرّم الخبيث لكونه خبيثاً ، وأمر بالمعروف لكونه معروفا ، والعلة يجب أن تغاير المعلول : فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهيا عنه ، وكونه خبيثا هو معنى كونه محرما - كانت العلة عين المعلول وهذا محال فتأمله .

وكذلك تحريم الاثم والبغى دليل على أن هذا وصف ثابت له قبل التحريم : ومن هذا قوله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً » فعلل النهى فى الموضعين بكون المنهى عنه فاحشة ولو كان سبب كونه فاحشة هو النهى لكان تعليلا للشىء بنفسه، ولكان بمنزلة أن يقال: لا تقربوا الزنا ، فانه يقول لكم : لا تقربوه ، أوفانه منهىّ عنه . وهذا محال من وجهين :

أحدهما : أنه يتضمن إخلاء الكلام من الفائدة ،

والثانى : أنه تعليل للنهى بالنهى .

ومن ذلك قوله تعالى :(ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » فأخبر الله تعالى أن ماقدمت أيديهم قبل البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة وأنه سبحانه لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بأنه لم يرسل اليهم رسولا ، ولم ينزل عليهم كتابا . فقطع هذه الحجة بارسال الرسول وإنزال الكتاب ؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وهذا صريح فى أن أعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة بحيث استحقوا بها المصيبة ، ولكنه سبحانه لايعذب إلا بعد إرسال الرسل وهذا هو فصل الخطاب .

عبادة الله حسنة فى ذاتها :

مما يدل على ذلك أيضا أنه سبحانه يحتج على فساد مذهب من عبد غيره بالأدلة العقلية التى تقبلها الفطر والعقول ، ويجعل ماركبه فى العقول من حسن عبادة الخالق وحده ، وقبح عبادة غيره من أعظم الأدلة على ذلك . وهذا فى القرآن أكثر من أن يذكر ههنا ، ولولا أنه مستقر فى العقول والفطر حسن عبادته وشكره ، وقبح عبادة غيره وترك شكره - ما احتج عليهم بذلك أصلا ، وإنما كانت الحجة فى مجرد الأمر : انظر إلى قوله تعالى : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » - تجد أنه سبحانه أمرهم بعبادته ، وذكر اسم الرب مضافا إليهم لمقتضى عبوديتهم لربهم ومالكهم . ثم ذكر ضروب إنعامه عليهم بإيجادهم وإيجاد من قبلهم ، وجعل الأرض فراشا لهم يمكنهم الاستقرار عليها والبناء والسكنى ، وجعل السماء بناء وسقفا فذكر أرض العالم وسقفه ، ثم ذكر إنزال مادة أقواتهم ولباسهم وثمارهم ؛ منبها بهذا على استقرار

حسن عبادة من هذا شأنه ومن تشكره الفطر والعقول ، وقُبْحِ الاشراك به وعبادة غيره . ومن هذا قوله تعالى حاكيا عن صاحب « يس » أنه قال : لقومه محتجا عليهم بما تقر به فطرهم وعقولهم : « وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » فتأمل هذا الخطاب تجد تحته أشرف معنى وأجله وهو أن كونه سبحانه فاطراً لعباده يقتضي عبادتهم له ، وأن من كان مفطورا مخلوقا فحقيق به أن يعبد فاطره وخالقه ، ولا سيما إذا كان مرده إليه فمبدؤه منه ومصيره إليه . وهذا يوجب عليه التفرغ لعبادته . ثم احتج عليهم بما تقر به عقولهم وفطرهم من قبح عبادة غيره ، وأنها أقبح شيء في العقل وأنكره فقال : « أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ »

أفلا تراه كيف لم يحتج عليهم بمجرد الأمر بل احتج عليهم بالعقل الصحيح ومقتضى الفطرة ؟ ومن هذا قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » فضرب لهم سبحانه مثلا من عقولهم يدلهم على قبح عبادتهم لغيره ، وان هذا أمر مستقر قبحه وهجنته في كل عقل وإن لم يرد به الشرع .

وهل في العقل أنكر وأقبح من عبادة من لو اجتمعوا كلهم لم يخلقوا ذبابا واحدا ؟ وإن يسلبهم الذباب شيئا لم يقدروا على الانتصار منه ، واستنقاذ ما سلبهم إياه مع تركهم عبادة الخلاق العليم القادر على كل شيء الذي ليس كمثله شيء . أفلا تراه كيف احتج عليهم بما ركبه في العقول من حسن عبادته وحده وقبح عبادة غيره ؟ وتأمل قوله تعالى : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ؟ » هذا مثل ضربه الله لمن عبده وحده فسلم

له ، ولمن عبد من دونه آلهة فهم شركاء فيه متشاكسون عسرون . فهل يستوى في العقول هذا وهذا ؟ وقد أكثر تعالى من هذه الأمثال ونوّعها مستدلا بها عى حسن شكره وعبادته وقبح عبادة غيره ولم يحتج عليهم بنفس الأمر بل بما ركبه فى عقولهم من الاقرار بذلك . وهذا كثير فى القرآن فمن تتبعه وجده : اقرأ قوله تعالى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً » فذكر توحيده وذكر المناهى التى نهاهم عنها والأوامر التى أمرهم بها ثم ختم الآية بقوله : « كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً » أى مخالفة هذه الأوامر وارتكاب هذه المناهى سيئة مكروهة لله . فتأمل قوله سيئه عند ربك مكروها : أى أنه سيء فى نفس الأمر عند الله حتى لولم يرد به تكليف لكان سيئه فى نفسه عند الله مكروها له . وكراهته سبحانه له لما هو عليه من الصفة التى اقتضت أن كرهه . ولو كان قبحه إنما هو مجرد النهى لم يكن مكروها لله ؛ إذ لا معنى للكراهة عندهم إلا كونه منهياً عنه فيعود قوله : كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً إلى معنى : كلُّ ذلك نُهى عنه عند ربك . ومعلوم أن هذا غير مراد من الآية .

والقرآن صريح فى أن هذا كله قبيح عند الله مكروه مبغض له وقع أو لم يقع ، وجعل سبحانه هذا البغض والقبح سبباً للنهى عنه ؛ ولهذا جعله علة وحكمة للأمر فتأمله ، والعلة غير المعلول .

وتدبر قوله تعالى : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » تجد الآية دالة على أن فى نفس الأمر قسطاً وأن الله سبحانه أنزل كتابه وأنزل الميزان وهو العدل ؛ ليقوم الناس بالقسط . فعلم أن فى نفس الأمر ماهو قسط وعدل حسن ومخالفته قبيحة ، وأن الكتاب والميزان نزلا لأجله . ومن ينفى الحسن والقبح يقول ليس فى نفس الأمر ماهو عدل حسن وإنما صار قسطاً وعدلا بالأمر فقط . ونحن لا ننكر

أن الأمر كساه حسناً وعدلا إلى حسنه وعدله فى نفسه ، فهو فى نفسه قسط حسن ، وكساه الأمر حسناً آخر يضاعف به كونه عدلا حسناً ، فصار ذلك ثابتاً له من الوجهين جميعا .

ومن هذا قوله تعالى : « وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ » فقوله : قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ـ دليل على أنها فى نفسها فحشاء ، وأن الله لا يأمر بما يكون كذلك ، وأنه يتعالى ويتقدس عنه . ولو كان كونه فاحشة إنما علم بالنهى خاصة كان بمنزلة أن يقال : إن الله لا يأمر بما ينهى عنه ، وهذا كلام يصان عنه آحاد العقلاء ، فكيف بكلام رب العالمين . ثم أكد سبحانه هذا الانكار بقوله : « قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ ، وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » فأخبر أنه يتعالى عن الأمر بالفحشاء بل أوامره كلها حسنة فى العقول مقبولة فى الفطر ؛ فانه أمر بالقسط لا بالجور ، وباقامة الوجوه له عند مساجده لا لغيره ، وبدعوته وحده مخلصين له الدين لا بالشرك . فهذا هو الذى يأمر به تعالى لا بالفحشاء ، أفلا تراه كيف يخبر بحسن ما يأمر به ويُحسّنه وينزه نفسه عن الأمر بضده وأنه لا يليق به تعالى ؟

ثم تأمل قوله تعالى : « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا » ـ تر أنه سبحانه بين حسن دين الاسلام وأنه لا شىء أحسن منه بأنه يتضمن إسلام الوجه لله وهو إخلاص القصـــد والتوجه والعمل له سبحانه ، والعبد مع ذلك محسن آت بكل حسن لا مرتكب للقبيح الذى يكرهه الله ، بل هو مخلص لربه محسن فى عبادته بما يحبه ويرضاه ، وهو مع ذلك متبع لملة إبراهيم فى محبته لله وحده وإخلاص الدين له ، وبذل النفس والمال فى مرضاته ومحبته.

ج وهذا احتجاج منه على أن دين الاسلام أحسن الأديان بما تضمنه مما تستحسنه

العقول ، وتشهد به الفطر ، وأنه قد بلغ الغاية القصوى فى درجات الحسن والكمال ، وهذا استدلال بغير الأمر المجرد ، بل هو دليل على أن ما كان كذلك فحقيق بأن يأمر به عباده ولا يرضى منهم سواه . ومثل هذا قوله تعالى : « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . فهذا تقرير لما ركب فى العقول والفطر ؛ لأنه لا قول للعبد أحسن من هذا القول . انظر إلى قوله تعالى : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » - لا تجد شيئاً أصرح من هذا ؛ فقد أخبر سبحانه أنه حرَّمه عليهم مع كونه طيباً فى نفسه ، فلولا أن طيبه أمر ثابت له بدون الأمر لم يكن ليجمع الطيب والتحريم ، وقد أخبر تعالى أنه حرم عليهم طيبات كانت حلالا عقوبة لهم فهذا تحريم عقوبة ، بخلاف التحريم على هذه الأمة فإنه تحريم صيانة وحماية ، ولا فرق عند النفاة بين الأمرين بل الكل سواء ؛ فانه سبحانه أمر عباده بما أمرهم به رحمة منه وإحساناً وإنعاماً عليهم ؛ لأن صلاحهم فى معاشهم وأبدانهم وأحوالهم وفى معادهم ومآلهم إنما هو بفعل ما أمروا به ، وهو فى ذلك بمنزلة الغذاء الذى لا قوام للبدن إلا به بل أعظم ، وليس بمجرد تكليف وابتلاء كما يظنه كثير من الناس ، ونهاهم عما نهاهم عنه صيانة ووقاية لهم ؛ إذ لا بقاء لصحتهم ولا حفظ لها إلا بهذه الوقاية ، فلم يأمرهم حاجة منه إليهم وهو الغنى الحميد ، ولا حرَّم عليهم ما حرَّم بُخلاً منه عليهم وهو الجواد الكريم ، بل أمره ونهيه عين حظهم وسعادتهم العاجلة والآجلة ، ومصدر أمره ونهيه رحمته الواسعة وبره وجوده وإحسانه وإنعامه ، فلا يسأل عما يفعل لكمال حكمته وعلمه ووقوع أفعاله على وفق المصلحة والرحمة والحكمة ، ثم اقرأ قوله تعالى : « أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ » -

تجد أنه تعالى أخبر بأن الحق لو اتبع أهواء العباد فجاء شرع الله ودينه بأهوائهم ـ لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، ومعلوم أن القائلين بنفي الحسن والقبح يجوّزون أن يرد شرع الله ودينه بأهواء العباد ، وأنه لافرق في نفس الأمر بين ماورد به وبين ماتقتضيه أهواؤهم إلا مجرد الأمر ، وأنه لو ورد بأهوائهم جاز وكان تعبداً وديناً . وهذه مخالفة صريحة للقرآن ، ومن المحال أن يتبع الحق أهواءهم ؛ إن أهواءهم مشتملة على قبح عظيم . ولو ورد الشرع به لفسد العالم أعلاه وأسفله ومابين ذلك ، وجلي أن هذا الفساد إنما يكون لقبح خلاف ماشرعه الله وأمر به ، ومنافاته لصلاح العالم علويه وسفليه ، وأن خراب العالم وفساده لازم لحصوله ولشرعه وأن كمال حكمة الله وكمال علمه ورحمته وربوبيته يأبى ذلك ويمنع منه . ومن يرى أن الجميع في نفس الأمر سواء يُجوِّز ورود التعبد بكل شيء سواء أكان من مقتضى أهوائهم أم خلافها . كذلك تفسد السموات والأرض : «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » أي لو كان في السموات والأرض آلهة تعبد غير الله لفسدتا وبطلتا ، ولم يقل أرباب ، بل قال: آلهة . والإله هو المعبود المألوه ، وهذا يدل على أنه من الممتنع المستحيل عقلا أن يشرع الله عبادة غيره أبدا ، وأنه لو كان معه معبود سواه لفسدت السموات والأرض . فقبح عبادة غيره قد استقر في الفطر والعقول وإن لم يرد بالنهي عنه شرع ، بل العقل يدل على أنه أقبح القبيح على الاطلاق وأنه من المحال أن يشرعه الله قط ، فصلاح العالم في أن يكون الله وحده هو المعبود وفساده وهلاكه في أن يعبد معه غيره ، ومحال أن يشرع لعباده مافيه فساد العالم وهلاكه بل هو المنزه عن ذلك .

مما تقدم يتبين ما يلى :

الخير :

الخير كلمة جامعة تتضمن من الأغراض أحسنها ، وتشمل ظاهر الأمور وباطنها ، وتنتظم أحسن صلات العبد بربه ، وتتسع لما طاب من معاملة الناس بعضهم بعضا ، وتقرر الحقوق الإنسانية .

والخير هدى الأمة المحمدية وقانونها . ووجهة الأوامر الشرعية ، ووشاح القضاة العادلين ، وسيرة الملوك الراشدين .

والمربون يمهدون الطريق إليه . ويدلون النشء عليه ، فيغترفون من مناهله العذبة . وهو مظهر الكرامة التى خص بها بنوآدم : فمنهم من لبسها ، ومنهم من خلع رداءها .

والمصلحون يسلكون بالناس مسالك الخير ، فيحالفهم الفَلَاحُ فى حاضرهم ومستقبلهم .

تنزل القوانين السماوية بماينشر الخير فى الناس ، وتصاغ النظم الوضعية لتقرير شىء من الخير ، ويدأب علماء الأخلاق ويسعى علماء النفس لتوطيد دعائم الفضيلة التى هى جانب من الخير ، وتقتتل الأمم ، وتتنازع الشعوب ، وتقوم الثورات ، وتعقد المؤتمرات الدولية لشىء من الخير : كدرك الحرية ، والتخلص من نير الاستعباد ، وتقليص ظل الطمع والجشع ، وإعلاء كلمة الإخاء والمساواة ، وإقرار الأمن فى نصابه .

ومن ضروب الخير التعاون على البر الذى وجه الله جل وعلا إليه النفوس بقوله : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى » (سورة المائدة)

ولئن وسم الناس جماعاتهم ومؤتمراتهم وأنديتهم ومساعيهم بميسم المساواة والإخاء والوفاء والإصلاح والطهارة وتقرير حقوق المستضعفين ونزع السلاح وحرية التجارة وخدمة الطب وكشف الآثار والاستكشاف

عن المجهولات وتشجيع الاختراع وإنهاض البحث الفنى والنشاط العلمى - فانما الخير قصدوا ، وفى البر دأبوا .

وإن المعارض الخاصة والعامة التى تتبارى الأمم فى إقامتها وتنويع أغراضها تتضمن الخير الكثير والنفع الشامل ، فهى مظهر من مظاهر الدعوة الاسلامية ، وسبيل من السبل التى سنها الإسلام لتقوية دعائم العمران : قال تعالى : «وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ» (سورة البقرة) «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ» (سورة التوبة) «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ» (سورة آل عمران) «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» (سورة النحل)

الخير : تلك الكلمة الطيبة التى مثلها كمثل دوحة طيبة فينانة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . فجذور الخير اعتقاد صحيح ، وإيمان متين ، ويقين يبدد ظلمات الشك والريبة ، واتباعٌ لأحسن القول ، وثباتٌ على الحق ، وخشيةٌ لله فى السر والعلن ، وحياءٌ يصدّ عما يشين ، وإحسانٌ تثمره مراقبة المولى جل وعلا بأن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

وجذعه ومساكُهُ الإخلاص . وفروعه المروءة ومكارمُ الأخلاق والاستقامة والطاعة والأريحيةُ ومراعاةُ حقوق الخالق والمخلوق ، وصلةُ ما أمر الله به أن يوصل ، والأمر بالمعروف والنهىُ عن المنكر ، والجهادُ فى سبيل الله ، ونشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة .

وثماره التوفيق والنجاح والمحبة والوئام ونجاة الأنفس والأموال ، واليُمن والبركة ، والسكينة والطمأنينة . وجنة عرضها السموات والأرض ، ورضوان من الله أكبر . فذلك شرف يقعد أهله مقاعد الذين أنعم الله عليهم

من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ومن قرأ طائفة من كلام الله سبحانه، وتذوق معانيها وظفر بجانب من كلام النبوة، وأدرك مراميه — علم علم اليقين أن نصوص الدين الإسلامي وضحت الشرور كبيرها وصغيرها، ظاهرها وخافيها، وخاصها وعامها، وأجملت وجوه الخير فيما يأتي: —

١ — التزام حدود الله والعمل على ترويج الفضيلة ومحاربة الرذيلة وإحياء السنة وإماتة البدعة مما فيه إرضاء الرحمن وإغضاب للشيطان.

٢ — جملة الوسائل التي تعد الفرد والجماعات لحياة صالحة.

٣ — تحقيق قوله تعالى: « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » (سورة القصص)

الشر

أما الشر أعاذنا الله منه وصدّ عنا دواعيه وجراثيمه — فسنتعرض لبيانه ووجهة الشريعة الإسلامية في تحديده حتى نتقيه، وندعو إلى تجنبه مَنْ كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ونكون من الذين عملوا بقول الله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » (سورة التحريم)

جعل الإسلام كل مفسدة تلحق الجسم والنفس والعقل والخلق والمال والشرف شراً، وأبان أن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله ما تولى ويُصْلِه جهنم وساءت مصيرا: « وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً » (سورة الإسراء)

وقضت حكمته جل وعلا أن يكون عمران الأرض والغلبة والسلطان فيها لمن تجافى عن الشر: « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » (سورة الأنبياء)

والشر معول العمران وسرطان الأمم والنذير بذهاب العزة والشوكة وحلول الهلكة والسخط قال تعالى: « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » (سورة هود) « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » (سورة هود) « وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » (سورة النحل)

ومن الشر عدم التزام الحكمة والرشاد، والتخبط في المعاملة، وتعطيل الإنسان مواهبه. قال تعالى: « إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ. وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ » (سورة الأنفال) « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » (سورة الحجر)

ومن الشر ظلم النفس وتركها وهواها تجعل لله أندادا، وتهيم في أودية من الشرك الظاهر والخفي: « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » (سورة لقمان) « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » (سورة هود)

ومبارزة الله بالمعاصي والتواكل، والخلود إلى البطالة والتفريق بين المتحابين، وأكل أموال الناس بالباطل، والكبر والخيلاء، والحسد وما إلى ذلك — مظاهر للشر وضروب من الآثام: قال تعالى: « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ

تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم » (سورة المائدة) « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » (سورة سبأ) « إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » (سورة لقمان) « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » (سورة المائدة) وإن نسيان الحى القيوم والاعتزاز بالثروة وعدم التضرع إلى الله والالتجاء إلى ساحته وتفويض الأمر إليه — أمور من الشر .

وإن قسوة القلب والاستهتار بالفضائل وقطع ما أمر الله به أن يوصل والخوض فى الأعراض وتضييع حقوق الخالق والمخلوق والغدر بالعهود والتفريط فى جنب الله — كل هذه من صميم الشر .

فللشر ألوان نلخصها فيما يأتى : —

(١) كل ما استقبحه الشرع ، ونفرت من عمله الطباع السليمة ، واسترذلته الأذواق المعتدلة ، وتجافت عنه الآراء الصائبة .

(٢) توجيه القوى الجسمية والعقلية إلى غير ما خلقت له : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (سورة الاسراء)

(٣) هو الخطط الشيطانية التى ترسمها الأهواء والشباك ، والفخاخ التى ينصبها الوسواس الخناس لزلل بنى آدم وسقوطهم : « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين .

فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ » (سورة الحشر)

(٤) الشر حرب الفضائل وإقلاق الضمائر ومعول الراحة والاطمئنان ولذة ساعة وألم دهر .

(٥) اتخاذ الهوى إلها واستعجال اللذات الفانية واستحباب العمى على الهدى : « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » (سورة الجاثية)

(٦) الشر هو التهلكة التى حذرنا الله أن نلق بأيدينا فيها لنسلم من العطب : « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » (سورة البقرة)

(٧) الشر حمى الله الذى من قاربه استهدف لأخطار كثيرة ، وفى الحديث الشريف : (أَلَا إِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ فِي الْأَرْضِ مَحَارِمُهُ)

(٨) هو تلك السبل المعوجة التى تحفها المخاوف وتكتنفها مظاهر الشقاء والتى عاقبتها الحسرة والندامة والخذلان والذم : « وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (سورة الأنعام)

رابطة الايمان بالخير وصلة الكفر بالشر

أبين مظهر للايمان أن يكون صاحبه للخير حليفا وخدنا ، وإن صحة الايمان خير محض . وكلما ذاق المرء حلاوة الايمان توجهت كل قواه إلى الخير ، وطرب لدواعيه ، وجد فى الأخذ بأسبابه والاعتصام بحبله ، وَجَعَله

شعاره ودثاره ، وجرى منه مجرى النفس ، وامتزج بقوله وفعله ، ولزمه لزوم من لا غنى له عنه طرفة عين . فالخير رمز المؤمنين الذين يخشون ربهم وأنشودة من رزقه الله الورع والتقوى . وقد كرم الله عباده المؤمنين وجعلهم أهلا لحمل أمانته ودعاهم إلى الخير وأهاب بهم إلى الفلاح واستباق الخيرات

وما دعا الله عباده المؤمنين إلى كثير من ضروب الخير وأساليب البر إلا لأنه خبير بقوة قلوبهم وحياة ضمائرهم واطمئنان نفوسهم ونفاذ أبصارهم وحرصهم على طاعة ربهم وتفانيهم فى مرضاته . قال تعالى :

« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ . ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا » (سورة النور) « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » (سورة الأنفال)

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (سورة المؤمنون)

« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا » (سورة الأحزاب)

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ » (سورة التوبة)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِ مَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » (سورة المائدة)

وقد جاء فى السنة ما يلى : —

(١) (لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ وَلَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا طَهُورَ لَهُ) رواه الطبرانى عن ابن عمر

(٢) (إِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن ابن عمر

(٣) (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا) رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى

(٤) (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن النعمان بن بشير

(٥) (إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا وَأَلْطَفَهُمْ بِأَهْلِهِ) رواه الترمذى والحاكم عن عائشة

(٦) (الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة

(٧) (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) رواه البخارى وغيره عن أنس بن مالك

(٨) (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ . وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ . وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة

(٩) (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ النَّحْلَةِ إِنْ أَكَلَتْ أَكَلَتْ طَيِّباً وَإِنْ وَضَعَتْ وَضَعَتْ طَيِّباً وَإِنْ وَقَعَتْ عَلَى عُودٍ نَخِرٍ لَمْ تَكْسِرْهُ . وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ سَبِيكَةِ الذَّهَبِ إِنْ نَفَخْتَ عَلَيْهَا احْمَرَّتْ وَإِنْ وُزِنَتْ لَمْ تَنْقُصْ)رواه البيهقى فى شعب الايمان عن ابن عمر

(١٠) (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي) رواه ابن حيان فى صحيحه عن عائشة

وقد دعا الله عمال الشر وحلفاء الشيطان وأعداء الخير بالفاسقين والمتكبرين والمنافقين والعادين والضالين والكفرة والفجرة والظالمين والمعتدين والمفسدين والنجس فى مواضع كثيرة من الكتاب الكريم . وما دعاهم بهذه الصفات ووسمهم بهذه السمات إلا لأنهم حرب على الفضيلة ، لا يقيمون للخير وزنا ، ولا يعرفون له فضلا ، فلا يُرجوْن لنصرة حقه وتأييده ، ولا يُؤمَّلُون لاصلاح ، فهؤلاء لهم من الجزاء ما وصف الله بقوله : (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » (سورة المائدة)

موازنة بين الخير والشر

الضد يظهر حسنه الضد ، والموازنة بين المتناقضات كعقد الصلة بين المتشابهات توضح المعنى وتبين الأغراض ، وفى كتاب الله سبحانه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أساليب قرن فيها بين الخير والشر وجمع فيها بين

مدح الأخيار وذم الأشرار ، لتكون البينة واضحة والحجة قائمة .

وفى ذلك تعريض وتشهير بحلفاء الشر وتكريم وإجلال لأهل الخير الذين أظهرت الآيات فوقهم ، وكشفت الأوصاف والموازنات فضلهم . وهاك طائفة من الموازنات :

الموازنات القرآنية

قال الله تعالى :

(١) « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ؟ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ » (سورة الأنعام)

(٢) « فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (سورة الأعراف)

(٣) « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (سورة الأعراف)

(٤) « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ . وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (سورة يونس)

(٥) « فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ .

وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ » (سورة هود)

(٦) « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا . ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » (سورة الكهف)

(٧) « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا . ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا » (سورة مريم)

(٨) « إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى » (سورة طه)

(٩) « فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » (سورة طه)

(١٠) « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون » (سورة السجدة)

(١١) « وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوي الأحياء ولا الأموات . إن الله يسمع من يشاء . وما أنت بمسمع من في القبور » (سورة فاطر)

(١٢) « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم (سورة محمد)

(١٣) « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً . لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ . وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ » (سورة الواقعة)

(١٤) « لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ . أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » (سورة الحشر)

(١٥) « أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (سورة الملك)

(١٦) « فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى » (سورة النازعات)

الموازنات النبوية

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) (إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ : فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ . وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ . وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً . وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ . وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً خَبِيثَةً) رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى

(٢) (الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالأُتْرُجَّةِ : طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ . وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالتَّمْرَةِ : طَعْمُهَا

طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا . وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالرَّيْحَانَةِ : رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ . وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ كَالْحَنْظَلَةِ: طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا) رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجة عن أبى موسى ورواه أبو داود عن أنس . وقال : مثل الفاجر : بدل المنافق

(٣) (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَخَامَةِ [١] الزَّرْعِ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَتْهَا فَإِذَا سَكَنَتِ اعْتَدَلَتْ وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يُكْفَأُ بِالْبَلَاءِ . وَمَثَلُ الْفَاجِرِ كَالْأَرْزَةِ [٢] صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللهُ تَعَالَى إِذَا شَاءَ) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة

(٤) (إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ . مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا . وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ . وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ . وَمَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ وَيَفْتَرِي الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا)

رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وصححه واللفظ له

(٥) عن سهل بن سعد رضى الله عنهما أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : (إِنَّ هَذَا الْخَيْرَ خَزَائِنُ وَلِتِلْكَ الْخَزَائِنِ مَفَاتِيحُ فَطُوبَى لِعَبْدٍ جَعَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ مِغْلَاقًا لِلشَّرِّ وَوَيْلٌ لِعَبْدٍ جَعَلَهُ اللهُ مِفْتَاحًا لِلشَّرِّ مِغْلَاقًا لِلْخَيْرِ) رواه ابن ماجة

---

(١) الخامة من الزرع : الطرية (٢) الأرزة : الصلبة

الخير طريق السلامة

ووسيلة الكرامة وسبب الرضا والقبول

قال الله تعالى :

(١) « إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ . وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ » (سورة البقرة)

(٢) « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ . وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ . وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ » (سورة البقرة)

(٣) « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (سورة الأنفال)

(٤) « وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ . إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » (سورة الأنبياء)

(٥) « وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا » (سورة المزمل)

وجوه الخير

للخير مظاهر تتجلى فى الاعتقاد ، وتبين فى العمل فى اطمئنان النفوس إلى عمل الصالحات وسلوكها سبل الرشاد . وإنا لذاكرون جوانب من الخير وأمثلة له مستقاة من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام . وليس فى الاستطاعة استيعاب كل تفاصيل الخير ومواضع البر فى عجالة كهذه . وقد قرر المصطفى عليه الصلاة والسلام قواعد الخير ، وأقام دعائمه فى بضع

وعشرين سنة ، وتحول الناس بالمواعظ وأحاديث الخير وأفانينه فى مدة رسالته الكريمة عليه الصلاة والسلام . وإن ما سنذكره مفتاح لبيان معنى الخير وشرح لبعض وجهاته وتقرير لقواعده التى تتلخص فى قوله تعالى :

« وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » (سورة الحشر)

« قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » (سورة يوسف)

« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » (سورة الأنعام)

وهاك وجوه الخير مفصلة :

الوجه الاول

الخير فى محبة الله والجهاد فى سبيله ، والشر فى ضد ذلك . قال الله تعالى :

(١) « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ » (سورة التوبة)

(٢) « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » (سورة التوبة)

(٣) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ؟ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا » (سورة التوبة)

(٤) « انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (سورة التوبة)

(٥) « لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ » (سورة التوبة)

(٦) « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » (سورة التوبة)

(٧) « مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ » (سورة التوبة)

(٨) « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ، لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ » (سورة الحج)

(٩) « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » (سورة العنكبوت)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(٢) (لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس

(٣) (مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْجِهَادَ إِلاَّ عَمَّهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالْعَذَابِ)

(٤) سأل ابن مسعود النبي صلى الله عليه وسلم : أيُّ العمل أحبُّ إلى الله عزَّ وَجلَّ قال : (الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا) قال : ثم أى ؟ قال : (ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ) قال : ثم أى ؟ قال : (الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى

الوجه الثانى

الخير فى صحة الاعتقاد وخلوه من الشرك

قال الله تعالى :

(١) « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ . وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّٰهِ » (سورة البقرة)

(٢) « إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ . وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً » (سورة النساء)

(٣) « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » (سورة التوبة)

(٤) « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الْأَرْضِ ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » (سورة يونس)

(٥) « إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ » (سورة يونس)

(٦) « وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ » (سورة يونس)

(٧) «يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه. ذلك الدين القيم» (سورة يوسف)

(٨) «وقالوا اتخذ الرحمن ولداً. لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً، إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً» (سورة مريم)

(٩) «ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به. وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين. يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه. ذلك هو الضلال البعيد» (سورة الحج)

(١٠) «إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون. والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون. والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون» (سورة المؤمنون)

(١١) «وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم» (سورة لقمان)

(١٢) «فاعبد الله مخلصاً له الدين. ألا لله الدين الخالص» (سورة الزمر)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) عن أبي هريرة: «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدق بما يقول فقد

كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة والحاكم وقال صحيح . وعن أنس :

(مَنْ أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا قَالَ فَقَدْ بَرِئَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَمَنْ أَتَاهُ غَيْرَ مُصَدِّقٍ لَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) رواه الطبرانى . والكاهن هو الذى يخبر عن الغيب

(٢) (الْعِيَافَةُ وَالطِّيَرَةُ وَالطَّرْقُ مِنَ الْجِبْتِ) رواه أبو داود والنسائى وابن حيان . والطيرة : التشاؤم . والعيافة : زجر الطير ، والطَّرْقُ : الضرب بالحصى أو الودع ، والجِبْتُ : ماعبد من دون الله .

(٣) عن معاذ قال : كنت رِدف النبى صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له : عُفَيْرٌ . فقال : (يامُعَاذُ ، هَلْ تَدْرِى مَاحَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَمَاحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ ؟) قلت : الله ورسوله أعلم . قال :

(فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) فقلت يارسول الله ، أفلا أبشر به الناس ؟ قال : (لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا) رواه البخارى ومسلم وغيرهما

(٤) (لَا تُطْرُونِى كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا : عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ) رواه البخارى عن عمر

(٥) عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أُخْبِرُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ : (الْإِشْرَاكُ بِاللهِ) ثم قرأ : (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً) . (وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ) ثم قرأ : (أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىَّ الْمَصِيرُ) رواه البخارى ومسلم بنحوه عن أبى بكرة وعن ابن عمرو بن العاص وعن أنس

الوجـه الثالث

الخير فى الانفاق ابتغاء مرضاة الله ، والشر فى الامساك عن ذلك

قال الله تعالى :

(١) « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (سورة البقرة)

(٢) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ » (سورة البقرة)

(٣) « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (سورة البقرة)

(٤) « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ . فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ » (سورة البقرة)

(٥) « وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ » (سورة البقرة)

(٦) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » (سورة البقرة)

(٧) وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ » (سورة البقرة)

(٨) « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ . بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (سورة آل عمران)

(٩) « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ . هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » (سورة التوبة)

(١٠) « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » (سورة التوبة)

(١١) « وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (سورة التوبة)

(١٢) « إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ » (سورة التغابن)

(١٣) « وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ » (سورة المنافقين)

(١٤) « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا » (سورة الدهر)

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

(١) (عَلَيْكُمْ بِاصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهُ يَمْنَعُ مَصَارِعَ السُّوءِ . وَعَلَيْكُمْ بِصَدَقَةِ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُطْفِئُ غَضَبَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن عن أبى أمامة

(٢) (مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعاً أَقْرَعَ (١) لَهُ زَبِيبَتَانِ (٢) يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ (يعنى شدقيه) ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ ثم تلا هذه الآية: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ») (سورة آل عمران) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة

(٣) (حَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ وَدَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ) رواه أبو داود فى مراسيله عن الحسن البصرى

(٤) (مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً) رواه البخارى ومسلم وابن حبان عن أبى هريرة

(٥) (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا) رواه البخارى عن أبى هريرة

(٦) (الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ. وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ) رواه البخارى ومسلم وهذا لفظ البخارى

(٧) (خَيْرُ أَبْوَابِ الْبِرِّ الصَّدَقَةُ)

(٨) (خَصْلَتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ: الْبُخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد والترمذى عن أبى سعيد

(٩) (شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ) رواه البخارى فى التاريخ وأبو داود عن أبى هريرة

(١) أقرع: قوى السم فى رأسه فذهب شعره (٢) زبيبتان: هما زبدتان فى شدقيه

الوجه الرابع

الخير في الطاعة

من صميم الخير طاعة الله ورسوله ونصرتهما وإخلاص محبتهما ، وأعظم الشر الخروج عن طاعتهما :

الدليل من القرآن الكريم :

(١) « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » (سورة آل عمران)

(٢) « تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » (سورة النساء)

(٣) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » (سورة النساء)

(٤) « وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا » (سورة النساء)

(٥) « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » (سورة النساء)

(٦) « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » (سورة النساء)

(٧) « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ . فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ

المنكر ويحل لهم الطيبات. ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم. والأغلال التي كانت عليهم. فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » (سورة الأعراف)

(٨) « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار » (سورة التوبة)

(٩) « والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم. ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم » (سورة محمد)

(١٠) « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » (سورة محمد)

(١١) « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم » (سورة محمد)

(١٢) « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » (سورة محمد)

(١٣) « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها » (سورة الفتح)

(١٤) « وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم » (سورة الحجرات)

(١٥) « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (سورة الحشر)

الدليل من الأحاديث النبوية

(١) (ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ) رواه البخارى ومسلم عن أنس

(٢) (ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ . إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ . فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ) رواه مسلم عن أبى هريرة

(٣) (كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى) قالوا : يارسول الله ، ومن يأبى ؟ قال : (مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى) رواه البخارى عن أبى هريرة

(٤) عن أبى أيوب الأنصارى قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مرعوب ، فقال :

(أَطِيعُونِي مَا كُنْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ . وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ : أَحِلُّوا حَلاَلَهُ وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ) رواه الطبرانى فى الكبير ورواته ثقات

الوجه الخامس

حسن الظن بالله

حسن الظن بالله من أهم وجهات الخير ، والتوكل عليه عنوان الهدى وشر البرايا من أساء الظن بالله : فتوكل على غيره ، واعتمد على سواه .

الشواهد من القرآن الكريم :

(١) « قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا . هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » (سورة التوبة)

(٢) « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » (سورة التوبة)

(٣) « إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » (سورة هود)

(٤) « وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » (سورة يوسف)

(٥) « وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا . وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » (سورة إبراهيم)

(٦) « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (سورة الزمر)

(٧) « وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ »(سورة الفتح)

(٨) « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً » (سورة الفتح)

(٩) وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً » (سورة الطلاق)

الشواهد من الأحاديث النبوية :

(١) (لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه عن جابر بن عبدالله

(٢) (يَقُولُ اللهُ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي وَمَنْ

تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً . ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً وإذا أقبل إلى يمشي أقبلت إليه أهرول) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة

(٣) (لو أنكم توكلون على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم عن عمر

(٤) (إن حسن الظن بالله من عبادة الله) رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة ، ورواه أبو داود

(٥) (لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط (١) على بعيره وقد أضله بأرض فلاة) رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك

الوجه السادس

الاخلاص والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الاخلاص في القول والعمل ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ـ روح الخير

والشر حليف النفاق واطراح التناهي عن المنكر

قال الله تعالى :

(١) « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (سورة آل عمران)

(٢) « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً » (سورة النساء)

(١) سقط على بعيره : وجده

(٣) « يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَالاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ . وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً » (سورة النساء)

(٤) « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ . ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » (سورة المائدة)

(٥) « وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَاهُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ » (سورة التوبة)

(٦) « الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » (سورة التوبة)

(٧) « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ؛ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (سورة التوبة)

(٨) « فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَاوَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ » (سورة التوبة)

(٩) « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً . فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ؛ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » (سورة التوبة)

(١٠) « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (سورة يونس)

(١١) «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ أَلاَ لِلهِ الدِّينُ الخَالِصُ» (سورة الزمر)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) (لاَ يَقْبَلُ اللهُ عَمَلاً فِيهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ رِيَاءٍ) رواه ابن جرير الطبرى مرسلا عن القاسم بن مخيمرة

(٢) (مَنْ صَامَ رِيَاءً فَقَدْ أَشْرَكَ. وَمَنْ تَصَدَّقَ رِيَاءً فَقَدْ أَشْرَكَ) رواه البيهق عن شداد بن أوس

(٣) عن أبى موسى الأشعرى قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال: (يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ) فقال له من شاء أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل؟ قال: (قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئاً نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لاَ نَعْلَمُهُ) رواه أحمد والطبرانى

(٤) (طُوبَى لِلْمُخْلِصِينَ: أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى تَنْجَلِي عَنْهُمْ كُلُّ فِتْنَةٍ ظَلْمَاءَ) رواه أبو نعيم فى الحلية عن ثوبان

(٥) (تَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ) رواه أحمد والبخارى ومالك ومسلم عن أبى هريرة.

(٦) (مَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ) رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن.

(٧) (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة عن أبى سعيد.

(٨) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: (عَلَى كُلِّ مِيسَمٍ (١) مِنَ الإِنْسَانِ صَلاَةٌ كُلَّ يَوْمٍ) فقال رجل من القوم: هذا من أشد ما أنبأتنا به. قال: (أَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَلاَةٌ. وَحَمْلُكَ عَلَى الضَّعِيفِ صَلاَةٌ وَإِنْحَاؤُكَ الْقَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَلاَةٌ. وَكُلُّ خَطْوَةٍ تَخْطُوهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَلاَةٌ) رواه ابن خزيمة فى صحيحه

(٩) (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ: لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَاباً مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ) رواه الترمذى عن حذيفة وقال: حديث حسن غريب

(١٠) وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: يأيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية:

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ »

وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ) رواه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح، وابن ماجة والنسائى وابن حبان

(١١) (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا وَيَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ) رواه أحمد والترمذى وابن حبان عن أبى عباس

(١٢) (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ) فقالوا: يارسول الله مالنا بُدٌّ، إنما هى مجالسنا نتحدث فيها. قال: (فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ) قالوا: وما حق الطريق يارسول الله؟ قال: (غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلاَمِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود عن أبى سعيد

(١) فسر الميسم بالعضو الموسوم بصنع الله

الوجه السابع

الأمانة والوفاء بالوعد

منَ الخيرِ حفظُ العهودِ وأداء الأمانات . والغدرُ وعدمُ الوفاء وخيانةُ الحقوق مظاهرُ للشر .

قال الله تعالى :

(١) « إنَّ اللهَ يأمرُكم أنْ تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلِها وإذا حكمتمْ بينَ النَّاسِ أنْ تحكُموا بالعدلِ إنَّ اللهَ نِعِمَّا يعظُكُمْ بِهِ » (سورة النساء)

(٢) « يا أيُّها الذين آمنوا أوفوا بالعقودِ أُحِلَّتْ لكُمْ بهيمةُ الأنعامِ إلاَّ ما يُتلى عليكُمْ غيرَ مُحِلِّي الصيدِ وأنتمْ حُرُمٌ » (سورة المائدة)

(٣) « يا أيُّها الذين آمنوا لا تخونوا اللهَ والرَّسولَ وتخونوا أماناتِكُمْ » (سورة الأنفال)

(٤) « وإنْ نكثوا أيمانَهُمْ من بعدِ عهدِهِمْ وطعنوا في دينِكُمْ فقاتِلوا أئمَّةَ الكُفرِ إنَّهُمْ لا أيمانَ لَهُمْ لعلَّهُمْ ينتهونَ . ألا تقاتِلون قوماً نكثوا أيمانَهُمْ وهمُّوا بإخراجِ الرَّسولِ وهُمْ بدءوكُمْ أوَّلَ مرَّةٍ أتخشونَهُمْ ؟ فاللهُ أحقُّ أنْ تخشوْهُ إنْ كُنتُمْ مؤمنينَ » (سورة التوبة)

(٥) « وأوفوا بعهدِ اللهِ إذا عاهدتُمْ ولا تنقضوا الأيمانَ بعدَ توكيدِها وقدْ جعلتُمُ اللهَ عليكُمْ كفيلاً إنَّ اللهَ يعلمُ ما تفعلونَ » (سورة النحل)

(٦) « وأوفوا بالعهدِ إنَّ العهدَ كانَ مسؤولاً » (سورة الاسراء)

(٧) « واذكُرْ في الكتابِ إسمعيلَ إنَّهُ كانَ صادقَ الوعدِ وكانَ رسولاً نبيًّا » (سورة مريم)

(٨) « إنَّا عرضْنا الأمانةَ على السَّمواتِ والأرضِ والجبالِ فأبيْنَ أنْ

يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » (سورة الأحزاب)

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم:

(١) (أربع من كن فيه كان منافقا خالصاً . ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان . وإذا حدث كذب . وإذا عاهد غدر . وإذا خاصم فجر) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص

(٢) (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فقيل : هذه غدرة فلان بن فلان) رواه مسلم وغيره عن ابن عمر

(٣) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئس البطانة) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة

الوجه الثامن

الطهارة والنظافة

من الخير التزام الطهارة ، ومراعاة النظافة في الملبس والمأكل والمسكن، والشر في التجافي عن ذلك

قال الله تعالى :

(١) « ويسألونك عن المحيض . قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض . ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » (سورة البقرة)

(٢) « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين . وإن كنتم جنباً فاطهروا » (سورة المائدة)

(٣) «فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ» (سورة التوبة)

(٤) «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ» (سورة المدثر)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) (لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ وَلَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا طَهُورَ لَهُ) رواه الطبرانى عن ابن عمر

(٢) (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ . وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . وَالصَّلَاةُ نُورٌ . وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ . وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ . وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ . كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو : فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا) رواه مسلم عن أبى مالك الأشعرى

(٣) (مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طِيبِ امْرَأَتِهِ - إِنْ كَانَ لَهَا - وَلَبِسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِهِ ثُمَّ لَمْ يَتَخَطَّ رِقَابَ النَّاسِ وَلَمْ يَلْغُ عَنِ الْمَوْعِظَةِ كَانَ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهُمَا ، وَمَنْ لَغَا وَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ كَانَتْ لَهُ ظُهْراً) رواه أبو داود وابن خزيمة فى صحيحه عن عبدالله بن عمرو بن العاص . وروى فى نحوه البخارى ومسلم عن غير واحد من الصحابة .

(٤) (إِنَّ الْغُسْلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لَيَسْتَلُّ الْخَطَايَا مِنْ أُصُولِ الشَّعْرِ اسْتِلَالاً) رواه الطبرانى فى الكبير ورواته ثقات عن أبى أمامة

(٥) عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَ : الْبِرَازَ فِي الْمَوَارِدِ . وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ . وَالظِّلِّ) رواه أبو داود وابن ماجة وقال أبو داود : هو مرسل

(٦) عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم : (أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الرَّاكِدِ) رواه مسلم وابن ماجة والنسائى

(٧) تَسَوَّكُوا، فَإِنَّ السِّوَاكَ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ. مَا جَاءَنِي جِبْرِيلُ إِلاَّ أَوْصَانِي بِالسِّوَاكِ. حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيَّ وَعَلَى أُمَّتِي وَلَوْلاَ أَنِّي أَخَافُ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَفَرَضْتُهُ عَلَيْهِمْ. وَإِنِّي لَأَسْتَاكُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أُحْفِيَ مَقَادِمَ فَمِي) رواه ابن ماجة من طريق على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة وقال أحمد وابن حبان ثقة.

الوجه التاسع

العـــدل

مراعاة العدل فى المعاملة والأحكام من أمارات الخير. والظلمُ شر كله وظلمات بعضها فوق بعض. مستند ذلك من القرآن الكريم:

قال الله تعـالى:

(١) «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً» (سورة النساء)

(٢) «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا» (سورة يونس)

(٣) «فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ» (سورة يونس)

(٤) «وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ» (سورة إبراهيم)

(٥) «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ» (سورة النحل)

(٦) «فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا

وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ » (سورة الحج)

(٧) « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً » (سورة الفرقان)

(٨) « أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » (سورة الشعراء)

(٩) « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا » (سورة النمل)

(١٠) « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ؟ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا : لاَ تَخَفْ . خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ . فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ . وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ » (سورة ص)

ومستند ذلك من الحديث الشريف:

(١) « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ : الْإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ . وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللهَ . وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ أَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة

(٢) (اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ) رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس فى حديث بعث معاذ إلى اليمن

(٣) (مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ) رواه البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة

(٤) خطب النبى صلى عليه وسلم فقال : (يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ فِيهِمْ تَرَكُوهُ . وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ

أقاموا عليه الحد . وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن عائشة فى حديث المخزومية التى سرقت فشفع فيها أسامة بن زيد

(٥) (اتقوا الظلم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة . واتقوا الشح ؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) رواه مسلم وغيره عن جابر

(٦) (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه . ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة) رواه البخارى ومسلم وأبو داود عن ابن عمر

(٧) وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أتدرون من المفلس ؟) قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : (إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا . فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته . فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار) رواه مسلم

(٨) (المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره . التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، ويشير إلى صدره . بحسب امرىء من الشر أن يحتقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وعرضه ، وماله) رواه مسلم وغيره عن أبى هريرة .

(٩) (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها ؛ فإنه ليس ثم

دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ) رواه البخارى عن أبى هريرة

الوجه العاشر

الصبر

الصبر على المكاره وعن الشهوات ، وقوة الايمان ، والثبات على المبدأ الحق - أمور من الخير بمكان . والجزع والهلع وخور العزائم ، وضعف الايمان ، واضطراب العقيدة - شر كلها ، وإلى الشر مرجعها .

تأمل قوله تعالى :

(١) « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » (سورة البقرة)

(٢) لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » (سورة البقرة)

(٣) « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ » (سورة البقرة)

(٤) « وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » (سورة يونس)

(٥) « إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » (سورة هود)

(٦) « وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ » (سورة الرعد)

(٧) « وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ . وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » (سورة النحل)

(٨) « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » (سورة الحج)

(٩) « أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً » (سورة الفرقان)

(١٠) « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » (سورة الروم)

(١١) « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » (سورة الشورى)

(١٢) « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ . وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ » (سورة الأحقاف)

وتدبر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) (الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى) رواه البخارى ومسلم عن أنس فى قصة المرأة التى مر عليها تبكى عند القبر .

(٢) وأخرج الشيخان أن بنتا له عليه السلام أرسلت إليه تخبره أن ابنها فى الموت ، فقال صلى الله عليه وسلم للرسول : (ارْجِعْ إِلَيْهَا فَأَخْبِرْهَا أَنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى . وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ)

(٣) (مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ) رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد وأبى هريرة .

(٤) عن أنس رضى الله عنه قال : مرّ النبى صلى الله عليه وسلم بامرأة تبكى عند قبر فقال : (اتَّقِى اللهَ وَاصْبِرِى) أخرجه الشيخان .

الوجه الحادى عشر

الاتحاد والتعاون

حياة الشعوب وخيرها فى الاتحاد . والتعاون على البر والتقوى من مظاهر الإيمان . وشر ما تبلى به الجماعات تفرق الكلمة ، وسريان داء التدابر والتباغض والتقاطع وتلك معاول العمران .

ما يؤيد ذلك من القرآن الكريم

قال الله تعالى :

(١) « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا . وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً » (سورة آل عمران)

(٢) « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » (سورة المائدة)

(٣) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » (سورة الأنفال)

(٤) « وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » (سورة الأنفال)

(٥) « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً » (سورة الفتح)

(٦) « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا » (سورة الحجرات)

وما يؤيد ذلك من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً) رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى

(٢) (لاَ تَدَابَرُوا وَلاَ تَقَاطَعُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً) رواه مالك والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن أنس

(٣) (لاَ تَخْتَلِفُوا ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا) رواه البخارى عن ابن مسعود

الوجه الثانى عشر

تحرى الحلال من الكسب

خير عيش وأهنؤه ما كان حلالا ، وأفضل كسب العبد ما جانب الحرام ، ومن طاب مطعمه وخلصت من حقوق الناس ثروته وبرىء من المظالم دَخْله فقد ظفر من الخير بحظ كبير . وشر مكاسب الدنيا الحرام ، وأكل أموال الناس بالباطل .

برهان ذلك من القرآن الكريم :

(١) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » (سورة البقرة)

(٢) « وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (سورة البقرة)

(٣) « الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » سورة البقرة

(٤) « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً » (سورة النساء)

(٥) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ » (سورة النساء)

(٦) « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ؟ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ » (سورة المائدة)

(٧) « الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ » (سورة المائدة)

(٨) « سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا » (سورة المائدة)

(٩) « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » (سورة الأعراف)

(١٠) « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ » (سورة الأعراف)

(١١) « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » (سورة المؤمنون)

وبرهان ذلك من الأحاديث النبوية :

(١) (الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ . فَمَنْ تَرَكَ

مَا شُبِّهَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ كَانَ لِمَا اسْتَبَانَ أَتْرَكَ . وَمَنِ اجْتَرَأَ عَلَى مَا يَشُكُّ فِيهِ مِنَ الْإِثْمِ أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَ مَا اسْتَبَانَ . وَالْمَعَاصِي حِمَى اللهِ مَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكْ أَنْ يُوَاقِعَهُ) رواه البخارى ومسلم وغيرهما بألفاظ مختلفة عن النعمان بن بشير .

(٢) (دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ) رواه الترمذى والنسائى وابن حبان عن الحسن بن على وقال الترمذى : حسن صحيح

(٣) (أَيُّمَا رَجُلٍ كَسَبَ مَالاً مِنْ حَلَالٍ فَأَطْعَمَ نَفْسَهُ أَوْ كَسَاهَا فَمَنْ دُونَهُ مِنْ خَلْقِ اللهِ فَإِنَّ لَهُ بِهِ زَكَاةً)

(٤) (يَا سَعْدُ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ : أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلُ أَرْبَعِينَ يَوْماً وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ) رواه الطبرانى فى الصغير عن ابن عباس

(٥) (طُوبَى لِمَنْ طَابَ كَسْبُهُ وَصَلُحَتْ سَرِيرَتُهُ وَكَرُمَتْ عَلَانِيَتُهُ وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ . طُوبَى لِمَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ) رواه الطبرانى عن نصيح العنسى عن ركب المصرى عن النبى ورواته إلى نصيح ثقات . وقد حسن هذا الحديث أبو عمر بن عبد البر وغيره

الوجه الثالث عشر

مراعاة الحقوق

من البر أن يرعى المرء حقوق والديه ، ويصل الرحم ويخفض جناحه لذوى القربى ويؤتيهم من فضله ، ويعامل جميع الناس بالحسنى . والشر فى قطع الرحم وعقوق الوالدين وجفاء الأهل والعشيرة والتفريط فى حقوقهم وحقوق غيرهم

دليل ذلك من القرآن الكريم :

(١) « الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » (سورة البقرة)

(٢) « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً » (سورة البقرة)

(٣) « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ . وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ » (سورة البقرة)

(٤) « وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً » (سورة النساء)

(٥) « وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ » (سورة النساء)

(٦) « وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ - أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ » (سورة الرعد)

(٧) «وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» (سورة الرعد)

(٨) «وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا» (سورة الاسراء)

(٩) «وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا» (سورة الاسراء)

(١٠) «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ» (سورة لقمان)

(١١) «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» (سورة الشورى)

(١٢) «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ» (سورة محمد)

(١٣) «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» (سورة التحريم)

ومن الأحاديث النبوية ما يلي:

(١) عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ (ثلاثاً)؟) قلنا: بلى يارسول الله. قال: (الْإِشْرَاكُ بِاللهِ. وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ) وكان متكئاً فجلس فقال: (أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ) فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. رواه البخاري ومسلم والترمذي

(٢) (مِنَ الكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ) قالوا : يارسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه؟قال:(نَعَمْ : يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ) رواه البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى عن عبدالله بن عمرو بن العاص

(٣) (ثَلَاثٌ لَا يَنْفَعُ مَعَهُنَّ عَمَلٌ : الشِّرْكُ بِاللهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَالفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ) رواه الطبرانى فى الكبير عن ثوبان

(٤) عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا اللهُ أَنَا الرَّحْمٰنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي . فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ) رواه أبو داود والترمذى من رواية ابنه أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عنه . قال الترمذى : حسن صحيح

(٥) عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ اتَّقُوا اللهَ وَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ ثَوَابٍ أَسْرَعَ مِنْ صِلَةِ رَحِمٍ وَإِيَّاكُمْ وَالْبَغْيَ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عُقُوبَةٍ أَسْرَعَ مِنْ عُقُوبَةِ بَغْيٍ . وَإِيَّاكُمْ وَعُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ ؛ فَإِنَّ رِيحَ الْجَنَّةِ يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَلْفِ عَامٍ . وَاللهِ لَا يَجِدُهَا عَاقٌّ وَلَا قَاطِعُ رَحِمٍ) رواه الطبرانى فى الأوسط

(٦) (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ . وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ . وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة

(٧) (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) رواه البخارى ومسلم عن أنس .

(٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله : من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال :

(أُمُّكَ) قال : ثم من ؟ قال : (أُمُّكَ) قال : ثم من ؟ قال : (أُمُّكَ) قال : ثم من ؟ قال: (أَبُوكَ) رواه البخاري ومسلم

(٩) (رِضَا اللهِ فِي رِضَا الْوَالِدِ وَسُخْطُ اللهِ فِي سُخْطِ الْوَالِدِ) رواه الترمذى عن عبد الله بن عمرو . ورجح وقفه وابن حيان والحاكم

(١٠) (الْكَبَائِرُ الإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ) رواه البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص

(١١) (إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ وَلاَ يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلاَّ الدُّعَاءُ . وَلاَ يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلاَّ الْبِرُّ)

(١٢) (لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِىءِ وَلٰكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا) رواه البخارى وأبو داود والترمذى عن ابن عمرو

(١٣) عن أبى أُسَيد مالك بن ربيد الساعدى رضى الله عنه قال : بينا نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يارسول الله هل بقى من بِرِّ أبوىَّ شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال: (نَعَمْ : الصَّلاَةُ عَلَيْهِمَا وَالاسْتِغْفَارُ لَهُمَا . وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا . وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لاَ تُوصَلُ إِلاَّ بِهِمَا وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا) رواه أبو داود وابن ماجة وابن حيان .

الوجه الرابع عشر

انتهاج أوساط الأمور

(١٤) كِلاَ طَرَفَى قَصْدِ الأمور ذميم . والخير وسط بين حالى الافراط والتفريط وأروح الأشياء وأدومها وأحمدها عاقبة ما كان الاعتدال رائدها . والتوسط قوامها . والشر قرين الغلو وحليف الإفراط والإسراف

برهان ذلك من القرآن الكريم :

(١) « يَأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ » (سورة النساء)

(٢) « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » (سورة الأعراف)

(٣) « وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً » (سورة الاسراء)

(٤) « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً » (سورة الفرقان)

(٥) « إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ » (سورة المؤمن)

(٦) « كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ » (سورة المؤمن)

ومن الأحاديث النبوية :

(١) سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : (أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ) رواه البخارى ومسلم ومالك عن عائشة

(٢) وقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل أوغل فى العبادة حتى غارت عيناه : (إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ إِنَّ الْمُنْبَتَّ لاَ أَرْضاً قَطَعَ وَلاَ ظَهْراً أَبْقَى) رواه النسائى عن أبى هريرة ، ورواه البخارى بمعناه

(٣) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : (مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلاَّ أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْماً : فَإِنْ كَانَ إِثْماً كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنْهُ . وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ إِنِ انْتُهِكَتْ حُرْمَةُ اللهِ فَيَنْتَقِمُ بِهَا لِلهِ) رواه البخارى ومسلم .

(٤) (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا

وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغُدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَىْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ) رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة . والغُدوة سير أول النهار ، والرَّوحة سير آخره ، والدُّلجة سير آخر الليل . ومعناه : استعينوا على طاعة الله بالأعمال فى وقت نشاطكم كالمسافر الماهر يسير فى هذه الأوقات ويستريح فى غيرها .

(٥) عن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَا مَلأَ آدَمِىٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَاعِلاً - فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ) رواه الترمذى وحسنه وابن ماجة وابن حيان فى صحيحه .

(٦) عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ أَحَداً عَمَلُهُ) قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : (وَلاَ أَنَا ، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِى اللهُ بِرَحْمَتِهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ) رواه أحمد والبيهقى

الوجه الخامس عشر

لين الجانب

الخير فى التواضع وطيب النفس وعدم التطاول على خلق الله ، والعجبُ شر الأمراض النفسية ، ودليل قسوة القلب وخلوه من خفقات الخير ، وصاحبه قد نفخ فى أوداجه الشيطان وورِم أنفُه فهو من حزبه :

« أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ »

ما يؤيد ذلك من آى الذكر الحكيم :

(١) « وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ » (سورة البقرة)

(٢) « إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً » (سورة النساء)

(٣) « إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ

السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ . وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ . لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » (سورة الاعراف)

(٤) « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا . وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً . وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ » (سورة الأعراف)

(٥) « فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ لَا جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ » (سورة النحل)

(٦) « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً » (سورة الاسراء)

(٧) « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً . يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » (سورة القصص)

(٨) « وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ . إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » (سورة لقمان)

(٩) « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً . اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » (سورة فاطر)

(١٠) « قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ .

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً (١) تَهْجُرُونَ » (سورة المؤمنون)

(١١) « وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ » (سورة المؤمن)

(١٢) « وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً » (سورة نوح)

ويؤيده من الأحاديث النبوية :

(١) (كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة والحاكم عن ابن عمر .

(٢) (إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلاَ يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجة

(٣) (لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ . فَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً وَنَعْلُهُ حَسَناً قَالَ : إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ . الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ) رواه مسلم والترمذي عن ابن مسعود . وبطر الحق : دفعه ورده . وغمط الناس : ازدراؤهم واحتقارهم .

(٤) (لاَ يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ) رواه مالك والبخاري ومسلم عن ابن عمر .

(٥) (مَا نَقَصَتِ الصَّدَقَةُ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزّاً وَمَا تَوَاضَعَ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ) رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة

(٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلاَ : الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي . فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ) رواه ابن ماجة وابن حبان في صحيحه

(٧) (بَيْنَمَا رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخُيَلاَءِ خُسِفَ بِهِ فَهُوَ

(١) السامر : اسم جمع للقوم يسمرون بالليل . والمراد هنا السمر بالطعن في القرآن

يَتَجَلْجَلُ فِى الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) رواه البخارى والنسائى وغيرهما عن ابن عمر . والتجلجل الغوص فى الأرض والنزول فيها .

الوجه السادس عشر

التزام الاستقامة

لا خير كالاستقامة والتزام خشية الله والتأدب معه والفرار من الآثام واتقاء المحارم . ومن يقرب الفاحشة وينشر المنكر فالغى زميله والشر دليله .

ماجاء فى معنى ذلك من آى الذكر الحكيم :

(١) « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ » (سورة المائدة)

(٢) « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (سورة الأعراف)

(٣) « فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ » (سورة هود)

(٤) « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » (سورة النحل)

(٥) « إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » (سورة النحل)

(٦) « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا . وَلَا تَقْتُلُوا

النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ » (سورة الاسراء)

(٧) « وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً » (سورة الاسراء)

(٨) « وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً . وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً . كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً » (سورة الاسراء)

(٩) « نَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً » (سورة مريم)

(١٠) « وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى » (سورة طه)

(١١) « أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » (سورة الشعراء)

(١٢) « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ » (سورة فصلت)

(١٣) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً . أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ » (سورة الحجرات)

(١٤) «وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ . هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ» (سورة القلم)

وبرهان ذلك من الحديث النبوى :

(١) (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ) قالوا : يارسول الله ، وما هن ؟ قال: (الشِّرْكُ بِاللهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّى يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة .

الموبقات : المهلكات

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ يَأْخُذُ عَنِّى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فَيَعْمَلَ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ ؟) فقال أبو هريرة قلت : أنا يارسول الله . فأخذ بيدى فعد خمسا فقال : (اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا ، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ) رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب وابن ماجة والبيهقى وغيرهما

(٣) (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ . وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَانَهَى اللهُ عَنْهُ) رواه أحمد وأبو يعلى عن أنس

(٤) (إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ ؛ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ . أَوْ قال : الْعُشْبَ) رواه أبو داود والبيهقى عن أنس

(٥) (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَنَافَسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا . وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا . وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمْ . الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ : لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ .

التَّقْوَى هَهُنَا (ويشير إلى صدره) . بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ . كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ ، وَعِرْضُهُ ، وَمَالُهُ) رواه مالك والبخارى ومسلم وأبوداود والترمذى عن أبى هريرة

(٦) (إِنَّ مِنْ أَرْبَى الرِّبَا الاسْتِطَالَةَ فِي عِرْضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ) رواه أبوداود عن سعيد بن زيد

(٧) (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ) القتات : النمام . رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن حذيفة

(٨) (لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا ؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ)

(٩) (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ) رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود

(١٠) عن أبى بكرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته فى حجة الوداع : (إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ؟) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

الوجه السابع عشر

التوبة والإنابة

من السعادة أن يلهم المرء الإنابة إذا أخطأ ، ويستغفر إذا أذنب . وخير عباد الله الأوابون . وشرهم المصرون . ومن كان ذا حظ من الخير وفير لم يبت على معصية قدر له الوقوع فيها إلا ريثما يغسل بالمتاب أثر الخطيئة ويمحو بالتوبة النصوح ما قد أسلف من الذنوب

ما يوضح ذلك من آى الذكر الحكيم :

(١) « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » (سورة البقرة)

(٢) « وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا . فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (سورة البقرة)

(٣) « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ؟ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ـ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » (سورة آل عمران)

(٤) « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » (سورة النساء)

(٥) « أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (سورة المائدة)

(٦) « فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (سورة التوبة)

(٧) « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَىِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ » (سورة هود)

(٨) « وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (سورة النور)

(٩) « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا . وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ

متابا » (سورة الفرقان)

(١٠) « وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ » (سورة الزمر)

(١١) « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (سورة الزمر)

(١٢) « حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ . ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ » (سورة المؤمن)

(١٣) « فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ » (سورة المؤمن)

(١٤) « وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » (سورة الشورى)

(١٥) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ : رَبَّنَا ، أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (سورة التحريم)

ما ورد فى ذلك من الأحاديث النبوية :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)

رواه مسلم والنسائى عن أبى موسى (بسط اليد : كناية عن قبول التوبة فى كل وقت).

(٢) (إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ[١]) رواه ابن ماجة والترمذى عن ابن عمر وقال : حديث حسن.

(٣) وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ . أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى . وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِى . وَاللهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ . وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً . وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً . وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَىَّ يَمْشِى أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة وهذا لفظ مسلم.

(٤) (اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا . وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) رواه الترمذى عن أبى معاذ بن جبل وقال : حديث حسن

(٥) (لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ السَّمَاءَ ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ » رواه ابن ماجة باسناد جيد

(٦) (كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ) رواه الترمذى وابن ماجة والحاكم عن أنس وقال الترمذى : غريب

(٧) (وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ) رواه مسلم وغيره.

الوجه الثامن عشر

التراحم والعطف

الخير رفيق حنان . والشرير فظ غليظ القلب منان. وأهم بواعث الخير

---

(١) يغرغر : يجود بنفسه عند الموت

فى الانسان أن يستشعر الشفقة ويسيل رقة وحنانا على كل بائس ، ويندفع بكل جوارحه إلى تخفيف ويلات المضطرين ، ومسح دموع اليتامى والمعوزين . والترفيه عمن عضهم الفقر بنابه ، وأناخ عليهم العوز بكلكله ، وطعنهم فى عزتهم وحولهم وجاههم .

ولا يُعنَى بالرفق بالحيوان ومواساة بنى الانسان إلا من كان للخير نصيراً . ولا يخفض للوالدين ومن إليهما جناح الذل من الرحمة إلا من طبع على الخير . وخير أنواع الشفقة بالمجموع الانسانى أن تقام الحدود ، وتنفذ الأحكام على المجرمين ، ويعامل بالقسط الأقربون والأبعدون :

تدبَّرْ قوله تعالى :

(١) « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ . وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ . وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ . وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » (سورة البقرة)

(٢) « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ . وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » (سورة آل عمران)

(٣) « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » (سورة التوبة)

(٤) « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » (سورة الشعراء)

(٥) « فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » (سورة الزمر)

(٦) « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » (سورة القلم)

(٧) « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ » (سورة الزلزال)

وتأمل قوله عليه الصلاة والسلام :

(١) عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْراً فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ . فَقَالَ : لَقَدْ بَلَغَ هذَا مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ بِي فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ . فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ) قالوا يارسول الله : وإن لنا فى البهائم لأجرا ؟ قال : (فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ) رواه البخارى ومسلم وغيرهما

(٢) (عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ) وفى رواية : (دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ) رواه البخارى وغيره عن أبى عمر

(٣) (ارْحَمُوا تُرْحَمُوا وَاغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ . وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) رواه الإمام أحمد بإسناد جيد .

وأقماع القول هم الذين يشبهون الأقماع والأقماع جمع قِمَع كضِلَع : شبَّه أسماع الذين يستمعون القول ولا يعونه فلا يحفظونه ولا يعملون به بالأقماع التى لا تبقى شيئاً مما يفرغ فيها .

(٤) (مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ لاَ يَرْحَمُهُ اللهُ) رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن جرير بن عبد الله البجلى

(٥) (أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هكَذَا) (قال) وأشار (بأصبعيه :

السبابة والوسطى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا) رواه البخارى وأبو داود والترمذى عن سهل بن سعد .

(٦) (أَطْعِمُوا الجَائِعَ . وَعُودُوا الْمَرِيضَ . وَفُكُّوا الْعَانِيَ) العانى الأسير.

(٧) (ثَلاثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : رَجُلٌ كَانَ لَهُ فَضْلُ مَاءٍ بِالطَّرِيقِ فَمَنَعَهُ مِنِ ابْنِ السَّبِيلِ ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَاماً لاَ يُبَايِعُهُ إِلاَّ لِدُنْيَا : فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا سَخِطَ . وَرَجُلٌ أَقَامَ سِلْعَتَهُ بَعْدَ الْعَصْرِ فَقَالَ : وَاللهِ الذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ لَقَدْ أَعْطَيْتُ بِهَا كَذَا وَكَذَا . فَصَدَّقَهُ رَجُلٌ ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ : « إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ») (سورة آل عمران) رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة .

(٨) (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرِ الْكَبِيرَ وَيَرْحَمِ الصَّغِيرَ وَيَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ) رواه أحمد والترمذى وابن حيان عن ابن عباس

(١٠) (مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ . وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح عن أبى الدرداء .

(١١) (إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ) رواه البخارى ومسلم عن عائشة

الوجه التاسع عشر
استشعار الحياء من الخير

من تسربل بسربال الحياء صان اللسان ، وعقل الجوارح عن الشهوات ، ولم يُرَ حيث نهاه الله ، وكان فى ميادين الخير سباقا .

والحياء خير كله : يصرع الميول الفاسدة ، ويغالب نزغات الشيطان ، ويورد صاحبه آمَنَ الموارد ، ويكسبه الحسنى وزيادة .

والشر لا ترتسم مظاهره إلا على الوجوه السمجة ، ولا تسكن دواعيه إلا قلوب الهمج الرعاع الذين عَرَوْا من حُلَلِ الحياء . وإذا تخلى الحياء عن إنسان سارع إلى الغواية ، وكان هدفا للمعاطب . ومن لا حياء فيه لا خير فيه : يجده الناس شتاما صخاباً سبابا غادرا مختالا جريئا على هتك الحرمات مقصرا فى حقوق الله ظالما قاسيا .

وقد قال بعض الحكماء : من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه . وقال بعض البلغاء : حياة الوجه بحيائه ، كما أن حياة الغرس بمائه . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من البكر فى خدرها .

ماورد فى بيان معنى الحياء من آى الذكر الحكيم :

(١) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَالاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ . وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً » (سورة النساء)

(٢) « لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً . إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً » (سورة النساء)

(٣) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ . وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا . فَإِذَا طَعِمْتُمْ

فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ . إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ » (سورة الأحزاب)

(٤) « إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » (سورة فاطر)

(٥) « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (سورة المجادلة)

(٦) « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا » (سورة نوح)

وما ورد فى الإشادة بفضيلة الحياء من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم :

(١) (مَا كَانَ الْفُحْشُ فِى شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ وَمَا كَانَ الْحَيَاءُ فِى شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ) رواه ابن ماجة والترمذى عن أنس

(٢) (إِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ ، وَالإِيمَانُ فِى الْجَنَّةِ . وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ ، وَالْجَفَاءُ فِى النَّارِ) رواه أحمد والترمذى وابن حبان ، وصححه الترمذى عن أبى هريرة .

(٣) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ) . قال . قلنا : يانبى الله ، إننا لنستحيي والحمد لله . قال : (لَيْسَ ذَلِكَ . وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى ، وَتَحْفَظَ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى ، وَتَذْكُرَ الْمَوْتَ وَالْبِلَى . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا . فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ) رواه الترمذى وصحح المنذرى وقفه على ابن مسعود ورواه الطبرانى مرفوعا عن عائشة .

(٤) وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ياعَائِشَةُ، لَوْ كانَ الْحَيَاءُ رَجُلاً لَكَانَ رَجُلاً صَالِحاً. وَلَوْ كَانَ الْفُحْشُ رَجُلاً لَكَانَ رَجُلاً سُوءاً) رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير.

(٥) (إنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقاً وَخُلُقُ الإسْلاَمِ الْحَيَاءُ) رواه مالك فى الموطأ

(٦) (الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمَانِ وَلاَ إيمَانَ لِمَنْ لاَحَيَاءَ لَهُ)

(٧) (الْحَيَاءُ لاَيَأْتِى إلاَّ بِخَيْرٍ) رواه البخارى ومسلم عن عمران ابن حصين

(٨) عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ الأُولَى - إذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَاشِئْتَ) رواه البخارى وأحمد وأبو داود وابن ماجة

الوجه العشرون

الاستزادة من العلم وطلب الحكمة

خير مايعلى قدر الانسان، ويجعله قريبا من الله قريبا من الناس - أن يكون للحكمة طالبا، وفى العلم النافع راغبا، وفى بحار المعارف سابحا. وإن أعلى مقامات البر أن يُرى المرء متفقها فى دينه، يذود عن محارم الله، ويكيد الشيطان وحزبه، بهداه يُقتدى، وبعظاته تنقشع ظلمات الشرور والآثام. وبحسن قيادته تصلح النفوس، وتستأهل كرامة ربها، وتفوز برضوانه.

والجهل شر كله: يورث الانسان تخبطا فى الحياة، ويسوق إلى طرق الغواية، ويطمس على القلوب. ولاخير فى سائر الناس بعد العالم والمتعلم.

تنويه القرآن الكريم بالعلم والحكمة:

(١) « يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً

كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ » (سورة البقرة)

(٢) « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ » (سورة آل عمران)

(٣) « وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ » (سورة النساء)

(٤) فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ . وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ . كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ . وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ » (سورة الأنعام)

(٥) « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ . لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا . وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا . وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا . أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ . أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » (سورة الأعراف)

(٦) « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً . فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » (سورة التوبة)

(٧) « مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ . هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ؟ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ » (سورة هود)

(٨) « أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ » (سورة الرعد)

(٩) « قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » (سورة الرعد)

(١٠) « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (سورة الأنبياء)

(١١) « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ » (سورة الأنبياء)

(١٢) « قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » (سورة النمل)

(١٣) « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » (سورة العنكبوت)

(١٤) « بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ » (سورة العنكبوت)

(١٥) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ » (سورة فاطر)

(١٦) « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ » (سورة فاطر)

(١٧) « وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ » (سورة ص)

(١٨) « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » (سورة الزمر)

(١٩) « قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ؟ » (سورة الزمر)

(٢٠) « خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » (سورة الرحمن)

(٢١) « يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » (سورة المجادلة)

إشادة الحديث النبوي بالعلم والحكمة :

(١) (لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق وآخر آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها) رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود .

(٢) قالت عائشة رضي الله عنها : (نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين)

(٣) (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن معاوية .

(٤) (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا) رواه البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص .

(٥) (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له) رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة

(٦) (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده . ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) رواه مسلم وأبو داود وغيرهما عن أبي هريرة .

(٧) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ،

وَالْبَحْثُ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمُهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلُهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لِأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، مَنَارُ سُبُلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهُوَ الْأَنِيسُ فِي الْوَحْشَةِ وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ وَالدَّلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالسِّلَاحُ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَالزَّيْنُ عِنْدَ الْأَخِلَّاءِ يَرْفَعُ اللهُ بِهِ أَقْوَامًا فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً قَائِمَةً تُقْتَصُّ آثَارُهُمْ وَيُقْتَدَى بِفِعَالِهِمْ وَيُنْتَهَى إِلَى رَأْيِهِمْ تَرْغَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي خُلَّتِهِمْ وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ وَحِيتَانُ الْبَحْرِ وَهَوَامُّهُ وَسِبَاعُ الْبَرِّ وَأَنْعَامُهُ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْجَهْلِ وَمَصَابِيحُ الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ. يَبْلُغُ الْعَبْدُ بِالْعِلْمِ مَنَازِلَ الْأَخْيَارِ وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، التَّفَكُّرُ فِيهِ يَعْدِلُ الصِّيَامَ، وَمُدَارَسَتُهُ تَعْدِلُ الْقِيَامَ. بِهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ. وَبِهِ يُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ. وَهُوَ إِمَامُ الْعَمَلِ. وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ. يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءُ وَيُحْرَمُهُ الْأَشْقِيَاءُ) رواه ابن عبد البر النمرى فى كتاب فضل العالم.

(١٠) (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَهُ وَعَلَّمَهُ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى.

الوجه الحادى والعشرون

الخير فى الحرب والسلم

كره الاسلام العدوان وإزهاق الأرواح بغير حق، وأخمد بأحكامه نار الغارات والحروب، وحال دون النفوس والمبالغة فى الانتقام: « وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً » (سورة الاسراء)

ولم يأذن فى الحرب إلا لنشر الفضائل واستئصال جراثيم الفساد والرذائل والدفاع عن الأوطان والذود دون العقيدة وتقرير دعائم الحرية والايمان والعزة وإعلاء كلمة التوحيد.

وما كانت الحروب الاسلامية الأولى إلا لنشر ألوية الخير وتخليص النفوس من أدران الوثنية، وتطهيرها من حمية الجاهلية وَعُنْجُهِيَّةِ البدو، وسلطان العادات المنكرة، وإخراجها من الظلمات إلى النور؛ فقد ظلم الناس أنفسهم باتخاذ الأصنام آلهة واتباع خطوات الشيطان. وضربوا فى مناحى الشر مضارب كانت خطرا على الاجتماع واطمئنان النفوس وسنة العمران ورقى بنى الانسان. فلما تقررت أصول الحق، ووضح الغى من الرشد - قرّت سيوف الهند فى أغمادها. وشهر المسلمون للاصلاح سيف القرآن، فكان سلاحا سلميا، داعيا إلى الخير، وناشرا السلم بين متبعيه

موقف القرآن الكريم من المحاربة والمسالمة:

(١) « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ » (سورة البقرة)

(٢) ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »
(سورة آل عمران)

(٣) « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » (سورة النساء)

(٤) « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (سورة الأنفال)

(٥) « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » (سورة الأنفال)

(٦) « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » (سورة الأنفال)

(٧) « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون »
(سورة الأنفال)

(٨) « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (سورة الأنفال)

(٩) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ؟ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ » (سورة التوبة)

(١٠) « انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (سورة التوبة)

(١١) « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »(سورة التوبة)

(١٢) « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ . وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا . وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ »(سورة الحج)

وموقف السنة النبوية منهما :

(١) (لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي مَنْخِرَيْ مُسْلِمٍ أَبَدًا) رواه الترمذى واللفظ له والنسائى والحاكم وصححه

(٢) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت : يارسول الله ، أىُّ الأعمال أفضل ؟ قال : (الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ) رواه البخارى ومسلم

(٣) (إِنَّ رَأْسَ هَذَا الْأَمْرِ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ

لهُ وأنّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ . وإنّ قوامَ هذا الأمرِ إقامُ الصلاةِ وإيتاءُ الزكاةِ . وإنّ ذروةَ السنامِ منهُ الجهادُ في سبيلِ اللهِ ؛ إنّما أُمِرتُ أنْ أُقاتِلَ النّاسَ حتّى يقيموا الصلاةَ ويؤتوا الزكاةَ ويشهدوا أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأنّ محمّداً عبدُهُ ورسولُهُ . فإذا فعلوا ذلكَ فقدِ اعتصموا وعصموا دماءَهُمْ وأموالَهُمْ إلاّ بحقِّها وحسابُهُمْ على اللهِ) رواه أحمد ، والترمذى وصححه ، والنسائى ، وابن ماجة عن معاذ من رواية أبى وائل

(٤) (ثلاثٌ حقٌّ على اللهِ عونُهُنّ : المجاهدُ في سبيلِ اللهِ ، والمكاتَبُ الّذي يريدُ الأداءَ ، والنّاكحُ الّذي يريدُ العفافَ) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح . وابن حيان والحاكم وصححه عن أبى هريرة

(٥) (اجتنبوا السبعَ الموبقاتِ) قيل : يارسول الله ، وما هن ؟ قال : الشِّرْكُ باللهِ والسِّحرُ وقتلُ النفسِ الّتي حرّمَ اللهُ إلاّ بالحقِّ وأكلُ مالِ اليتيمِ وأكلُ الرِّبا والتّولّي يومَ الزّحفِ وقذفُ المحصناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ) رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة

(٦) (مَنْ قتلَ معاهداً لمْ يرَحْ رائحةَ الجنّةِ وإنّ ريحَها يوجدُ منْ مسيرةِ أربعينَ عاماً) رواه أبو داود والنسائى عن أبى بكرة

الوجه الثانى والعشرون

تربية الأبناء

الأبناء هم خير متاع الدنيا ، والآباء مسئولون أمام الله سبحانه عن رعايتهم مطالبون بتهذيبهم وهدايتهم إلى الرشد ، وتسليحهم فى هذه الحياة بما يضمن لهم الفلاح . وخير ما يفعل الآباء لفلذات أكبادهم أن يخرجوهم من الظلمات إلى النور ، ويتعهدوهم بالتربية الصالحة ، وينشئوهم على مكارم الأخلاق والمعارف الصحيحة

وإن من أكبر الشرور أن يهمل الأب أمر تربية أبنائه وتثقيفهم ؛ إذ ذاك تسوء حالهم ، ويعمدون إلى ما كان لسلفهم من مجد باذخ فيهدمونه ، وتكون عاقبة أمرهم خسرا

والتبعه فى ذلك على الآباء لتفريطهم وسوء رعايتهم ؛ فكل راع مسئول عن رعيته .

ما يؤيد ذلك من آى الذكر الحكيم :

(١) « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » (سورة الشعراء)

(٢) « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » (سورة لقمان)

(٣) « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً » (سورة الأحزاب)

(٤) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » (سورة التحريم)

برهان ذلك من الأحاديث النبوية :

(١) (مَنْ كَانَتْ لَهُ ابْنَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ، وَرَبَّاهَا فَأَحْسَنَ تَرْبِيَتَهَا ، وَغَذَّاهَا فَأَحْسَنَ تَغْذِيَتَهَا ـ كَانَتْ لَهُ وِقَايَةً وَجُنَّةً مِنَ النَّارِ)

(٢) (مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَداً مِنْ نِحَلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ) رواه الترمذى عن أيوب بن موسى عن أبيه عن جده

(٣) (الْزَمُوا أَوْلَادَكُمْ وَأَحْسِنُوا أَدَبَهُمْ) رواه ابن ماجة عن ابن عباس

الوجه الثالث والعشرون

الخير فى الاتباع والشر فى الابتداع

كل خير فى اتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والتمسك بسنته وانتهاج طريقته ، وفى اتباع السلف الصالح فى أمور ديننا : من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين ؛ لأنهم شهدوا الاسلام فى عنفوان شبابه ، ونهلوا من مناهله أيام صفائه، وكانوا أحرص الناس على التمسك بالحنيفية السمحاء ، وأبعدهم عن ابتداع ، وأشدهم إكباراً لنصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وأهيبهم أن يحدثوا فى أمر الله ماليس منه ، وأقربهم إلى الفطرة . وَشَرُّ خلق الله أهل الابتداع الذين شوهوا جمال الاسلام ، وأصابوه بلوثات سرت فيه مسرى لعاب الأفاعى فى مسيل فرات ، أملتها أهواؤهم ، ونفثتها قرائحهم السقيمة وقلوبهم المريضة . وصاحب البدعة فى الدين أشد خطرا على الاسلام ممن يقترفون غيرها من الكبائر ؛ لأنه استحسن ما صار إليه ، واتخذ دينه هواه ، وشرع من الدين ما لم يأذن به الله ، ومرتكب الكبائر ربما لم يستحل ما أقدم عليه ، وكثيرا ما يستشعر الندم ويُنحِي باللائمة على نفسه . وقد تلحظه عناية الله ، ويحف به توفيقه ، فيتوب توبة نصوحا تَجُبُّ ما قبلها .

الآيات القرآنية المؤيدة لذلك :

(١) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » (سورة النساء)

(٢) « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » (سورة النساء)

(٣) «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً» (سورة النساء)

(٤) «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً» (سورة النساء)

(٥) «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ» (سورة الأنعام)

(٦) «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» (سورة الأنعام)

(٧) «قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» (سورة النور).

(٨) «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (سورة النور)

(٩) «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» (سورة الحشر)

الأحاديث النبوية المؤيدة لذلك :

(١) (إِيَّاكُمْ وَالْمُحْدَثَاتِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ ضَلَالَةٌ) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما عن العرباض بن سارية

(٢) (مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) رواه مسلم عن أنس

(٣) (لَا يَقْبَلُ اللهُ لِصَاحِبِ بِدْعَةٍ صَوْماً وَلَا صَلَاةً وَلَا حَجّاً وَلَا عُمْرَةً وَلَا جِهَاداً وَلَا صَرْفاً وَلَا عَدْلاً ، يَخْرُجُ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَخْرُجُ الشَّعْرُ مِنَ الْعَجِينِ) رواه ابن ماجة عن حذيفة

(٤) (الْاقْتِصَادُ فِي السُّنَّةِ أَحْسَنُ مِنَ الاجْتِهَادِ فِي الْبِدْعَةِ) رواه الحاكم موقوفا على ابن مسعود وقال : صحيح على شرط البخارى ومسلم

(٥) (مَنْ تَمَسَّكَ بِسُنَّتِي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتِي فَلَهُ أَجْرُ مِائَةِ شَهِيدٍ) رواه البيهقى عن ابن عباس

(٦) (أَطِيعُونِي مَا كُنْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ : أَحِلُّوا حَلَالَهُ وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ) رواه الطبرانى فى الكبير ورواته ثقات عن أبى أيوب

(٧) (إِنَّ اللهَ حَجَبَ التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حَتَّى يَدَعَ بِدْعَتَهُ) رواه الطبرانى عن أنس وإسناده حسن

(٨) عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : (كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ : صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ . وَيَقُولُ : بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَيَقْرِنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى . وَيَقُولُ : أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ تَعَالَى وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ . ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ . مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلِأَهْلِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْناً أَوْ ضَيَاعاً فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ) رواه مسلم

(٩) وَرَوَى الْحَاكِمُ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ خَطَبَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ : (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ وَلَكِنْ رَضِيَ أَنْ يُطَاعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا تَحَاقَرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَاحْذَرُوا . إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَداً : كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ)

(١٠) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : (قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا بُنَيَّ ، إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ

فَافْعَلْ ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي ، وَمَنْ أَحَبَّ سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ) رواه الترمذي ، وقال : حسن غريب

الوجه الرابع والعشرون

القناعة والتعفف

لا كنز كالقناعة ، ولا عاصم من الزلات كالتعفف ؛ فالقانع لم يدنس نفسه الحرص والشح ، ولم تفسد قلبه الأطماع الأشعبية ، ولم تملك الدنيا زمامه ، فتصرِّفه بكل وجه : إذا طلب أجمل فى الطلب ، وإذا ظفر بقليل من النعمة شكر ، وإذا حاولت عوامل التكاثر والجاه العريض وحب الظهور وعظم الثروة أن تخدعه وتستهويه بأينها بتاتا ؛ لتسلم له مروءته ، وينجو من المآزق والمخاطر ومواضع الذلة والمهانة : قال عمر رضى الله عنه :

إن الطمع فقر ، وإن اليأس غنى ، وإن من يئس مما عند الناس استغنى عنهم . وقال أيضاً :

ألا أخبركم بما أستحِلُّ من مال الله عز وجل ؟ : جلبابى لشتائى وقيظى ، وما يسعف من الراحلة لحجى وعمرتى ، وقوتى بعد ذلك كَقُوتِ رجل من من قريش : لست بأرفعهم ولا بأوضعهم . ووالله ما أدرى أيحل ذلك لى أم لا ؟

إشادة القرآن الكريم بفضل القناعة ومظاهرها :

(١) « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا » (سورة البقرة)

(٢) « وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ » (سورة النساء)

(٣) «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» (سورة الكهف)

(٤) «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا» (سورة الكهف)

(٥) «وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى. وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى» (سورة طه)

(٦) «وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» (سورة النور)

تنويه الحديث النبوى بخطر القناعة والتعفف :

(١) (لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ) رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة

(٢) (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَعَزَّ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ. وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ. وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) رواه ابن أبى الدنيا عن ابن عباس

(٣) (لَأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَتَصَدَّقَ مِنْهُ وَيَسْتَغْنِيَ بِهِ عَنِ النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ) رواه البخارى وابن ماجة وغيرهما عن أبى هريرة

(٤) (مَنْ سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يُغْنِيهِ فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ) قالوا يا رسول الله، وما يغنيه؟ قال: (مَا يُغَدِّيهِ أَوْ يُعَشِّيهِ) رواه أبو داود وابن حيان عن سهل بن الحنظلية

(٥) (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ) رواه البخارى عن المقدام بن معد يكرب

(٦) (إِيَّاكُمْ وَالطَّمَعَ ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الْفَقْرُ . وَإِيَّاكُمْ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ) رواه الطبرانى فى الأوسط عن جابر

الوجه الخامس والعشرون

إصلاح ذات البين

مما يدانى الصلاة والصوم فى الأجر ويفضل الصدقة إصلاح ذات البين ؛ فإن فيه حسما للشرور ، واستئصالا لجراثيم العداوة والبغضاء ، وإرجاعا لعلاقات الصفاء ، وروابط الاخاء . وإبقاء على حرمة الصلة ، ونشرا للأمن وتقوية للكلمة . فأقرب مايتقرب به العبد من ربه من أنواع البر ألا يسكت عن شقاق نجم بين إخوانه المسلمين دون أن يرجعهم إلى سابق الوداد .

والشرّ يوقد نار العداوة بين الناس ، ويضعف جانب الخير من النفوس ، فلا تبالى ما يصدع المجتمع فى وحدته ، ويعكر العلاقات من أسباب النزاع . وفى ترك النزاع يستفحل ، والخلاف يتسع — الاخفاق وذهابُ الريح والسلطان

ما يشير إلى ذلك من القرآن الكريم :

(١) « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً » (سورة النساء)

(٢) « لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ

إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً » (سورة النساء)

(٣) « وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً » (سورة النساء)

(٤) « فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (سورة الأنفال)

(٥) « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (سورة الحجرات)

(٦) « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ . فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » (سورة الحجرات)

الأحاديث النبوية الدالة على ذلك :

(١) (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ : إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ ؛ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ) رواه أبو داود والترمذى وابن حيان وصححه الترمذى عن أبى الدرداء

(٢) (الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ : إِنِ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ ، وَإِنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ)

(٣) (لَمْ يَكْذِبْ مَنْ نَمَّ بَيْنَ اثْنَيْنِ لِيُصْلِحَ) رواه أبو داود

(٤) عن أبى أيوب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَا أَبَا أَيُّوبَ ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ يُحِبُّهَا اللهُ وَرَسُولُهُ ؟ : تُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَبَاغَضُوا وَتَفَاسَدُوا) رواه الطبرانى والأصبهانى

(٥) (مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ النَّاسِ أَصْلَحَ اللهُ أَمْرَهُ وَأَعْطَاهُ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا عِتْقَ رَقَبَةٍ وَرَجَعَ مَغْفُوراً لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) رواه الأصبهانى وهو حديث غريب جدا عن أنس

الوجه السادس والعشرون

الصـــدق

الصدق مقدمة لجميع أنواع الخير ، وهادٍ إلى ضروب البر ، ورادع عن التلبس بباطل القول والعمل ، ومنج صاحبه من مواقف الخزى والعار ، ومورث أهله ثقة وكرامة وحسن أحدوثة ، ومراقبة لجانب الله سبحانه وتعالى . فهو عنوان الشرف فى الدنيا ، وجواز الرضا والقبول فى الآخرة ، وهو صيقل النفوس ، وجلاء الضمائر ، ودليل الشجاعة الأدبية والشهامة المحمدية .

والكذب - لا كان ولا كان المتدنسون به - أصل كل بلاء ، وسبب كل فساد ، يهدى إلى الفجور ، ويسوق إلى التمرد على القوانين وهتك الحرمات . وماذا يكون الشر إن لم يكن الكذب عماده ، وقوته وعتاده ، ووسائله وغاياته ؟

آيات كريمة فى امتداح الصدق وذم الكذب :

(١) « فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » (سورة آل عمران)

(٢) « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » (سورة التوبة)

(٣) « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (سورة النحل)

(٤) «وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً» (سورة الاسراء)

(٥) «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا» (سورة مريم)

(٦) «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا» (سورة مريم)

(٧) «وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً» (سورة الفرقان)

(٨) «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً» (سورة الأحزاب)

(٩) «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ» (سورة الزمر)

(١٠) «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ» (سورة الزمر)

(١١) «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ» (سورة الزمر)

(١٢) «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (سورة الصف)

(١٣) «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ» (سورة الحاقة)

الأحاديث النبوية المشيدة بمكانة الصدق والمزرية بالكذب :

(١) (صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَحْسِنْ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ وَقُلِ الْحَقَّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِكَ)

(٢) (أَقِمِ الصَّلَاةَ، وَأَدِّ الزَّكَاةَ، وَصُمْ رَمَضَانَ، وَحُجَّ الْبَيْتَ، وَاعْتَمِرْ، وَبِرَّ وَالِدَيْكَ، وَصِلْ رَحِمَكَ، وَاقْرِ الضَّيْفَ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَزُلْ مَعَ الْحَقِّ حَيْثُ زَالَ) رواه البخارى فى التاريخ والحاكم عن ابن عباس

(٣) (الصِّدْقُ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَالْبِرُّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ. وَالْكَذِبُ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَالْفُجُورُ يَهْدِي إِلَى النَّارِ) رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود

(٤) (دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَالْكَذِبَ رِيبَةٌ) رواه الترمذى عن الحسن بن على وقال: صحيح حسن

(٥) (تَحَرَّوُا الصِّدْقَ وَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنَّ الْهَلَكَةَ فِيهِ؛ فَإِنَّ فِيهِ النَّجَاةَ) رواه ابن أبى الدنيا عن منصور بن المعتمر مرسلا

(٦) (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ. وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ. وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة

(٧) (كَبُرَتْ خِيَانَةً أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدِيثاً هُوَ لَكَ مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ لَهُ كَاذِبٌ) رواه أحمد عن النواس بن سمعان

(٨) (التَّاجِرُ الصَّدُوقُ تَحْتَ ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) رواه الأصبهانى وغيره عن أنس

(٩) (إِنَّ أَطْيَبَ الْكَسْبِ كَسْبُ التُّجَّارِ الَّذِينَ إِذَا حَدَّثُوا لَمْ يَكْذِبُوا

وَإِذَا اؤْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا . وَإِذَا وَعَدُوا لَمْ يُخْلِفُوا . وَإِذَا اشْتَرَوْا لَمْ يَذُمُّوا ، وَإِذَا بَاعُوا لَمْ يَمْدَحُوا . وَإِذَا كَانَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَمْطُلُوا . وَإِذَا كَانَ لَهُمْ لَمْ يُعْسِرُوا[١]) رواه البيهقى والأصبهانى عن معاذ بن جبل

(١٠) (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً ، وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص

(١١) (وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ بِكَذِبٍ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ وَوَيْلٌ لَهُ وَوَيْلٌ لَهُ) رواه أحمد والترمذى وأبو داود والحاكم عن معاوية بن حيدة

(١٢) (كُلُّ خَصْلَةٍ يُطْبَعُ أَوْ يُطْوَى عَلَيْهَا الْمُسْلِمُ إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ) رواه أحمد عن أبى أمامة

(١٣) (مَا حَلَفَ حَالِفٌ بِاللهِ فَأَدْخَلَ فِيهَا مِثْلَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ إِلَّا كَانَتْ نُكْتَةً فِي قَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(١٤) (عَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ عُقْبَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكَذِبِ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ : الرَّجُلُ يَقُولُ الْقَوْلَ يُرِيدُ الْإِصْلَاحَ ، وَالرَّجُلُ يَقُولُ الْقَوْلَ فِي الْحَرْبِ ، وَالرَّجُلُ يُحَدِّثُ امْرَأَتَهُ وَالْمَرْأَةُ تُحَدِّثُ زَوْجَهَا) رواه أبو داود

---

(١) لم يعسروا : لم يطلبوا من الغريم الدين وهو مُعْسِر

الوجه السابع والعشرون

السخاء والبذل

من كان ندى الكف ، مبسوط اليدين بالعطاء ، متمسكا بأهداب السخاء بعيدا عن البخل وضروبه ، سليما من الشح وأمراضه — فأعظم به من خيرٍ كبير الثقة بالله ، طاهر النفس عف الضمير . والسخى معوان على الدهر غياث لليتامى عصمة للأرامل ، يصون ماء الوجوه أن يراق ، ويحيي ميت الرجاء ، ويشرح الصدور الحرجة من حسرتها ، ويريح قلوبا علقت به الآمال . وإن السخاء يهدى صاحبه إلى أنواع من البر مشكورة : فتجده للرحم وصولا ، وعلى الفقراء عطوفا ، وللملهوفين منجدا ونصيرا ، وإلى مناهل الخير سباقا ، وللزكاة مؤديا ، وفى سبيل الله مجاهدا .

والبخل شر كله ؛ لأن فيه تضييقا على النفس والأهل : يكسب القلوب قسوة ، ويجعل حياة صاحبه مرذولة ، تستجير من بقائه المروءة ، ويتربص به الناس الدوائر :

روى عن نافع قال : لقى يحي بن زكرياء عليه السلام إبليس ، فقال له : أخبرنى بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك . قال : أحب الناس إلىّ كل مؤمن بخيل ، وأبغض الناس إلىّ كل منافق سخىّ . قال : ولم ذلك ؟ قال : لأن السخاء خلق الله الأعظم ، فأخشى أن يطلع عليه فى بعض سخائه فيغفر له .

ما جاء فى ذلك من آى الذكر الحكيم :

(١) « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً » (سوره النساء)

(٢) « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » (سورة التوبة)

(٣) « فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » (سورة النحل)

(٤) « هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ » (سورة محمد)

(٥) « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (سورة الحشر)

(٦) « وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ : رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ » (سورة المنافقون)

(٧) « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا » (سورة الدهر)

(٨) « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى » (سورة الليل)

الأحاديث الكريمة

(١) (لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطِيَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَانِيًا ، وَلَوْ

أُعْطِيَ ثَانِياً أَحَبَّ ثَالِثاً ، وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ . وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ) رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس وابن عباس وابن الزبير وغيرهم

(٢) (أَرْبَعَةٌ مِنَ الشَّقَاءِ : جُمُودُ الْعَيْنِ ، وَقَسْوَةُ الْقَلْبِ ، وَطُولُ الأَمَلِ ، وَالْحِرْصُ عَلَى الدُّنْيَا) رواه ابن عدى وأبو نعيم فى الحلية عن أنس

(٣) (إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا . وَإِذَا كَانَتْ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاَءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ - فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا) رواه الترمذى عن أبى هريرة ، وقال: حديث غريب

(٤) (السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ . بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ . وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ . وَالْجَاهِلُ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ . وَأَدْوَى الدَّاءِ الْبُخْلُ) رواه الترمذى عن أبى هريرة

(٥) عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : (اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ) رواه مسلم وغيره

(٦) وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يَا عَلِيُّ ، كُنْ شُجَاعاً فَإِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَزَّ يُحِبُّ الشُّجَاعَ . يَا عَلِيُّ ، كُنْ سَخِيًّا فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ السَّخَاءَ . يَا عَلِيُّ ، كُنْ غَيُوراً ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الْغَيُورَ . يَا عَلِيُّ ، وَإِنْ سَائِلٌ سَأَلَكَ حَاجَةً لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ فَكُنْ أَنْتَ لَهَا أَهْلاً)

(٧) (تَجَافَوْا عَنْ ذَنْبِ السَّخِيِّ فَإِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَزَّ يَأْخُذُ بِيَدِهِ كُلَّمَا عَثَرَ) رواه ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ الأصبهانى عن ابن عباس وابن مسعود

موجز القول فى الخير

(أ) وجهة علماء الأخلاق الغربيين

يقولون : كل ما أفضى إلى نيل مأرب ، أو تحصيل رغبة ـ فهو الخير ، بيد أن الناس بما فطروا عليه من الاختلاف فى طبائعهم ونحائزهم ـ اختلفت مآربهم ، وتباينت رغباتهم ومشاربهم :

ففريق طبعوا على حب المال وجمعه ، فهو عندهم غاية الغايات .

وفريق فطروا على الحرية ومقت الاستعباد . فلا يبغون سوى أن يظلوا أحراراً كما أخرجهم الله إلى عالم الدنيا .

وفريق لا يرون فى الحياة لذة لغير القوة ، فهم يتهافتون على الاعتصام بها ولا يخطر ببالهم مقصد أنبل منها .

وفريق اهتُرُوا (١) بالشهرة وشغفوا ، فعكفوا على تحصيلها ، ووهبوا حياتهم للاستظلال بها .

وفريق أولعوا بالعلم وجمع شوارده ، حتى ملك عليهم سمعهم وبصرهم ، وأصبح جليسهم وسميرهم .

وآخرون أولعوا بالسعى فيما يعود على بنى الإنسان بضروب المنافع إلى غير ذلك من المقاصد التى لا حد لها .

وجلى أن هذه المقاصد ليست فى الواقع مقصودة لذاتها ، بل وسائل لغيرها : فلو أنك أسقطت طلاب المال أو القوة عن أسرارهم ، ووقفت على ما استحقبوه (٢) ـ لبان لك أنهم يطلبونها لمنفعة فيها ، ويعضون عليها بالنواجذ ؛ لأنها ذرائع إلى نيل مقاصد أخرى ، وهذه المقاصد الأخرى وسائل إلى أمور أخرى يتلوها غيرها حتى تنتهى إلى مقصد ليس وراءه

(١) أُهْتِرَ : أُولِعَ (٢) استحقبوه : أسرّوه

آخر : وذلك هو مايسمى الخير الأسمى . فالخير على ذلك ضربان :

خير مطلق : وهو واحد لا يتعدد وقل من يدركونه .

وخير نسبي : وهو يختلف على حسب اختلاف الناس فى استعدادهم وفطرهم . وكثير منهم يدركونه بأعمالهم وجهودهم .

(ب) الوجهة الاسلامية

يستخلص مما تقدم أن الخير عند الاسلام كل عمل صالح أو إحسان أو جميل أو معروف أو شىء نافع مفيد يسديه الانسان إلى أخيه الانسان ، بل إلى كل ذى كبد رطب حتى قال الحسن البصرى رضى الله عنه : « البَرُّ من لا يؤذى الذَّرّ » .

وضد الخير - الشر ، وصاحبه الشرير والفاجر : وهو من يرتكب الظلم والفساد ولا يألو جهدا فى إيصال الأذى والسوء إلى الآخرين .

والخير بهذا المعنى سبيل سلامة المجتمع الانسانى وراحته وطمأنينته ، وأجمل مظاهر الأخلاق الفاضلة فى الانسان . ولذلك قال بعض المؤلفين : إن موضوع علم الأخلاق هو فكرة الخير نفسها . وهذا ما جعل المربين يهتمون جد الاهتمام بغرس هذه الفكرة فى الأحداث وتنميتها فى قلوبهم وتعويدهم ممارسة الخير منذ الصغر .

ولما كان الناس ليسوا سواء فى غرس هذه الفكرة فيهم واستحكامها من نفوسهم ، وإنما هم فيها على مراتب ودرجات - وضع لها النبى صلى الله عليه وسلم ميزانا هو القسطاس المستقيم للقوانين الخلقية . وأصدقها فى محاكمة المرء لنفسه : ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى » وبه أصبحت درجة أى عمل كان ومنزلته من القبول والاعتبار تابعة لنية صاحبه وقصده وراجعة إلى كُنْه إرادته ومبلغها من الحسن والاعتدال : فمن وفى دائنه حقه بعد حكم حاكم كان فاعلا للخير فى الجملة ،

ولكن ليس هو فى فعله كمن وفى دينه دون حكم ولا مطالبة . ومن أنفق على نفسه ورفهها وسد حاجتها كان فاعلا للخير ، ولكن ليس هو كمن أنفق مع هذا على أهله وعياله وذوى قرابته . وليس من أنفق على هؤلاء فى الفضل والمزية كمن أضاف إلى ذلك الإنفاق على البعيد الذى لا تلزمه نفقته ، وإنما حمله عليها الأريحية ومحض الكرم ومطلق الارارة والاختيار .

ومن يدع الشر ويفعل الخير خوفا من تعيير الناس ومذمتهم له فما هو فى رسوخ هذه الفضيلة والتقدم والسبق كمن يمارس الخير لذات الخير وبسائق الوازع الذاتى والشعور بالواجب كخواص المتدينين وطبقة الأبرار والصديقين الذين يعملون الخير لذاته ، كما يعبدون ربهم سبحانه وتعالى لذاته ، ولكونه مستحق العبادة ، لا لرغبة فى جنته ولا لرهبة من ناره ، كما نقل التصريح بذلك عن كثيرين منهم رضى الله عنهم وقد قال قائلهم :

وأعبد الله لا أرجو مثوبته لكن تعبد إعظام وإجلال

وقد أشار إلى هذه الدرجه العالية فى التربية النفسية سيدنا عمر رضى الله عنه إذ قال فى حق سيدنا صهيب رضى الله عنه : « نعم العبد صهيب ؛ لو لم يخف الله لم يعصه » أى أنه لا يعصى ربه ولا يدع ما يجب عليه فعله وذلك بسائق من نفسه وفطرته ، حتى لو فرض أنه لا يخاف الله ولم يسمع إنذاره وتحذيره من العذاب ، فكيف وهو رضى الله عنه يخاف ربه ويتقى سخطه وعذابه . فصهيب رضى الله عنه بشهادة عمر مثال حسن للعاملين الذين يفعلون الخير لذاته ، وبسائق من وجدانهم وضميرهم وشعورهم بالواجب .

حقا إن فصل الخير من الشر والتميز بينهما أمر مركوز فى فطر البشر ، لا يضلون فيه إذا كانت فطرهم سليمة وأمزجتهم مستقيمة ، أما ممارسة الخير والقيام به فشاق على النفس يحتاج إلى تربية وعناية وتعويد منذ زمن الحداثة والصغر . وأحسن ماتراض به نفوس الناس بحيث يحملون على فعل الخير وترك الشر بسهولة واقتناع ـ العمل بما جاء عن سيد البشر فى هذا المعنى إذ يقول :

« ايتِ المَعْرُوفَ ، وَاجتَنِبِ المُنْكَرَ ، وَانْظُرْ مَا يُعجِبُ أُذُنَكَ أَنْ يَقُولَ لَكَ القَوْمُ إِذَا قُمْتَ مِنْ عِنْدِهِمْ فَأْتِهِ ، وَانْظُرِ الَّذِي تَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ لَكَ القَوْمُ إِذَا قُمْتَ مِنْ عِنْدِهِمْ فَاجْتَنِبْهُ »

« إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَذْكُرَ عُيُوبَ غَيْرِكَ فَاذْكُرْ عُيُوبَ نَفْسِكَ »

« أَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ »

« مَا كَرِهْتَ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ مِنْكَ فَلَا تَفْعَلْهُ بِنَفْسِكَ إِذَا خَلَوْتَ »

يشبه هذا من القرآن قوله تعالى :

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ »

ومن ذلك ماأشاربه صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن ضمير الانسان ووجدانه هو الحكم الفيصل فى معرفة الخير والشر والحق والباطل والتمييز بينهما إذ يقول : « اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ »

ومن ذلك إرشاده لنا صلى الله عليه وسلم إلى عمل الخير بجميع ضروبه حتى إذا عجزنا عن فعله بذواتنا أمكننا أن نمارسه بدلالة غيرنا عليه فقال : « الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ وَالدَّالُّ عَلَى الشَّرِّ كَفَاعِلِهِ » رواه الطبرانى عن سهل بن سعد

وهناك أحاديث تحض على فعل الخير وتعين بعض أنواعه وطرائقه : فمن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ صَدَقَةٌ فَعَمَلٌ بِيَدِهِ يَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ . قِيلَ : فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَالَ : يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ بِالْخَيْرِ ، قِيلَ : فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ، قَالَ : يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ ، قِيلَ : فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ ، قَالَ : يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ »

ذكره ابن سهل السامرى فى مكارم الأخلاق وهذا جلى فى أنه لامندوحة للانسان الكامل عن ممارسة الفضيلة وفعل الخير بأية طريقة ممكنة ، ولاعذر له فى الترك والاهمال .

هل رأيت نبلا أرقى وكرما أشمل مما حث عليه محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله : « الْفَضْلُ فى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِى مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ »

تأمل تجد أن كمال الانسانية وكرم الأخلاق فى أن تحسن إلى المسىء ، لافى أن تحسن إلى المحسن ؛ فانما أنت إذ ذاك تاجر معاوض . ومثل هذا الحديث ماوصف الله تعالى به الأبرار بقوله : « وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ » وهم الذين يدفعون الشر بالخير ، بحيث إذا أساء إليهم مسىء أحسنوا إليه ولم يقابلوه على إساءته بمثلها : فهم إذا حرموا أعطَوْا ، وإذا ظُلموا عفوا ، وإذا قُطِعوا وصلوا .

ومن كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : « ياسبحان الله ! ماأزهد كثيراً من الناس فى الخير ! عجبت لرجل يجيئه أخوه فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا . فلو كنا لانرجو جنة ، ولا نخاف نارا ، ولا ننتظر ثوابا ولانخشى عقابا ـ لكان ينبغى لنا أن نطلب مكارم الأخلاق ؛ فانها تدل على سبيل النجاة »

مظاهر التربية الخلقية

فى الأمم الغربيـة والشرقية

أولا : صفاء السريرة وبعد الهمة

الخلق يرفع البلاد ويقويها ويعظمها ، ويبسط سطوتها المادية والأدبية ، ويجعلها محترمة مطاعة ، ويخضع لها أممـا وممالك ؛ لأنه آلة الطاعة وأساس العظمة وتاج الرياسة وعرش السلطة وصولجان القوة ومجد الحياة وعزها ، وأفضل ما يملكه الانسان ، وهو الشرف بالذات والمـال بالاعتبار ، وهو الذى يرقى الأمة ، ويرفع شأن المناصب ، ويغنى أكثر من الثروة ؛ وهى عرضة للخطر ، ويشرف أكثر من الشهرة ، وهى مثار الحسد ، وهو مجمع الفضائل من صدق واستقامة وثبات .

والخلق مظهر الطبيعة الانسانية فى أفضل معانيها وأحسن مبانيها ، وأهله روح المجتمع ومصدر قوة الدولة السياسية ؛ لأن الصفات الخلقية هى الحاكمة على الكون : قال نابليون : إن نسبة القوى الخلقية فى الحرب إلى القوى المـادية كنسبة عشرة إلى واحد .

وقوة الأمم واجتهادها وتمدينها تتوقف كلهـا على أخلاق أفرادها ، أما الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية سوى خلاصة الأخلاق . وميزان الإله العادل لا ينيل الأفراد والأمم والشعوب إلا ما يستحقون : فذو الأخلاق الرائعة يجازَى بالحسنى ، والضد بالضد ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

الخلق صفة كاملة تعصم من النقيصة : فإن كان الانسان قليل العلم والثروة كان له به شان فى كل مكان : فى المعمل ، وفى المكتب ، وفى المخزن ، وفى كل ما يزاوله : كتب « كَنِنْ » [١] يقول : سبيلى إلى القـوة

(١) سياسى وخطيب انجليزى (١٧٧٠ - ١٨٢٧ م)

فى خلق ، ولم أك لأسلك سواه على أنه ليس السبيل الأقرب دائما ، بل الأمثل .

وذوو العقول الثاقبة يفتخر بهم . ولا يتكل عليهم ما لم يتحلوا بالخلق ، ولله رجال الأحزاب فى لندن ؛ فإنهم يستعينون بذوى العقول الناضجة ، ويتبعون إرشاد ذوى الأخلاق العالية . ولقد رجحت كفة الاجتهاد وحسن المبادىء وصفاء السريرة على كفة امتلأت ذكاء وفصاحة وسحر بيان وغنى : فإن « هُرْنَرْ » (١) صاحب الكفة الأولى أقام له مجلس النواب إكراما لم يقمه لأحد من أصحاب الكفة الأخرى ، وليس بعزيز على سليم العقل أن ينال بأخلاقه المكتسبة ما ناله « هرنر » الذى أظهر مقدار ما تفعله القوى المعتدلة المعززة بالتهذيب والاستقامة .

والخلق يجعل من فى المناصب العالية أهلا لأن يوثق به ؛ فإن أخلاق « إسكندر الأول » إمبراطور روسيا كانت بمثابة دستور للبلاد ، وقوة الخلق تفوق قوة المعرفة ؛ فالعقل بلا خلق والذكاء بلا سلوك والاجتهاد بلا صلاح جميعها قوات ، ولكنها كثيرا ما تكون قواتٍ للشر ، وقد نستفيد منها ، ولكن من يمدحها إذا كانت كذلك كمن يمدح اللص على مهارته وقاطع الطريق على تهوره .

وجوهر الخلق الصدق والاستقامة والصلاح ، فإذا رافقتها قوة العزم كانت لصاحبها قوة لا تقاوم ، تقوى فيه فعل الخير ومقاومة الشر واحتمالَ الخطوب والمصاعب والصبر الجميل .

وأزمنة الضيق والشدائد أفضل الفرص لظهور الأخلاق ؛ فإنها تظهر على حقيقتها ، وتثبت الإنسان على كماله واستقامته ، وقد خذله كل صاحب ، وفرغت يده من كل حيلة :

وفى الخطوب تظهر الجواهر ما غلب الأيام إلا الصابر

وسيرة اللورد « إِرِسْكِنْ » (٢) المشهور بالاستقامة وعلو الهمة مثال

---

(١) أحد أعضاء مجلس النواب الانجليزى

(٢) سياسى انجليزى (١٧٥٠ – ١٨٢٣ م)

يجدر بالشبان أن يحتذوه : قال عن نفسه : « إننى اجتهدت منذ نعومة أظفارى ؛ لكى أعمل كل ما حثنى على فعله ضميرى تاركا النتيجة إلى الله. ولقد جريت على هذا القانون إلى هذه الدقيقة من حياتى ، ولست بنادم ، ولم يلحقنى منه أدنى ضرر ، بل وجدته طريقا للنجاح والغنى ، وسأدرب أولادى فيه أيضا » .

واكتساب الفضائل ونيلها من طريق ممكن غاية كل عاقل ، والأفضل أن نطلب الغايات السامية وإن لم نحصل عليها كلها .

والشاب الذى لا يتشوف إلى الأعلى ينحدر إلى الأسفل ، والنفس التى لا تطلب المعالى تميل إلى الدنايا ، ومن شاء أن يدعى لين الجانب عزيز النفس فليكن متواضع السلوك رفيع المقاصد ؛ ليصير رفيعا متواضعا ، ومن سدد سهمه إلى العلا فإنه يرمى فوق من يسدده إلى شجرة :

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

ومن تمسك بحلة موشاة بالذهب ينل رُدْناً منها ، ومن قرن غايته السامية بالاجتهاد ارتقى فوق حالته واقترب نحو غايته ، وإن لم ينلها تماما فلا بد من أن يستفيد من اجتهاده فى طلبها فائدة دائمة .

والصدق فى العمل كالصدق فى القول ، وهو ضرورى للأخلاق الصحيحة حتى يكون باطن الإنسان كظاهره ، وكثير من الناس مولع بتسمية الأبناء أسماء عظماء الرجال ، وهذه ليست طريقا إلى الشرف إذا لم تقرن بالأعمال الصالحة : كتب أحد العظماء إلى صديق له . وقد أعجب بمناقبه الحميدة ، فسمى ولدا من أولاده باسم أسرته يقول : « أطلب إليك أن تعلم ابنك قاعدة تجرى عليها الأسرة التى سميته باسمها : وهى : اجتهد ؛ لكى تكون دائما كما تريد أن تظهر ؛ فقد أخبرنى أبى أن أباه جرى على هذه القاعدة ، فكان أساس أخلاقه الإخلاص والبساطة والاستقامة »

ومن خالف عمله قوله نأى عن مأربه ، وخسر احترام الناس ، فاطرحوا كلامه ، ولو كان حقا :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وضمير الإنسان خير مرشد يحض على المعروف وينهى عن المنكر ، وبه تقوى الأخلاق يوما فيوما : سئل شاب : لم لم تأخذ شيئاً من الكمثرى ولم يكن هناك أحد يراك ؟ فقال : كان ضميرى معى ويكره أن يرانى سارقا» . ومن لا ضمير له انحط شأنه سواء أشهر أمره أم لم يشهر ، وغشيته الذلة والمهانة .

والأخلاق متوقفة كثيراً على العادات حتى قيل : « إن الانسان مجموع عادات » « والعادة طبيعة ثانية » وكل مافى الانسان ناشىء من العادة حتى الفضيلة نفسها . وكما أن عادات الجسد تكتسب بالأعمال الخارجة كذلك عادات النفس تكتسب بالمقاصد الداخلة كالطاعة والصدق والعدل والمحبة: أى باخراجها إلى حيز الفعل . وكل شىء موكول إلى العادة بعد الله تعالى . والعادة تسهل كل أمر عسير ، وتدك الصعوبات ولو كانت جبالا :

فمن تعود أفعال الحكمة والرصانة كره الجهل والطيش . فعلى كل أحد أن يسهر كل السهر للقضاء على كل عادة رديئة تغالبه ؛ لأنه إذا غلب مرة واحدة واستسلم صار عرضة لأن يغلب على أمره . ومن اعتاد أمرا صار له فيه ملكة يفعله بلاروية وعن غير قصد . ولا تعرف قوة العادة التى هى فيه حتى يقع فى ضدها ، فإن العادة فى أولها ضعيفة أوهى من بيت العنكبوت ، ولكن متى تملكت الانسان قيدته بسلاسل من حديد . وإكرام النفس والتعويل عليها والانصباب والاجتهاد والاستقامة جميعها عادات ، وليست المبادىء إلا عادات مدعمة بالأدلة المقنعة لأهلها ، وكلما تقدم الانسان فى السن تملكته العادة ، ونزعت قسما كبيرا من حريته ، بل قيدته بقيود صنعها لنفسه . ولذا وجبت تربية الأولاد على العادات الحميدة ، لأن الصبوة أفضل سن لتربيتها ، والعادة الراسخة فى الصغر كالحروف المنقوشة على ساق شجرة

صغيرة تكبر وتتسع بنموها : قال اللورد كلِنوُدْ » (١) لشاب :

«لا تنس أنك قبل أن تبلغ الخامسة والعشرين يجب أن تربى فيك أخلاقاً تعتمد عليها طول حياتك » وأفضل عادة الانطباع على العادات الحسنة .

والسرور قد يصير عادة ، لأن لكل أمر طرفين سارا ومكدراً ، ومن الناس من يعتاد النظر إلى هذا ، ومنهم من يعتاد النظر إلى ذاك . ومن اعتاد النظر إلى الطرف السار كان ذلك خيرا له من كثير المال .

والانطباع على الآداب والأخلاق الفاضلة ألزم من تحصيل العلوم والفنون ، ومن أفعال الشخص الطفيفة تظهر آدابه ، كما أن الثقوب الصغيرة تكفى لاظهار شروق الشمس ، والأعمال المستقيمة آداب ، والسلوك مظهرها ، ومَن أحسَن سلوكه مع المساوى له والأعلى والأدنى تمتع بسرور دائم ، وسر غيره معه :

فما الناس إلا واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومثلٌ مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف فضله وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فإن قال صنت عن إجابته نفسى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فان زل أوهفا تفضلت إن الحلم بالفضل حاكم

وتحسين السلوك وإظهار اللطف ورقة الجانب فى مقدور المرء وإن كان معدما ، واللطف فى المعاشرة فاعل خفى كالنور ، وهو وساطة لاظهار بهجة الخليقة ، وهو من أقوى المؤثرات ، فلا يقوى شيء على مقاومته ، وكم من قلب منكسر قد انتعش بنظرة واحدة إلى وجه باش .

الأدب الحسن تطهيرُ المرء نفسه من الأخلاق الذميمة كالإسراف فى حب الدنيا والجاه ، واتصافه بالأخلاق الحميدة مثل العلم والحلم واللطف والكرم ، ولكن يشترط ألا يكون فى ذلك شيء من التصنع وإلا فسد كله . وشَكِس الأخلاق لا يطاق ولو كان من ذوى العلم ، لأن الانسان لا يحب

(١) (١٧٥٠ – ١٨١٠م) أمير من أمراء البحر الانجليز

من لايحترمه ، ولا من يؤذيه بكلامه . ومتصنع التواضع غير محمود ؛ لأنه لايدع فرصة تظهرعظمته إلااغتنمها . وماأحوج التجار ومن على شاكلتهم إلى التأدب فى السلوك ، فانه يدر لهم أخلَافَ الخير . وإذا بولغ فيه صار تصنعاً قبيحاً . وفاقد البشاشة والاقتراب من الناس لايؤمل نجاحه كثيراً ولو كان مجتهدا أمينا ؛ لأن أكثر الناس يحكمون على الظواهر . واحترام آراء الناس وعدم التنديد بها من أوجه اللطف ؛ فانه لاتوجد خلة أقبح من الصلف والاستبداد بالرأى والادعاء والتنديد بعيوب الناس وهى مثار الجدال والخصام . وطعن اللسان أشد من وخز السنان . وما أجهل من استعمل لسانه آلة للطعن والتنديد !! :

فإن لسان المرء مالم تكن له   حصاة على عوراته لدليل

والأدب ليس وقفا على أحـــد ، بل يتصف به العامل الفقير والامير الخطير ، ولايدل عليه بالطيلسان ، بل باللسان والفعال :

وإن كان فى لبس الفتى شرف له   فما السيف إلا غمده والحمائل

والانسان الحقيق هو من طبع على المحامد والآداب ، يمشى بالاستقامة ، ويفعل البر ، ويتكلم الحق ، ويكرم نفسه ، وغيره مع الاتصاف بالتواضع والرأفة والحلم فى مواضعها ؛ شعاره قول الحكيم : المنايا ولا الدنايا ، وخير من ركوب الخنا ركوب الجنازة : فلا يخاتل ولا يراوغ ، ولا يوارى ولا يكابر ولا يمارى ، ولكنه يسير دائما بالاخلاص والاستقامة ، قوله حجة تلزمه ، لايُرشى ولا يبيع نفسه بالمال كما يفعل الأدنياء :

يحكى عن « دوق ولنتون »(١) أنه أتاه وزير بلاد « حيدر أباد » ، وقدم له ما يفوق مائة ألف جنيـه مقابل تعريفه مواد معاهـدة جرت بين بعض أمراء الهند عقب واقعـة « إساى » (٢) ، فقـال له : أظنك تكتم السر ؟

(١) قائد إنكليزى شهير (١٧٦٨ - ١٨٥٢م)
(٢) قرية بالهند فى عرض ١٥َ ٢٠° وطول ٥٠َ ٧٥°

فقال : نعم . فقال : وأنا كذلك وصرفه ، ولم يقبل منه درهما ، ولا باح له بشيء . وهكذا الشهامة وعزة النفس . وقد رجع هذا الشهم العفيف إلى بلاده بعد انتصاره في مواقع كثيرة عديم المال غني الشهرة .

والمروءة ليست وقفا على الاغنياء ، بل تكون فيهم وفي الفقراء . وكثير من المعدمين اتصفوا بالامانة والصدق والاستقامة والأنس والنزاهة والشجاعة والاعتزاز بالنفس والاعتماد عليها . ومن خسر كل ماله وبقيت فيه مروءته وأنسه وفضله وأمله وشهامته لم يزل غنيا :

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خَلَق وجيب قميصه مرقوع

وكم من رجل فاضل ثوبه أخلاق (١) ، واسمه بين الناس مجهول :

حكي أنه طغى نهر عظيم في إيطاليا ، فهدم قنطرته ما عدا جزءا منها عليه بيت صغير يسكنه رجل وأولاده ، وكان لا بد من أن ينهدم هذا الجزء أيضا ، فيهلك ذلك المسكين مع أولاده ، فقال أحد العظماء : إنني أعطي مائة جنيه لمن يخاطر بنفسه ، وينقذ هذه الأسرة ، فتقدم فلاح من الجمهور ، وأنزل قاربا إلى النهر ، واقتحم الخطر ، وأنقذ تلك الأسرة البائسة ، وأبى أن يأخذ الجنيهات قائلا للكنت : ما كنت لأبيع حياتي بالمال ، أعط مالك هذه الأسرة المسكينة ؛ لأنها في احتياج إليه . فهنا تتجلى المروءة وعزة النفس .

وفي هذه الأزمنة أمثلة كثيرة للمروءة وعزة النفس وكرم الأخلاق كما في الأزمنة الغابرة : ومن ذلك ما حدث في السفينة بِرْكِنْهِدْ على شواطيء إفريقية سنة ١٨٥٢م ؛ فإنها كانت تحمل كثيرا من النساء والأولاد والرجال وفي أثناء نوم ركابها اصطدمت بصخرة ، فانثغر جوفها ، وكان لا مفر من غرقها فنُبهت الجنود الانجليزية بصوت الطبول ، واصطفوا على ظهر السفينة ،

(١) أخلاق : بالٍ

وأنزلوا النساء والأولاود فى قوارب النجاة ، وآثروهم على أنفسهم ، وثبتوا فى أماكنهم من السفينة ، حتى غرقت بهم . فيالشجاعة هؤلاء وكرم أخلاقهم!! وهم وإن ماتوا لايزال ذكرهم خالدا .

وتظهر المروءة الحق فى معاملة الرجل للنساء والأولاد ، والقائد لجنوده والرئيس لخدمه . فالحلم والحنو ورقة الجانب فى أحوال مثل هذه من الشروط اللازمة للمروءة ، أما من طغى وبغى على الذين دونه فالمروءة منه براء :

وأسعد العالم عند الله ... من ساعد الناس بفضل الجاه
ومن أغاث البائس الملهوفا ... أغاثه الله إذا أخيفا
وإن من شرائط العلو ... العطف فى البؤس على العدو
قد قضت العقول أن الشفقة ... على الصديق والعدو صدقة
وقد علمت واللبيب يعلم ... بالطبع لايُرْحَم من لايرحم
والبغى داء ماله دواء ... ليس لملك معه بقاء
والبغى فاحذره وخيم المرتع ... والعجب فاتركه شديد المصرع

إن هذه الصفات النبيلة وإن كانت شخصية — يدل انتشارها فى أمة من الأمم على رقيها ، ويؤدى إلى عظمتها ؛ فما الأمم إلا مجموعات من الأفراد ، وكثرة العظماء فى الأمة دليل عظمتها .

ثانيا : الوثوق بالنفس

وإنما رجل الدنيا وواحدها ... من لا يعول فى الدنيا على رجل

حكمة عالية نطق بها شاعر حكيم ، فعلقت بالنفوس ، وامتزجت بالعقول ؛ لأن فضيلة الاعتماد على النفس أصل النجاح ، وأس الفلاح ، ما اتصف بها رجل إلا بلغت به ذروة المجد ، وقادته إلى بحبوحة السعادة ، وأنزلته منزلة الكرامة والسؤدد ، وما تحلت بتلك الخلة الشريفة أفراد أمة إلا نالت العز ، وفاقت غيرها فى ميدان الحضارة والرقى ، وصارت نبراس الشعوب

والامم ومثار الغيرة لمن تواكلوا ، وعكفوا على الراحة ، واستمرءوا الكسل خلا وطابهم من العلم والحكمة ، وعجزوا عن أن يقوموا بعمل نافع ؛ لأن كونهم عالة على غيرهم أضاع العزم فيهم ، وأخمد جذوة نشاطهم .

والحكومة مرآة الشعب تظهر فيها أخلاقه وعاداته وذكاؤه ونبوغه . من أجل ذلك تجدها ترقى إذا ارتقى الشعب ، وتنحط بانحطاطه .

وكل مجهود يبذل فى إصلاح شأن الحكومة من غير أن يبدأ بتهذيب الأفراد ضائع ؛ إذ ليس الشعب سوى مجموع أفراد : إن تقدموا بالعمل والعلم ارتفع قدره ، وصار عزيزا بعزهم . وإن تأخروا أفل نجمه ، وصار ذليلا بذلهم ؛ لأن الجهل والكسل والكبرياء والهوى سيوف ماضية فى يد الحاكم المتسلط ، ولا يفلها سوى الإرادة القوية والعزم الثابت ولله در الفيلسوف الانجليزى «استورت ميل»[1] ، إذ يقول :

« إذا توافرت فى الأفراد شرائط الاستقلال بأنفسهم فالاستبداد لا يضيرهم كثيرا ، وكان لزاما عليهم أن يحاربوا كل ما من شأنه هدم استقلالهم »

والإقبال على العلم والصناعة واستخدام العقول وسيلتان إلى بلوغ هامة المجد :

لعمرك إن المجد والفخر والعلا ونيل الأمانى وارتفاع المراتب
فضائل عزم لا تباع لضارع وأسرار حزم لا تذاع لعائب

وهذه المعالى ليست وقفا على طائفة دون أخرى ولا جيل خاص ، بل هى حق مشاع لكل عامل : فكم من أناس ارتقوا من أدنى الدرجات إلى أعلى المراتب باعتمادهم على أنفسهم وثقتهم بها ، لا فرق فى ذلك بين غنى وفقير وصعلوك وأمير ؛ فإن من جد وجد :

الجد يدنى كل أمر شاسع والجد يفتح كل باب مغلق

وهؤلاء لم يرفعوا شأن بلادهم فحسب ؛ بل أسسوا أركان العمران ، ورقوا

(١) من أكابر علماء الاخلاق : (١٨٠٦ - ١٨٧٣ م)

بالنوع الانسانى ، فواجب على الأعقاب ألا يتركوا ما ورثوه من المجد كما هو ، بل يزيدوه بسعيهم :

لسنا وإن أحسابنا كرمت يوما على الآباء نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

وليست دور التعليم بالمورد الوحيد لاغتراف مناهل العرفان ، بل ما نراه كل يوم من مظاهر الحياة المختلفة المتجلية فى البيوت والمعامل والشوارع والآثار والحقول وعجائب الطبيعة – له أثر يفوق أثر المدارس والكتب فى تكوين الأخلاق وتهذيب النفوس .

ومن أجل ذلك كان للقدوة الحسنة فعلها العظيم فى إنهاض الانسان ورفع مستواه العلمى والعملى ، وهاك بعض الأمثلة على مبلغ أثر الوثوق بالنفس .

فهذا « أبو الطيب المتنبى »(١) الشاعر العربى الذى ما ترك معنى إلا صاغ له لؤلؤا ولا حكمة إلا أبرزها فى ثوبها القشيب ، فسلب شعره العقول برقته ، وغذى النفوس بحكمته :

ما رأى الناس ثانى المتنبى أى ثان يرى لبكر الزمان ؟
هو فى شعره نبى ولكن ظهرت معجزاته فى المعانى

ولا يخامرك شك إذا عرفت أنه كان ابن سقاء . فارتقى إلى منزلة العظماء بتوقد ذهنه وصدق حكمه ومتانة شعره .

ولا تنس « أبا حنيفة » (٢) الذى له اليد الطولى فى استنباط الأحكام الدينية من الكتاب والسنة مع فوقه فى علم الاصول فوقا جعله المرجع الأسمى فيه . وإنك ليأخذك العجب إذا علمت أن هذا الفوق أتى من خزاز ؛ لأنه جعل الفقر الذى ولد فيه مرقاة صعوده .

---

(١) هو الشاعر الذائع الصيت ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ وقتل سنة ٣٥٤ هـ

(٢) هو الامام المشهور ولد سنة ٨٠ هـ وتوفى سنة ١٥٠ هـ

واذكر الحكيم « ثابت [١] بن قرة » الفيلسوف الذى برع فى الفلسفة ، وبزَّ غيره فى علم الطب ، حتى استحق أن يقال فيه :

هل للعليل سوى ابن قرة شافى بعد الإله وهل له من كافى ؟

أما « الحجاج [٢] » فقد كان معلم صبيان مع أبيه بالطائف ، ولم يمنعه ذلك عن أن يصير بشجاعته يد الدولة الأموية الباطشة ولسانها الناطق ، حتى تبوأ مركز الإمارة فى العراق وخراسان .

وممن شرفوا الفقر الذى ولدوا فيه « أبو نصر الفارابى [٣] » ؛ فقد تغلغل فى علم الفلسفة ، وصنف الكتب الممتعة مع ما كان فيه من الفاقة التى ألجأته إلى أن يطالع الكتب على ضوء مصباح الحارس .

وهذا « شكسبير » كبير شعراء الانجليز الذى حلق فى سماء الخيال فصاد شواردها ، وغاص فى قاع البحار ، فاقتنص لآلئها ، نبت فى بيت لا يمتُّ إلى الشرف بصلة ، ولا تجمعه والفخر رابطة ؛ فابتنى بعلمه وعزمه قصر العزة والرفعة .

ومن ذكرناهم قُلٌّ من كثر ، وقطرة من بحر : وليس ارتقاء أمثال هؤلاء من الأمور النادرة ؛ فإن كل من طلب العلياء بهمة لا تعرف الكلل نالها ، واستظل بنعمائها . ولقد ضرب أولئك المثل الحسن لغيرهم فى أن الأمور العظيمة هينة على أولى العزم الثابت :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

وهل ينتظر امرؤ أن يحظى بالمعالى ، وقد بخسها حقها ، ولم يؤد لها مهرها .
ومن هنا تعلم أن الغنى قد يتصل بالإرث ، أما العلم والحكمة فلا . وكل

---

(١) رياضى مشهور توفى سنة ٢٨٨ هـ

(٢) عاش من ٤١ هـ إلى ٩٥ هـ

(٣) محمد بن محمد بن طرخان أبو نصر الفارابى فيلسوف غير مدافع توفى سنة ٣٣٩ هـ

امرىء بما كسب رهين ، بيد أن الانسان محتاج إلى من يساعده ويقويه فى أعماله ؛ سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ثالثا : التيقظ للفرص واغتنامها

ليس فى قدرة العقل ولا اليد أن يعملا كثيرا إذا تركا وحدهما ، بل لا بد من معونات يحتاج إليها العقل ، كما تحتاج إليها اليد . وسبيل النجاح فى الأعمال العظيمة اليقظة والثبات ، وهما من ألزم الصفات لعظماء الرجال فتراهم مع التحلى بالصبر يعنون بحقير الأمور قبل جليلها ؛ لأن الكمال مجموع أمور طفيفة فلو أهملت لذهب باهمالها السداد .

ومن يَعْزُ فلاحا للمصادفة فهو واهم ؛ لأننا لو دققنا فى النظر لوجدنا أن ما يدعى مصادفة هو فى الحقيقة فرصة مناسبة انتهزها ذوو الدراية .

وهذا « نيوتن (١) » اتخذ من سقوط التفاحة أمامه وسيلة إلى معرفة حقيقة الثقل بعد أن قضى سنين عدة فى البحث عن السبب ، ولولا انتباهه لأفلتت منه هذه الفرصة ، وظل تائها فى بيداء التنقيب - شأن عديم الانتباه يطوف فى الغابات ولا يجد فيها خشبا يصلح للوقود .

وحيث لا يرى الجهال شيئا يرى العقلاء أمورا كثيرة ؛ لأنهم يقيسون المجهول بالمعلوم ، ويردون الاشياء الى نظائرها ، فتنجلى لهم الحقيقة ، فينتفعون بها :

انظر إلى « غليليو (٢) » كيف صنع المجهر الذى هو أساس علم الهيئة الحديثة ، ولم يكن له من وسيلة إلا أنه سمع أن هولنديا أهدى إلى الكونت « موريس » آلة يرى الناظر فيها الأشباح البعيدة قريبة

---

(١) أشهر فلاسفة الانجليز عاش من ١٦٤٢ — ١٧٢٧م

(٢) عاش من ١٥٦٤ — ١٦٤٢ م

وأصحاب المدارك السامية لا يشغلهم شاغل عن التفكير فيما يرفع شأنهم، ويفيد أمتهم، وإن أحدقت بهم ضروب المحن والشقاء :

فهذا المركيز[١] « وستر » انتبه لموضوع البخار لما كان سجينا فى برج لندن بملاحظته ارتفاع غطاء إناء فيه ماء مغلى، وبحثه وتدوينه وملاحظاته فى كتابه عصر الاختراعات غرس نواة تعهدها «سفرى»[٢] و «نيوكمن»[٣] وغيرهما، حتى أينعت، وطاب ثمرها على يد « وط »[٤]

واليقظ يستفيد من الحوادث التى يراها مهما كانت طفيفة ؛ لأن سر تقدم العلوم والفنون والصناعات والحرف هو ملاحظة الأمور الدقيقة، ولا أدل على تأثير دقائق الأشياء فى النجح من نقط صغيرة من الماء تمددت بالحرارة حتى صارت بخارا له من القوة فى إدارة المعامل وتسيير المراكب ماله فى جوف الأرض من تأثير يحدث براكينها وزلازلها .

والنجاح فى الأعمال ليس وقفا على طائفة المتعلمين فى المدارس الكبيرة ؛ لأن معظم العلماء والمخترعين أفلحوا بالمصاعب لا بالوسائل العلمية، وأمهر الصناع كان خلوا من أدوات تصلح للعمل، ومامعداته إلا حذقه ومواظبته :

« ففرجوسن »[٥] صنع ساعة خشب بسكين صغيرة توجد مع كل ولد، و« ولكى »[٦] شرع يتعلم التصوير وقلمه فحمة وقرطاسه باب، و« رتنهوس » الفلكى كان يحسب الكسوف والخسوف على مقبض محراث .

وللأيام حوادث كفيلة بنجاح المرء إذا لم ين فى الاستفادة بها : فالطبيب « برستلى »[٧] نبهه إلى الكيمياء رؤيته ألواناً مختلفة فى الأقباس التى تنطفىء فى

(١) المركيز : لقب شرف عند الانجليز
(٢،٣) من مخترعى الآلة البخارية
(٤) من ١٧٦٣ — ١٨١٩م
(٥) فلكى اسكتلندى (١٧١٠ — ١٧٧٦م)
(٦) مصور إسكتلندى مشهور
(٧) طبيب ولاهوتى انجليزى (١٧٣٣ — ١٨٠٤) م

الغازات المتصاعدة من السوائل المختمرة ، ومع كبر سنه وعدم معرفته شيئا من علم الكيمياء أخذ يفتش الكتب حتى عرف السبب ، وأجرى تجارب كانت نتيجتها أن أوجد علما قائما بنفسه ـ هو الكيمياء الغازية .

ولقد قال السير « همفرى دافى » مخترع آلة البحث عن ماهية الحرارة ومصادرها : « ليس لى غنى ولا قوة ولا نسب ، ولكن إذا أفسح الله لى فى الأجل خدمت جيلى أكثرمما لو كنت غنيا قويا شريفا ذا حسب ونسب»

ولا عجب ؛ فإن عقله كان كسيف فيه صفتا الصلابة والمرونة فلم يَنْبُ عن مسألة إلا رجع إليها حالا ، وأنار ظلمتها بضوء حكمته وبرهانه السديد .

وقد بلغ بأهل المواظبة وولعهم بالنجاح أن استخدموا فراغ أوقاتهم فى الأعمال الجليلة بحيث لا تمر ساعة من وقتهم دون ثمرة عقلية أو أدبية . ولله درُّ القائل :

إذا فاتنى يوم ولم أصطنعْ يدا ولم أكتسب علما فماذاك من عمرى

ألم تر إلى السيدة « ده جون لى »(١) التى ألفت كثيراً من كتبها فى دقائق الانتظار القليلة للأميرة التى كانت تعلمها ؛ لأن الوقت ثمين ، وما يمضى منه لا يعود مهما بذل فى تعويضه ، بخلاف المال ؛ فقد يعوض الشخص مالا أضاعه الإسراف بالاقتصاد . وإنى أمحضك النصح أن تدوّن كل ما يخطر على بالك من الأفكار ، أو تسمعه من الحكم مخافة أن يجرّ عليه النسيان ذيله :

وما سمى الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

لكن مثلك مثل « باكون »(٢) الذى ترك بعد وفاته مخطوطات كثيرة سماها أفكارا فجائية كتبت لتستعمل .

ولئن كان لأمم الغرب رجال نالوا القدح المعلى فى الثبات والصبر وانتهاز الفرص ؛ فإن فى الشرق أبطالا لا يقلون عنهم حذقا واستفادة بالنهز السانحة .

ولقد يتجلى لك ذلك فى حكمهم التى نسوق بعضها إليك :

---

(١) مؤلفة فرنسية ألفت نحو ٩٠ مجلدا عاشت (١٧٤٦ — ١٨٣٠ م)

(٢) فيلسوف إنجليزى ذائع الصيت

قال الإمام على كرم الله وجهه : من أطاع التوانى ضيع الحقوق . وقيل :

والأمر إن أعيا عليك من عل　　فاطلبه قبل فوته من أسفل

وقال بعضهم :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه　　وليس عليه أن يساعده الدهر

وهاك أخبار بعض مشهوريهم الذين لم تفلت منهم شاردة إلا قيدوها ، ولا سنحت لهم فرصة إلا افترصوها :

فهذا « ابن خلدون » (١) المؤرخ المشهور : جعل إقامته فى البادية على الرغم منه وسيلة إلى تأليف مقدمته المشهورة التى كانت أول مؤلف فى علم الاجتماع ولا تزال لها مكانتها .

« وابن رشد » (٢) الفيلسوف : عرف للزمن نفاسته ، حتى أنه شغل ليالى عمره فى الدرس والتصنيف ما عدا ليلة عرسه وليلة وفاة أبيه

« وابن الصابونى » (٣) لم يرض أن يكون خازنا للكتب المستنصرية ببغداد ، ولا ينتفع بها ، بل أكبّ على الدرس والتحرير ، حتى ألف مجمع الآداب فى خمسين مجلدا ، ودرر الأصداف فى عشرين مجلدا ، ولسان حاله يقول :

ولا تضيع زمنا بمكنا　　تذكاره يذكى لظى حسرتك

و « ياقوت الحموى » كان مولاه يبعثه للاتجار إلى البلدان البعيدة ، فاهتبل هذه الفرصة ، ونظر فى أحوال هذه البلدان بعين الروية والبصيرة ، ثم أثبت ما وصل إليه فى معجمه ، ثم اتجر بالكتب ، فلم يرض لنفسه أن يحمل أسباب العلم لغيره ولا ينتفع بها ، بل أكب على الدرس حتى أحاط بعلوم كثيرة .

---

(١) فيلسوف مؤرخ ولد بتونس سنة ٧٣٢ هـ وتوفى بالقاهرة سنة ٨٠٦هـ

(٢) فيلسوف عربى ولد بقرطبة سنة ٥١٥ هـ وتوفى بمراكش سنة ٥٩٥هـ

(٣) مؤرخ إخبارى (٦٤٢ — ٧٢٣ هـ)

هل أتاك نبأ الثبات فى الأعمال وتوخى إتقانها ؟ : إن «ابن القسيس»[١] البغدادى نسخ قانون ابن سينا كله بخطه ، وهو كتاب ضخم يقع فى بضع مجلدات ، ثم خرجت النسخة منه إلى خزانة المدرسة المستنصرية . فلما أسنّ طلبها ، وقابلها ، وصححها ، ثم أعادها إلى مكانها ، فنسبه حاسدوه إلى الفضول وأحباؤه إلى مكافأة يتلمسها ، فقال : كلا الفريقين غير مصيب ، وإنما فعلت ذلك خشية أن أكون موضع النقد والازدراء بعد مماتى

رابعا : احتمال المشقات فى سبيل النهوض

إن أفضل معارف الإنسان ما اكتسبه بنفسه ، وماامتاز أولئك الأفذاذ فى العلوم والفنون إلا ببلوغهم المعارف بجدهم ، أما الذين قصروا معارفهم على دور التعليم فقد نضب معينهم ، ولم يتزودوا من العلوم بما يجب أن يتزودوا به ؛ لأن المدارس لا تعلم إلا المبادىء . ومن اقتيد إلى مناهل العلم اقتيادا كان استقاؤه منه كرها ، وقوى العقل تقوى باستعمالها ، فاذا وفق الإنسان لحل مشكلة بنفسه تأهب لحل مسائل أخرى ، وصار العلم فيه ملكة .

وأفضل ما فى الانسان اجتهاده لنفسه . فاذا خلا منه لم تنفعه الكتب ولا المعلمون ولا الدروس ولا شىء آخر والحكماء وأولو العزم يغلبون المصاعب ، أما الحمقى والكسالى فيعتريهم الرعب حينما ينظرون المشقة والخطر ، بل هم يخلقونها . وأمهر المعلمين من ينهض همة التلميذ ، ليقرع باب جدّه بجده ، ويجتنى ثمار المعرفة بيده

وعلى هذا الأسلوب جرى الدكتور « أرنولد » (٢) الذى كان يعلم تلاميذه التعويل على نفوسهم وتمرين قواهم ، وكان عمله محصورا فى تدريبهم وتشجيعهم وإنهاض همتهم .

(١) هو الحكيم عيسى البغدادى نشأ فى القرن الثالث

(٢) معلم إنجليزى مشهور

والعمل باليدين لاينافي تهذيب العقل ، بل يساعد ويقوى الجسم على احتماله ، والعمل للجسد كالعلم للعقل ، وأسعد الناس من له عمل فى أوقات الراحة وراحة فى أوقات العمل . وماأولئك المولعون بالصيد وركوب الخيل - وهم فى غنية عنهما - ؛ إلامثل من أمثلة الانتفاع بأوقات الراحة . وقد فطن لذلك رجال التعليم ، فأعدوا لكل مدرسة مكانا فسيحا لرياضة أعضاء التلاميذ وتقويتها . حكى أن دوق ولنجتون نظر مرة إلى ساحة اللعب فى مدرسة إتين ، ورأى التلاميذ يدربون فيها على الألعاب ، فقال : فى هذه الساحة فزت بواقعة « واترلو » : يريد أنه مرن على اللعب صغيرا ، فقوى جسدا وعقلا ، ففاز على نابليون فى موقعة واترلو الشهيرة . وقال أحد العظماء لابنه وهو فى المدرسة العالية : « أودُّ جداً أن أراك مجتهدا وناجحا فى كل دروسك التى توسع دائرة عقلك ، ولكنى أرغب أيضا فى أن أراك ناجحا فى اللعب وحركة الأعضاء ؛ لأن كل معرفة سواء أكانت طبعية أم صناعية تلذ للعقل وتهذبه

والعاقل من تجنب الكسل ولم يأنف من أىّ عمل مهما كان شاقا حتى تحيد عنه الشرور التى هى وليدة الراحة ، و « اليد الفارغة تسارع إلى الشر » وقد تصيب طلاب العلوم شرور كثيرة : من الضجر ، واليأس ، والخمول ، واحتقار الحياة ؛ لاهمالهم الرياضة الجسدية . ومن الناس من نشأ بطبعه ميالا إلى مزاولة الأعمال والحرف وهو فى غنى عنها ، فصار الميل فيه ملكة ، وأدى إلى نتائج حميدة . وهكذا كانت حال المخترعين والمستكشفين ؛ فانهم اشتهروا فى صباهم بصناعة اليد لعلمهم أن العمل الجسدى ضرورى ؛ لمداومة أشغالهم العقلية . وإذا نشأ الشبان على استعمال الأدوات استفادوا صناعة ، وتعلموا تدريب أيديهم ، واعتادوا الأعمال الصحيحة ، وتربت فيهم ملكة محبة العمل وكره البطالة ، وانغرست فيهم سجية المواظبة ، وليس أضر على الفعلة والصناع من التقيد بأعمالهم البدنية وإهمالهم قواهم العقلية .

أما الموسرون فضررهم فى أنهم يأنفون من الأعمال ، ويربون فى الجهالة

ويمكن اجتناب هذين الشرين باتحاد الأعمال الجسدية بالأشغال العقلية : وربط الرياضة الجسدية بالتثقيف العقلي . وكثيرون قد سلكوا هذه السبيل في أوربة وأمريكة ، ونجحوا نجاحا عظيما . ولقد أجاد بعض الانكليز إذ قال :

« إن شهرة كثيرين من رجالنا العظماء هي عقلية وجسدية معا » :

فالاستاذ « ولتر سكوت (١) » كان مع إكبابه على الانشاء ماهرا في الصيد وركوب الخيل ، و « ولسن » كان قويا في المصارعة كما كان بارعا في النظم والنثر .

وإذا كانت الرياضة الجسدية ضرورية لطلبة العلم فأحر برياضة العقل وتقويته على الانصباب على أشغاله . وطرق المعرفة ممهدة لكل من أراد السير فيها باذلا جهده واجتهاده ، والحازم يتغلب على كل الصعوبات . وقد هذب المجتهدون المواظبون أنفسهم باتنهازهم كل فرصة ، وعدم ضياع كل دقيقة سدى . فاستفادوا ، ووصلوا إلى درجة من الكمال توجب الدهشة :

فهذا « فرغوسن (٢) » تعلم علم الفلك ، وهو مرتد بجلود الغنم على رءوس التلال ، ولا عجب ؛ فالاجتهاد طريق النبوغ ، ولا ينال شيء بلا تعب ، والاجتهاد يحسن القوى العظيمة ، ويجبر القوى الضعيفة ، والشيء السهل كان صعبا في أول الأمر حتى المشي . والخطيب المصقع الذي عيناه تقدحان شررا ، وشفتاه تتدفقان بلاغة ، وكلامه بحر من الحكمة — قد تعلم سر هذه الصناعة بالدرس والتكرار الدائمين بعد أن خاب مرارا كثيرة .

وعلى كل طالب علم أن يكون مدققا محققا في كل شيء يدرسه ؛ ليتحقق نجاحه :
أخبر أحد علماء القانون بسر نجاحه قائلا : « عزمت عندما شرعت في درس الحقوق ألا أترك مسألة حتى أستوعبها جيدا ، وكثيرون من أقراني كانوا يقرءون في يوم واحد ما أقرؤه أنا في أسبوع ، ولكن عند نهاية السنة

(١) شاعر اسكتلندي شهير (١٧٧١ — ١٨٣٢م)
(٢) فلكي اسكتلندي (١٧١٠ — ١٧٧٦ م)

كانت دروسى فى ذاكرتى كما كانت يوم درستها ، وأما دروسهم فكانت تذهب من عقولهم بذهاب الأيام »

ولا يصير الانسان حكيما بكثرة الدروس بل بتطبيقها على الغاية التى درست لأجلها ، وحصر العقل فى موضوع الدرس حتى يصير ملكة .

والعلم هو مايعيه الصدر لا مايحويه القمطر من كتب يرجع إليها عند الاقتضاء ؛ لأنه من كان علمه فى كتابه كان خطؤه أكثر من صوابه . ولابد فى التهذيب من أن يكون الانسان حازما ندبا . وهاتان الصفتان تقويان بترك الشبان يعتمدون على أنفسهم وإعطائهم كل ما يمكن من الحرية . أما الارشاد والتوقيف فالزيادة منهما تضر كثيرا ، لأنها تصرف الشاب عن الاعتماد على نفسه ، وقلة ثقة الانسان بنفسه مانع قوى من موانع التقدم . ولا شىء يعوق النجاح ويمنعه أكثر من فتور الهمة ، وضعف العزم ، وقلة الحزم . وكل امرىء يرغب فى تثقيف عقله ، ولكن الأكثرين ينفرون من التعب الذى لابد منه للحصول على ذلك :

تريدين إدراك المعالى رخيصة ولابد دون الشهد من إبر النحل

ومالا يحصل بالدرس والتعب لا يدعى علما ؛ لأنه وإن شغل العقل لا يغنيه ، وإن نتجت منه نتائج وقتية لا يرتجى منه كبير فائدة .

وعلى طالب الحكمة الحقيقية أن يمهرها ماتستحقه من التعب والعناية والصبر الجميل . والنجاح بطىء الحصول ، ولكن من سعى بأمانة وغيرة نال أجره فى وقته . وليس للتهذيب حد يوقف عنده ، فعلى الانسان أن يواظب على تهذيب نفسه مادام حيا ؛ لأن ذلك ضرورى لكل أحد ، بل به تقوم سعادته ، وللراحة وقت طويل بعد الموت وبقدر استعمال الانسان لقواه يكون إكرامه واحترامه ، ولا يعتبر من كانت قواه العقلية عظيمة إلا كمن كان ميراثه من أبيه عظيما : فاذا استعمل هذا ميراثه وذلك قواه حق الاستعمال احترما وإلا فلا .

وقد يتضمن العقل خزائن وافرة من العلم ، ولكنه إذا لم تصحبه الرزانة والاستقامة كان شرا . ولا يعتبر تقدم الأمة فى العلوم والحكمة بكثرة مدارسها وتعدد معاهدها، بل بتثقيف عقول أبنائها ؛ لأن نسبة العلم إلى المعاهد والمدارس كنسبة الكرم إلى الغنى : فان كان الغنى يورث الكرم ضرورة فالمعاهد تورث العلم كذلك . والاختبار الذى مصدره الكتب مفيد ، وأفيد منه الاختبار الشخصى ، لأنه من أفعال الحكمة: فقد كان فى البلاد الانجليزية رجال حكماء أشداء العزم سديدو الرأى قبل انتشار الكتب ، فمن هؤلاء : « برندلى » و « استيفنصن [(١)] » لم يتعلما القراءة حتى صارا رجلين ، ومع ذلك عملا أعمالا عظيمة يعجز عنها فحول العلماء ، وحياتهما أنفع من حياة ألوف من العظماء . والأمر الجوهرى فى العلم هو غايته من تحصيل الحكمة وإصلاح الأخلاق لا مقداره . وتدريب الانسان لنفسه وضبطه لها أساسان للحكمة العملية ويجب أن يتخللهما إكرام النفس الذى يصدر عنه الأمل رفيق القوة وأبو النجاح، ويجب علينا أن نكرم غيرنا إكرامنا لأنفسنا ، ليتم الاكرام المتبادل والعدل ، وينتفى كل ما يخل بالراحة العامة. وإكرام النفس أصل للطهارة والعفة والتعقل والتقوى : فمن أكرم نفسه عظم غيره ، ومن هانت عليه نفسه كانت على غيره أهون :

وأكرم نفسى إننى إن أهنتها   وحقك لم تكرم على أحد بعدى

وإكرام النفس ثمرة العلم الذى قد يحط من شأنه جعله وساطة للسبق فى الدنيا وسبيلا للهو والتسلى : فليس العلم حانوتا للبيع والكسب ، بل مخزن بضاعته تمجيد الخالق ، وخير المخلوق . ولا ريب فى أنه يحسن بالإنسان أن يجتهد للتقدم فى الدنيا ، ولكن لا يحق له أن يضحى بنفسه لأجل ذلك .

وهناك سبيل أخرى تحط شأن العلم : وهى استعماله لمجرد اللهو والتسلية العقلية ، وقد شاع هذا الأمر فى عصرنا ، ولذا شحنت الكتب والصحف

---

(١) ١٧٨١ — ١٨٤٨ م

بكل سخيف وركيك ؛ لكى توافق ذوق الجمهور الذى يميل الى الهزل والسخافة ، وما لا طائل تحته . دع الروايات والفكاهات جانباً ؛ فإن الجمهور عكف عليها ، وأضاع وقته فيها ، وجعلها طعامه وشرابه - حتى أفسدت ذوقه وآدابه .

واللهو مفيد أحياناً ، ولكن الزائد منه يفسد الأخلاق . فيجب أن يحترس منه ؛ لأنه يفسد عقول الناس وبخاصة الشبان ، ويفتح أمامهم باب التهور فى كل نوع من القبائح ، فإذا دعتهم الأحوال إلى مزاولة الأعمال شعروا بكره شديد لها ، فيعدمون قوى الحياة ، وتنضب من وجوهم ينابيع السعادة ؛ فيحرمون الانتفاع بميراث الشباب أيام الشيخوخة :

إن الشباب والفراغ والجده   مفسدة للمرء أى مفسده

وهذا « بنيامين كنستان » (١) من أكبر رجال فرنسا عقلا ساقه التهور وهو فى العشرين من عمره إلى مهواة سحيقة ، فصارت بقية حياته سلسلة من الشقاء بعد أن كانت كنزا من الخير والهناء ، وما ذلك إلا لأنه أهمل العفة وقهر النفس ، وحرم الحزم ؛ فلم يتمم شيئا من الأعمال التى اعتزم إتمامها ، وسمو تآليفه لا يكفر عن دناءة أعماله ؛ فانه كان يقامر عند ما كان يكتب فى الديانة ، ولم تفده قواه العقلية ، فعاش فى الشقاء سنين عدة ، ومات فى الذل والهوان .

أما حياة « أغسطينوس شيرى » (٢) مؤلف تاريخ الغلبة النورماندية فمضادة لحياة كنستان ؛ لأن سداها المواظبة والاجتهاد ، ولحمتها تثقيف العقل والحرص على طلب الحكمة . ومع كونه فقد بصره لم يفقد محبته للعلم ، وهو القائل فى آخر أيامه : « إذا عدت فوائد العلم من المآثر الوطنية أكون قد صنعت لبلادى ما صنعه الجندى الدامى فى حومة الوغى ، وآمل أن أبقى

(١) مؤلف وخطيب فرنسى (١٧٦٧ — ١٨٣٠م)

(٢) مؤرخ فرنسى(١٧٩٥ — ١٨٥٦ م)

مثالا لغيرى فى هذا الأمر مهما كانت نتيجة أعمالى ، ومع أننى أعمى وآلامى لا تنقطع أشهد أن فى العالم شيئاً ألذ من كل اللذات الحسية ، وأشرف من الغنى ، وأفضل من الصحة ـ وهو طلب الحكمة »

والمتاعب والمشاق تصير الانسان رجلا : قال أرسطو : « بالصبر على مضض السياسة . ينال شرف الرآسة » وكل منصب فى الحياة محفوف بالمتاعب ، ولا يرتق إليه إلا من تغلب عليها ، والناس يتعلمون الحكمة من الخيبة أكثر مما يتعلمونها من النجاح ؛ لأنهم كثيراً ما يعرفون النافع إذا اختبروا الضار ، ومن لا يغلط لا يتعلم : قيل : إن الذى دعا « غليليو » و « طورشلى (١) » و « بويل (٢) » إلى درس الهوائيات هو خيبة البعض فى إصعاد الماء بالمضخة فوق ثلاث وثلاثين قدماً . والهزيمة قد تفيد قواد الجيوش أكثر من الانتصار : « فواشنطون (٣) » كانت المعارك التى كسر فيها أكثر من التى ظفر فيها ، ولكنه نال الانتصار التام أخيراً :

تعطى التجارب حكمة لمجرِّب حتى تربى فوق تربية الأب

والحاجة قاسية صارمة فيها مصائب ومحن يقابلها الشهم الندب بالصبر الجميل ، وخطوب الدهر . وغير الزمان مرة المذاق كالعلقم ، ولكن نتيجتها أحلى من العسل ؛ لأنها تنبه المرء ، وتحرك همته . والخطوب مراقى العلاء ، والغنى يستدعى حكمة وافرة ؛ للتحفظ من الشرور التى يؤدى إليها .

نعم إن البعض تحمد أفعالهم عند ما يصيرون فى سعة من العيش ، ولكن الأكثرين لا تنفعهم السعة قدرما تضرهم ؛ فقد يحولهم الغنى من الخمول إلى الطيش ومن الذل إلى الكبرياء ، أما الضيق فانه يربى أصحاب الحزم على الجلد والصبر . ورخاء المعيشة أسهل من ضنكها ، ولكنه لا يربى رجالا . وأعمال

(١) رياضى إيطالى مشهور (١٦٠٨ — ١٦٤٧ م)

(٢) عالم طبعى إنجليزى (١٦٢٧ — ١٦٩١ م)

(٣) محرر الولايات المتحدة (١٧٣٢ — ١٧٩٩ م)

الحياة كحرب ضروس لا يغلب فيها إلا بطل لا يبالى باقتحام المخاطر ، والاختبار يعلمنا أن كل الموانع التى تحول دون تقدم البشر لا تقدر أن تثبت أمام الاستقامة والنشاط والهمة والمواظبة . وبخاصة أمام من يجزم ويعزم على مقاومة كل بلية تنزل به . وللمشاق فضل يعلو فضل المدارس فى تربية المبادىء الأدبية والتغلب على المصاعب بالعمل الصادر من ذوى الهمم العالية : شأن الانكليز الذين أصبحوا لا يفوقهم أحد همة بما بذلوه فى إنماء غلات لم تكن لتصلح لها بلادهم .

ولا عجب ، فالمصاعب تقوى مقاومها ، وتزيد مهارته ، وتنشط همته على مقاومة ما ينزل به من خطوب الدهر . وطريق الحياة وعر لا يقطعه إلا من مرن على تذليل الصعب والاحتيال لسلوكه . ولا سلاح أمضى من الإرادة الثابتة والعزم الحديدى فى إزالة العقبات :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأى أن تترددا

وما العزم الثابت إلا كالسيل يجرف أمامه ما يجده فى طريقه . وكثيرا ما يتوهم الانسان صعوبة أمر قبل المزاولة ، فاذا ما باشره وجده سهلا هينا ، أما التمنى والترجى فهما شيمة العاجز التكلة . والسهولة بنت المزاولة ، والقوة وليدة الممارسه ، ولا يبلغ العقل درجة الكمال إلا بهما :

والحزم والتدبير روح العزم لا خير فى عزم بغير حزم
والحزم كل الحزم فى المطاوله والصبر لا فى سرعة المزاوله
وفى الخطوب تظهر الجواهر ما غلب الأيام إلا الصابر
ليس الفتى إلا الذى من طرقه خَطْبٌ تلقاه بصبر وثقه

ومن أنواع التغلب على المصاعب تعلم العلم . وبعض الأشياء يظهر لك عديم الجدوى فى المرة الأولى ، وبعد إنعام النظر فيه تتجلى فائدته كدرس اللغات القديمة والرياضيات ، فانه كبير الثمرة لما ينشأ عنه من توسيع العقل وزيادة قوة الانصباب وبقية القوى — التى لولا الدرس لبقيت ضعيفة .

ومن تغلب على صعوبة مرن على قهر غيرها . وكل أمر يقود إلى آخر ، ولا تنقضى مقاومة المصاعب مالم تنقض الحياة . وويل لمن ارتطم فى هوة اليأس ، إذ لاتقوم له قائمة بعـــدها لضعف همته وخمود فكرته وتهيبه السهل والصعب .

وما أحسن النصيحة الذهبية التى نثرها « دلمبر » [1] لطالب علم شكا إليه عدم نجاحه فى مبادىء الرياضيات : وهاهى ذه :

(اجتهد تجد الثقة والقوة مقبلتين عليك) وسر البراعة فى كل شىء يرجع إلى استسهال صعبه ومزاولته : فلم يصر « هنرى كلاى » الأمريكى خطيباً مصقعاً إلا بعد أن قرأ الكتب التاريخية والعلمية ، وتلا مضمونها بصوت عال فى الحظائر والحقول والغابات ، وليس له من سامع سوى البهائم والطيور والحشرات .

ولشد مانخطىء إذا توهمنا أن الفقر المدقع عائق عن التقدم ، فانه إذا توافر العزم الثابت ، والأمل الكبير ، والثقة بالنفس عند المعدم ـ اجترف أمامه الصعوبات :

ألم تعلم أن (تيرى) اللغوى والمختصر لكتاب أصول الإيمان تعلم الكتابة بالفحم ؟ والأستاذ « مور » نسخ كتاب الأصول لنيوتن بيده ؟ فهل حال الفقر دون فوقهما ؟ ألم يجعلاه مرقاة الصعود إلى سماء العز والحكمة . وإليك ماقصه وليم تشمبرس الايدنبرجى [2] فى سيرة تقدمه على فئـــة من الشبان :

إننى أقف أمامكم كرجل علم نفسه ، لأننى أتيت إيدنبرج وأنا صغير فى غاية المسكنة ، وكنت أعمل كل النهار وجزءا من الليل عند بائع كتب ، لتحصيل قوتى الضرورى ، وأمضى الساعات الأخيرة من الليل التى كنت أسرقها من

---

(١) رياض فرنسى شهير (١٧١٧ — ١٧٨٣م)

(٢) مؤلف انجليزى (١٨٠٠ ـ ١٨٨٣ م)

النوم فى تهذيب العقل الذى منحتنى إياه العناية الإلهية ، وانصببت فى الأكثر على درس العلوم الطبيعية ، وفى غضون ذلك درست اللغة الفرنسية وحدى ، والآن أستعرض تلك الأيام بلذة لاتوصف ، وأودّ لوكانت أحوالى متعسرة كما كانت حينئذ ؛ لأنى وجدت لذة فى حياتى حينما كنت أدرس فى بيت صغير ولم يكن معى شىء من الدراهم أكثر مما أجد الآن وأنا فى أفخر القاعات »

وإنى لذاكرلك قصة مفيدة لطلبة العلم المحاطين بالمصاعب : فان «وليم كويت» فجر ينابيع العلم من صخور الفقر الصلدة ، وتعلم النحو الانكليزى فى أقل من سنة، وهو جندى مقعده سريره ، ومائدته قطعة لوح ، ونوره النار التى كان يوقدها فى نوبته

وكان لعدمه إذا اشترى قلما وقرطاسا ظل طاويا سحابة يومه ، واستبدل إرهاف عقله وتهذيب نفسه بغذاء جوفه !! فإذا كان هذا الرجل العظيم قد تغلب على ذلك الضنك الشديد ، فهل بقى عذر لطلاب العلم ؟ وهل يكون الفقر عقبة كأداء فى سبيل الرقى ؟

ووقت التعليم ليس له نهاية محدودة ، وتقدم الإنسان فى السنّ لا يفوت وقت تعلمه متى كان النشاط مشتعلا والاجتهاد متواصلا : فإن «فرنكلين(١)» الأمريكانى درس العلوم وهو ابن خمسين حولا ، و « روبرت هل » وهو شيخ طاعن فى السن تنتابه الأمراض والعلل - تعلم الايطالية ؛ ليرى صحة الموازنة التى عملها الشهير « ماكولى (٢) » بين « ملتن (٣) » الشاعر الانجليزى و «دانتى(٤)» الشاعر الإيطالى ؛ لأن الرغبة الشديدة أعادت إليه نشاط الشباب، وجلد الأبطال الأقوياء . ويمكن ذكر ألوف من الرجال الذين نهجوا سبيل

(١) عالم طبعى (١٧٠٦ — ١٧٩٠م)
(٢) مؤلف إنجليزى شهير (١٨٠٠— ١٨٥٩ م)
(٣) شاعر انجليزى مشهور (١٦٠٨ — ١٦٧٤م)
(٤) من فحول شعراء إيطاليا (١٢٦٥ — ١٣٢٠ م)

الحكمة بعد أن تقدموا فى السن . وهل يقول : إنى كبرت عن العلم إلا الجبان أو الكسلان ؟ على أن حكمة الشيوخ العالية ، وتجاربهم النافعة تنفعهم فيما يزاولون من الفنون ، وما يدرسون من العلوم .

ولا ننسى أن أساس النجاح الاجتهاد ، والبليد المجتهد خير من الذكى المفرّط : ألا ترى أن الرجال الذين نشلوا العالم من وهدة الشقاء ، وبلغوا به مدارج الرقى لم يكونوا من أصحاب المواهب العالية والعقول الكبيرة ؟ وكثير من الأذكياء أحرزوا الشهرة فى الصغر ، وحرموها فى الكبر ، والذين كانوا دونهم درجات سبقوهم بمراحل ؛ لأنهم اتكلوا على مواهبهم ، فخمدت عزائمهم ، وتراكم الصدأ على أفئدتهم فى حين أن من دونهم موهبة أخذوا يرهفون عقولهم بالاجتهاد ، ويشحذونها بالصبر والثبات ، فكان منهم الرجال الذين يشار إليهم بالبنان ، ويتحدث بذكرهم الركبان : وإنى ذاكر لك بعضهم :

كان « بيترودى كرتونا »[1] المصور الماهر معدودا من أبله الأولاد حتى لقب برأس الحمار ، و« نيوتن » لما كان فى المدرسة كان آخر فرقته ماعدا واحدا . وقد حدث أن الصبى الذى كان سابقه فى فرقته ضربه برجله ، فخاصمه ، وعزم أن يغلبه بالدرس ، واندفع بجواره فى ميدان العمل حتى كان أول حلبته .

والطبيبان الشهيران « تشرملس »[2] و« كوك »[3] طردهما معلمهما زاعما أنهما أبلهان لا يقبلان الاصلاح أبدا ، وما درى أن الله يساعد المجدين ، ويبدل شقاءهم هناء ، ويجعل عسرهم يسرا .

وقصارى القول أن الذكاء وحده ليس وسيلة إلى بلوغ أعلى المراتب ؛

---

(١) مصور إيطالى (١٥٩٦ — ١٦٦٩ م)

(٢) دكتور فى اللاهوت (١٧٨٠ — ١٨٤٧ م)

(٣) رحالة شهير (١٧٢٨ — ١٧٧٩ م)

فإن كثيرين من الذين فاقوا فى مدارسهم أهملوا الدرس ، فضاع علمهم ، ونسى اسمهم ، فى حين أن الذين حرموا حدة الذهن ، وقوة الذاكرة - توسلوا بالاجتهاد والمواظبة إلى بلوغ مآربهم ، فأفلحوا ، وأثروا ، وسبقوا أولئك الفائقين فى المدرسة بمراحل . واللبيب إذا أنعم النظر رأى بين جيرته ومعارفه أمثلة كثيرة تؤيد ما ذكر .

وصفوة القول أن النجاح فى الأعمال منوط بناحية الثبات والاقدام ، وأكثر الناس ثباتا وإقداما أوفرهم نجاحا ، وليس بعزيز على المرء أن يبلغ مناه على خلوه من القريحة الوقادة إذا استخدم قواه العادية من الانتباه والاجتهاد والمواظبة ، على أن بعض من شحذوا عزائمهم أدمجوا القريحة فى الصبر أو فى الملكات العادية : كإسحاق نيوتن ذى العقل الراجح ، إذ سئل عن وسائل كشفه الفائق ، فأجاب : بالتأمل المستمر فيها . وقد قال : إنى أضع الموضوع نصب عينى ، وأنتظر حتى يبزغ فجره ، ويصير نورا كاملا . بل إن بعض العلماء أنكر وجود ما يسمى عبقرية أو موهبة خاصة ، فقال : « إن كل الناس يمكنهم أن يكونوا شعراء وخطباء بالمزاولة » إلا أننا لا ننكر أن أولى القرائح الفطرية الفائقة إذا اجتهدوا كانوا أفذاذا . وإننا إذا تأملنا تاريخ من حركوا الدنيا بأسرها وجدنا أنهم لم يكونوا من ذوى المواهب النادرة ، بل كانت قواهم العقلية معتدلة ، ولكنهم كانوا من أهل الجد والثبات . ولا غرو ؛ فكل من سار على الدرب وصل :

ألم تر إلى السير « روبرت بيل (١) » كيف قوى ذاكرته الضعيفة حتى صار يعيد الموعظة التى يسمعها كاملة حرفا حرفا ، ولا يعزب عن بالك أن نيل الأمانى يكون بالتدريج ، فعلى العاقل أن يدرع الصبر ، ويزرع ليحصد فإن :

من جعل الصبر فى مقاصده وفى مراقيه سُلَّما سَلِمَا

(١) من أشهر رجال السياسة إجماعا

على أن بلوغ المآرب لا يقتصر فيه على الصبر ، بل لابد أن يشفع بطيب النفس ؛ إذ الاجتهاد وطيب النفس تسعة أعشار الحكمة ، وهما حياة النجاح وروحه .

ولا يفوتنا أن نشيد بذكر الأمل ؛ فإنه يشجع الإنسان ، ويقويه على اقتحام المصاعب ، وإن لم يدرك ثمرة غرسه :

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

ولقد تذهب بجهد المجد عادية من العوادى ، فلا ييئس ، ويبتدىء عمله من جديد بهمة يقودها الرجاء العظيم ويستحثها الإيمان بحسن العاقبة : فهذا « أوديبون » (١) العالم بالطيور سطت على رسومه الجرذان ، فأكب على الرسم من جديد ، واسترجع مافقده فى ثلاث سنوات فى حال أدق .

ولنا فى سلوك المخترعين والمؤلفين أمثلة كثيرة فى الثبات وقوة الصبر : « فجمسوط » (٢) قضى فى عمل آلته البخارية ثلاثين عاماً قبل إتمامها ، و « بيفون » (٣) الذى لم تمنعه ثروته الطائلة ، وداؤه العضال من الاكباب على الدرس ، وتأليف المؤلفات الممتعة ؛ فاجتنب الترف ، وحرم نفسه لذة النوم ، وجعل لخادمه مكافأة على إيقاظه مبكراً ، ولم تأخذه العزة حين صب خادمه الماء المثلوج على رأسه ؛ ليحمله على النهوض من فراشه . ولم تزل تلك حاله حتى اعتاد القيام الباكر ، وبلغ ضالته :

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

ويوسف هيوم (٤) الذى ربته أمه بتعب يديها تعلم الجراحة واللغة الهندية ، وأتقنها ، فجعل رئيس أطباء الجند ، وصار عضواً فى المؤتمر الانجليزى ،

---

(١) أمريكى مشهور بعلم الطيور (١٧٨٠ – ١٨٥١ م)

(٢) (١٧٣٦ – ١٨١٩ م)

(٣) عالم فرنسى طبعى (١٧٠٨ – ١٧٨٨ م)

(٤) سياسى انجليزى (١٧٧٧ – ١٨٥٥ م)

وباشر أعمالا عظيمة ، وواظب عليها سنين عديدة ، وكثيراً ما كان أعضاء المؤتمر يقومون ضده ، ويهزءون بآرائه ، ويغلبونه ، فلم يثن ذلك عزمه . وعاش حتى سلم الجميع بأكثر مطالبه ، ومدحوها ، وعملوا بها ، وما وصل إلى ذلك إلا بقوة ثباته ومضاء عزيمته .

ونحن نورد لك مع الإعجاب بعض النابهين من رجال الشرق بفضل الكد والمواظبة على العمل . ولقد يتملكك الدهش حين تعلم أن «ابن الجوزى»(١) ألف كتباً لو قسمت على أيام حياته لخص كل يوم تسع كراسات، و « جلال الدين السيوطى » بلغت مؤلفاته بما فيها من أدلته النقلية والقياسية أربعمائة مصنف ، و « الفارابى » الذى أكب على المطالعة والتصنيف مستضيئاً بضوء قنديل الحارس ، حتى ألف أكثر من ثمانين كتاباً جمع فيها فرائد الحكمة وشوارد المسائل . ومن دلائل مضى عزيمته ، وقوة صبره ، وعظيم رجائه فى النجاح أنه قرأ السماع لأرسطو أربعين مرة .

وإن ننس لاننس أولئك الشرقيين الذين نزحوا من ديارهم ، وتجشموا مشاق الأسفار ، وامتطوا متن الأخطار ؛ لينظروا ماحاكته القدرة الإلهية من الأنهار ، والأودية ، والجبال ، والسباسب رغبة فى معرفة الأقطار وما حوته من محاسن الخليقة :

« فياقوت الحموى » انتهز فرصة اشتغاله بالتجارة وقضائه السنين الكثيرة جائلا فى بلاد العرب ومصر والشام والجزيرة وخراسان ، فألف كتابه معجم البلدان المحيط بجميع أقسام المعمورة حتى مطالع النجوم وأنوائها ، ولقد لقى فى تأليفه من المشقة والعناء ما أحله المحل الأول بين رجال الإقدام والثبات . وهذه العجالة لاتسع أخبار كثيرين من علماء الشرق الذين لم يألفوا الراحة ، واستعذبوا مرارة الاغتراب حبا فى شاردة يلتقطونها ، أو بادرة يثبتونها . ويكفى من القلادة ماحف بالعنق .

(١) مؤلف بغدادى (٥٠٨ ـ ٥٩٧ هـ)

خامساً : النشاط وقوة الإرادة

النشاط والهمة أساس لكل نجاح ، فعلى مبتغيه أن يقرع باب رعيه بسعيه ، ويجوب كل فج ، ويلج كل لج ، وينتجع كل روض ، ويلقى دلوه فى كل حوض ، وإياه أن يسأم الطلب ، أو يملّ الدأب ؛ فإن من طلب جلب ، ومن جال نال ، وما اشتار العسل من اختار الكسل ، ولا ملأ الراحة من استوطأ الراحة ؛ فالخور صنو الكسل ، وسبب الخيبة . ولقد خبر ذلك الأولون ، وظهر أثره فى ثنايا حكمهم : فقال «جا كس كَرْ » : لامستحيل على القلب الشجاع . وفى المثل الألمانى : « الأرض للنشيطين » وقال على كرم الله وجهه : « الخيبة مقرونة بالهيبة » .

وقد يستدل على أحوال الشعب بأعمال طفيفة تصدر من بعض أفراده : فقد جرد رجل فرنسى شعبا من النشاط ؛ لأنه رأى ضربة مِطْرَقة أولادهم ضعيفة ، وحذر صديقا له أن يقيم بين ظهرانيهم . وهو محق فى رأيه ؛ فكما تكون الآحاد يكون الشعب ، والنشيط لاتحجزه الموانع عن مطلبه ؛ فسرعان مايتخطاه بماضى همته .

ولابد للموهبة من نشاط يظهر أثرها ، كما أن استعداد الشخص للعمل أثر من آثار إرادته . والأمل مرتبط بالنشاط ، فمن وضع نصب عينيه نيل الأمل احتمل المتاعب بالصبر الجميل ، ولاقى المحن متهللا . ومن اتسعت مطامعه وقصرت مقدرته كان أكثر الناس شقاء :

وأتعب خلق الله من زاد همه　　　وقصر عما تشتهى النفس وجدهُ

فيجب على من ألقيت إليهم مقاليد الأمور أن يدربوا الشبان على إخراج كل شيء من حيز الأمل إلى حيز العمل ، ويجعلوا الإكباب على العمل ملكة راسخة فيهم بالمواظبة ؛ فإن الحياة جهاد . وغيوم المصاعب تنقشع بالهمة والحزم ، كما ينقشع الضباب بحرارة الشمس :

وإنى إذا باشرت أمرا أريده تدانت أقاصيه وهان أشده

ولا غرو ؛ فإن الانسان إذا أكب على عمله بشجاعة أفلح ، ولوكان ضعيف القوى . وهذا هو الجهاد الذى تدهش نتائجه كل من ينظر فيها ، والآمال طلائع الأعمال . فمن عظمت آماله قويت همته ، ومضت عزيمته ، فتحققت بغيته :

حكى أن جنديا فرنسيا كان يتمشى فى غرفته ويقول : « لابد أن أصير قائدا » ومابه من شدة الأمل هون عليه كل عسير ، فنال مرامه ، وصار من أعظم القواد .

وهكذا كل إنسان يستطيع أن يدرك مناه بقوة إرادته ؛ إذ ليس الإنسان ورقة ترمى فى النهر ، لتدل على سرعة مجراه ، بل هو سباح نشيط يقاوم التيار ، ويصارع الأمواج ، ويسير إلى حيث أراد بقوة ذراعيه .

وهذه الشرائع الالهية والوضعية ، ومعاهد التعليم بمافيها من وعظ ونصح تدل على أن الانسان حر الارادة ، وليس عبداً لعادته وتجاربه ، بل هو سيد عليها . ولما كانت الإرادة أسهل القوى انقيادا وجب أن يكون الانسان قويها ؛ لئلا تبقى :

كريشة فى مهبّ الريح ساقطة لاتستقر على حال من القلق

والارادة تتجلى فى الدأب والمزاولة والمواظبة والثبات ، ولاتحتاج إلا إلى التدريب : فاذا مرّنت على الشر كانت شيطانا مريدا ، وكان العقل لها عبدا ذليلا . وإذا درّبت على الخير كانت ملكا رحيما ، وكان العقل لها وزيرا حكيما ، والشاب يمكنه أن يكون كما يشاء بارادته وعزمه :

فهذا « نابليون » الأول صاحب العزم والارادة كان أكره شىء لديه هذه الكلمات : « لاأقدر ، لاأعرف ، مستحيل » وكان جوابه عنها : « حاول ، تعلم ، جرب » ولقد ظهر أثر الارادة فى حياة هذا الرجل : فقد أخضع أمما ، وقهر ممالك . وقيل له يوما : « إن جبال الألب الشاهقة تمنعك عن التقدم » فقال : « يجب أن تمحى من الأرض » .

وأول مظاهر النشاط السرعة ؛ فان بها يكتسب الظفر :

وربما فات قوما جل أمرهم من التأنى وكان الحزم لو عجلوا

وما أجدر «هستنج»(١) بالاعجاب ؛ فانه وهو فى السابعة من عمره استلقى بجانب غدير كان فى أملاك أسلافه ، وتأمل ما كانوا عليه ، فحتم على نفسه أن يسترجع أملاكهم واسمهم ، وبعزمه وإقدامه صار من أعظم رجال عصره ، فاسترد أملاك أجداده ، وبنى بيت أسرته .

وقد قام فى بلاد المشرق رجال مشهورون بالهمة والاقدام قادوا الجيوش ، ودوخوا البلدان ، وفتحوا الأمصار ، وأقاموا لهم اسما بين أعظم الفاتحين : مثل : خالد بن الوليد ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، وصلاح الدين الأيوبى ، ومحمد الفاتح ، وإبراهيم باشا ، وغيرهم من عظماء المشرق .

سادسا : كثرة العصاميين

العمل يرفع الأحساب الوضيعة ، ويحقق الآمال الجليلة ، ويجعل صاحبه من ذوى السلطان ، ويدنيه من أولى التيجان ، ويحفظ على أصحاب الشرف سيادتهم جيلا بعد جيل . وما احتفظ أشراف الإنجليز بسؤددهم ، وفضلوا أشراف سائر الممالك إلا بعملهم وجدهم . ولو أنهم تركوا العمل لدرس مجدهم ، وزال عزهم : قال الإمام « الأوزاعى » : « إذا أراد الله بقوم سوءا أعطاهم الجدل ، ومنعهم العمل » .

والناس كلهم إلى آدم ، وإنما يتفاضلون بمبتكرات عقولهم ، وثمرات أيديهم . والجاه والمجد ليسا محبوسين على فئة دون أخرى ، بل هما حق الجميع :

فمن شمر عن ساعد الجد نالهما ؛ ومن توانى حرمهما . وكم من حقير سما ، وعظيم انحط . والدهر بالناس قلب : إن دان يوما لشخص ففى غد ينقلب . ونكبات الخاصة أكثر وأشد من نكبات العامة ؛ إذ لا يوجد الآن رجل

(١) حاكم الهند الانجليزى (١٧٤٢ - ١٨١٨ م)

واحد فى مجلس الأعيان من نسل أولئك الخمسة والعشرين بارونا الذين لهم الفضل فى حمل ملك الإنكليز على العمل بالبراءة العظمى « الدستور الإنجليزى » ؛ فقد قضت الحروب الأهلية ، والثورات الوطنية على كثيرين من الأشراف ، ونالت من أولادهم ، فتفرقوا أيدى سبا ، وخالطوا العامة ، وعاشوا بين أدنى رتبها :

قال : « برك [1] » إنه رأى اثنين من نسل إل « كنت » ابن الملك إدورد الأول : أحدهما قصاب ، والآخر جاب ! ! ويوجد الآن واحد من نسل « سمعان ده منت فرت » زعيم أعيان إنجلترة يصنع السروج ! !

ولئن دهمت المصائب أولئك الأشراف ، وبدلتهم من غناهم فقرا ، ومن عزهم ذلا ـ فقد أفلت مناغيرهم ، ولم يتقلص ظل عزهم .

هذا ، وما كان للسيادة الانجليزية فى غابر الزمان من وسيلة إلا الغنى . أما الآن فمعظم الأعيان الحاليين فى البلاد الانجليزية حديثو العهد بها ، وأكثرهم نالوها بجدهم فى عملهم : فبيت « درِ نموُث » أسسه جلاد ، وبيت « رِدنور » شيد أركانه حائك ، وبيت « دوسى » رفع بناءه خياط .

وهذه سيرة أصل بيت « فولى » و « نُرمنبى » تعلم منها كيف يرفع العمل صاحبه إلى ذروة المجد :

لما كان أبو رتشرد فولى مؤسس بيت فولى ساكنا فى جوار معمل من معامل الحديد فى عهد تشارلس الأول رغب فى تعليم ابنه الصناعة ، فنشأ صانعاً ، وعرف كيف يصنع المسامير . ولقد كسدت مسامير موطنه بما كان يرد من أسوج ويباع بثمن زهيد ، ففكر فى معرفة طريقة يستطيع بها أن يقضى على هذه المزاحمة الأسوجية ، فسافر إلى موطنها ، وهو خالى الوطاب إلا من دراهم معدودة كان يكسبها من ضربه على العود ، فما حط

(١) فيلسوف إنجليزى مشهور بالفصاحة (١٧٣٠ ـ ١٧٩٧ م)

رحله بها حتى أنس به الحدادون ، وأكرموا مثواه لجودة لعبه ، ولطف محضره ، فصار يرقب عملهم من كثب ، ويذخر ما يفهمه فى ذهنه .

ولما ظن أنه حصل على بغيته رجع إلى بلاده ، وكاشف موسرين بما فعل وطلب إليهما أن يمداه بالمال ، فأجاباه إلى سؤله ، إلا أنه بعد أن رتب كل شىء ، وعمل الآلات الضرورية - وجد بها نقصا ، فعاد من حيث أتى ، ففرح به الصناع ، وأفردوا له مسكنا داخل المعمل ، حتى لا يحرموا سرور محضره ، وما زال يدقق النظر فى صنع الآلات ويطبع صورها فى ذهنه ويرسم ما استطاع حتى إذا حذق تلك الصنعة قفل مسرعا إلى بلاده ، وأكب على إصلاح ما كان فاسدا من آلاته ، ونجح فيه نجاحا باهرا ، وكسب مالا وفيرا ، وفتح لكثيرين من الصناع أبواب العمل ، وساعد على الأعمال الخيرية ، وأسس مدرسة فى «اسْتُورْ بِرِدْج» يتعلم فيها الفقراء بغير أجر ، فرفع بذلك منزلته ، ونظم بيته فى سلك البيوت الشريفة فى عهد الملك تشارلس الثانى .

أما «وليم فِبْس» مؤسس بيت «نُور مَنْبِى» فقد ولد سنة ١٦٥١ م ولم يرث عن أبيه سوى صحة جسمه كإخوته العشرين ، وكان له ولع بسفر البحر ، فلم يوفق فى أول الأمر إلى إدراك طلبته ، فاشتغل نجاراً عند سَفّان ، وسرعان ما أجاد السفانة وأتقن القراءة والكتابة فى فترات راحته . وأنشأ مسفناً بعد أن انتقل الى بوستن ، وتزوج بمثرية ، وبنى مركباً ، ونزل فيه ، ولازم الاتجار بالخشب عشر سنين .

ولما جبل عليه هذا الرجل من اقتحام الأخطار ركب فى سفينته مع جماعة من البحارة إلى جزائر «بهاما [١]» حبا فى انتشال ما فى السفينة الإسبانية التى سمع أنها غرقت فى تلك الجزائر .

وفى اهتدائه إليها وإخراجه بعض ما كان فيها من متاع ومال لم يزيدا على

(١) سلسلة من الجزر ممتدة من شاطىء هايتى الشمالى إلى شاطىء فلوريدا الشرقى

ما أنفق - إضرام لنار الرغبة فى بلوغ الأوطار على ثبج البحار : يتبين ذلك فى إسراعه إلى إنجلترة طالباً المعونة ؛ لاصطياد ما حوته سفينة أخرى إسبانية غرقت منذ خمسين سنة بقرب ميناء « لابلاتا » وقد سبقته شهرته إلى إنجلترة ، فمدت له سبيل المساعدة ، وأعطاه تشارلس الثانى سفينة فيها ثمانية عشر مدفعا وخمسة وثمانون بحريا سارت بهم إلى تلك الجهة ، فظلوا زمنا مديداً يبحثون عن ضالتهم ، ولما طال بحارته المدى ، وأخذ منهم الغضب كل مأخذ - سرى إليهم اليأس ، وعصوا أمره ، فقمع ثائرتهم بمهارة فائقة وعزم حديدى ، ولم يفت فى عضده عطب السفينة ، ولا إجماعهم أمرهم على قتله ؛ فانه رد كيدهم فى نحورهم ، وأعادهم إلى خدمته صاغرين بحسن تدبيره ، واستبدل بهم غيرهم حينما مكنته الفرصة ، ورجع إلى إنجلترة ، وأصلح سفينته ، وآب إلى عمله بعد أن زوّد بالمال الكثير واستعان بغواصين من الهند ، ومكثوا عدة أسابيع يغوصون دون جدوى ، ولكنهم تدرعوا الصبر حتى ظفروا بالسفينة فى جوف الماء ، وأخرجوا من فضتها وذهبها ما قيمته ثلثمائة ألف جنيه إنجليزى ، فقصد الملك ، وبسط له ما لقيه من التعب ، وما ناله من الفضة والذهب ، فأعجب بصدقه وأمانته ، وترك المال له ولبحارته ، وأنعم عليه بلقب شرف إشادة بذكره ، فخدم الدولة خدما كثيرة ثم صار واليا ، وكان يفتخر بأنه ربّى سفان ، فصار عظيما ثم واليا بعمله وكده .

وحق لبيت « نرمنبى » أن يفتخر مدى الأجيال باسم « وليم فبس » المخلد فى الاستقامة والشجاعة ومحبة الوطن .

وإننا إذا تتبعنا تاريخ الذين أحرزوا الشرف ، وتبوءوا أرائك المجد براً وبحراً ، قديما وحديثا - نجد أنهم ما وصلوا إلى منزلتهم إلا بكدهم ودأبهم ، غير أن السبل كانت متعددة :

فمنهم من كانت وسيلته حومة الوغى « كنلسن[١] » و « سنت فنسنت »

---

(١) أشهر أمير بحر انجليزى (١٧٥٨ - ١٨٠٥م)

وغيرهما ممن حازوا الشرف بساعدهم ، ـ ومنهم وهم الأكثرون ـ من كانت وسيلتهم العمل المتواصل ؛ فان نحو سبعين شريفا من الانكليز لبسوا تاج الشرف ، وعدتهم فى ذلك القضاء أو المحاماة أو التجارة أو الرهبنة ، ومن هؤلاء من كان نجاحه سريعا جداً : كاللورد « منسفيلد (١) » فقد صار يرتقى من منصب إلى منصب بجده واجتهاده حتى صار لورداً ، وهو أعلى لقب فى الدولة .

وقد ذكرنا قلا من كثر من الرجال العظماء الذين استعملوا قواهم الطبيعية ، وشحذوها بالصبر والكد والثبات ، حتى بلغوا هامة المجد ، وصاروا مضرب الأمثال فى علوّ الهمة .

ولم يكن للشرق من صناعة تنهض بصاحبها إلا صناعة الانشاء :

فهذا ابن الزيات كان جدُّه يتجر بالزيت فى بغداد ، وكان هو كاتبا فى ديوان الخليفة المعتصم ، فاتفق أن ورده كتاب من بعض العمال فى تضاعيفه كلمة « الكلأ » فسأل وزيره عن معنى هذا اللفظ ، فلم يحر جوابا ، فقال : أبصروا من بالباب من الكتاب . فوجدوا ابن الزيات . ولما مثل بين يديه شرح له أسماء الكلأ رطبا ويابسا ، وأفاض فى ذكر أقسام النبات بعبارة فصيحة تدل على فوق فى النحو واللغة والانشاء ، فاستوزره ، وحكمه ، وبسط يده .

وابن مقلة المشهور بالكتابة والخط ابتدأ عمله بجباية خراج فارس ، ورقى به أدبه إلى منصب الوزارة فى عهد ثلاثة خلفاء : هم المقتدر ، والقاهر بالله ، والراضى بالله .

أما عصرنا فقد نبغ فيه كثيرون من أولاد الصناع والفلاحين ، وتبوءوا مناصب الوزارة نخص بالذكر منهم العالم الشهير « محمود باشا الفلكى » : فانه

---

(٢) قاض إنجليزى (١٧٠٤ – ١٧٩٣ م)

ولد ببلدة الحصة من أعمال مديرية الغربية ، وابتدأ يتعلم فى مدرسة الاسكندرية سنة ١٢٤٠ هـ ، فأقبل على قطف ثمار العلوم ، ولم يزل يصل ليله بنهاره متنقلا فى المدارس حتى عين أستاذا للعلوم الرياضية والفلكية فى مدرسة المهندسين ، ولفرط ذكائه أوفدته الحكومة المصرية إلى أوربة لاتمام الدروس المنوط به تدريسها ، فلبث تسع سنين دائبا فى الدرس والتحصيل حتى إذا عاد إلى بلاده نفحها بعلمه الغزير ، ورسم مصوراً لمصر السفلى لم يأت أحد بأحسن منه ، كما ألف كتبا ورسائل كثيرة تدل على نبوغه ولم تغمطه الحكومة حقه ، فاستنابته عنها فى المجمع الجغرافى بباريس سنة ١٨٧٥م وبالبندقية سنة ١٨٨١ م وأسندت إليه المناصب العالية ، فاستوزرته فى الأشغال والمعارف ولم يكن الوحيد فى بابه ، بل كانت مناصب الآستانة العلية والقاهرة المحمية غاصة بالعصاميين الذين جعلوا الجد سلما ارتقوا به إلى أعلى المراتب ، فصاروا مثلا يحتذى ، وذكرا خالدا يقتدى

سابعا : قيام المجد على المخترعين والصناع

لايتسع المقام لبسط القول فى إقامة مجد الأمم على أهل الاختراع والصناعة فيها ، بل حسبنا هذه العجالة :

إن الدول الغربية لم ترتفع منزلتها إلا باجتهاد عامتها، ولم يتوطد سلطانها إلا بكد آحادها ، لافرق فى ذلك بين فالح الأرض ، وصانع الأمتعة ، وعامل الآلات ، ومصنف الكتب ، فكل وضع لبنة فى هيكل مجدها ، إذ عرفوا أن العمل أساس كل تقدم ، فذللوا به صعاب السنن الكونية ، ولم يشعروا بمتاعبها ، فان للذة العمل نشوة أنستهم ما كابدوه من المشاق ، وماخلقت الجوارح إلا للعمل الذى لايحط من شأن الانسان ولو كان متوجا بتاج الفخار.

ولا غرو ، فهو أمهر معلم ، ومدرسته أرقى المدارس ، فان فيها تعلم الحكمة العملية التى تجعل الانسان مفيدا مستقلا .

وأرباب الصناعات على فقرهم لهم اليد البيضاء فى راحة الناس وهناءتهم فى غدوهم ورواحهم وحلهم وترحالهم ، وهذه المخترعات والمكشوفات التى أراحت العالم أثر من آثار اجتهادهم ، ونتيجة من نتائج قرائحهم بعد أن أخذت أدوارها فى مختلف الأعوام والقرون :

انظر إلى الآلة البخارية التى اخترعت فى العصر الحديث تجدها قد مر عليها أكثر من ألفى سنة ، والصناع يفكرون فى إيجادها واحداً بعد آخر ، والمتأخر يحسن عمل سابقه ، حتى برزت فى عالم الوجود ، وانتفع بها كل مولود .

وإنا لنسوق إليك سيرة بعض العمال الذين اخترعوا ماله أثر ظاهر فى رقى الناس وحضارتهم :

« فجمس وط » فى مقدمتهم وهو الذى حول بهمته كل علومه وقواه إلى غاية مفيدة ؛ فان الأرباع [1] التى كانت فى دكان أبيه نبهته إلى درس علم البصريات والهيئة . ونحافة جسمه حملته على درس علم وظائف الأعضاء . ورغبته فى الجولان جعلته عالما بالنبات والتاريخ .

ولما طلب إليه أن يصنع صلبوبا (٢) أكب على درس علم الايقاع ، فجاء صلبوبه بديع الاتقان . ولما كلف أن يصلح مثالا من آلة « نيوكمن » البخارية تتبع ظواهر البخار والحرارة واصطناع الآلات ، فهداه بحثه إلى اختراع الآلة البخارية المكثفة التى أخذ « ملتن » على عاتقه استخدامها فى تحريك الآلات المختلفة ، وقد تداولتها أيدى المخترعين ، حتى صارت تدير الآلات ، وتسير السفن ، وتطحن الحبوب ، وتطبع الكتب ، وتسك النقود وتطرق الحديد ، وترفع الأثقال ، وتنسج الملابس ، وتفدن الأرض وتعمل كل عمل يحتاج إلى قوة ، وقد صارت تسير المركبات البرية بهمة

(١) آلات فلكية
(٢) مزمارا

« استيفنسن » وابنه . ويرجع الفضل فى إنشاء معامل القطن إلى اختراع « وط » ذلك الرجل الذى يحمل نفسا تستسهل الصعب فى إدراك مناها .

ولقد ابتدأت الصناعات التى أغنت الأمة الانجليزية على أيدى أناس من العملة والصناع : منهم « روبرت بيل » الذى اتجهت أفكاره إلى كيفية طبع الأنسجة ، فهداه بحثه إلى رسم صورة على صحفة طعام ، وخطر على باله أن يطبع بها المنسوجات ، فقصد جارة له عندها آلة للصقل ، ووضع الصحفة فى الآلة ، وجعل فوقها قطعة من النسيج ، ثم ضغطها بالآلة ، فانطبعت الصورة عليها ، ولم يزل يجرب حتى صنع آلة متقنة لطبع المنسوجات ، فراقه ذلك ، وترك الفلاحة ، وأخذ هو وأولاده يطبعون المنسوجات . ولما كبر أولاده أنشئوا المعامل العظيمة الغاصة بالعمال ، فأفادوا . واستفادت الأمم من عملهم النافع .

ويمكننا أن نطلعك على سير كثير من المخترعين وما لا قوه من المتاعب ، وعانوه من الرزايا ، ولم يقطفوا ثمار عملهم . غير أننا نكتفى بذكر سيرة مخترع حديث العهد وهو « هلمن » مخترع الممشطة :

ولد فى « مِلْهَوْس » إحدى بلاد الألزاس سنة ١٧٩٥ م وألحق بمعمل قطن ، وقد ناهز الخامسة عشرة من حياته ، ومكث فيه سنتين كان يقضى أوقات فراغه فى رسم الآلات ، وقد درس الرياضيات فى باريس بعد انتقاله إليها . ولما تعلم غزل القطن فى معمل بها ، وعرف تركيب الآلات ـ قفل راجعا إلى الألزاس حيث نصب مديراً للعمل ، وكان يحاول اختراع آلة للتطريز تحرك عشرين إبرة فى وقت واحد ، فأتمها فى ستة أشهر ، ونال عليها وساما ذهبيا ، ووسام الشرف فى معرض سنة ١٨٣٤م ، كما اخترع نَوْلا وآلة لقياس النسيج وطيه . وأفضل اختراع له آلة التمشيط . وهاك تاريخ اختراعها :

خطر على باله أن يصنع ممشطة لفصل ألياف القطن الطويلة من القصيرة قبل غزله ، وقد أثار مجمع النسيج فى الألزاس هذه الرغبة فيه ؛ لا طمعا فى الجائزة

التى أعدها ذلك المجمع ، وإنما هو شرف الاختراع استحثه . وقد تعب فى هذا الاختراع سنين عدة نفد فيها ما كان معه من المال دون أن يحصل على نتيجة مرضية ، فمدّ له أصدقاؤه أيدى المساعدة لاتمام اختراعه . ولما منى بموت امرأته رحل إلى انجلترة ، فلم يصب نجاحا ، ثم رجع إلى فرنسا ، وهو هائم بهذا الاختراع ، وبينما كان جالسا ذات ليلة فى بيته إذ رأى بناته يمشطن شعورهن بمشطة فجال بباله أنه لو صنع آلة تمشط الشعر الطويل وترد القصير إلى الخلف فى رجوعها لأتت بالمطلوب ، فصنع تلك الآلة التى صار يُنْسَج بها من كمية من القطن خيط طويل .

ولقد ذاع هذا الاختراع فى بلاد الإنجليز ، فقدره الغزالون قدره ، واجتمع أصحاب ستة معامل من معامل لانكشير ، ونقدوه ثلاثين ألف جنيه مقابل استعمال هذه الآلة ، كما دفع له غازلو الصوف مثل هذا المبلغ وغازلو الكتان ثلثيه ، فأقبلت عليه الدنيا ، ولكنه ودعها من غير أن يتمتع بنتيجة عمله ماديا ، وإن كان قد ترك له ذكرا خالدا وصيتا ذائعا :

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

لعلك قرأت طرفا من سير أبطال التصوير فى البلاد الإنجليزية الذين لم يَمْهَروا فى مهنهم بالمصادفة والاتفاق ، بل بالتعب والسهر ، وليس لأولئك المهرة من مأرب سوى لذة الاجادة فى الأعمال ، أما الثراء من جراء ذلك فأمر يجىء تبعا ، ولو أن أحدهم جعل نصب عينيه الربح لحال ذلك دون فوقه ، وظل فقيرا . وقليل من الناس من يقدر المصور حق قدره ويعرف له صبره وجلده اللذين داوم عليهما حتى صار التصوير له ملكة راسخة .

قال بعضهم لنقاش : أتطلب منى خمسين دينارا فى تمثال عملته فى عشرة أيام ؟ فأجابه **النقاش** : ألا تعلم أننى تعلمت ثلاثين سنة حتى أمكننى عمل هذا التمثال فى عشرة أيام ؟

وهذا « هوغرس » بلغ فى التصوير شأواً بعيداً باجتهاده وتدقيقه ، وكان إذا رأى صورة غريبة رسمها على ظفر إبهامه ؛ لينقلها إلى القرطاس حينما تمكنه الفرصة . ولا تنس ولعه بالمناظر الجديدة التى كانت تحمله على الانعطاف عن الطريق ليظفر بها ، فخزن فى ذاكرته كثيراً من الرسوم والأوصاف التى تجلت فى مصنوعاته .

و « كلودرين » ما حاز الاسم الأول بين مصورى الدنيا إلا بعد أن أنضى جسمه ، وشحذ قريحته فى إجادة عمله ، فكان يراقب الجوّ أياما كثيرة من الغدوة إلى العشى ، ويلاحظ تغيراته بمرّ السحاب واختلاف النور ، ولا يشتار العسل من يألف الكسل .

وكانت «رومة» مثابة المصورين والنقاشين يؤمونها ولو مشيا على الأقدام ليتزودوا من براعة أهلها ، كما هبطها « فرنسوابريه » المصور الفرنسى قائدا لشحاذ أعمى . وهاك سيرة من فاق غيره فى اقتحام المخاطر وهو :

« بنفنتيوسلينى » جمع بين الصياغة والتصوير وصناعة التماثيل والنقش والهندسة والتصنيف ، وكان كثير الترحال إلى « فلورنسة » و « رومية » و « نابلى » و « باريس » ولم تقف صعوبة مّا عن بلوغه وطره . فلو أنك عرضت ماحصل له فى صناعة تمثال « فرساوس » من العوائق التى اعترضته وهى كثيرة لعلمت أنه استهان بالأخطار فى سبيل إبراز هذا التمثال بديع الصنع ؛ فإنه صنع تمثالا من الشمع ، وحصره بين طبقتين من الخزف ، وشواه فى حفرة تحت أتون أذاب فيه النحاس ، فذاب الشمع ، وترك خلاء بين الخزفين ليسكب فيه النحاس المصهور ، ولكن الأمور لم تجر على مراده : فعصفت الرياح ، وهطل المطر ، فأخمدت النار ، ولم يصهر المعدن ، فلم يزده ذلك إلا إيمانا بنجاحه ، وأخذ من جار له حطبا يابسا ، وأخذ يوقده حتى صهر المعدن ، ولم يعبأ بالرياح والأمطار وأقام ستاراً من الموائد والنسج ، وظل يلقى الوقود تحتها ، ثم رمى قطعة من اللحام فوق المعدن . وبينما هو

كذلك إذا بصوت شديد كالرعد القاصف ووميض برق لاح أمام عينيه، فالتفت فرأى صمامة الأتون قد انفتحت ، وانبثقت منه الصهارة التى لم تكن تجرى بالسرعة المطلوبة فأسرع إلى أوانيه النحاسية والقصديرية والرصاصية - وكانت تنيف على مائتى إناء - وطرحها فى الأتون ، فاستقام جريان الصهارة ، وتم له سبك تمثال فرساوس الشهير .

ومن لهم الصيت الذائع فى الفن « جون جبْسن » فقد شاهد فيه أبوه ميله إلى التصوير والنقش فى الخشب ، فأرسله إلى لفربول عند نقاش خشب رغبة أن يكون صانعا ، فأتقن تلك الصناعة فى وقت وجيز ، وصارت منقوشاته موضع دهشة أولى الفن ، ولم تقف به همته العالية عند هذا الحد ، بل سار قدما فى نحت التماثيل من الحجارة .

وإن تعجب فعجب أن يصنع تمثالا للزمن بديع المنظر وهو ابن ثمانى عشرة سنة ، وقد مكث عند «أولار فرنسيس» ست سنوات أظهر فيها البدائع ، وانتقل إلى لندن ورومة ، وطبق صيته أرجاء أوربة .

وكنا نود أن نسوق إليك سيرة مهرة الشرقيين من الآشوريين والبابليين والمصريين وغيرهم فى التصوير والنقش والغناء لو أن التاريخ أنصفهم مع أنهم بلغوا الغاية القصوى فى الاتقان ، والآثار المصرية ناطقة بفوقهم

أما العرب ومن قام فى دولهم فلم يكن لهم نصيب فى التصوير والنحت ، ولكنهم انفردوا بالغناء ، وأسروا القلوب بنغماتهم الشجية ، واستحوذوا على القلوب بغردهم المطرب .

ومن مشهوريهم إبراهيم الموصلى ، وابن جامع ، وابن مسجح : أولئك الذين أتقنوا الغناء ، وأجادوا التلحين ، وكانت لهم الحظوة عند الملوك والأمراء . وإنا نسوق إليك مايدل على مهارة إبراهيم الموصلى وابن جامع ، وفطانتهما فى هذه الصناعة :

فقد زاره ابن جامع ، فأخرج إليه ثلاثين جارية ، فضربن جميعا طريقة

واحدة ، فقال ابن جامع : فى الأوتار وتر غير مستو . فقال إبراهيم : يافلانة ، شدى مثناك ، فشدته . فاعجب لفطنة ابن جامع لوتر غير مستو فى مائة وعشرين وترا !! ثم ازدد عجبا لفطنة إبراهيم له بعينه !!

الصابرون أولو العزيمة الصادقة

هل أتاك حديث صناعة الخزف ؟ إنها صناعة معروفة من قديم الزمان عندمعظم الشعوب . وقد كان لعرب الأندلس يد فى إنهاض هذه الصناعة ، وعنهم أخذ الايطاليون .

والمتتبع تاريخ هذه الصناعة وما نالته من الرقى يجد أن الصبر كان لحمتها ، والمثابرة المشفوعة بالرجاء سداها . ومحال أن يدرك المطلوب يائس أومستنيم « فما انقادت الآمال إلا لصابر »

وأنت ترى أن الذين لايتعودون احتمال الشدائد والصبر على المكاره من برد وحر وجوع وعطش لايمكنهم الوصول إلى مبتغاهم ، ومن يمنى نفسه بأطيب الأمانى وهو على مهاد الراحة مخدوع ؛ لأن النجاح والشهرة لاينالان بالنوم والراحة ، بل بالسهر والتعب .

ولما انطوى عليه تدرج هذه الصناعة من فضائل الصبر والمثابرة وإنضاء القوى وشحذ العزائم والأمثلة العالية والقدوة الحسنة والنتيجة الباهرة الدالة على أن العمل الصغير إذا صادف عناية صار جليل الشأن - أفردنا هذا الفصل لثلاثة نفر هم أبناء بجدتها : أولهم :

پالسى

هو فريد عصره ونابغة دهره فى محاربة الصعوبات وإدراك الغايات :

هيهات أن يأتى الزمان بمثله ... إن الزمان بمثله لبخيل

ولد « پالسى » من أبوين فقيرين فى جنوبى فرنسا سنة ١٥١٠ م ، فحال

الفقر دون تعليمه فى مدرسة ، ولم يكن له معلم سوى النظر فى سنن الكائنات وما أودعها الله من بدائع صنعه ، وقد تعلم صناعة الزجاج وتلوينه من أبيه ، وقد اضطره كساد هذه الصناعة وهو فى الثانية عشرة من عمره إلى أن يهجر بيت أبيه ، فأكثر الترحال فى أرجاء فرنسا وهولندة وألمانيا ، وعاد بعد مدة إلى مسقط رأسه .

ولما عال فكر فى وسيلة تدر عليه الربح ، فلم يجد أحسن من طلاء الخزف وتلوينه ، وقد ساعده علو همته على إحكامها بغير مُوَقِّف ، وقد شرع فى شراء الأوانى الخزفية وتكسيرها وطلائها بمركبات مختلفة ، وكان يضعها فى أتُون ويوقد عليها مدة طويلة كان يحرم فيها الطعام وتذوق الراحة ، ثم يخرجها منه ليرى نتيجة عمله ، فما كان يظفر منها بطائل ، ولكنه داوم على تجديد نشاطه وإجراء التجارب المختلفة حتى لازمه الفقر ، وأحرق سور حديقته ورفوف بيته وأثاث منزله ، فاستعدت عليه زوجه الجيران مستهزئة به ، فقابل ذلك منها بصبر نادر وعزم يفُل الحديد .

ولما اعتزمت حكومته مسح الملاح المجاورة « لنتس » وكان خبيرا بالمساحة أسندت إليه هذا الأمر ، فكسب مالا استعان به على تجاربه مدة ، حتى نفد ماله ، وجفاه أصدقاؤه وثلموا صيته ، واتهموه بسك النقود الزائفة ، فكان يمشى فى الشارع مطرق الرأس كمن ارتكب نقيصة ، ومع ذلك تراه قد واظب على عمله ، حتى كلل ببعض النجاح : فقد أفلح فى إخراج الآنية سنجابية اللون . ولما بردت وجدها مكسوة قشرة زجاجية بيضاء ، فصدق عليه القول : « من تأنى نال ماتمنى » ثم استأجر خزافا عجز عن أداء أجرته نقودا ، فدفع له كساءه ، وعرى جسمه من الثياب ، كما خلا بيته من الأثاث فكفله صديق وفى حتى بنى أتونا ، ووضع فيه الأوانى الخزفية . ومع أنها أخرجت من الأتون والدهان مخموش أقبل الناس على اقتنائها فلم يرض محافظة على صيته بما وصل إليه .

وما زال يزاول التجارب جامعا ثمار المعرفة من فيافى الإخفاق حتى برع فى كشفه ، فتعلم حقيقة الدهان ، وعرف كيف يبنى الأتن ، وظل على هذه الحال ست عشرة سنة حتى استحق أن يسمى خزافا ، ولم يكتف بذلك ، بل درس الكائنات الطبيعية برسم أشكالها على مصنوعاته التى أصبحت بجده من التحف النادرة . وقوله الآتى فى وصف حاله يُنبئك بما كان عليه من شظف العيش وصدق العزيمة :

« إنى مع كل ما ألم بى لا أزال رابط الجأش قوى الجنان ، أبش فى وجوه الناس إذا زارونى وألين لهم القول وقلبى ملآن كآبة وغما ، وأصعب ما قاسيته تهكم أهل بيتى بى وسخطهم على ، وكانت أُتنِى مكشوفة سنوات عدة ، وأنا واقف أمامها أحتمل العواصف والأمطار بلا معين ولا مُسَل سوى مواء القطاط وهرير الكلاب حتى إذا ثارت الزوابع ولم أعد أطيق القيام بها هرولت إلى بيتى مبللا بالأمطار ملطخا بالأوحال مترنحا من النعاس ، فلا أرى فيه غير الملامة والتعيير ، وإنى حتى الساعة لأعجب من بقائى حيا مع كل ما قاسيت »

وقد ختمت حياة هذا الرجل بالاضطهاد لتعصبه لمذهبه البروتستانتى وتمسكه به تمسكه بالتفتيش عن طلاء الخزف ، حتى مات رهين السجن تاركا مؤلفاته القيمة فى صناعة الخزف والتاريخ الطبعى مخلدة ذكره . وهكذا انقضت حياة رجل هو مثل فى الهمة والاستقامة والإقدام . وثانيهم :

جون فردريك بُتغَر

هو المخترع العظيم الذى كشف صناعة الخزف الصينى الصلب ، وأفاض على ألمانيا من النضار ما جعلها فى رفاهية ونعيم ، وعَمَّ خير كشفه الممالك جمعاء :

ولد فى شِيلِتْز سنة ١٦٨٥ م واشتغل صيدليا فى برلين مولعا بالكيمياء للكشف عن طريقةٍ تحول كل المعادن ذهبا ، وبعد مدة ادعى وصوله إلى

بغيته ، فتقاطر الناس إليه من كل فج ، وعرضت قطعة الذهب التى ادعى أنها نحاسية الأصل على « فردريك الأول » ملك بروسيا ، فأرسل فى طلبه ، ولكنه هرب إلى سكسونيا مخافة الفضيحة ، فاحتفظ به « فردريك أوغسطس الأول » طمعا فى ذهبه ، وأرسله إلى « درسدن » حيث أقام بالبيت الذهبي محوطا بالحراس .

ولما ظهر أنه غير صادق فى دعواه طلب إليه الملك أن يبحث عن شىء آخر أنفع من تحويل النحاس ذهبا ، فأخذ يبحث عن جعل التراب خزفا صينيا ، وبينما هو يدأب فى ذلك إذ أتاه رجل بقليل من الطين الأحمر ليعمل منه بوادق ، فوجد أنه إذا عرضه لدرجة عالية من الحرارة تحول مادة شبيهة بالزجاج ، وصار خزفا صينيا أحمر . ولم ينفك ينقب عن طريقة تجعله أبيض كالخزف الصينى ، فأفنى جزءاً كبيراً من حياته بلا جدوى ، وأخيرا أعانته المصادفة على بلوغ مأربه :

وذلك أنه كان يضع على رأسه شعرا مستعارا ، فأحس ذات يوم بثقله ، وعرف من خادمه أن الذى أثقله هو مسحوق بين الشعر ، وكان هذا المسحوق نوعا من تراب اختبره ، فوجده تراب الخزف الصينى . وهكذا وصل إلى مخترَعه ، ونال الشرف والفخار .

ولما أهدى إلى « فردريك أوغسطس » الملقب بالقوى أول قطعة من اختراعه سر بها ، وشجعه على نشر مخترعه ، فاستخدم خزافا ماهرا ، وشرع يصنع الخزف الصينى ، وأهمل الكيمياء .

ولقد سلبه احتفاظ «فردريك» بهحريته ، فقضى بقية حياته بين الحراس والرقباء ، ولم يفد استعطافه المؤثر وظلاماته الحق ، فحمله اليأس على إدمان الخمر ، وعومل معاملة الأسير ، حتى أطلق سراحه الموت سنة ١٧١٩م ، فذهب مبكيا عليه لما خلفه لسكسونيا من التراث الذى لا ينفد . وثالثهم :

يوشيا ودجود

وهو من الأفذاذ الذين يظهرون فى غضون الأيام ؛ ليعلموا شعبهم الاجتهاد بالفعل ، ويكونوا قدوة لهم فى الصبر والثبات : فقد اخترع الخزف الانجليزى الذى له مكانته العظيمة ، ولم يصب بما أصيب به « پالسى » و « بتغر » بل سلم مما تعرضا له ، وفاقهما : وذلك أن الخزف فى بلاد الإنكليز كان إلى زمن « يوشيا ودجود » ذا لون ترابى يضرب إلى الصفرة ، فباجتهاده ومهارته حول عمل الخزف من حرفة خشنة إلى صناعة بديعة ذات قدر عظيم فى تجارة البلاد .

نشأ « ودجود » يتعلم صناعة الخزف فى معمل أخيه ، ولما مرن عليها فتح معملا خاصا به سنة ١٧٥٩ م ، وكان جل قصده أن تكون صنعته أفضل من خزف زمنه هيئة ولونا ودهانا ومتانة ، فأخذ يدرس الكيمياء ، ويعمل التجارب الكثيرة فى الدهان والمذوبات وأنواع الأتربة ، وقد أوصله حذقه ودقة نظره إلى نوع من التراب الأسود المحتوى على السلكا يبيض بالتصريج [1] فى الأتون ، ثم استنبط أن السلكا إذا مزجت بتراب الخزف الأحمر ابيض مزيجهما بالتصريج ، وبعد تجارب كثيرة عرف نوعا مناسبا من الدهان ، واستمر على تحسين هذه الصناعة حتى راجت مصنوعاته فى إنجلترة وأوربة ، فذاع صيته فى الآفاق ، وحازت صناعته رواجا عظيما ، حتى لقب خزافا ملكيا .

وقد كشف صناعة تلوين الخزف ، وخلد ذكره باختراعه مقياس الضغط الجوى ، ومازال يزداد شهرة ، حتى صارت معامله فى « برسلم » و « إتروريا » مقصد الزوار من كل الأقطار .

ولا يسع المطلع على سيرة أولئك الرجال العظماء « بالسى » و « بتغر » و « ودجود » إلا أن يعترف لهم بفضائل العزم والحزم والثبات على المكاره ، حتى صاروا قادة أهل الصناعة ومشيدى أركان التمدين ؛ فبسالتهم تفوق بسالة الجنود فى حومة الوغى

(١) وضع الكلس

ثامنا : توافر خلال لابد منها فى نجاح العمل

العمل أصل نجاح العباد وعمران البلاد ، ولا بلية على الأمم أشد من أن يتمتع أبناؤها بكل أمانيهم هنيئا مريئا بلا تعب ولا كد ، وينصرفوا عن العمل إلى الترف واللهو . والفناء أحق بأمة رغب أفرادها عن العمل والكد والاستقلال : قال « أون فلتام » : « من لم يتعلم صناعة ولا عملا فهو حقير » ومدرسة العمل ليست ضيقة النطاق ، بل واسعة ؛ لأن النجاح فيها يستدعى الكفاية والسرعة وحسن الإدارة والعلم بطبائع البشر ، ولذا كان العمال الماهرون نادرين كالشعراء المفلقين .

والحرفة لا تزرى بالرجل ، بل ترفع من شأنه إذا كان عالى الهمة ، والأعمال الجسدية كالعقلية فى الكرامة متى كان ربحها جائزا . ولا يضير العامل درن حرفته مادام عقله طاهرا ، وعرضه شريفا .

وهؤلاء « أفلاطون » (١) و « لينيوس » (٢) و « شكسبير » (٣) وأمثالهم لم يستنكفوا من مزاولة الأعمال لكسب معيشتهم ، بل جعلوها سلما صعدوا فيه إلى سماء الحكمة وأسرار النبات والشعر الرائع ؛ فإن أولهم كان يبيع الزيت وهو يطوف ببلاد مصر ، وثانيهم كان إسكافا ، وثالثهم كان يدير الملاعب .

والنجاح فى الأعمال كالنجاح فى العلوم يحتاج إلى الصبر والعناية ، وسر النجاح المثابرة ، ونجاح المصادفة كربح المقامر آلة لخرابه . ومن شاء ألا يتعب فليتعب ، وسعادة الانسان وارتقاؤه يتوقفان عليه وعلى اجتهاده لا على

(١) فيلسوف يونانى مشهور ولد بأثينا وعاش من ٤٢٧ – ٣٤٧ ق م

(٢) عالم سويدى من أكبر علماء النبات (١٧٠٧ – ١٧٧٨ م)

(٣) أعظم شاعر عند الانجليز (١٥٦٤ – ١٦١٦ م)

مساعدة غيره له . فمن اتكل على حظيرة غيره أصبح عيره فى العراء ، وبمقدار الاجتهاد يكون النجاح :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

ولما كانت الحاجة تفتق الحيلة كان للفقراء النصيب الوافر فى الفوز ؛ لأن احتياجهم يدفعهم إلى الكد وسلوك طرق الحياة الوعرة مع الرضا والاغتباط : سئل أحد القضاة : بم يرتقى الناس إلى منصب القضاء ؟ فقال : « البعض يرتقون بالذكاء ، والبعض بالنسب ، والأكثرون بالفقر »

ومن مُنى بالخيبة ونسبها إلى غيره جار فى حكمه ، والأولى به أن يرجع باللائمة على نفسه ؛ فلولا ازدراء « مرتين » الشاعر علم الحساب ما اهتم أصحابه بجمع الإحسان له فى شيخوخته .

ووهم من يعتقد أنه ولد فى طالع نحس فلا ينجح ؛ فإنه هو الذى يحصد ثمر إهماله وعدم اهتمامه بأعماله :

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو دهرنا من غير ذنب ولو نطق الزمان بنا هجانا

والنجاح فى العمل يستوجب الانصباب عليه ، والانتباه له والتدقيق فيه ، والترتيب والمحافظة على الوقت . وهذه الخلال ـ وإن كانت ترى طفيفة ـ أمور جوهرية فى راحه النوع الإنسانى ؛ فكبير الأعمال مركب من صغيرها (وإنما القَرْمُ من الأفيل) (١) وصفات الأمم مؤلفة من تكرار أعمال صغيرة ، وما من شعب حط شأنه إلا بسبب إهماله تلك الأمور الطفيفة وأمثالها . ونظرتك إلى من نجحوا فى الصناعات والعلوم والفنون تدلك على ما للانصباب من تسهيل سبل النجاح . أما الانتباه فليس بأقل من الانصباب لزوما للنجاح والتدقيق من وسائل الفلاح ؛ وخير للإنسان أن يعمل عملا صغيرا بدقةٍ من أن يعمل عشرة أضعاف ذلك العمل بغير دقةٍ . ومن لم

---

(١) القرم : الفحل ، والأفيل : الفصيل

يكن مدققا فى أعماله لا يؤتمن عليها . ولو كان أمينا .

ولا نغمط الترتيب حقه ، فإنه يعين على إتمام الأعمال فى وقت قصير . والإنسان المرتب يضع فى الصندوق أضعاف ما يضعه غير المرتب من حسن المنظر وسهولة الاستحضار وعدم التعرض للتلف . والعاقل من يجعل له نظاما خاصا فى عمله لا يحيد عنه قِيد شَعْرَة : فلا يعمل فى وقت واحد عملين ، ولا يؤجل عمل ساعة إلى أخرى :

ولا أؤخر شغل اليوم عن كسل إلى غد إن يوم العاجزين غد

ولا يكل إلى غيره أداء عمله فما حك جلد الانسان مثل ظفره ، وقد يذهب الكسل بالغنى الوافر ويصبح المقل غنيا بالاجتهاد وحسن التدبير . والوقت عقار كل إنسان ، فاذا أصلح وأفلح أثمر ثمرا صالحا وإلا كان منه الشوك والقتاد وكل المضار . ورأس الكسلان خان الشيطان ، وعقل البليد شيطان مريد ، واليد الفارغة آثمة ، والوقت رأس مال المعـــدم ، واغتنامه يزيد الانسان علما وتهذيبا وشهرة ؛ فلو قضى الإنسان ساعة كل يوم فى تهذيب نفسه بدلا من قضائها فى الكسل لصار حكيما فى سنين قليلة .

وإنجاز الأعمال فى أوقاتها وساطة فعالة لجعل الوقت كافياً للعمل والراحة وإلا تراكمت الأعمال ، وعجز عن أدائها ؛ لأن لكل وقت عمله ، وما يذهب منه لا يعود ، بخلاف المال والعلم والصحة ، فقد تعود بالاجتهاد والدرس والدواء . والاختبار يرينا أن الذين لا يحافظون على الوقت لا ينجحون ، بل يطرحهم العالم وراء ظهره . وما مثل المتأخر عن عمله فى وقته إلا كمثل من ذهب إلى السفينة بعد سفرها ، أو كمثل من كتب رسالته بعد سير البريد ، فتكون أعماله فى ارتباك واضطراب .

وسرعة الخاطر والثبات ضروريان لكل أحد ، وبخاصة مديرو الأعمال الكبيرة : مثل قيادة الجيوش ؛ فإن البطولة ليست بكافية وحدها ، بل يجب أن يكون القائد فطنا خبيرا بأحوال البشر وأخلاقهم قادرا على تنظيم أمور

جنده من طعام وكسوة ، ومنام ورحيل ، وصف وهجوم ، وفرار وتضحية وبث حمية .

وهذه الصفات تتجلى فى أخلاق « نابليون » فإنه كان لسرعة خاطره وثباته يؤدى أعمالا كثيرة بمهارة وإتقان .

ألم تر أنه وهو فى حدود بولونيا سنة ١٨٠٧ م والروسيون أمامه والنمساويون عن يمينه والبروسيون وراءه — كان مع تدبيره أمور جنده يراسل بلاده فى أمور مهمة ، ويطلب النجدات من جهات مختلفة ، ويفتح الخلجان ، ويمهد الطرق ليجلب المئونة والعُدة من بولونيا وبروسيا ، وفى الوقت نفسه يكتب إلى باريس فى شأن ترتيب جامعتها وسن قوانين التعليم العام ، ويراجع تقريرات وكلاء المال ، ويرد على صحف بروسيا ، ويكاتب سلطان الأتراك وشاه العجم إلى غير ذلك مما جعله كبير القواد وعظيم السياسيين .

ولم تحرم انجلترة من قواد مهرة فتحوا البلاد وغلبوا الجيوش الجرارة ؛ فإن « دوق ولنتون » (١) يعد من رتبة نابليون فى الإقدام على الأعمال الكثيرة ، ويفضله فى أنه لم يغلب فى واقعة من وقائعه ؛ فقد حرر البرتقال بعشرة آلاف جندى ، وانتصر على جيش فرنسا المنيف على ثلثمائة وخمسين ألفا ممن حنكتهم الحروب . وتلك عجيبة لا تصدر إلا على يد أمهر القواد . ولم تشغله الحروب عن إبداء أفكاره الناضجة فى شئون أمته ؛ فقد كان يكتب إلى الوزراء فى لندرة مبينا عدم فائدة الاعتماد على القرض مع أنه كان يستعد لواقعة « سلامنكا » (٢) ولما كان فى موقعة برغس نقد بعض المذاهب المالية ، وأظهر جهل من ارتأى بيع أوقاف الكنائس وغير ذلك مما دل على أنه جمع بين معرفة حقائق الأمور وقوانين الحروب . ناهيك

(١) قائد إنجليزى مشهور (١٧٦٨ - ١٨٥٢م)

(٢) مدينة شهيرة باسبانيا

بأمانته العظيمة وشرف نفسه ؛ فإنه حيثما سار سار على نفقة نفسه حتى فى أرض العدو . وكتابه إلى انجلترة الذى يشكو فيه ضعفه عن مواجهة دائنيه وهو الذى يقود جيشا جرارا فى بلادهم دليل على أنه ما كان يأكل أموال الناس بالباطل . وهاك بعض ما كتبه : « قد تراكمت على الديون من كل ناحية ، ولا أجسر على الخروج من بيتى ؛ لأن عددا وافرا من الدائنين ينتظرونني خارجا طالبين وفاء مالهم على » .

والأمانة لازمة لنجاح الأعمال لزوم الشجاعة للجندى . وما أحوج الصناع إليهما مهما اختلفت صناعاتهم ؛ فإن من اشتهر بها راجت صنعته ، وأثرى ، وذاع صيته ، وصار لاسمه عرف يفوق شذا المسك . والتجار الأمناء يجب إكرامهم إكرام الجنود الذين أثبتوا بسالتهم أمام أفواه المدافع . وهؤلاء التجار العظماء لم يصبحوا موضع الثقة إلا بأمانتهم : فترى الناس يأتمنونهم على أموال كثيرة وهم لم يعرفوهم ، ولا دخلوا بلادهم :

وإنما رجل الدنيا الذى شهدت ... له التجارب أن الصدق شيمته
يغار للحق لا قسراً ولا طمعاً ... بثروة أو بجاه فيه رغبته
لكنما المال والجاه اختصاصهما ... بالحازم الندب أن صحت طويته

ولم ينل أحد من التجار شهرة « داود بركلى » ، فقد ضرب به المثل فى الاستقامة والصدق والذكاء والميل إلى الخير ؛ فانه حينما كان تاجرا اشتهر بالذكاء والخبرة ، كما اشتهر بعد أن ترك التجارة بالشهامة وعمل الخير ؛ فقد أقام داراً للصناعة أنفق عليها بسخاء ، حتى صارت ملجأ للفقراء ومرقية لشئونهم وابتاع أرضاً فى « جاميكا » وأعتق عبيدها ، ونقلهم إلى إحدى ولايات أمريكا ، فاستوطنوها ، ونجحوا نجاحا عظيما . وإن رجلا لهذا يحق للتجار أن يتخذوه مثالا يحتذى ويفخروا بأعماله .

نظر الاسلام إلى العمل والسعى وتكريم أهلهما

قال تعالى : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » وقال « فإذا قضيت

الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله »

وإذا كانت حياة الإنسان الخلقية وقيمته الأدبية متوقفتين على واجب الصدق فإن حياته وقيمته مادة وأدبا متوقفتان على تأدية واجب السعي والعمل ، وفى هذا قال بعض الكتاب الغربيين : « ليست الحياة يوم عيد ولا يوم حداد ، وإنما هى يوم عمل »

وإن عظمة الأمم إنما تقاس بمقدار سعى أبنائها وثمرة أعمالهم ، وكل أمة أنفت من الأعمال واستحلت طعم الراحة والبطالة أسرع إليها الفناء والاضمحلال ، وخلفها غيرها من الأمم العاملة النشيطة :

فالرومانيون مثلا لم يبيدوا ويذهب سلطانهم إلا حين احتقروا العمل ، وأخلدوا إلى البطالة واللهو والترف ، حتى كانوا يرون أن الأعمال لا تليق إلا بعبيدهم ، وقد جعل الشرع الاسلامى حظ كل إنسان فى حياتيه الدنيوية والأخروية منوطا بعمله ومتوقفا على مقدار سعيه لها ، فقال تعالى : « وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى » أى أن حظه من النجح والمكافأة فى الدنيا والآخرة على قدر ما يبذله من العمل والسعى خيرا أو شرا قليلا أو كثيراً . وجاء هذا المعنى أيضا فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (إِنَّ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ وَنَهْمَتِهِ) وهمته : عزمه ، وَنَهْمَتِهِ : حاجته وقصده .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان جالسا مع أصحابه ذات يوم ، فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة قد بكر يسعى ، فقالوا : « ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لاَ تَقُولُوا هَذَا فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وُلْدِهِ صِغَاراً فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيُعِفَّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى رِيَاءً

وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فى سَبِيلِ الشَّيْطَانِ) رواه الطبرانى

وقال صلى الله عليه وآله وسلم فى التحذير من البطالة وسوء نتائجها : (إِذَا قَصَّرَ الْعَبْدُ فى الْعَمَلِ ابْتَلَاهُ اللهُ بِالْهَمِّ) رواه أحمد بن حنبل فى الزهد عن الحكم مرسلا

لاجرم أن الهموم والأكدار والأمانى الباطلة إنما تكون من ذوى البطالة والفراغ والعطلة عن العمل . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : (أَخْشَى مَاخَشِيتُ عَلَى أُمَّتِى كِبَرُ الْبَطْنِ وَمُدَاوَمَةُ النَّوْمِ وَالْكَسَلُ :) رواه الدار قطنى فى الأفراد عن جابر رضى الله عنه :

(كبر البطن) كناية عن انتفاخه وامتلائه بالطعام مما يكون مجابة للكسل والعجز عن متابعة العمل . فالشارع عاب الكسل عن العمل ومايؤدى إليه من الإفراط فى النوم والأكل :

وبالإجمال : فإن أعدى أعداء العمل الاتكال المقرون بالإهمال والتقاعد وترك السعى ، وأقوى أركان العمل وأشد أنصاره التوكل الصحيح الشرعى المقرون بالسعى والحركة والنشاط ، واتخاذ الأسباب الظاهرة التى أمرنا الله ونبيه صلى الله عليه وسلم بمراعاتها والسير عل سننها . ويوضح ذلك ما كان من إرشاده صلى الله عليه وسلم لذلك الأعرابى الذى أرادأن يسرح ناقته ، فلا يعقلها ، ولا يوثقها توكلاً على الله مذ سمع ما للمتوكلين من الفضل ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم مفسراً معنى هذا التوكل بأوجز عبارة وألطف إشارة : (اعْقِلْ وَتَوَكَّلْ) وفى رواية (اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ) ففى هذا أمر له باتخاذ السبب حتى لا تشرد أو تضل

وجلى أن الأعمال تقتضى المحافظة على الوقت واعتباره رأس مال عظيم ، فلا ينبغى أن يضيع منه جزء دون عمل يملأ به . وإن الوقت بالنسبة إلى العمل كالأرض بالنسبة إلى الزرع : فكما يجب عليك أن تحافظ على تملك أرضك لبذر زرعك الذى هو مادة معيشتك ، كذلك يجب عليك أن تحافظ

على وقتك لممارسة عملك الذى هو مادة حياتك .

وقد نوه القرآن الكريم بالوقت وأشار إلى قيمته ؛ فقد أقسم به تعالى ، فقال : « وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » جعل كل البشر فى خسران ، ثم استثنى منهم المؤمنين الذين يعملون الخير . ولما كان العمل لا يمكن أن يقوم بنفسه دون وقت يقع فيه أقسم بالوقت فقال : « وَالعَصْرِ » مشيرا إلى نفاسته ووجوب مراعاته والاحتفاظ به .

ومما يقتضيه العمل أيضا الثبات عليه دون ملل ولا ضجر ؛ فإن عملا قليلا دائما ترافقه الهمة والنشاط خير من عمل كثير يُفضى الملل منه إلى تركه والانقطاع عنه بتاتا . وهذا ما أراده صلى الله عليه وسلم فى قوله : (أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ) رواه البخارى ومسلم

وجماع القول أن الإسلام يرى أن العمل ركن من أركان سعادة الفرد والجماعة ، وأنه ينبغى للمربين والمعلمين أن يذكروا للصغار : إن الطريق المحفوف بالأزهار لا يوصل إلى المجد والعز والفخار ، وإن نجاحكم ونجاح وطنكم منوطان بعمل كل واحد منكم ومتوقفان على مقدار ما يبذله من الحركة والسعى والنشاط ، وإنه ليس من الإنصاف ولا العدل أن يعيش الإنسان كلا على ثمرات أعمال بنى وطنه ، فيتمتع بنتائج كدهم وكدحهم وشتى جهودهم ثم لا يشاركهم فى عمل ما هو واجب عليه ، حتى يستفيدوا منه كما استفاد منهم .

من أجل ذلك أوعد الشارع هذا الفارغ الكسلان بأشد وعيد بقوله صلى الله عليه وسلم : (أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَكْفِيُّ الْفَارِغُ) الديلمى . ويعنى (بالمكفى) الذى يكفيه غيره ضرورات حياته ، و « بالفارغ » المتعطل المخلد إلى البطالة والكسل .

ومما يحسن إيراده فى ختام هذا الباب ما جاء فى كتاب « كشف الغمة »

عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه قال : جعت يوما ، فخرجت أطلب العمل فى عوالى المدينة ، فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدرا (١) تريد بَلَّهُ ، فقاطعتها كل ذَنوب (٢) على تمرة ، فملأت ستة عشر ذنوبا ، حتى مَجِلت (٣) يدى ثم أتيتها ففعلت بكفى هكذا بين يديها « يعنى أنه بسطهما لها لترى مجلهما فتوفيه أجرته» فعدت لى ست عشرة تمرة ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته فأكل معى منها .

ومن شعب العمل الكسب والتجارة :

أما الكسب فتحصيل المال من أى طريق كان ، وأما التجاره فتحصيل المال من طريق تقليب البضائع والسلع بيعا وشراء ، أو هى شراء الشىء بأرخص ما يمكن من الثمن ثم بيعه بأغلى ما يمكن منه .

واشتغال فريق من أبناء الأمة فى هذا النوع من العمل واجب محتوم عليهم ما دام أمر معاشهم متوقفا عليه بحيث يستغنون به عن المسألة وإراقة ماء الوجه . ومهما يكن فى طلب المعاش والكد فى تحصيل الرزق من تعب ومشقة فإن التعرض لصدقات الناس وانتظار صلاتهم أشق على النفس وأصعب . وجاء فى الحديث الشريف : (لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلاً ، ثُمَّ يَغْدُوَ إلى الْجَبَلِ ، فَيَحْتَطِبَ ، فَيَبِيعَ فَيأْكُلَ وَيَتَصَدَّقَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ) رواه البخارى ومسلم

ولم يكتف الشرع بهذا ، بل جعل طلب الرزق الحلال تعففا عما فى أيدى الناس فرضا دينيا ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : (طَلَبُ الْحَلَالِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » (الديلمى فى مسند الفردوس)

---

(١) المدر : التراب المتلبد

(٢) الذنوب : الدلو العظيمة مملوءة ماء

(٣) مجلت : ظهر فيها شبه البثر من العمل

والفرض والوجوب بمعنى واحد فى أصل الاستعمال الشرعى ثم فرق بعض الفقهاء بينهما .

وأثنى الصحابة رضى الله عنهم ذات يوم على رجل ، فقالوا : يارسول الله ، إن فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر . فقال : (أَيُّكُمْ يَكْفِيهِ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ ؟) فقالوا : كلنا يارسول الله . فقال : (كُلُّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ) فهذا يدل على أن الانقطاع للعبادة إذا كان يشوبه شيء من الضيق والحاجة إلى الناس لايكون فضيلة دينية مالم يعضدها فضيلة كسب المال والاستغناء به عما فى أيدى الناس . وهكذا كان دأب الصحابة والسلف رضى عنهم ؛ فهم يعتبرون الكسب وطلب الحلال من المال من مقتضيات المروءة التى لامندوحة عنها

وحسبك أن أبا بكر رضى الله عنه سعى يوم بويع بالخلافة إلى السوق طلبا للكسب على حسب عادته ، ولم ير الخلافة مانعة عن السعى ، حتى عارضه الصحابة فى ذلك خشية أن تشغله أمور تجارته عن القيام بأعباء الخلافة ، وفرضوا له كفايته من بيت المال كما سيأتى

وروى الإمام أحمد فى مسنده ، قال : كانت للمقدام بن معدى كرب الصحابى جارية تبيع اللبن ، ويقبض هو ثمنه ، فقيل له : سبحان الله ! أتبيع اللبن وتقبض الثمن ؟ فقال : نعم ، وما بأس فى ذلك ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ليأتين على الناس زمان لاينفع فيه إلا الدرهم والدينار)

عابوه رضى الله عنه بما كان منه من هذا الكسب ، فأجابهم : بأنه لاضرر فى ذلك مادام المال لابد منه للانسان ، ولا سيما فى آخر الزمان الذى تتغير فيه حالة الاجتماع ، وتتنوع أساليب المعيشة ، وتتعدد تكاليف الحياة . قال رضى الله عنه هذا القول فى صدر الإسلام ، وسماه آخر الزمان ؛ وقد كان العمران الإسلامى إذذاك فى طور التكون والنشوء ، فكيف لو رأى زماننا هذا ، وتفنن أهله فى أساليب كسبهم وطرق معايشهم ؟ لاجرم أن ميدان

العمل للكسب أصبح اليوم أرحب وطلب المال والتجمل به بين الناس صار أوكد وأوجب :

تأمل قول الامام الشافعى رضى الله عنه ليونس بن عبد الأعلى : (والله ماأقول لك إلا نصحا : إنه ليس إلى السلامة من الناس سبيل ، فانظر ماذا يصلحك فافعله) .

ولما نزل التخفيف عن المسلمين فى قيام الليل ذكر الله لذلك أسباباً : من تلك الأسباب : المشاق التى يقاسيها التجار فى أسفارهم . وقد قرنهم بالذكر مع المجاهدين المدافعين عن الحوزة ، فقال تعالى : « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ اللهِ »

وهذا معناه أن الأمة أصناف : صنف يتنقل فى البلاد للتجارة ، وصنف يحارب من أجل الدفاع عن الحق ، وتكليفهم قيام الليل مع القيام بما تتطلب الحياة أصبح شاقا عليهم غير داخل تحت طاقتهم ووسعهم ، فاقتضت العناية الإلهية تخفيف ذلك عنهم ، وقد قدم القرآن فريق التجار فى الذكر على فريق المحاربين لأن الحروب غير دائمة ، والتجارة لا تنقطع أبدا ، ولأن التجار كثيراً ما كانوا طلائع للمحاربين ينسلون أولا إلى البلاد الأجنبية بقصد التجارة فيها ، وبذلك يمهدون السبيل أمام الغازين الفاتحين ، وقد عهدنا مثل ذلك فى تاريخ الفتح الإسلامى فى قارة إفريقية وأقصى الشرق ، كما عهد مثله فى تاريخ الاستعمار الأوروبى فى سائر القارات منذ أربعمائة سنة إلى اليوم . بيد أن هناك بونا كبيرا بين مقاصد الفتح الاسلامى ومقاصد الاستعمار الأوروبى .

أما السنة الشريفة فقد جاء فيها أحاديث كثيرة تحض على التجارة وكسب المال الحلال : من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ أَطْيَبَ الْكَسْبِ كَسْبُ التُّجَّارِ الذِينَ إِذَا حَدَّثُوا لَمْ يَكْذِبُوا ، وَإِذَا اؤْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا ، وَإِذَا وَعَدُوا لَمْ

يُخْلِفُوا ، وَإِذَا اشْتَرَوْا لَمْ يَذُمُّوا ، وَإِذَا بَاعُوا لَمْ يُطْرُوا ، وَإِذَا كَانَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَمْطُلُوا ، وَإِذَا كَانَ لَهُمْ لَمْ يُعَسِّرُوا » رواه البيهقى من من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه

بهذا مدح صلى الله عليه وسلم التجار ، وشرط أن يكونوا متصفين بما ذكر من الصفات . وقوله : « إذا حدثوا » أى بشأن اشغالهم ومتاجرهم؛ إذ كثيرا ما أدخلوا الغش على الآخرين بمثل هذه الأكاذيب ، فورطوهم معهم فى معاملات كانت عاقبتها الخسارة والإفلاس . وقوله : « وَإِذَا اشْتَرَوْا لَمْ يَذُمُّوا » أى إذا أرادوا الشراء لا يعيبون السلعة بخسا لها وتحقيراً لشأنها ، أو إظهارا لتفضلهم على البائعين فى شرائها . وقوله : « وَإِذَا بَاعُوا لَمْ يُطْرُوا » أى لم يبالغوا فى مدح بضاعتهم التى يريدون بيعها غشا وتغريراً . وقوله : « وإذا كان عليهم » أى حق للآخرين . « وإذا كان لهم » أى حق عند الآخرين : « لم يعسروا » أى لم يلحوا فى طلب حقهم بحيث يدخلون عليهم العسر والضيق بل يمهلونهم ويحسنون تقاضيهم .

وقال : « مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلاَلاً اسْتِعْفَافاً عَنِ الْمَسْأَلَةِ وَسَعْياً عَلَى أَهْلِهِ وَتَعَطُّفاً عَلَى جَارِهِ - بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ مِثْلُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، وَمَنْ طَلَبَهَا حَرَاماً مُكَابِراً بِهَا مُفَاخِراً - لَقِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » رواه أبو نعيم فى الحلية عن أبى هريرة .

وَيَتَجَلَّى من الحديث الخلال التى يجب توافرها فى الكاسب وهى :

حسن النية ، فلا يقصد فى جمع المال التباهى على غيره ، أو التوصل به إلى ارتكاب ما لا يحل وإنما يقصد صيانة كرامة النفس عن سؤال الناس والتوسعة على أهله فيعيش فى خفض وراحة بال ، ثم يهتم بعد أهله بأمر المعوزين من سائر الخلق وخص الجار بالذكر ؛ لأن العناية به أوكد من المعوزين

الآخرين ، وإلا فغير الجار كالجار فى وجوب مواساتهم ومدّ يد المعونة إليهم

وقال صلى الله عليه وسلم :

« إِذَا صَلَّيْتُمُ الْفَجْرَ فَلَا تَنَامُوا عَنْ طَلَبِ أَرْزَاقِكُمْ » رواه الطبرانى فى الكبير . وقال : « بَاكِرُوا الْغُدُوَّ فى طَلَبِ الرِّزْقِ وَالْحَوَائِجِ فَإِنَّ الْغُدُوَّ بَرَكَةٌ وَنَجَاحٌ » رواه البزار والطبرانى فى الأوسط عن عائشة

ولا حكمة أعظم من الأمر بالمبادرة إلى الرزق منذ الصباح ؛ إذ يكون الجسم أنشط ، والنفس أطيب ، وحال الهواء ملائما ، والجلب (١) متراكما ، فيختار منه ما يناسبه ، ويظفر بحاجته من أطايبه .

وقال صلى الله عليه وسلم فى حث التاجر على الجرأة وقوة الإرادة فى الأعمال : « التَّاجِرُ الْجَبَانُ مَحْرُومٌ ، والتَّاجِرُ الْجَسُورُ مَرْزُوقٌ » رواه الديلمى وقال : « سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتُرْزَقُوا » رواه عبد الرزاق فى الجامع عن محمد بن عبد الرحمن مرسلا ، قال السيوطى : حسن .

وليس هناك أنفع للتاجر من الجرأة وقوة الإرادة ، فلا يكون جبانا ولا مترددا ؛ فإن ذلك يؤدى به إلى الخيبة والحرمان غالبا ، وإذا احتاج الأمر إلى السفر والضرب فى البلاد البعيدة من أجل الرزق والربح فليفعل ، ولا يجبن ؛ فإن فى السفر صحة ورزقا .

وقال الحافظ بن القيّم فى الهدى النبوى : إن النبى صلى الله عليه وسلم باع واشترى ، وشراؤه أكثر ، وآجر واستأجر ، وإيجاره أكثر ، وضارب وشارك ، ووكّل وتوكل ، وتوكيله أكثر ، واهدى وأهدى له ، ووهب واستوهب ، واستدان واستعار ، وضمن عاما وخاصا ، ووقف وشفع ، فقبل تارة وردّ أخرى ، فلم يغضب ولا عتب ، وحلف واستحلف ، ومضى

(١) ما يجلب من البضائع

فى يمينه عدة، وكفر أخرى، ومازح وورّى ولم يقل إلا حقاً. وهو صلى الله عليه وسلم القدوة والأسوة.

وترجم البخارى أيضاباب التجارة فى البُرّ وغيره وساق قوله سبحانه وتعالى: «رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ» ثم ذكر قول قتادة: كان القوم يتبايعون ويتجرون لكنهم إذا نابهم حق من حقوق الله لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله حتى يؤدوه إلى الله. قال العينى فى العمدة: أراد بالقوم الصحابة؛ فإنهم كانوا فى بيعهم وشرائهم إذا سمعوا إقامة الصلاة يتبادرون إليها لإقامة حق. ويؤيد هذا ما أخرجه عبد الرزاق من كلام ابن عمر أنه كان فى السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد: قال ابن عمر: فيهم نزلت؛ فذكر الآية. قال ابن بطال: ورأيت فى تفسير الآية قال: كانوا حدادين وخرازين، فكان أحدهم إذا رفع المطرقة أو غرز الإشفى فسمع الأذان ـ لم يخرج الإشفى من الغرزة ولم يوقع المطرقة ورمى بها، وقام إلى الصلاة.

وترجم البخارى أيضا باب الخروج فى التجارة، وقوله سبحانه وتعالى: «فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ» فذكر فيها قول عمر: «ألهانى الصَّفْق بالأسواق» يعنى بذلك الخروج إلى تجارة: قال القسطلانى: وكان احتياج عمر إلى السوق لأجل الكسب لعياله والتعفف عن الناس.

وفى ذلك رد على من يتنطع فى التجارة فلا يحضر الأسواق ويتحرج منها، لكن يحتمل أن تحرج من يتحرج لغلبة المنكرات فى الأسواق فى هذه الأزمنة بخلاف الصدر الأول.

وقد ورد فى التجارة والتجار عدة أحاديث: أخرج ابن ماجة والحاكم عن ابن عمر قال الحاكم: صحيح: «التَّاجِرُ الأَمِينُ الصَّدُوقُ الْمُسْلِمُ ـ مَعَ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وأخرج الترمذى والحاكم عن أبى سعيد قال الترمذى:

حسن غريب . وقال الحاكم من مراسيل الحسن : « التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا » . وأخرج الأصبهانى فى ترغيبه والديلمى فى الفردوس عن أنس رفعه : « التَّاجِرُ الصَّدُوقُ تَحْتَ ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وأخرج ابن النجّار عن ابن عباس رفعه : « التَّاجِرُ الصَّدُوقُ لَا يُحْجَبُ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ »

وأخرج سعيد بن منصور فى سننه عن نعيم بن عبدالرحمن الأزدى ويحى ابن جابر الطائى مرسلا : قال المناوى : ورجاله ثقات : « تِسْعَةُ أَعْشَارِ الرِّزْقِ فِي التِّجَارَةِ » والعشر فى المواشى : يعنى النتاج . وقال الإمام أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى رسالته فى مدح التجار وذم عمل السلطان : وقد علم المسلمون أن خيرة الله من خلقه وصفوته من عباده والمؤتمن على وحيه من أهل بيت التجارة ، وهى معولهم وعليها معتمدهم ، وهى صناعة سلفهم وسيرة خلفهم ، وبالتجارة كانوا يعرفون ، ولذلك قالت كاهنة اليمن : لله الديار ولقريش التجار . اسم اشتق لهم من التجارة والتقريش ، فهو أفخم أسمائهم ، وأشرف أنسابهم ، وهو الاسم الذى نوه الله به فى كتابه ، وخصهم به فى محكم وحيه وتنزيله ، ولهم سوق عكاظ وفيهم يقول أبو ذؤيب :

إذا ضربوا القباب على عكاظ وقام البيع واجتمع الألوف

وقد بقى النبي صلى الله عليه وسلم برهة من دهره تاجرا وباع واشترى حاضرا . الله أعلم حيث يجعل رسالاته . ولم يقسم الله مذهبا رضيا ، ولا خلقا زكيا ، ولا عملا مرضيا إلا وخصه منه أوفر الحظوظ وأقسمه فيه أجزل الأقسام . ولشهرة أمره فى البيع والشراء قال المشركون : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ فأوحى الله إليه : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » . فأخبر أن الأنبياء قبله كانت لهم صناعات وتجارات .

وفى كتاب مناقب عمر لابن الجوزى عن محمد بن سيرين عن أبيه قال: شهدت مع عمر بن الخطاب المغرب فأتى علىَّ ومعه رزيمة (تصغير رزمة وهى الكارة من الثياب) فقال: ما معك؟ فقلت: رزيمة لى أقوم فى هذا السوق فأشترى وأبيع. فقال: يامعشر قريش، لا يغلبنكم هذا وأشباهه على التجارة؛ فإنها ثلث الامارة.

وفيه أيضا عن الحسن قال: قال عمر: من اتجر فى شىء ثلاث مرات فلم يصب فيه شيئا فليتحول إلى غيره. وفيه عن الأكيدر العارضى قال: قال عمر: تعلموا المهنة؛ فإنه يوشك أن يحتاج أحدكم إلى مهنة. وفى كنز العمال معزُوًّا إلى عمر: لولا هذه البيوع لصرتم عالة على الناس. وفى المناقب عن بكر بن عبد الله قال: قال عمر: مَكْسبة فيها بعض غضاضة خير من مسألة الناس. وفيه عن ذكوان قال: قال عمر: إذا اشترى أحدكم جملا فليشتره عظيما سميناً؛ فإن أخطأه خيره لم يخطئه سوقه. وخرّج ابن الجوزى فى تلبيس إبليس ومناقب عمر عن خوّات التميمى قال: قال عمر: يا معشر الفقراء، ارفعوا رءوسكم؛ فقد وضح الطريق؛ فاستبقوا الخيرات، ولا تكونوا عالة على المسلمين.

قال عمر: حَسَب الرجل ماله، وكرمه دينه، ومروءته خلقه. وأخرج ابن ماجة من طريق عبد الملك بن عمير عن عمرو بن حريث عن أخيه سعد ابن حريث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ بَاعَ عَقَاراً أوْ دَاراً وَلَمْ يَجْعَلْ ثَمَنَهَا فِى مِثْلِهَا لَمْ يُبَارَكْ لَهُ»

وأخرج ابن الجوزى فى تلبيس إبليس ومناقب عمر أيضا عن محمد بن عاصم قال: بلغنى أن عمر بن الخطاب كان إذا رأى غلاما فأعجبه سأل: هل له حرفة؟ فإن قيل: لا - قال: سقط من عينى

وذكر ابن الجوزى فى كتابه تلبيس إبليس عن عمر أنه قال: لأن أموت

من سعي على رجلى أطلب كفاف وجهى - أحب إلىّ من أموت غازيا فى سبيل الله .

وفى ترجمة أبى بكر رضى الله عنه من الإصابة : كان أبو بكر معروفا بالتجارة ، ولقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أربعون ألفا ، وكان يعتق منها ويَعُول المسلمين ، حتى قدم المدينة بخمسة آلاف ، ومامات حتى ما ترك دينارا ولا درهما . أخرج ابن عساكر عن أم سلمة قالت : لقد خرج أبو بكر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تاجرا إلى بُصرى ، ولم يمنع أبا بكر الضنّ برسول الله صلى الله عليه وسلم وشحُّه على نصيبه منه من الشخوص إلى التجارة ؛ وذلك لإعجابهم بكسب التجارة وحبهم التجارة ولم يمنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر من الشخوص فى تجارته ، مع محبته وضنته به ؛ وذلك لاستحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم التجارة وإعجابه بها .

وقال ابن سعد : لما استخلف أبو بكر أصبح غاديا إلى السوق على رأسه أثواب يتجربها ، فلقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فقالا : كيف تصنع هذا ، وقد وُليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالى ؟ قال : نفرض لك . ففرضوا له كل يوم شطر شاة . قال ابن زكرى على البخارى . وكل من شغلته مصالح المسلمين من قاض ومفت ومدرس كذلك .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقى فى الشعب عن عمر رضى الله عنه قال : ما جاءنى أجلى فى مكان ماعدا الجهاد فى سبيل الله - أحب إلىّ من أن يأتينى وأنا بين شعبتى رجلى أطلب من فضل الله ، وتلا : « وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ »

وأخرج ابن سعد فى الطبقات عن عبد الله قال : كان عثمان رجلا تاجرا

فى الجاهلية والإسلام ، وكان يدفع ماله قراضا[1] . وأخرج أيضا عن العلاء ابن عبد الرحمن عن أبيه : أن عثمان دفع إليه مالا مضاربة على النصف .

وقد كان لخديجة بنت خويلد أم المؤمنين مال كثير وتجارة تبعث إلى الشام فيكون عيرها كعامة عير قريش ، وكانت تستأجر الرجال ، وتدفع المال مضاربة ، ولما خرج عليه السلام فى تجارتها مع غلامها ميسرة قالت : أنا أعطيك ضعف ما أعطى قومك ، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج إلى سوق بصرى وباع سلعته التى أخرج واشترى غيرها ، وقدم بها فربحت ضعف ما كانت تربح ، فأربحت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعف ما سمت له .

وقال ابن عبد البر : كان الزبير بن العوام تاجرا مجدودا فى التجارة . وقيل له يوما : أدركت فى التجارة ما أدركت ! ! فقال : لم أشتر عيبا ، ولم أرد ربحا ، والله يبارك لمن يشاء . وذكر ابن عبد البر أيضا : كان للزبير ألف مملوك يؤدون إليه الخراج

وقال عبد الرحمن بن عوف : لما قدمنا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينى وبين سعد بن الربيع ، فقال سعد بن الربيع : إنى أكثر الأنصار مالا ، فأقسم لك نصف مالى ، وانظر أى زوجتى هويت نزلت لك عنها ، فإذا حلت تزوجتها . فقال له عبد الرحمن : لا حاجة لى فى ذلك ، هل من سوق فيه تجارة ؟ قال : سوق قَيْنُقَاع ، فغدا إليه عبد الرحمن ، فأتى بأقط وسمن ثم تابع الغدوّ ، فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر الصفرة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تزوجت ؟ قال : نعم . قال : ومن ؟ قال : امرأة من الأنصار .

قال ابن عبد البر كان عبد الرحمن بن عوف تاجرا مجدودا فى التجارة ، واكتسب مالا كثيرا ، فصولحت امرأته التى طلقها فى مرضه من ثلث الثمن

(١) القراض : دفع المال للاتجار فيه ومقاسمة الربح

بثلاثة وثمانين ألفا . وروى ابن عيينة أنها صولحت عن ربع الثمن من ميراثه.

ومن التجار سعيد بن عائذ المؤذن مولى عمّار بن ياسر ترجمه فى الإصابة فقال : كان يتجر فى القرظ . فقيل له : سعد القرظ . وروى البغوى أنه اشتكى إلى النبى صلى الله عليه وسلم قلة ذات يده ، فأمره بالتجارة ، فخرج إلى السوق فاشترى شيئا من قرظ ، فباعه ، فربح فيه ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فأمره بلزوم ذلك .

ومنهم منقذ بن عمرو الأنصارى الصحابى المدنى : روى ابن اسحاق عن محمد بن يحيى بن حبان قال : كان جدى منقذ بن عمرو أصابته آفة فى رأسه فكسرت لسانه ، ونازعته عقله ، وكان لايدع التجارة ولايزال يغبن ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : إذا بعت فقل : لاخلابة ، وأنت فى كل سلعة بعتها بالخيار ثلاث ليال ، وكان فى زمن عثمان حين كثر الناس يبتاع فى السوق فيصير إلى أهله فيلومونه فيرده ، ويقول : إن النبى صلى الله عليه وسلم جعلنى بالخيار ثلاثا .

ومنهم أبو معلق الأنصارى : كان تاجرا يتجر بمال له ولغيره ، ويضرب فى الآفاق وكان ناسكا ورعا مجاب الدعوة .

قال مالك : كان عمر بن الخطاب يشاطر العمال ، فيأخذ نصف أموالهم ، وشاطر أباهريرة ، وقال له : من أين لك هذا المال ؟ فقال أبو هريرة : دواب تناتجت وتجارات تداولت .

ومنهم المتجر فى غزوة خيبر : ذكر حديثه أبو داوود فى سننه فى باب التجارة فى الغزو ، ثم أخرج عن عبد الله بن سلمان أن رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم حدثه قال : لما فتحنا خيبر أخرجوا غنائمهم من المتاع والسبى ، فجعل الناس يتبايعون غنائمهم ، فجاء رجل حين صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، قد ربحت ربحا ماربح اليوم مثله أحد من أهل هذا الوادى ، قال : ويحك ! ماربحت ؟ قال : مازلت أبيع وأبتاع حتى

ربحت ثلثمائة أوقية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أنبئك بخير رجل ربح . قال : وماهو يارسول الله ؟ قال : ركعتين بعد الصلاة . والحديث سكت عنه المنذرى ،

وأخرج ابن ماجة من حديث خارجة بن زيد قال : رأيت رجلا سأل أبى عن الرجل يغزو ويشترى ويبيع ويتجر فى غزوه ، فقال له: إنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم « بتبوك » نشترى ونبيع وهو يرانا ولا ينهانا . وفيهما دليل على جواز التجارة فى الغزو ، وعلى أن الغازى مع ذلك يستحق نصيبه من المغنم ، وله الثواب الكامل بلا نقص ، ولو كانت التجارة فى الغزو موجبة لنقصان أجر الغازى لبيّنه صلى الله عليه وسلم ، فلما لم يبين ذلك ، بل قرّره دل على عدم النقصان

ويؤيد ذلك جواز الاتجار فى الحج . لما ثبت فى الحديث الصحيح : أنه لما تحرّج جماعة من التجار فى سفر الحج أنزل الله عز وجل : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ » قاله الشوكانى .

الزراعة والغراسة

قد أكثر سبحانه وتعالى فى كثير من الآيات التذكير بما أنعم به من إخراج الزرع والنباتات فقال تعالى : « وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ » أى بالماء نبت كل شىء فأخرجنا منه يعنى الماء خضرا يعنى أخضر « نُخْرِجُ بِهِ حَبًّا مُتَراكِبًا » سنابل البر والشعير والأرز والذرة وسائر الحبوب يركب بعضه على بعض . وقال تعالى : « وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ » وهو ما انبسط على الأرض وانتشر كالعنب والقرع ، وهو شجر الدباء والبطيخ وغيرها ، « وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ » ما أقام على ساق كالنخل والزرع وسائر الأشجار ، ثم قال : « والنَّخْلَ والزَّرْعَ

مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ » أى ثمره وطعمه الحامض والمر والحلو والردىء.

وقال تعالى: « وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » أى متقاربات متدانيات يقرب بعضها من بعض فى الجوار وتختلف فى التفاضل « وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ » والصنوان النخلات يجمعها أصل واحد وقال تعالى: « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ » وهى التى لا نبات فيها فَنُخْرِجُ به زرعاً. وقال تعالى: « وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ». وقال: « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ »

وقال: « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا - الآية » وقال: « جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا » يعنى جعلنا حول الأعناب النخل ووسط الأعناب الزرع.

وقال تعالى: « هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » يعنى أمدكم من عمارتها بما تحتاجون إليه وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية.

وفى صحيح مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على أم مبشر الأنصارية فى نخل لها، فقال: « لَا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ أَوْ طَيْرٌ أَوْ سَبُعٌ إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ » وروى البزار وأبو نعيم فى الحلية عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سَبْعٌ يَجْرِي أَجْرُهُنَّ لِلْعَبْدِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ أَجْرَى نَهْرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ» قال أبو نعيم: ولا يخالف الحديث الصحيح؛ فقد قال فيه: « إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ » وهى تجمع ما ورد من الزيادة. قال المنذرى:

وقد رواه ابن ماجة وابن خزعة فى صحيحه بنحوه من حديث.

وأخرج الحاكم وابن أبى الدنيا فى التوكل والعسكرى فى الأمثال، والدينورى فى المجالسة عن معاوية بن قرة قال: لقى عمر بن الخطاب ناسا من أهل اليمن، فقال: من أنتم؟ فقالوا: متوكلون. قال: كذبتم ما أنتم متوكلون؛ إنما المتوكل رجل ألقى حبه فى الأرض وتوكل على الله!!

وأخرج أحمد والطبرانى من طريق مسلم بن بديل عن إياس بن زهير عن سويد بن هبيرة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «خَيْرُ الْمَالِ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ (١) أَوْسِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ (٢)». المُهر ولد الفرس والجمع أمهار والأنثى مُهْرة.

والمأبورة: المصلحة، وأبَرَ نخله لقّحه وأصلحه، ومنه سكة مابورة.

وفى الصحيح عن أبى هريرة: أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يوما يُحدِّث وعنده رجل من أهل البادية: أن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه فى الزرع، فقال الله تعالى: ألستَ فيما شئتُ؟ فقال: بلى، ولكن أحب أن أزرع. قال: فبَذَرَ، فبادر الطرفَ نباته واستواؤه واستحصاده، فكان أمثال الجبال. فيقول الله تعالى: دونك يابن آدم؛ فانه لا يشبعك شىء. فقال الأعرابى: والله لا تجده إلا قرشيا أو أنصاريا؛ فإنهم أصحاب زرع. وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع. فضحك النبى صلى الله عليه وسلم.

ومنه يؤخذ أن المهاجرين والأنصار كانوا زارعين لقول الأعرابى: إنك لا تجده إلا أنصاريا أو قرشيا، وهذا أكثر حجة ودلالة على مكانة الزرع؛ إذ كان المهاجرون والأنصار هم أفضل الأمة، وكانوا أهل زرع.

وأخرج أبو داوود فى مراسيله عن على بن الحسين مرسلا: «احرثوا؛

---

(١) مأمورة: كثيرة النتاج والنسل

(٢) مأبورة: الطريقة المصطفة من النخل.

فان الحرث مبارك ، وأكثروا فيه من الجماجم (١) ، وفى لفظ آخر : يامعشر قريش ، إنكم تحبون الماشية فأقلوا منها ؛ فإنكم بأقل الأرض مطرا ، واحرثوا ، فإن الحرث مبارك ، وأكثروا فيه من الجماجم » . خرجه أبو داوود أيضا والبيهقى .

وأخرج الديلمى عن أبى مسعود رفعه : لما خلق الله المعيشة جعل الله البركات فى الحرث والغنم . وفى الصحيح عن أبى هريرة : « وَإِنَّ إِخْوَانِي مِن الأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمْ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ » قال القسطلانى فى الزراعة والغراسة وفيه عن ابن عمر أنه عليه السلام : عامل خيبر بشطر ما يخرج منها من ثمر أوزرع . وبوب عليه البخارى باب المزارعة مع اليهود . وفى الصحيح أيضا : وكان يعطى أزواجه مائة وَسْق : ثمانين وسق تمر ، وعشرين وسق شعير .

وقال الإمام ابن حزم الأندلسى : اعلموا أن الراحة واللذة والسلامة والعز والأجر فى أصحاب فلاحة الأرض ، وفلاحة الأرض أهنأ المكاسب جملة

وفى كشف الظنون عن بعض العلماء : لو علم عباد الله رضا الله فى إحياء أرضه لم يبق فى وجه الأرض خراب .

(١) هى الخشبة التى تكون فى رأسها سكة الحرث

الخلاصة

وصفوة القول أن العمل روح الحياة ، وأساس العمران ، وسبيل الكمال ، ومنبع الثروة والمال ، وهو من ضروريات الحياة . فلولاه ما رأيت قصورا شاهقة ، ولا حقولا ناضرة ، ولا حدائق يانعة تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، وتبعث إليك بأريج أزهارها ، وتمدك بفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة . ولولاه ما رأيت طائرات تحلق فى الجو ، ولا فلكا تمخر فى عباب اليم ، ولا عرفت البخار وآثاره ، ولا الكهرباء وعجائبها ، ولا حصلت على ثوب تلبسه ، ولا رغيف تأكله ، ولا ماء صاف تشربه ، ولا كتاب مفيد تقرؤه ، ولوجدت كل شىء على حاله منذ ابتدأ الله خلقه .

قلب بصرك فيما حولك ، وفيما أنت فيه اليوم ، وما ستصير إليه غدا — تجد فى كل شى منه أثرا للعمل والصنعة : فأقوالنا وأفعالنا ، وحركاتنا وسكناتنا وأخلاقنا وعاداتنا ، حتى مذاهب أفكارنا ، وطرق التعبير عن آرائنا — أثر لأعمال من سبقنا ، وتراث قذفوا به إلينا من قمة الأحقاب الخالية بعد أن أحكموا تأليفه ، وتواضعوا عليه ، فتلقفناه منهم ، ونحن نورثه من بعدنا بعد أن نصوغه فى القالب الذى يتفق وزماننا .

والعاملون فى كل زمان ومكان هم الذين شادوا صروح التمدين ، وأقاموا معالم الحضارة ، ومدوا ظلها الوارف ، فشملت كل شىء فى الحياة ؛ كذلك أورثهم الله ملكه ، وأباحهم الدنيا . ينعمون بخيراتها ، ويستثيرون دفائنها وكنوزها ، وسماهم عباده الصالحين . قال سبحانه وتعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ »

لم يخلق الله الإنسان عبثا فى هذه الحياة ؛ فيلهو ، وإنما خلقه وكلفه العمل ؛ ليعمر الدنيا ، وينتفع بما بطن منها وما ظهر . وقد جرت سنة الله فى خلقه

أن تسبق المطالب بالمتاعب ، وألاّ ينال الإنسان حظه فى الحياة بغير الكد والسعى . ففى التوراة : « حرك يدك أفتح لك باب الرزق » .

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » رواه البخارى

وقال عمر بن الخطاب : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزقنى ؛ فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، ولكن الله يرزق الناس بعضهم من بعض »

وقال الشاعر :

ومن أراد العلا عفوا بلا تعب قضى ولم يقض من إدرا كها وطرا

لابد للشهد من نحل يمنعــــه لا يجتنى النفع من لم يحمل الضررا

ولم يقتصر الدين على الحث على العمل ، بل أبان وقته ووقت الراحة منه قال تعالى : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً »

وفى بعض السنة الغراء ما يدل على أن العمل لكسب الرزق أفضل من العبادة : فقد ذكر رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد فى العبادة ، فقال بعض الحاضرين : صحبناه فى سفر ، فما رأينا بعدك يارسول الله أعبد منه : كان لا ينفتل من صلاة ، ولا يفطر من صيام . فقال النبى صلى الله عليه : « من كان يمونه ويقوم به ؟ » قالوا : كلنا . قال : كلكم أعبد منه . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك بلفظ آخر . ومر سيدنا عيسى برجل يعبد الله ، فقال له : « من يمونك ؟ » قال أخى : قال : « أخوك أعبد منك » وقال الدارانى . ليست العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يمونك ، ولكن ابدأ برغفك فأحرزها ثم تعبد » .

والعمل الصالح يرفع من قيمة صاحبه ، وينزله من النفوس منزلة رفيعة :

قال سيدنا عمر بن الخطاب: «إنى لأرى الرجل فيعجبنى فأقول: أله حرفة؟ فان قالوا: لا - سقط من عينى» وقد عُدَّ الحياة، واعتبرت دونه عبثا وباطلا. قال الشاعر:

وما الحياة بأنفاس نرددها إن الحياة حياة العلم والعمل

بل جاوز بعضهم هذا إلى طلبه فعل الشر إن لم تكن سبيل إلى الخير:

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما يراد الفتى كيما يضر وينفعا

وإن كان هذا رأيا آفنا وقولا مائنا.

إن الذى يحاول أن يدرك حظه من الحياة دون عمل جاهل مفتون: كالذى يبذل قوته كلها للحصول على ماليس فى مقدوره؛ فإنه فى الكثير الغالب لا يرجع من عمله هذا بغير الحسرة والندم وضياع الوقت فى غير طائل.

وليس الاجتهاد الحمل على النفس وتحميل الجسم فوق طاقته؛ فهذا مما يئول به إلى الاضمحلال، ويعوقه عن السير فى طريق الكمال، وإنما يكون بالمواظبة وإتقان العمل؛ فقد ورد: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»

والمجتهد يعطى القليل من القوة، فيعمل به ولا ينقطع عن العمل إلا لضرورة — خير من كثير القوة الكسلان؛ فقد يدرك الأول باجتهاده مالا يدركه الثانى بقوته.

وان الأمة العاملة المجدة النشيطة تتسع رقعة ملكها، ويعظم شأنها، وتخفق فى البر والبحر أعلامها، وتروج تجارتها، وتنتشر لغتها وترى أبناءها منتشرين فى كل بلد وناحية، حتى مجاهل بلاد الله وبين الأمم البدوية لطلب العيش وكسب المال. وبقدر ماتكون عليه الأمة من نشاط وكفاح ورغبة فى العمل وإقدام يكون نصيبها من خير الدنيا ونعيمها.

وقد عرف المصريون الأقدمون ذلك فكانوا يحبون العامل المجد، ويبغضون فارغ اليدين، ويعاقبونه بالضرب بالسوط؛ ويمثلون الكسل فى صورة بشعة

ينصبونها فى الميادين العامة ، وتبعهم فى هذا كثير من الأمم الناهضة التى أخضعت لسلطانها الأمم زمانا كالأمة العربية التى انتظم حكمها جميع الأمم الضاربة مابين المحيط الأطلسى إلى جدار الصين فى مدى قرن وبعض قرن . وغيرها ممن سبقها من الأمم كثير : كالفرس ، والروم . وهذه الأمم لم تصب بما أصيبت به من الفناء والدثور إلا بتواكلها وانغماسها فى الترف ، وانحرافها عن العمل ، وميلها إلى الدعة والراحة .

لهذا كان أهم ماتعنى به الحكومات والأمم الراقية الآن — مقاومة الميل إلى الترف والدعة : بإيجاد الأعمال العامة النافعة ، وتشجيع الصناعة والتجارة ، والهجرة إلى البلاد القاصية ، ومكافأة العامل المجد الفائق فى عمله وصناعته ، وتكريمه ؛ ليحتذيه غيره من العمال والصناع ، ولهذا أيضا أنشئت أندية الرياضة البدنية لتقوية الجسم وتقويمه وتمرينه على تحمل مشاق الأعمال ، وعقدت لها الاحتفالات العامة فى كل أمة ومملكة ، يحضرها الملوك والعظماء تنويها بشأنها ، وتكريما للنابغين فيها ، واستنهاضا للهمم الفاترة ؛ للمواظبة عليها ، والنبوغ فيها :

ذلك لأن للفراغ من العمل غير ما تقدم نتائج سيئة ؛ إذ به يتعود الإنسان البلادة ، ويفقد النشاط والصحة وحب العمل ، ويصحب هذا الرضا بالمنزلة الدنيا ، وبذل ماء الوجه فى كثير من المواطن ؛ للحصول على الكفاف من الرزق . وإن الذين تراهم يتساقطون علينا كالذباب فى الشوارع ، ويأخذون على المارين منافذ الفضاء — أكثرهم ممن استعذبوا البطالة ، واستمرءوا الكسل ، ورأوا فى العمل مجهدة لهم ونصبا ، فتركوه وآثروا المنزلة الدنيا على حرفة فيها شرف لهم وأمان من فقرهم . وأكثر ما يكون ضرر الفراغ من الأعمال إذا صحبه الشباب الثائر ، والمال الوافر . هنا لك يكون وبالا على صاحبه وعلى الناس ؛ لجموح بعض القوى وخروجها عن

حد الاعتدال بالبطالة ووجود مايواتيها من المال والشباب :

إن الشباب والفراغ والجده　　مفسدة للمرء أى مفسده

أسباب نجاح الأعمال

كل عامل يسره أن يجنى ثمرة عمله الذى يزاوله ، ولكنه كثيراً مايخطىء الطريق الموصل إليه فلايحصل على الغاية التى يريدها ، أولا يحصل على شىء مطلقا ؛ ذلك لأنه قصر فى الاستعداد له باتخاذ الأسباب المؤدية إلى نجاحه ، وهذه الأسباب كثيرة :

منها أن يتأمل الإنسان العمل ، وينظره نظر حكمة وروية ، ويتدبره قبل الأخذ فيه ، حتى إذا رأى من نفسه القدرة عليه شرع فيه .

ومنها ألا يقدم عليه إلا بعد أن يعرف كيف يبتدئه ؟ وكيف ينتهى منه؟ وأن ينظر فى كل جزء من أجزائه . ويتوثق كل خطوة يخطوها فيه ؛ حتى يكون بمأمن من الزلل .

ومنها كثرة المران عليه ؛ فبالتمرين يسهل العمل ، ويجود ، ويقصر الزمن الذى ينفق فيه .

ومنها بذل الجهد ، واحتمال المشاق التى تعرض فى ثنايا العمل بصبر ورباطة جأش ؛ فبالصبر والاجتهاد . تنال الغايات وتدرك المطالب :

وقل من جد فى أمر يحاوله　　واستصحب الصبر إلافاز بالظفر

ومن الأسباب المهمة التى يجب الأخذ بها : المثابرة على العمل والدأب فيه ، حتى تظهر ثمرته ؛ فإن من الأعمال مايستنفد زمنا طويلا ، ويستدعى مشقة عظيمة ، حتى تظهر نتيجته ، فان لم يكن العامل ذا أناة وصبر ومغالبة للحوادث لايحصل من عمله على الفائدة المرجوة ، كما هو الشأن فى كثير ممن يتولاهم الضجر والقنوط إذا رأوا فى العمل صعوبة ، أو أنسوا من أنفسهم عدم القدرة فينصرفون عنه .

ومما يسهل العمل ويضمن نجاحه النظام والترتيب ، فكثير من الأعمال

الشاقة تسهل إذا حاطها الانسان بشىء من حسن النظام والترتيب ، وتصعب وتلتوى مسالكها ، ويعتورها الخلل فى كثير من نواحيها - إذا أهمل النظام فيها .

والمحافظة على الوقت وعدم ضياعه فيما لا يفيد مما يؤدى إلى نجاح الأعمال ، ويمنع تزاحمها ، فتتأخر أو تتعطل ؛ فان لكل يوم عملا ، ولكل ساعة عملا ، فاذا لم يؤد العمل فى الوقت الخاص به ذهبت فائدته :

ولا أؤخر شغل اليوم عن كسل   إلى غد إن يوم العاجزين غد

وحسبك أن تنظر إلى صانعين وتوازن بينهما : إذا كان أحدهما يحافظ على الوقت والوعد والآخر مهملا وقته مخلفا وعده ؛ لتعلم مقدار ما ربحه الأول من وراء محافظته على الوقت وعنايته بإنجاز عمله وتحسينه ، وما يخسره الثانى من الثقة به والربح الذى يفوته بانصراف الناس عنه

وإنك أين تحل لا تجد من الناس إلا متبرما ساخطا من العامل المصرى والصناعة المصرية . وإنه لا صلاح لهذه الحالة بغير صلاح الأخلاق ، ومعرفة قيمة الزمن الذى هو من ذهب ، والذى هو كالسيف إن لم تقطعه بالعمل قطعك بالأسى والأسف .

مظاهر الاخلاق الاسلامية

تمهيد

خليق بنا أن نقدم بين يدى ما نحن موردوه من الصور الخلقية الإسلامية موجزا يتجلى منه أن هذه الصور نتيجة صادقة لاستمساك أهلها بما جاء فى الشريعة الاسلامية المطهرة من الأخلاق الفاضلة ـ والصفات الكاملة فنقول:

تمهيد

أولا

الاسلام ظهير الحق وحليف السماحة ونصير التجديد ورسول الثقافة. يقوم الدين الاسلامى على اعتقاد الحق وإقامة البرهان على المعتقد ـ بحيث يزول الشك والريب ، ويدعو إلى تعميم التعامل والاخاء ، وتخويل جميع الأفراد حرية محضة محدودة بحدود موافقة للحكمة ، بحيث تحفظ الحياة الاجتماعية ، وتمنع ذويها من الافراط والتفريط.

ولا غرو ، فقد أباح لكل فرد ما يصلح له من الحقوق ، وخوّله التمتع بها ، وحدد له حدودا لا يتجاوزها حتى لا يضر بحقوق غيره ، وأوجب عليه فى نظير تلك الحقوق واجبات تناسب ما خوله ، ليقوم بمهام مناسبة للمجتمع فى نظير ما يطلب من الحقوق ، وهذه هى أقصى درجات المدنية التى لن يصل إليها إلا من عرفها وطابق بين السياسات القرآنية والنبوية ، وبين سنن الحكمة التى ينبغى أن تتخذ دستورا لحفظ الحياة الاجتماعية.

ثم بعد أن نهج للأفراد هذا المنهاج القويم ، وسلك بهم هذا الصراط المدنى المستقيم ـ أوجب بينهم حفظ المراتب والدرجات ، وأوجب رعايتها عليهم ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات بمقتضى الاستحقاق والقابلية ، ثم ألزمهم رعاية مصالح سواهم ، وحبّب اشتراك غيرهم معهم فى نعمة هذه المدنية

العظمى ، والمنهج القويم الأوضح ، ولم يمنع المخالطة والمشاركة بينهم وبين غيرهم ، حتى إن سيد الوجود صلى الله عليه وسلم كان يعامل يهوديا ، وتوفى عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة عند يهودى ، حتى استخلصها منه سيدنا أبو بكر رضى الله عنه . فكيف يصح أن يتخيل المتخيلون أو يتصور المتصورون رعاية حقوق هى أجل وأعظم من حسن هذه المعاملة ، فانه صلى الله عليه وسلم كان مهيبا مطاعا ، وكان أصحابه بين يديه يفدونه بأرواحهم . فكيف رهن درعه عند ذلك اليهودى ، وكيف تجاسر اليهودى على عدم الاستعفاء من ارتهان درعه ، لو لم يكن آمنا الغائلة ، حرا فى ماله ، متصرفا فيما يملك .

كانت الزراعة معتنى بها فى زمانه صلى الله عليه وسلم ، وكان هو الذى يأمر بها ، ويحرض عليها ، ويقول : (اطْلُبُوا الرِّزْقَ مِنْ خَبَايَا الأَرْضِ) وكان أهل خيبر يعملون على النصف . وكذلك الصناعة ، فانه أمر بها وبتعلمها ، وكانت العلوم الدنيوية قليلة جدا ، فأمر بمبادىء التعليم وبأخذ العلوم ولو من ديار الكفار ، وعمل إليه الأمور النافعة التى يستعملها كفار الفرس وغيرهم : مثل عمل الخندق باشارة سلمان الفارسى رضى الله عنه ، واستحسان تنوير المسجد الشريف من قبل تميم الدارى حين أوقد قنديلا ومصباحا أحضره معه من سياحته بعد أن كان يستضاء فى المسجد الشريف بحرق أخشاب النخيل . ولم يمنع النبى صلى الله عليه وسلم الأمة من الأعمال الخيرية التى تعود على المجتمع مطلقا ، بل أمرهم بها جميعا : فأمر بنشر العلوم والمعارف ، وتقسيم الوظائف ، وإيجاب الاخاء ، وتقدير الرجال وترتيب الجنود ، وتنظيم القوى الدفاعية والهجومية ، وقرر وجوب حفظ الأبدان والطب والتشريح وأنواع الحكمة الطبيعية وغيرها ، وتعميم الآداب وتتميم مكارم الأخلاق ، وأوجب علم التاريخ والجغرافيا والسياحة والكشف والسعى فى الاختراعات حتى أمر بعلوم النجوم والحساب ، والقصص والروايات ، وآداب المحاضرات والمسامرات .

وقرر مع كل هذا وظائف الأعمال الادارية ، وأوجب الاقتصاد الادارى والمالى ، وكل ما يمكن أن يكون فى الأمم المتمدينة ، حتى أوجب أصول الاحصاء .

أما التجارة فقد استعملها بذاته الشريفة على ما صرح به الاجماع بلا دفاع

هذا ما كان من أمر الداخلية

وأما الخارجية فقد دعا بالبلاغ المبين ، وقرر أصول الحقوق الدولية والحقوق المالية ، وفرق بين طبقات العالم على مقتضى الحكمة المحضة ، وأوجب أصول الحروب والهدنة والمسالمة والمعاهدة والمقاولة والمراسلة والمكاتبة ، ورعاية الموازنة السياسية والحقوق المتبادلة ، وحقوق الجوار والمعاهدات التدافعية والتحافظية وأصول أهل الحماية ومعاملات رعايا الأجانب ، وأهل الذمة ، وتخويل كل فرقة حقا محدودا بالحكمة محوطا بالصواب ، بحيث لا يمكن لمنصف أن يرى فى كل ذلك ذرة من انحراف عن عدل أو جنوح إلى جناح . بل يجب على من يريد درك الحقيقة من هذا الدين المبين أن يراجع نصوصه الثابتة فى كل حادث زمانى أو مكانى علمى أو عملى ، ويكون له من الاقتدار على التطبيق الشرعى صلاحية كافية ؛ فانه يرى الحكمة تتجلى بين يديه مجردة عن كل تردد واحتجاب .

أما مايدسه الذين لايتقون ، ويقبله منهم الذين لايعقلون — فشىء مفترى على الدين لا عبرة به ، بل لابد من دفعه بقوة البراهين التى مر ذكرها ، ونورد من تلك الموضوعات بعض المشهورات التى يظن البعض أنها من الدين فى شىء حتى تعلم ويقاس عليها ماسواها :

(١) إن دعوى العلم بالغيب باطلة فلا صحة لدعوى الوصول إلى علم الغيوب بقواعد فنية ، لانحصار القواعد الفنية وعدم قابلية انحصار الغيوب ، والمحصور لا يشتمل غير المحصور .

وقد زعموا أن هذه الفنون والوسائط حقيقية ، بل أسندوها إلى مصادر

عالية المقادير عند المسلمين وأولئك مبرءون مما قالوا ، فانهم ينسبون الجفر إلى الامام علي رضى الله عنه ، وعلم الرمل لسيدنا إدريس عليه السلام ، وادعوا بعض أحاديث لتأييد كلامهم لاتنهض دليلا .

وقد دل الاطلاع على كتب بعض هذه الفنون على أنها ظنية خيالية لاحقيقة لها . وعلى من أراد أن يدعى صحتها أن يبين شيئا من الأشياء قبل وقوعه بيانا حقيقيا أمام رجل عالم ثابت مطلع على مافى كتبهم من المفتريات

ولا يغرنك مايتسترون به من ذكر بعض آيات وأحاديث ؛ فان النصوص الصريحة لايقوى عليها التأويل والتمحل ، ومن نسبة الجفر إلى على رضى الله عنه ؛ لأنهم يعتبرون حسابه بمقتضى أشياء : منها التفريق بين الحروف المهملة والمعجمة ، ومهمل المهمل ومعجم المعجم ، وجلىٌّ أن الخط فى عهده كان عاريا عن هذه المميزات كلها فكيف وضعه الامام رضى الله عنه ؟

وأغرب من ذلك أن أهل هذا العلم يسندونه إلى سند قوى : وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم علمه عليا ، وهذا ظاهر البطلان ؛ فان الخط فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مجردا عن النقط والشكل . أضف إلى ذلك أننا نشاهد فى كتب الجفر أشياء تاريخية لاأهمية لها قد ذكرت فى كتبهم ، وأشياء انقلبت بها الكرة الأرضية ولم تذكر فلو كان هذا علما أو شيئا له صحة ماأهمل ذكر نابليون الأول ، والمرحوم محمد على باشا ، ولما ترك جنكيز وهولاكو وأمثالهما وتعرض لذكر ضعاف من الناس . فالجفر كذب باطل .

وأما الرمل فباطل أيضا ؛ لأن أهله يدعون اتصال سنده بادريس عليه السلام ، مع أنهم ينسبون أشكاله لحروف وكواكب ومنازل ومعادن ، ومن المعلوم أن إدريس قبل نوح فبالطبع لايعرف العربية ، وبالطبع لايعرف هذه الحروف ، فكيف رتب علمه عليها ؟ وكيف وصل العلم إلى العربية وليس له أصل فى لسان إدريس ؟ وما سمعنا ولارأى التاريخ أن رجال علم الرمل ترجموا أصوله من كتاب بلغة كذا ، فاذا لم يكن له أصل مؤلف فكيف

حفظته صدور الرجال من عهد إدريس إلى يومنا هذا ؟

وقس على هذين العلمين غيرهما ؛ فان العلم بالغيب مستحيل إلا ما كان وحيا من عند الله .

والحق أن مثل هذه الكتب إنما توضع فى كل زمان للأرجاف وبلبلة الأذهان لمقاصد سياسية أو خصوصية ، إذ من يتدبر بعين الحكمة ويعلم حق العلم معنى ما أشرنا إليه يجد أن روح الدين الاسلامى تمنع كل ذلك وما يندرج تحته :

ذلك بأن القرآن العظيم حكم حكما قاطعا .بعدم إمكان علم الغيب إلا بوحى من الله سبحانه وتعالى فقال : « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » وقال جل ذكره عن لسان نبيه « وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ : إِنِّي مَلَكٌ » وقال أيضاً سبحانه وتعالى : « لَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ » وقال جل وعلا « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » وقال عن الشياطين الذين يدعون أنهم يلقون إليهم الأخبار : « أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ » وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ » والكتاب العزيز مشحون والسنة الغراء مفعمة بأمثال هذا .

ومن الأدلة القاطعة أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة كان فيها وجرت واقعة الإفك فى حق السيدة عائشة الصديقة رضى الله عنها ، وتكلم أصحاب الافك ففى الظاهر أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يعلم حقيقة المسألة ؛ فقد سأل زينب رضى الله عنها ، وسأل أم أيمن وغيرهما ، وجرى ماجرى ، ومازال متوقفا عن الحكم ببراءتها مدة إلى أن نزلت آيات براءتهما فى الكتاب العزيز .

ومن ذلك مسألة الذراع المسمومة التى قدمت إليه عليه الصلاة والسلام ، ولم يعلم أنها مسمومة حتى نطقت معجزة له .

وهذا شىء كثير لا يمكن استقصاؤه فى هذه العجالة .

وكذلك ما وقع لإخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فانهم جميعا لم يكونوا عالمين بالغيب إلا بعد الوحى به إليهم :

فان آدم عليه السلام أكل من الشجرة وهو لا يعلم بخديعة إبليس ،

ونوحا سأل ربه فى شأن ابنه ولم يعلم بانه من أهل النار ،

وإبراهيم صلوات الله على نبينا وعليه وَجِلَ من الملائكة ولم يعلم بهم حين زاروه بالضيافة المشهورة ، وذلك لما قدم لهم الطعام عجلا حنيذا ولم يأكلوا ، وما زال فى روعه حتى أخبروه بأنفسهم ،

ولوطا عليه السلام لم يعلم بالملائكة حين جاءوا إليه وأُهْرِع قومه فى طلبهم ، فخاف وجعل يستعطف قومه ويقول : « فَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ » واستيقن اليأس ، فقال : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » وما انفك فى جزع وفزع حتى قالوا له : « يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ »

ويعقوب لم يعلم تفصيل ما وقع ليوسف عليهما السلام . ولو علم ما ابيضت عيناه من الحزن ،

وموسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم لم يعلم بما حصل من قومه من عبادة العجل وغيره ، حتى أخبره الله تعالى فى أثناء المناجاة ، ولم يعرف حالة أخيه هارون حتى غضب ، وجرى بينهما ما قصه الله من قول موسى : « يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ؟ قَالَ يَابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي ، إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي »

وداود عليه السلام لم يعرف الملكين حين اختصما إليه فى زى الرجال فى مسألة النعاج ،

وسليمان لم يعرف قصة الهدهد الذى صار السبب فى ملك سبأ حتى احتدّ عليه وتوعده بالعذاب ، لولا أن أخبره خبر بلقيس ،

ويونس عليه السلام لم يعلم بما فعل قومه فذهب مغاضبا كما أخبر الله عنه حتى أوحى إليه ،

وزكريا لم يعلم بحال مريم كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا قال : يامريم أنى لك هذا ،

ومريم عليها السلام لم تعرف جبريل حين تمثل لها بشرا سويا ، فقالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ،

وعيسى عليه الصلاة والسلام لم يعرف أنصاره حتى قال : من أنصارى إلى الله ؟ ولم يعلم بسوء قصد أحد أصحابه حتى جرى ما جرى .

هؤلاء مشهورو الأنبياء العظام والرسل الكرام كلهم لم يعلم الغيب إلا عند ما أوحى لهم الله بشىء منه ، وكذلك الصديقون وأكبر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلموا من الغيب شيئا .

هذا أبو بكر رضى الله عنه خير الأمة على الاطلاق ، وأحب الناس إلى الله ورسوله بالاتفاق والصديق الأكبر . والظهير الأول ، لم يكن يعلم أن الحية تلدغه فى الغار وهو مع النبى صلى الله عليه وسلم فى أعظم خطر وأشد كرب ؛

وهذا عمر الفاروق سراج أهل الجنة وظهير الحق فى الدنيا ومعلى كلمة الله العليا ، وعز الاسلام فى الممات والمحيا ، قد قتله أبو لؤلؤة وهو لا يدرى ،

وهذا عثمان بن عفان ذو النورين وزوج الكريمتين ، وثالث الشيخين ، قد قتل مظلوماً وهو يقرأ القرآن وهو لا يعلم أنه مقتول ،

وهذا على ابن عم الرسول وزوج البتول ورابع الخلفاء ، قدقتله عبد الرحمن

ابن ملجم ذاهبا إلى الصلاة أى إلى حيث يكون العبد أقرب لمولاه ، فاستشهد وهو لا يعلم ،

وهذا السيد الحسن أكبر السبطين قد تناول السم من يد أخته ، وكلاهما لا يعلم ،

وهـذا السيد الحسين أحد الريحانتين قد ذهب من المدينة على أن يعززه طالبوه ، فيتولى أمر المسلمين ، ولم يعلم بما قدر له فى كربلاء ، ولو علم على فرض بما سيكون ما استصحب الحرم معه .

ولا ينبغى أن يعتقد مؤمن موحـد أن أولئك الأعاظم الأكارم كانوا يعلمون هذه الخطوب ويلقون بأنفسهم إليها ؛ فان هـذا خلاف الطبيعة البشرية ،

وقد أجمع السلف على أن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، وجرى على ذلك الأئمة المجتهدون ، ولم يقل واحدمنهم بخلاف ذلك ، ولم يدع أحد علم الغيب فى صدر الاسلام إلى أن حدث ماحدث من الفرقة والتخاذل وتشتت الأمة لا سيما فى القـرن الرابع وما بعـده ؛ فلذلك لبث أهل التحقيق على ما كان عليه السلف .

(ب) لا أصل لدعوى التصرف فى العالم بالنفع والضر والخير والشر وما أشبه ذلك . ونسبة هـذه الأعمال إلى أعاظم أهل التقوى والعبادة والزهد رحمهم الله أجمعين كما يدسه عليهم كثير من الناس ويروون عنهم أشياء كثيرة لا حقيقة لها ، مع أن الكتاب العزيز والسنة الغراء والاجماع والقياس كل ذلك يَرُدُّ أن يكون لعبد تصرف فى الكون ؛ فقد قال الله تبارك وتعالى لنبيه الكريم الذى هو أفضل الخلق عند الله عز وجل : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ » وقال تعالى : « قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً »

ولا حاجة لإيراد كثير من الآيات البينات والأحاديث الشريفة فى هذا الباب ؛ إذ من المعلوم من الدين بالضرورة أن من ظن أنه يضر أو ينفع ،

أو اعتقد أن أحدا يضر وينفع ، ويتصرف فى الأرزاق والآجال والأقدار المقدرة - فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وناقض النصوص الموثوق بها ، وكلها ناطقة بأن الله سبحانه وتعالى جعل للأشياء أسبابا وقرنها بها :

فهذا سيد الخلق صلى الله عليه وسلم وأقربهم إلى الله دعا إلى الله بالعمل وباشر الأشياء بأسبابها ، ولم يركن إلى الخوارق والتأثير بذاته الكريمة فى الأشياء ، ولم يغش أبصارهم بأطوار غير معتادة ، ولم يخرس ألسنتهم بقوارع سماوية ، بل جاء بصفة بشرية يطالب الناس بالإيمان بالله وحده والاعتماد عليه دون سواه ، ولا أدل على ذلك من أنه صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه السابقين بالهجرة إلى الحبشة مرتين ، واختفى فى دار الأرقم ثم فى الغار ، وهاجر من مكة ، ولبس لامة الحرب ، واستكمل السلاح . ولو كان مجرد الكمال الروحانى لا يتطلب عملا ما بات خالد بن زيد الشهير بأبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه حين دخل النبى صلى الله عليه وسلم على صفية رضى الله عنها ، يحرسه حول القبة حتى إذا أصبح علم بذلك ، فسر ، ودعا له .

ومن قبله صلى الله عليه وسلم نوح عليه السلام ، فلم يستطع ردع قومه حتى دعا الله تعالى ، وإبراهيم عليه السلام لم يدفع النار بأمره ، وإنما قال الله تعالى لها : « كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » . وهكذا تجد فى كل قصة نبى أو صديق أحوالا تدل دلالة صريحة على أن الله تعالى لم يعط التصرف فى ملكه لأحد من العالمين ، ولا للنبيين والمرسلين .

وربما يظن أن هذه الأعمال لم تقع من الأنبياء الكرام ، ولكنها تقع من بعض خواص المؤمنين على ما يقولون ، وجلىّ أنه لم يجىء بعد الأنبياء أفضل من عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم :

فهذا سيدنا عمر لم يقدر على دفع أبى لؤلؤة ، وسيدنا عثمان لم يقدر أن يدفع عن نفسه ، بل استشهد وهو يقرأ القرآن الكريم وهو أعظم حجة الله على خلقه ، والإمام على لم يدفع عن نفسه عبد الرحمن بن ملجم .

على هذه العقيدة السليمة درج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طبقة بعد طبقة ، لم يدّع واحد منهم أنه يضر وينفع إلا بحسب الأسباب الظاهرة وفيهم كذلك السابقون الأولون ، والعشرة المبشرون وأهل بدر والمهاجرون والأنصار ، وكل الذين توفى النبى صلى الله عليه وسلم وهم به مصدقون ولدينه متبعون . وحذا حذوهم التابعون ، وسار على نهج أولئك السابقين الأئمة الأربعة الذين سلمت الأمة بأنهم واجبو الاتباع والتقليد فى أمور الدين ، وهذه كتبهم الأصلية شاهدة على ذلك

لم يزل الناس على هذا حتى مضى خير القرون بأهلها من الصحب والتابعين وتابعى التابعين ، وتفرقت قوة آل عباس ، وصارت الأمة الإسلامية ملوك طوائف ، وأصبح الأمر لمن غلب ، وطفق الناس كل يطلب رفعة بحسب حاله :

هذا يستطيع الفتنة فيجهز جنده ويقتل إخوته ويعصى أميره ، ويشق عصا الإسلام ، فيمسى أميراً . وذلك يعجز عن ذلك ، فيظل يدعو الناس إليه بالدعاوى التى لا تفيد .

والمصيبة كل المصيبة أن الزمان الذى يزعم أهله أنهم كانوا يتصرفون فى الكون والأفراد بالضر والنفع - كان الإسلام ألعوبة فى يد الملوك الصليبية والتاتارية وغيرهم ؛ فكان واجباً على من يدعى أنه يضر أو ينفع أن يصلح حالة الإسلام فى تلك الأيام ؛ وإلا كان عدواً له آثماً .

حقاً إن الله سبحانه وتعالى قد يكرم الولى بما شاء متى يشاء ، والولى هو من تولى أمر طاعة الله وسلّم أمره الى الله فتولاه الله .

(ح) يحض الإسلام على الاقتصاد بجميع ضروبه ويمقت إنفاق الأموال فى الرياء . وقد تقدم الكلام على ذلك فى باب الخير .

(ى) عالم الجن موجود :

يؤخذ من نصوص الاسلام أن إنكار وجود الجن كفر بنص الكتاب

العزيز ؛ فقد ورد أنهم خلق لقوله تعالى : « وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ » وقوله : « وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ » وأنهم مخلوقون للعبادة مثل الانس لقوله جل وعز : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » وأنهم أحد الثقلين ، ويقال لهم : معشر أيضاً ؛ لقوله تبارك وتعالى : « يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ » ويقال لذكورهم : رجال ؛ لقوله سبحانه وتعالى : « إِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً » وأن في جمعهم الخير والشرير ؛ لقوله تعالى عنهم : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً » إلى قوله : « وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطاً » ، وأنه يقال لجماعة الجن : نفر ؛ لقوله تبارك اسمه : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ » ، وأنهم مأمورون بالتكاليف الشرعية ، وأنهم يعملون ؛ لقوله تعالى : « يَعْمَلُونَ لَهُ » ، وأنهم يأكلون ويشربون ويتشكلون ويرون الناس من حيث لا يرونهم ، ولهم عذاب ونعيم ، يثابون على الخيرات ، ويعاقبون على الشرور ، وهم يأكلون ويشربون ويموتون ، ثم يبعثون كما يبعث الإنس ، ولهم كلام ومحادثة ، وأعمال وحركات كلها ورد بها النص الكريم .

ومنهم الشياطين ، ونوع العفريت من الجن : قال تعالى « قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ »

ولا بد من الإيمان بوجود إبليس وما ذكره الله عنه من أنه أمر بالسجود ولم يسجد ، وأنه أنظر إلى يوم الوقت المعلوم

فواجب على الذي يريد علم الحق أن يصدق بوجود هذه الأشياء ، وإنما ينبغي ألا يخرج عن الاعتقاد الحق ؛ فإننا نجزم بوجود عالم الجن كما ورد به النص ، لكن لا نتعدى إلى شرح ماهيتهم ؛ فان الكتاب العزيز لم يصرح بتعريفهم بالحد التام ، ولا صرح بمكان لهم معلوم .

ولا يُعترض بعدم علم الكثير منا بهم ، أو عدم رؤيتهم ؛ فإن عدم رؤية أحدنا لهم لايستدعى عدمهم فى نفس الأمر ، وزد على ذلك أن كثيراً من الناس يدعى رؤيتهم ، وكثيراً من المؤلفين ذكروا عنهم أموراً لاسيما (أكام المرجان فى أحكام الجان) ؛ فإنه استوفى كلاما طويلا فى هذا البحث ، ونحن نؤمن بوجودهم .

ثانياً

الدين الاسلامى غنى بنفسه

قد يظن بعض الجاهلين بالشريعة الإسلامية أن الزمان قد صار محتاجاً إلى بعض قواعد خلاف قواعدها ، وضوابط خلاف ضوابطها ، وأنها غير وافية بمطالب هذا الزمان ، ولا بد من الأخذ عن دول الغرب ، وفاتهم أن ماعند هذه الدول من الأحكام والشئون المستحسنة هو فى الحقيقة من أصل قواعد الإسلام ، أخذها أولئك القوم وألبسوها حلة غير حلتها الإسلامية ، فيظن ذلك الجاهل المغرور أنها شىء جديد اخترعته تلك الأمم وضمنته بدائع الحكم ، ولو كان من أهل المعرفة فى الشريعة المحمدية التى انتسب إليها — لظهر له أن فى هذه الشريعة قواعد فاضلة كاملة وافية باحتياج هذا الزمان ، وكل زمان لاتذكر عندها تلك القواعد القاصرة ، ولا يعبأ بها عند مقابلتها ، أو لظهر له أن القواعد الكاملة عند أولئك الأمم هى من جملة القواعد التى اشتملت عليها الشريعة المحمدية ؛ بيد أنهم أبرزوها فى صورة غير صورتها الإسلامية . وإذا كانوا لم يأخذوها من الشريعة المحمدية فقد اتفق وصول عقولهم إليها ؛ لأنها من مستحسنات العقول ، مع أن الشريعة المحمدية تشتمل عليها أيضا ، وأنها بلا مراء تغنى الأمم الإسلامية عن الأخذ بسواها

ومن أجل ذلك وجب على المسلمين العلم الوافى بالشريعة المحمدية والتبحر فى أبوابها ، ولا يكفى مجرد الانتساب إليها والتشدق بالاطلاع عليها .

حقا إننا نرى بعض من ينتسب إلى هذه الشريعة مختلى النظام ، فاقدى الآداب، فاسدى السياسة، عديمى التدبير . وربما خيل لمن لم يعلم حقيقة حالهم وما جنوه على أنفسهم من مخالفة شريعتهم أن يقول : كيف أن المسلمين يدعون أن الشريعة المحمدية تقوم بمصالح من يتبعها وتهذيبهم غاية التهذيب ، وهم قد انغمسوا فى الشرور وتراكمت عليهم أنواع الشقاء ، مع أنهم منتسبون لهذه الشريعة . فيقال له : ليس بمنصف من ادعى أن الشريعة المحمدية تكفلت بإصلاح حال من ينسب إليها بالاسم ويخالفها بالاقتداء والعمل ، فلا يجرى على أحكامها ولا يتحلى بآدابها ، فلم تتكفل هذه الشريعة إلا بإصلاح من تمسك بأحكامها وتخلق بأخلاقها وجرى على آدابها كما صرح القرآن الكريم بذلك والأحاديث النبوية

وقد أخبرت تلك الشريعة أن من خالفها فى تلك الأمور تتوارد عليه أنواع الشقاء وأصناف البلاء ، حتى إنه يجد من ذلك مالا يجده غير أتباعها تبديلا لانتقام الآخرة بانتقام الدنيا ، وردعا لهم عن المخالفة ، وتذكيراً بالرجوع إلى التوبة ، وتمحيصا لذنوب من يرد الله به اللطف لشفاعة بعض صفات حسنة ترافق تلك المخالفة .

ومثل من يخالف الشريعة المحمدية ممن ينسب إليها ولا يجد من ثمراتها شيئا — مثل رجل عنده مكتبة عظيمة مشتملة على الكتب النفيسة المحتوية على الآداب والأخلاق الجميلة والأعمال الفاضلة ، وهو لا يفتح منها كتابا ولا يستفيد منها فائدة : أيتصور فى العقل أن يصير ذلك الرجل مهذبا فاضلا سعيدا بمجرد وضع تلك الكتب فى داره وتصفيفها فى مكتبته وتذهيب جلودها ؟ لا : لا يكون ذلك الرجل إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا : لا يدرى ماهو حامل ، ولا يستحق الا اسم الجاهل .

فإن قال قائل : إننا نرى بعضا ممن يعده الناس من علماء الإسلام غير مهذب الأخلاق ولا كامل الصفات ، بل هو متهافت على الدنيا وأدرانها

أكثر من الجهلاء متكالب عليها تكالب كلاب البيداء، مضر بالبشر، متجاهر بالضرر، فأى تهذيب حصل لهـذا الشرير من تلك الشريعة؟ وأى ثمرة اكتسبها؟ بل لو لم يكن فى صف العلماء لقصرت يده عن كثير من الشرور. إن قال ذلك قائل - فجوابه أن هذا الصنف لم يدرك من الشريعة المحمدية إلا القشور، وفاته اللباب وثمرات الآداب، فإذا حققت أمره تجده قد أتقن شيئاً من علوم اللغة العربية كالنحو والصرف والبلاغة مما هو وصلة إلى فهم الشريعة لا عينها، وعلم ما يتوصل به إلى رضا الحكام، وإلى أكل المال الحرام من العوام الذين لا يفرقون بين الضياء والظلام، وقد حفظ ما يزخرف به الكلام، ولم يقصد أن يجعل تعلمه دواء لذاته وشفاء لبلوائه، فلا يتخلق بأخلاق الشريعة الرفيعة. ولا يتأدب بآدابها البديعة، ولا ينزجر بمواعظها عن أحواله الشنيعة بل غاية مقصده نيل ما رغبت فيه نفسه من تلك المقاصد النازلة: فمثله كطبيب يعلم وصف الأمراض وأدويتها ومعالجتها، ولكن لا يلتفت إلى تمثيل دائه العضال، ولو التفت إليه لا يأخذ دواءه، ولا يصبر على معالجته، بل همته مصروفة إلى جلب الأموال من ذوى الأمراض غير عابىء بعلله. فكيف يشفى هذا الطبيب من دائه العضال وهو بهذا الحال من الاهمال؟ أيكون مجرد معرفته علم الطب كافيا لشفاء دائه؟ لا! أيصح عند ذلك أن يقال: إن علم الطب لا ينفع فى شفاء الأمراض؛ لأن هذا الطبيب لم يشف من دائه مع علمه بالطب وتركه المعالجة؟

لا إخال أن أحدا يتجرأ على ذلك القول الفاسد إلا أن يكون مختل العقل، وليُعلم أن من كانوا بتلك الحال ممن يعدون فى صف علماء الإسلام، وقد ابتلوا بمخالفة الشريعة المحمدية بين الأنام، - تسميهم الشريعة الإسلامية بعلماء السوء، وهم أضر على المسلمين من أجهل الجهلاء بل من أشد الأعداء. قلل الله من بين المسلمين أمثالهم ونسخ ظلالهم، وأبدل المؤمنين بهم علماء فضلاء أتقياء قادة للحق، هداة للصدق، متصفين بالصفات الكاملة، متخلقين

بالأخلاق الفاضلة ، محافظين على آداب الشريعة متابعين رسوله فى كل ماسنه لهم من المناهج البديعة .

هؤلاء - كثر الله من أمثالهم وأثابهم على أعمالهم وجزاهم عن الأمة المحمدية أحسن الجزاء - هم علماء الآخرة الذين خصص الله تعالى خشيته بهم ، وأثنى عليهم فى كتابه الكريم ، وعلى لسان رسوله عليه من الله أتنى الصلاة والتسليم ، وهؤلاء فى استقامة أحوالهم ونجاحهم فى أقوالهم وأعمالهم من آثار اتباعهم للشريعة المحمدية لم يتركوا للمعارض مجالا ، ولا للخصم مقالا ، كما لا يخفى على ذوى الألباب .

حقا قد يعذر من اغتر بعلماء السوء فظن أنهم علماء الشريعة الذين يرجى صلاحهم وإصلاحهم ؛ لأنهم يزينون ظواهرهم بما حفظوه من العلوم الرسمية وألفاظ الأحكام الشرعية ، وقد تحلوا بشعار الأتقياء حيلة على الدنيا وشبكة لاصطياد حكامها ، ولكنه لو فطن لهم لوجدهم مُلَبِّسين حائدين عن منهج الاستقامة فى الشريعة ساعين فى تحصيل شهواتهم وبلوغ مآربهم الفانية يدعون مناصب العارفين ، وأصبحوا يتكلمون بكلمات تشبه كلامهم وهم عنهم بمعزل ، ماعندهم من تقواهم ذرة ، ولا من معارفهم قطرة .

فالحذر الحذر من الركون إلى كلام هؤلاء الملبسين الضالين المضلين وقد كثر عددهم فى هذه الأيام ؛ فكم أفسدوا من عقائد ، وكم أحلوا من حرام . فعلى كل مؤمن متبع للشريعة المحمدية أن يعتقد ما جاء به صريح القرآن والسنة الصحيحة ، ويعتمد فى كل ذلك كلام العلماء الأعلام المسلم بمعرفتهم واستقامتهم من الخاص والعام ، ويهجر ماسوى ذلك من وساوس الأوهام .

ثالثاً

الاسلام استوعب ضروب الاصلاح

مما جاء به الإسلام لإصلاح النفوس وتقويم الأخلاق - وجوب تعظيم

الخالق سبحانه وأداء بعض شكره على نعمه التى لا تحصى ؛ لما اشتملت عليه من الأسرار والحكم والفوائد التى يفوز بها المتعبد ، وينال أعلى منازل السعادة وذلك من تهذيب نفسه وتخليتها عن الأخلاق الذميمة وتحليتها بالسجايا الحميدة ، وتذكيره بخالقه ؛ ليأمن من الغفلة عنه سبحانه بما يستولى على قلبه من شواغل الدنيا ، فيحجم عن العصيان ، ويهجر الأمانى الباطلة .

وكذلك فرض عليه الاجتماع مع إخوانه فى أوقات العبادات ؛ ليدعوه إلى الألفة معهم والاطلاع على شئونهم المحتاجة للتعاون والتوازر ، وللنظر فى إغاثة ذوى الحاجات وتصور حالهم المحزنة وبذل مظاهر الشفقة والإحسان إليهم ، وكذلك أوصى الإسلام بتذكر شئون الرسل المتقدمين وآلهم الذين أدوا عبادة ربهم ، وامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه ؛ ليكون ذلك داعيا للاقتداء بأعمالهم والنسج على منوالهم وتجديد الثناء عليهم وعلى متبعيهم ، ثم أوصى بالسعى فى تكثير سواد المسلمين وهداية المخالفين وإعلاء كلمة الله تعالى إلى غير ذلك من الثمار اليانعة والفوائد النافعة والتدبيرات الجامعة المنبثة فى العبادات التى فرضها : « وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ العَالِمُونَ »

ومما أمرت به الشريعة المحمدية التقوى ، وهى اتقاء كل مضر للانسان فى دينه والاخلاص فى العمل لله تعالى ، والبر والاحسان فى العمل ، وهو أن المرء يعبد ربه كأنه يراه . والنصيحة لخلق الله تعالى ، والصبر ، وهو مقاومة الآلام والأهوال والرضا بما يرضى الله تعالى ، والحياء ، وهو انحسار النفس خوف ارتكاب القبائح ، والحلم ، وهو الطمأنينة عند موجب الغضب ، والعفو ، وهو ترك المجازاة للمذنب مع القدرة عليها ما لم تكن حدا من حدود الله تعالى ، والغبطة فى عمل الخير والسخاء والكرم ، والشجاعة ، والحمية وهى المحافظة على الحرم والدين ، والنجدة ، وهى بذل المعونة والايثار ، والمروءة ، وهى آداب نفسية تقف بصاحبها عند محاسن الأخلاق وجميل العادات ، والقناعة ، والوقار ، وهو التأنى فى التوجه نحو

المطالب ، والرفق ، وهو حسن الانقياد لما يؤدى إلى الجميل ، وحسن السمت وهو محبة ما يكمل النفس ، والحكمة والشكر والخوف من الله تعالى والرجاء منه ، والتفويض إليه والتسليم ، والألفة ، وهى اتفاق الآراء فى المعاونة على تدبير المعاش ، والوفاء وصلة الأرحام والشفقة على خلق الله تعالى ، والإصلاح بين عباده ، والأمانة وإنجاز الوعد والوفاء بالعهد ، والحب فى الله ، والبغض فى الله ، وحسن الظن والرشد والسعى ، والأناة والمبادرة فى عمل الخير ، والصلابة فى أمر الدين والأنس بالله والشوق إليه ومحبته تعالى والعفو ، والورع ، وهو ملازمة الأعمال الجميلة ، والاستقامة ، والرقة وهى لين الجانب والتأذى من أذى يلحق الناس ، والنزاهة ، وهى التعاون عما يشين .

ومنها اكتساب المال من غير مهانة ولا ظلم ، وإنفاقه فى المصارف الحميدة ، وكظم الغيظ والخشوع والعبودية لله ، والحرية ، وهى تحرير النفس من ربقة الشهوات . ومحاسبة النفس ومعاتبتها ، وهكذا من كل خصلة حميدة وخطة مفيدة ، حتى يعالج المرء نفسه للتخلق بهذه السجايا ، ويَجِدَّ فى إبلاغها درجة الكمال .

وتنهى الشريعة المحمدية عن الكفر واتخاذ الشريك لله تعالى فى العبادة ، وعن الفسق والعصيان لله تعالى فى أوامره ونواهيه ، وعن اتباع الهوى ، وعن الرياء والكبر والحقد ، والعجب ، وهو ظن كاذب بالنفس باستحقاقها مرتبة هى غير مستحقة لها ، وعن الحسد ، وهو تمنى زوال النعمة عن الناس وعن الشماتة بمصائب الخلق ، وعن العداوة لغير الله ، وعن التهور ، وهو الاقدام فى مقام الاحجام ، وعن سوء الظن بالله تعالى ، وعن الطيرة والتشاؤم الذى لامستند له من الشرع ، وعن البخل والشح والتقتير والاسراف والتبذير ، وعن الغلو فى جمع المال ، وعن الكسل والبطالة ، وعن العجلة فى الأمر ، وعن الفظاظة وغلظة القلب ، وعن الوقاحة ، وقلة الحياء ، وعن

الجزع ، وعن كفران النعم وجحودها ، وعن السخط والغضب ، وعن بغض العلماء وعن الجراءة على الله تعالى ، وعن الأمن من عذابه وسخطه ، وعن التأسف على ما فات من أمر الدنيا ، وعن الضعف فى أمر الدين ، وعن الطيش والخفة ، وعن العناد ، وعن مكابرة الحق وإنكاره بعد العلم به ، وعن التمرد والإباء ، وعن الشره ، وعن الطمع ، وعن الخمود ، وعن الإصرار على المعاصى ، وعن الحمية لغير دين الله تعالى ، وعن القنوط من رحمة الله تعالى ، وعن محبة الظلمة والفسقة ، وعن بغض الصالحين ، وعن قسوة القلب بحيث تمنع صاحبها عن إغاثة المضطر ، وعن آفات كثيرة للسان :

فمنها النميمة ، وهى السعى بين الناس بالإفساد ، وإفشاء السر والسخرية والاستهزاء والاستصغار ، والاستخفاف بالناس ، واللعن والسب والشتم والتعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارة الصريحة ، والطعن بالأنساب ، والمراء ، وهو الجدال والخصومة عنادا ، والخوض فى الباطل والشحاذة لغير مضطر ، وعن التلون واتخاذ الوجهين والشفاعة السيئة والأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، والبحث عن عيوب الناس ، والدعاء للظالم بالبقاء ، والمنابزة بالألقاب واليمين بغير الله ، وكثرة الحلف ولو على الصدق لأجل تعظيم اسم الله ، ورد عذر أخيه وعدم قبوله ، وقطع كلام المتكلم لغير مصلحة شرعية ، والتناجى بين اثنين عند ثالث ، ودلالة من يريد المعصية على طريقها ، والمزاح الذى يمنعه الشرع ، ويوصل إلى الشر ، والكلام فيما لايعنى ، والإغراء بين الزوجين ، وكتمان الشهادة وشهادة الزور ، وقذف المحصنات الغافلات ، وسب الأموات ، وكتم العلم ، وتعمد الكذب على الله تعالى وعلى رسوله ، والكلمة التى تعظم مفسدتها وينتشر ضررها ، وملازمة الفحش حتى يخاف الناس من شره ، والمن بالصدقة ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والغيبة ، وهى أن تذكر أخاك بما يكره فى نفسه أو فيما يخصه ، وهى أكثر آفات اللسان وقوعا ومن أعظمها ضرراً ،

وكذلك نهى عن أفعال وأعمال قبيحة كثيرة أيضا :

منها نقض العهد وخلف الوعد والخيانة والمكر والخديعة ، والفتنة ، وهى إيقاع الناس فى الاضطراب والاختلاف ، وقتل النفس وقتل الإنسان نفسه ، والزنا ، وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ، والعزوبة أى ترك الزواج للقادر عليه ولا عذرله فى تركه ؛ لأن فيه تعطيل الحكمة الإلهية فى تكثير النسل ، وإفشاء الرجل سر زوجته وعكسه ، وخروج المرأة مزينة ، وشرب المسكرات ؛ لأن فيه ذهاب العقل الذى هو أفضل نعمة على الإنسان ، والسكران مستعد للوقوع فى كل معصية ، وارتكاب كل شنيعة ، والنفع المزعوم به لا يوازى أضراره ، والمقامرة التى تعرض المال للمخاطرة ، وإنفاق السلعة بالحلف الكاذب ، وبخس الكيل أو الوزن أو الذرع ، ومطل الغنى بالدين بعد مطالبته ، وإنفاق المال فى المحرمات ، وإيذاء الجار ولو ذميا ، والسرقة والغصب والربا الذى يفقد معه عمل المعروف من الدائن بالاقراض ، وسد حاجة المحتاج بالاستقراض ؛ وخيانة أحد الشريكين لشريكه ، واستعمال العارية فى غير ما أذن به صاحبها ، وتأخيره أجرة الأجير ، أو منعه منها بعد فراغه ، ومنع الناس من الأشياء المباحة لهم عموماً أو خصوصاً ، والتصرف فى الطريق الخاص بغير إذن أصحابه أو العام بما يؤذى ، والخيانة فى الأمانات ، والاكثار من الطعام بحيث يضر ، وترجيح إحدى الزوجات على الأخرى ظلما وعدوانا ، وتهاجر المسلمين فوق ثلاثة أيام ، والتدابر والتشاحن ، وإضاعة المرء أولاده وعياله ، وضرب الناس بغير مسوغ شرعى ، وترويع أحد بسلاح من غير مسوغ شرعى أيضا ، والكهانة والتنجيم وإتيان أصحابها ، والخروج على إمام المسلمين بلا تأويل أو بتأويل يُقطع ببطلانه ، ونكث بيعة الامام لفوت غرض دنيوى ، وقبول الامارة مع علم المتولى بخيانة نفسه ، وتولية جائر أو فاسق أمرا من أمور المسلمين ، وعزل الصالح ، وتولية من دونه وجور ولاة الأمور ، واحتجاب

ولى الأمر عن قضاء حوائج رعيته المضطرين إليها بنفسه أو نائبه ، وقبول القاضى هدية من أحد لم يكن له عادة باهدائها له قبل توليته القضاء ، وقبوله الدعوة الخاصة به ، وأخذ الرشوة من محق أو مطل ، ودفعها كذلك ، والوساطة فيها ، وخذلان المظلوم مع القدرة على نصرته ، واطلاع المرء على دار غيره بغير إذنه ، ولو من ثقب ، والتسمع لحديث قوم يكرهون الاطلاع عليهم ، وترك الجهاد عند تعينه ، والجلوس مع الفساق ، والتغوط تحت شجرة أو على ضفة نهر أو قارعة الطريق ، وترك التوبة عن المعاصى ، وهكذا من كل ما يضر بالمجتمع أو النفس أو المال أو العقل أو الشرف مما لو أردنا الاحاطة به مع ذكر أدلته من القرآن والأحاديث المنقولة عن سيدنا محمد عليه السلام ـ لضاق بذلك المجلدات الكبيرة .

مغزى ما تقدم

يستنبط مما سبق ما يلى :

أولا

قام الإسلام على أساس توحيد الله الذى يفخر عقلاء الغرب اليوم بالرجوع إليه بعد أن تخبطوا كثيرا ، وضلوا طويلا ، كما قام على العدل فى جميع الأمور والمساواة بين الأفراد على اختلاف طبقاتهم ، وعلى العلم النافع فى الدنيا والآخرة ، ومدّ يد المعونة للبائسين والفقراء والضعفاء ، وعلى توفير أسباب الراحة لمن استظلوا بظله مع تباين لغاتهم ومللهم وألوانهم ، ومنع الناس مما يضرهم أدبا ومادة من القمار والخمر والتبذير ، وسلوك طرق الشر .

ثانياً

رافق الإسلام العقل ، وسار معه جنبا لجنب وانتشل المدنية من هوة الفوضى والهوان إلى ذروة العز والشرف ، وأخذ بيد الضعيف حتى أداله من عسف القوى وجبروته ، فتساوى الفريقان فى الحقوق المدنية ، لافرق بين

ضعيف وقوى ، ولا بين فقير وغنى إلا بما منحه الله من ذكاء الفطرة وبسطة العلم والتقوى ، قال تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم : (لَافَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى) وثبت أن أسامة ابن زيد جاء يشفع فى سارق ليسقط عنه حد السرقة ، فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال : (أَتَشْفَعُ فِى حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ ! ! وَاللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)

وهذا أبو بكر رضى الله عنه يقول فى خطبته : (أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم)

ثالثا

لما كان المسلمون مستمسكين بأخلاق دينهم كانوا ملح الدنيا وزينتها ، والطينة النقية ، والمغرس المبارك ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم ، والحسام فى العزم ، مع الأناة والحزم ، والصبر عند اللقاء ، والثبات فى اللأواء . كانوا أهل وفاء إذا استحسن الغدر ، وأرباب جود إذا ضُن بالمال ، يُقرون بالحق ويصدرون عنه ، ويصبرون عليه . ذكرى فعالهم سارت مسير الشمس وهبت هبوب الريح ، وطبقت تخوم الأرض ، وانتظمت الشرق إلى الغرب ، فالأيام تنشدها ، والليالى تترنم بها .

ولا غرو ؛ فقد بعث الله إليهم رسولا عقد بملته طاعتهم ، وجمع على دعوته ألفتهم ، فنشرت النعمة عليهم جناح كرامتها ، وأسالت لهم جداول نعيمها ، والتفّت الملة بهم فى عوائد بركتها ، فأصبحوا فى نعمتها غرقين ، وعن خضرة عيشها فكهين ، قد تربعت الأمور بهم فى ظل سلطان قاهر ، وآوتهم الحال إلى كنف عز غالب ، وتعطفت الأمور عليهم فى ذرا ملك ثابت ؛ فحكموا العالمين ، وملكوا أطراف الأرضين ، وملكوا الأمور على من كان يملكها عليهم ، وأمضوا الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم ؛ فلم تُغمز لهم قناة ، ولم تُقرع لهم صفاة .

رابعاً

لِمَا تقدم تَحَلّى المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها بخلال حميدة، وشمائل نبيلة ظهر أثرها، وشمل نفعها الأفراد فى أنفسهم، والجماعات فى مجتمعهم :

فمن الخلال الفردية المجيدة : مجانبة تناول المحرم، والحرص على اجتناب الريب، والكسب بعرق الجبين، والمحافظة على الكرامة، وعظم الثقة بالله والثبات على المبدأ، والجهر بالحق، والاحتمال والصبر، واستعمال النسك على وجهه، وضبط النفس، والخضوع للحق، والتزام الصدق

ومن الخلال الاجتماعية البليغة الأثر المحافظة على مال الدولة، والتلطف بالعمال، والإحسان إلى الخدم، ورعاية حقوق الجوار، والحفاوة بالعلم، وشعور الحاكم بالمسئولية، واستماع الحاكم نصيحة المحكوم، وصدق المحكوم النصيحة، وبذل الجهد فى سبيل النفع العام، وروح المساواة الصحيحة، والسياسة العالية، والعدل والإنصاف، وتشجيع الجهر بالحق، ومَقْت السعاية، وفرط الحرص على الائتلاف، وإجارة المستجير، والصفح الجميل .

وسأذكر فيما يلى مظهرا جليا، وأثرا صادقا لكل خلة من الخلال الفردية والاجتماعية السابقة؛ لأن إيراد الحوادث وضرب الأمثال أبلغ أثرا فى النفوس، وأدعى إلى الإنصاف بها والتمسك بأهدابها .

وجلى أن تقسيم الخلال إلى فردية واجتماعية اعتبارى؛ فقد يكون للخلة جانبان : فردى واجتماعى . وتنسب لأحدهما وفقا لما يغلب عليها .

مظاهر الخلال الفردية

(١) النزاهة عن تناول المحرم

عن زيد بن أرقم قال : كان لأبى بكر غلام يُغِلّ (١) عليه ، فأتاه ليلة بطعام ، فتناول منه لقمة ، فقال له المملوك : مالك كنت تسألنى كل ليلة ولم تسألنى الليلة ؟ فقال : حملنى على ذلك الجوع ، من أين جئت بهذا ؟ قال : مررت بقوم فى الجاهلية فرَقَيْتُ لهم ، فوعدونى ، فلما أن جاء اليوم مررت بهم فاذا عُرس لهم ، فأعطونى . فقال : أف لك ! وكدت تهلكنى . فأدخل يده فى حلقه وجعل يتقيأ وجعلَتْ لاتَخْرُجُ . فقيل له : إن هذه لاتخرج إلا بالماء فدعا بعُسّ (٢) فيه ماء ، فجعل يشرب به ويتقيأ حتى رمى بها . فقيل له : يرحمك الله ! كل هذا من أجل هذه اللقمة ؟ فقال : لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فالنَّارُ أوْلَى بِهِ) . فخشيت أن ينبت شيء من جسدى من هذه اللقمة .

(٢) الحرص على اجتناب الريب

كان عافية بن يزيد القاضى ، يلى القضاء ببغداد للمهدى ، فجاءه يوما وقت الظهر ، واستأذن عليه . فلما دخل عليه التمس منه إقالته من القضاء . فظن المهدى أن بعض الأولياء قد عارضه فى حكمه . فقال له فى ذلك : وإنه إن عارضك أحد لننكر عليه . فقال القاضى : لم يكن شيء من ذلك . قال : فما سبب استعفائك من القضاء ؟ قال : ياأمير المؤمنين ، تقدم إلىّ خصمان منذ

---

(١) يأتى له بدخل من أجره (٢) القدح الضخم

شهر فى قضية مشكلة ، وكل يدعى بينة وشهودا ، ويدلى بحجج تحتاج إلى تأمل ، فرددت الخصوم رجاء أن يصطلحوا وأن يظهر الفصل بينهما . فسمع أحدهما أنى أحب الرطب ، فعمد فى وقتنا هـذا ـ وهو أول أوقات الرطب ـ فجمع رطبا لايتهيأ فى وقتنا هـذا جمع مثله لأمير المؤمنين ، وما رأيت أحسن منه ، ورشا بوابى بدراهم على أن يُدْخِلَ الطبق على ولا يبالى أن يُرَدَّ عليه . فلما أدخـله على أنكرت ذلك ، وطردت بوابى ، وأمرت برد الطبق ، فرُدَّ عليه . فلما كان اليوم تقدم الخصمان إلى فما تساويا فى عينى ولا قلبى ، فهذا ياأمير المؤمنين ، ولم أقبل ، فكيف يكون حالى لو قبلت ؟ ولا آمن أن تقع على حيلة فى دينى وقد فسد الناس ، فأقلنى ياأمير المؤمنين أقالك الله !!

(٣) الكسب بعرق الجبين

عن الامام على قال : جعت بالمدينة جوعاشديداً . فخرجت أطلب العمل فى عوالى المدينة : فاذا أنا بامرأة قد جمعت مدراً تريد بَلَّهُ . فأتيتها ، فقاطعتها كل دلو بتمرة . فملأت ستة عشر ذَنوباً حتى مَجِلت يدى . ثم أتيتها . ففعلت بكفى هكذا بين يديها (وبسط إسماعيل راوى الحديث يديه جميعا) ،فعدت لى ست عشرة تمرة . فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فأكل معى منها ، وقال لى خيرا ، ودعالى .

(٤) شدة اليقين

إذا كان أبو بكر لم يكن لسيفه مقام مذكور ، مثل أولئك الشباب ـ فقد كان الداعية العظيم إلى هذا الدين الجديد ، بأسلوبه المؤثر الذى كان يأخذ بلب أولئك الشباب ؛ فما يأتى يوم إلاوفى يده شاب إلى رسول الله ، ليلقنه أحكام الدين الذى جذبه إليه . ويكفيه شرفا أنه قـدم للاسلام أولئك الشباب : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وأباعبيدة عامر بن الجراح ،

أولئك الأبطال الذين كانوا أنشط أولئك الشبان فى تأييد تلك الدعوة ، وأصحاب المواقف المشهورة فى الجهاد فى سبيلها .

أما جهاده بالمال فى تأييد هذا الدين فحدث عنه ولا حرج ؛ فكم أعتق من عبيد وإماء لقريش ، أسلموا فنجاهم من العذاب القاسى الذى كانوا يعذبون به ليرجعوا عن دينهم : فممن أعتق منهم : بلال الحبشى ، وكان عبداً لأمية ابن خلف ، فاشتراه وهو يعذبه تحت الحجارة المحماة وأعتقه ؛ كما اشترى أمه حمامة أيضا وأعتقها . ومنهم عامر بن فهيرة : كان يعذب فى الله حتى لايدرى مايقول . ومنهم أبو فكيهة الذى كان يعذب فى رمضاء مكة ، فيخرج لسانه من شدة الحر . فبارك الله فيك ياأبا بكر ! ! لولم يكن فى صحيفة جهادك إلا هذا لكفى . كيف وقد أسلم وهو يملك أربعين ألفاً فأنفقها كلها فى سبيل الله ؟ حتى قال رسول الله يوما وهو حاضر : (مانفعنى مالٌ قطُّ مانفعنى مال أبى بكر) . فبكى ، وقال : وهل أنا ومالى إلا لك يارسول الله .

ولما مات النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد نشر الاسلام فى جميع الجزيرة العربية ــ ارتد معظم العرب عن الاسلام ، وبعضهم امتنع عن دفع الزكاة فاضطربت أفكار أصحاب رسول الله ، ورأى بعضهم أن يتركوا العرب ولا يقاتلوهم على ابنة مخاض وابنة ابون . ولاندرى كيف ذهبوا إلى عدم قتال مانعى الزكاة ، والزكاة من أركان الاسلام المعلومة من الدين بالضرورة ؟ ولعل مردّ هذا مااعتراهم من الحيرة عند نجوم الفتنة ، ولو لم يقم لهم أبو بكر ماوصل الاسلام إلى ماوصل إليه من عز ومجد ، فخالفهم فيما ذهبوا ، وخرج شاهراً سيفه إلى ذى القَصَّةِ (١) ، فجاءه على ، وأخذ بزمام راحلته وقال له : إلى أين ياخليفة رسول الله ؟ لاتفجعنا بنفسك . فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للاسلام نظام . فرجع رضى الله عنهم بعد أن قدم لهم مثالا عظيما فى الشجاعة ، كان له فى نفوسهم أعظم تأثير ، وإذا الجيوش الاسلامية

---

(١) موضع على نحو اثنى عشر ميلا من المدينة تلقاء نجد

منتشرة فى كل نواحى الجزيرة العربية ؛ لتأديب هؤلاء العاصين . وإذا هؤلاء الذين كانوا يؤثرون عدم خوض القتال ، يوجهون نظرهم نحو الشرق والغرب لفتح مملكتى الفرس والروم . وتم بهذا فى خلافته القصيرة توطيد قدم الاسلام فى جزيرة العرب ، وفتح العراق من مملكة الفرس ، وبعض الشام من مملكة الروم .

(٥) قوة الجنان ورباطة الجأش

كان أبو بكر رضى الله عنه مضرب المثل فى رباطة **الجأش** . وكان مثلا أعلى فى قوة جنانه وثباته عند موت رسول الله حين أدهش الناس ذلك الخطب الجلل ، فقام من فوره وقال : (من كان يعبد محمداً فان محمدا قد مات . ومن كان يعبدالله فان الله حىٌ لايموت . ثم تلا : « وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أفَإِنْ مَاتَ أوْقُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ »)

(٦) الايمان الراسخ والارادة الصادقة

لم يَرْوِ التاريخُ يقينا أرسخَ من يقين أبى بكر ؛ ولذلك قال فى حقه النبى صلى الله عليه وسلم : (لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِى بَكْرٍ بِإِيمَانِ الأُمَّةِ لَرَجَحَ إِيمَانُ أَبِى بَكْرٍ) يتجلى ذلك بأبهى معانيه عندَ إنْفاذ جيش أسامة ، وقتال أهل الرِّدَّة : وذلك أن المسلمين لما خَشُوا أن يطمع العرب وأهل النفاق فى مسلمى المدينة إذا فصل جيشُ أسامة وبقى المسلمون دون حامية قوية ترد عادية الطامعين — كَلَّموا أبابكر فى استبقاء جيش أسامة ؛ ليكون للمسلمين ردءا ، وقالوا : إن هؤلاء جند المسلمين ، والعرب — على ماترى — قد انتقضت بك ، فلا ينبغى أن تفرق جماعة المسلمين عنك . فقال : والذى نفسى بيده ، لوظننت أن السباع تتخطفنى لأنفذت جيش أسامة كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله

لعمر رضى الله عنه، وقد أخذ بلحيته حين كلمه فى اختيار من هو أسن من أسامة على الجيش: عدمتك أمك وثكلتك يابن الخطاب، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه!!

(٧) حسن اليقين

كان المقداد بن الأسود من الأبطال المعدودين فى الاسلام. شهد مع رسول الله غزوة بدر وغيرها. وله فى غزوة بدر مقام مشهود؛ فان رسول الله لما انتدب الناس إليها خف بعضهم، وثقل بعضهم. ولما خرجوا وعلم رسول الله بما جمعت قريش وخروج كل صناديدها إليه — جمع أصحابه يستشيرهم، فما كان أحسن من جواب فتانا المقداد: يارسول الله، امض لما أمرك الله؛ فوالله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى «اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ، إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ» ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والله لوسرت بنا إلى بِرَكِ (١) الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فدعاله رسول الله بخير. وكانت هذه الكلمات التى تفيض إقداما وحماسة قاضية على مافى بعض النفوس من تردد، فساروا بتأثيرها وأدركوا ذلك النصر الباهر، وشفوْا نفوسهم لأول مرة من أولئك الذين كانوا يتفننون فى تعذيبهم وهم فى مكة.

وقد شهد المقداد فتح مصر مع عمرو بن العاص. ومات فى خلافة عثمان سنة ٣٣ هجرية.

(٨) عظم الثقة بالله

لم يكن عبد الله بن مسعود رجل حرب وجلاد، ولكنه كان ذاميل شديد إلى التعلم، فانقطع إلى رسول الله، يخدمه ويأخذ عنه علوم الشريعة الغراء، حتى نبغ فيها، ولم يعد الفتى راعى الغنم بل صار العالم الفاضل الذى يشار إليه فى علوم الشريعة بالبنان. وكان أول من جهر فى مكة بالقرآن، فقد اجتمع

(١) قال عياض: هو موضع فى أقاصى أرض هجر

الشبان المسلمون يوما وقالوا : والله ماسمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فهل من رجل يُسْمِعهم ؟ فقال عبد الله : أنا . فقالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوه . فقال : دعونى ؛ إن الله سيمنعنى . فغدا عبد الله حتى أتى المقام فى الضحا وقريش فى أنديتها ، فقرأ رافعا صوته : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ القُرْآنَ » . ومضى فى السورة . فدهشت قريش وجعلوا يقولون . مايقول ابن أم عبد؟ ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ماجاء به محمد . فقاموا فجعلوا يضربونه فى وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ من السورة ماشاء الله أن يبلغ . ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا فى وجهه ، فقالوا : هذا الذى خشينا عليك . فقال : ماكان أعداء الله قط أهون علىّ منهم الآن ، ولئن شئت غاديتهم بمثلها غدا . فقالوا حسبك ؛ قد أسمعتهم ما يكرهون .

(٩) حسن الثقة بالله

روى أن الخليفة المسترشد بالله العباسى كان فى حرب مع الخارجين عليه ، فكُسر ، فأشار عليه بعض أصحابه بالهزيمة والتسليم فلم يفعل ، وثبت فى الموقعة يحارب ويقاتل حتى أسر . وهو يقول :

قالوا تقيم وقد أحا ط بك العدو ولا تفر
فأجبتهم : المرء ما لم يتعظ بالوعظ غر
لا نلت خيرا ما حييـت ولا عدانى الدهر شر
إن كنت أعلم أن غـير الله ينفع أو يضر

(١٠) الثبات وحسن الاجابة

كان الجاحظ كثير الميل إلى محمد بن عبد الملك دون ابن أبى دؤاد . فلما نكب محمد جاءوا بالجاحظ بين يدى ابن أبى دؤاد مكبلا بالأصفاد . فقال له : والله لا أعرفك إلا متناسيا للنعمة ، كفورا للصنيعة ، معددا للمساوى ، وما

فقدت أستصلح لك ، ولكن الأيام لا تصلح منك ؛ لفساد طويتك ، ورداءة دخيلتك ، وسوء اختيارك ، وتغلب طباعك .فأجابه الجاحظ بثبات وإرادة : (خفض عليك - أصلحك الله - فوالله لأن يكون لك الأمر علىّ - خيرٌ من أن يكون لى عليك ، ولأن أسىء وتُحْسِنَ - أحسن فى الأحدوثة من أن أُحسِنَ أنا وتُسِيءَ أنت ، ولأَنْ تعفو عنّى حال قدرتك علىّ - أجملُ بك من أن تنتقم منّى)

(١١) الثبات على المبدإ

عن حذافة الجمحىّ قال : دخلت بكارة الهلالية على معاوية بن أبى سفيان ، بعد أن كبرت سنها ، ودق (١) عظمها ، ومعها خادمان لها ، وهى متكئة عليهما وبيدها عكازة . فسلمت على معاوية بالخلافة ، فأحسن عليها الرد ، وأذن لها فى الجلوس . وكان عنده مروان بن الحكم ، وعمرو بن العاص . فابتدأ مروان فقال : أما تعرف هذه يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومن هى ؟ قال : هى التى كانت تعين علينا يوم صفين ، وهى القائلة :

يازيد ، دونك فاستشر من دارنا ... سيفاً حساما فى التراب دفينا
قد كان مذخورا لكل عظيمة ... فاليوم أبرزه الزمان مصونا

فقال عمرو بن العاص : وهى القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند (٢) للخلافة مالكا ... هيهات ذاك ، وما أراد بعيدُ
منّتك نفسُك فى الخلاء ضلالةً ... أغراكَ عمرٌو للشقا وسعيدُ
فارجع بأنكد طائرٍ بنحوسها ... لاقت عليًا أسعدٌ وسعودُ

فقال سعيد : يا أمير المؤمنين ، وهى القائلة :

قد كنت آملُ أن أموت ولا أرى ... فوق المنابر من أميّة خاطبا
فالله أخّرَ مدتى فتطاولت ... حتى رأيتُ من الزمان عجائبا
فى كل يوم لا يزال خطيبُهم ... وسط الجموع لآل أحمد عائبا

---

(١) نحف (٢) أى معاوية .

ثم سكت القوم . فقالت بكارة : نبحتنى كلابك يا أمير المؤمنين ، واعتورتنى(١) ، فقصر محجنى(٢) ، وكثر عجبى ، وعشى بصرى ، وأنا والله قائلة ما قالوا ، لا أدفع ذلك بتكذيب ، فامض لشأنك ، فلا خير فى العيش بعد أمير المؤمنين(٣) . فقال معاوية : إنه لا يضعك شىء ، فاذكرى حاجتك تقضَ . فقضى حوائجها ، وردها إلى بلدها .

وحدثنى عيسى بن مروان قال : حدثنى محمد بن عبد الله الخزاعى ، عن الشعبى قال : استأذنت بكارة الهلالية على معاوية فأذن لها ، فدخلت ، وكانت امرأة قد أسنّت وعشى(٤) بصرها وضعفت قوتها ، فهى ترعش بين خادمين لها . فسلمت ثم جلست . فقال معاوية : كيف أنت يا خالة ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين . قال : غيّرك الدهر . قالت : كذلك هو ذو غير ، من عاش كبر ، ومن مات قبر ، ثم ذكر الحديث السابق المروى عن حذافة ومن قول عمرو وسعيد ومروان ، ورواية فى الحديث قالت : إن عشى بصرى ، وقصرت حجتى - فأنا قائلة ما قالوا ، وما خفى عليك أكثر . فضحك معاوية وقال : ليس بمانعى من برك يا خالتى غير عدم مجيئك . قالت : أما الآن فلا(٥)

(١٢) المحافظة على المبدأ مع حسن الطاعة

أم الخير بنت الحريش البارقية

عن الشعبى قال : كتب معاوية إلى واليه بالكوفة : أن أوفد علىّ أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقية ، رحلة محمودة الصحبة غير مذمومة العاقبة واعلم أنى مجازيك بقولها فيك : بالخير خيرا ، وبالشر شرا .

فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها ، فأقرأها إياه . فقالت أم الخير : أما

---

(١) اعتورتنى : تناولتنى وتداولتنى . (٢) المحجن : العصا المنعطفة الرأس كالصولجان ، وقصور محجنها كناية عن عجزها عن طرد تلك الكلاب (٣) تعنى عليا عليه السلام (٤) عشى أى ضعف (٥) فلا مانع إذ قد جاءته

أنا فغير زائغة عن طاعة ، ولا معتلة بكذب ، ولقد كنتُ أحبُّ لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج في صدري(١) : تجري مجرى النفس ، يغلى بها غلى المرجل بحب البلسن يوقد بجزل السَّمر . (٢) فلما حملها وأراد مفارقتها قال : يا أم الخير ، إن معاوية قد ضمن لى عليه أن يقبل بقولك فى الخير خيراً والشر شراً ، فانظرى كيف تكونين ؟ قالت : ياهذا ، لا يطمعك والله برك بى فى تزويق الباطل ، ولا يؤنسنك معرفتك إياى أن أقول فيك غير الحق . فسارت خير سير .

فلما قدمت على معاوية أنزلها مع الحرم (٣) ثلاثا . ثم أذن لها فى اليوم الرابع ، وجمع لها الناس . فدخلت عليه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال : وعليك السلام ، وبالرغم والله منك دعوتنى بهذا الاسم . فقالت : مَهْ يا هذا ، فإنّ بديهة السلطان مدحضة لما يحبّ علمه . (٤) قال : صدقت ياخالة . وكيف رأيت مسيرَكِ ؟ قالت : لم أزل فى عافية وسلامة ، حتى أُوفِدْتُ إلى ملك جزل وعطاء بذل ، (٥) فأنافى عيش أنيق عند ملك رفيق . فقال معاوية : بحسن نيّتى ظفرت بكم ، وأُعِنْتُ عليكم . قالت : مَهْ يا هذا ، لك والله من دحض المقال (٦) ما تردى عاقبته . قال : ليس لهذا أردناك . قالت : إنما أجرى فى ميدانك ، إذا أجريتَ شيئا أجريته ، فاسأل عما بدالك . قال : كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر ؟ قالت : لم أكن والله رويته قبل ولا زورته (٧) بعد ، وإنما كانت كلمات نفثهنّ لسانى حين الصدمة (٨) ؛ فإن شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت .

---

(١) أي تتردد فيه . (٢) حب البلسن يشبه العدس المعروف ، والسمر شجر ، والجزل هنا صاب الحطب . (٣) الحرم نساؤه . (٤) مَهْ أى كُفّ ، والبديهة هنا من بدهه بأمر فاجأه به ، ومدحضة أى مُزِيلة . والمعنى : أن مفاجأتك إياى بالسوء ستزيل عنك ماتحب أن تعرفه منى . (٥) جزل أى أصيل الرأى ، وبذل أى مبذول من بذله جادبه ، وأنيق أى حَسَنٌ معجب . (٦) أى باطله . (٧) أى حَسّنْتَه تريد أنها قالته ارتجالا ولم تحفظه . (٨) أى صدمة الحرب .

قال : لا أشاء ذلك . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أيكم حفظ كلا أم الخير ؟ قال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي سورة الحمد . قال : هاته .[١] قال : نعم ، كأني بها ياأمير المؤمنين وعليها بُرْد زبيدي كثيف الحاشية [٢] ، وهي على جمل أرمك [٣] ، وقد أحيط حولها حواء [٤] ، وبيدها سوط منتشر الضَفر ، وهي كالفحل يهدر في شقشقته [٥] تقول :

يأيها الناس ، اتقوا ربكم ؛ إن زلزلة الساعة [٦] شيء عظيم ! إن الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليل ، ونوَّر السبيل [٧] ، ورفع القلم ، فلم يَدَعْكُمْ في عمياء مبهمة ، ولا سوداءَ مُدْلَهِمَّة [٨] ، فإلى أين تريدون رحمكم الله ؟ : أفراراً عن أمير المؤمنين [٩] ؟ أم فرارا من الزحف [١٠] ؟ أم رغبة عن الإسلام [١١] ؟ أم ارتدادا عن الحق ؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ [١٢] حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) . ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول : اللهم ، قد عيل [١٣] الصَّبْر ، وضعف اليقين ، وانتشر الرعب ، وبيدك يارب أزمة [١٤] القلوب ، فاجمعْ إليه الكلمةَ على التقوى ، وألِّفَ القلوبَ على الهدى ، وارْدُدِ الحقَّ إلى أهله ، هلمُّوا [١٥] رحمكم الله إلى الامام العادل ، والوصي [١٦]

(١) سورة الحمد أول سورة في القرآن ، وهاته أي اسرده . (٢) زبيديّ نسبة إلى زبيد بلدة باليمن ، والكثيف الغليظ ، والحاشية الجانب . (٣) ومادىّ اللون . (٤) الحواء مايعمل كالوسادة للراكب على رحل الجمل بدون هودج . (٥) أي كالجمل إذا هاج فهو يهدر في شقشقته ، والشقشقة شيء كالرئة يخرجه الجمل من فيه اذا هاج . (٦) الوقت الذي تقوم فيه القيامة . (٧) الطريق . (٨) مبهمة مشتبهة ، ومدلهمة كثيفة . (٩) تريد علياً . (١٠) زحف الحرب . (١١) رغب عن الشيء ضد رغب فيه . (١٢) ابتلاه اختبره وامتحنه . (١٣) عِيلَ الصَّبْرُ بالبناء للمجهول . (١٤) جمع زمام . (١٥) تعالوا . (١٦) أي الموصى به ــ لعلها تشير إلى ما يروونه من قول النبي صلى الله عليه وسلم : (مَنْ كُنْتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه)

الوفىّ ، والصديق الأكبر . إنّها إحنٌ بدريّة ، وأحقاد جاهليّة ، وضغائن أُحُديّة (١) ، وثب بها معاوية حين الغفلة ؛ ليدرك بها ثارات بنى عبدشمس (٢) . ثم قالت : (قَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ؛ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) . صبراً معشر الأنصار والمهاجرين ، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم . وكأنّى بكم غداً لقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة (٣) ، لا تدرى أين يسلك بها من فجاج (٤) الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وباعوا البصيرة بالعمى ، عما قليل ليصبحنّ نادمين حتى تحلّ بهم الندامة فيطلبون الإقالة (٥) ؛ إنه والله من ضل عن الحق وقع فى الباطل ، ومن لم يسكن الجنة نزل النار . أيها الناس ، إن الأكياس (٦) استقصروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستبطئوا مدة الآخرة فسعوا لها . والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود (٧) ، ويظهر الظالمون ، وتقوى كلمة الشيطان ـ لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه ، فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته وأبى ابنيه (٨) ؟ خلق من طينته ، وتفرع من نبعته (٩) ، وخصّه بسرّه ، وجعله باب مدينته (١٠) وعلم المسلمين

(١) إحن أضغان ، وبدرية نسبة إلى بدر وهو موضع ، وأحدية نسبة إلى أحد وهو جبل ؛ وبدر وأحد حصل عندهما وقعتان بين المسلمين والمشركين ، وكان فى هؤلاء بنو أمية قوم معاوية قبل أن يسلموا ، فقتَل منهم على بن أبى طالب عدداً كثيرا . ولذلك فإن صاحبة هذه الخطبة تقول : إن معاوية يحارب عليا بُغضاً فيه للأمور التى أشارت إليها لاطلبا للحق . (٢) قوم معاوية . (٣) الحمر جمع حمار ، ومستنفرة أى شاردة مجزوعة . (٤) جمع فج وهو الطريق الواسع بين جبلين . (٥) الإعفاء . (٦) العقلاء . (٧) حدود الشريعة وأحكامها . (٨) تريد الحسن والحسين وهما ولدا علىّ وحفيدا الرسول وابنا ابنته فاطمة ، ولذلك كان النبى يدعوهما ابنيه (٩) أصله . (١٠) لعلها تشير إلى ما يروى عن النبى : (أنا مدينة العلم ، وعلىّ بابها).

وأبان ببغضه المنافقين (١) . فلم يزل كذلك يؤيده الله عز وجل بمعونته ، ويمضى على سَنَن (٢) استقامته ، لا يعرج لراحة الدأب (٣) . ها هو مفلق الهام ومكسّر الأصنام ؛ إذ صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس مرتابون . فلم يزل كذلك حتى قتلَ مبارِزِى بدر ، وأفنى أهل أحد ، وفرّق جمعَ هوازن (٤) ، فيالها من وقائع ! زرعت فى قلوب قوم نفاقا وردة وشقاقا . قد اجتهدتُ فى القول ، وبالغتُ فى النصيحة ، وبالله التوفيق ، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . فقال معاوية :

والله يا أم الخير ، ما أردت بهذا الكلام إلا قتلِى ، والله لو قتلتُكِ ما حَرِجْت (٥) فى ذلك . قالت : والله ما يسوءنى يابن هند ، أن يجرى الله ذلك على يدى من يسعدنى الله بشقائه . قال : هيهات يا كثيرة الفضول (٦) . ما تقولين فى عثمان بن عفان ؟ قالت : وما عسيت أن أقول فيه ؛ استخلفه الناس وهم له كارهون ، وقتلوه وهم راضون (٧) . فقال معاوية : إيها يا أم الخير . هذا والله أصلك الذى تبنين (٨) عليه . قالت : « لَـكِنِ اللهُ يَشْهدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وكَفَى باللهِ شَهِيداً » ما أردت لعثمانَ نقصا ، ولقد كان سبّاقا إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة . قال : فماتقولين فى طلحة بن عبيدالله ؟ قالت : وماعسى أن أقول فى طلحة ؟ :

---

(١) لعلها تشير الى مايروى : (من أحب عليا فقد أحبنى ، ومن أبغضه فقد أبغضنى) . (٢) نهج . (٣) يعرج يميل ، والدأب العادة أو الاجتهاد (٤) هوازن قبيلة من العرب كانت حاربت المسلمين قبل أن تسلم . (٥) ما أثمت (٦) الفضول الزيادة فيما لا يعنى من الكلام . (٧) أى رضوان عن قتله ، ويروى ولعله الأقرب للصواب : (استخلفه الناس وهم عنه راضون ، وقتلوه وهم له كارهون) (٨) يريد أن سوء رأيها فى عثمان الخليفة الثالث هو الأصل الذى بنت عليه خذلان معاوية الذى خرج على علىّ الخليفة الرابع بدعوى الطلب بدم عثمان لأنه ابن عمّه .

اغتيلَ من مأمنه ، وأُتيَ من حيثُ لم يحذرْ (١) . وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة . قال فما تقولين فى الزبير (٢) ؟ قالت: ياهذا ، لاتدعنى كرجيع الصبيغ يعرك فى المركن (٣) . قال : حقًا لتقولِنَّ ذلك . وقد عزمت عليك (٤) . قالت : وما عسيتُ أن أقول فى الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريّه (٥) وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ؛ ولقد كان سبّاقا إلى كل مكرمة فى الإسلام . وإنى أسألك بحق الله يامعاوية ، فإن قريشا تحدث أنك أحلمها (٦) ، فأنا أسألك أن تسعنى بفضل حلمك ، وأن تعفينى من هذه المسائل ، وامض لما شئت من غيرها . قال : نعم (٧) وكرامة قد أعفيتك ، وردها مكرمة إلى بلدها .

---

(١) طلحة أحد أصحاب النبي ، نقم على عثمان ؛ فلما قتل عثمان بايع عليا ، فلما خرجت عائشة ضد على بدعوى الطلب بقتله عثمان خرج طلحة معها ، ففى يوم الجمل – وهو أحد أيام الحرب بين على ومعاوية وأشياعهما – كان طلحة فى الجيش المحارب ضد على ومعه مروان بن الحكم من أهل عثمان . وكان مروان يعتقد أن طلحة له يد فعالة فى نصرة من قتلوا عثمان . فاغتنم مروان لذلك غفلة من طلحة فضربه ضربة كانت القاضية عليه . فهذا معنى قول أم الخير : إن طلحة اغتيل من مأمنه .
(٢) هو الزبير بن العوام أحد الصحابة ، نقم على عثمان وبايع عليا ، وخرج مع عائشة ضده ، فهو كطلحة فى ذلك – راجع ما سبق من التفسير . (٣) المركن آنية ، ويعرك يحك ، والصبيغ المصبوغ ، والرجيع المردد : أى لا تجعلنى كالثوب المصبوغ يحك فى الآنية مرة بعد مرة لاخراج النيل منه ، تشبه محاورة معاوية فى الكلام لها وتداوله إياها بالسؤال مرة بعد أخرى كالذى يتناول الثوب المصبوغ بالغسيل مرة بعد أخرى لاخراج النيل منه . (٤) أقسمت عليك . (٥) الحَوَارِيُّ وجمعه حواريون هم أنصار الأنبياء ، ومنه الحواريون أنصار عيسى عليه السلام ، وهى تشير إلى ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : (لِكُلِّ نبيٍّ حَوَارِيُّونَ وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ) . (٦) ويروى : (تتحدث أنك أحلمها) . (٧) أى إنعاماً لعينكِ وكرامةً منصوبين باضمار أفعل ، أى أفعل ذلك إنعاما .

ولا يحسبن القارىء أن موقفها فى الكوفة وفى دمشق ، من مواقف الملق أو الرياء . فأم الخير أكبر من ذلك . وكانت ـ وهى فى جيش أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ـ آلت على نفسها أن تضحّى بحياتها فى سبيله وخطبتها هذه أكبر شاهد . بل أكبر من ذلك شاهدا أن معاوية لما أراد أن يداعبها بالذكريات الماضية ، ويكشف عما فى نفسها من ذلك ـ كانت صريحة فى أنها لا تزال هِىَ هِىَ لم تتغير ، ولكن لما تغير الموقف وصار الأمر لصاحب (الدار الخضراء [1]) يتولى تسيير الجحافل من عاصمة الشام وتجهيز الأساطيل من سواحلها ، لإعلاء كلمة الله ، وتنوير الأرض بنور الهداية الإسلامية ، وتوسيع رقعة الدولة العربية ـ أدركت أم الخير بفطرتها وفطنتها أن زمن الفرقة قد انقضى بماله من نتائج مهما كانت ، وأن على المرء المسلم والمرأة المسلمة أن يكون كل منهما جنديا بيد القائم بإمارة المؤمنين ، يصرّفه للمصلحة العامة كيف يشاء . لذلك هى آلت على نفسها ألا تكون زائغة عن طاعته ولا معتلة بكذب .

تلك هى الروح التى بثها (دين التوحيد) فى أجساد رجال تلك الأمة ونسائها ؛ فكانوا إذا رأوا (الوحدة) فى اليوم الأبيض كان الواحد منهم صخرة فى بنيانها ، وإذا وقعت الفرقة فى اليوم الأسود التحق بعضهم بالجانب الذى يعتقد أن فيه الحق ، بعد استنفاد الجهد فى السعى لإصلاح ذات البين ، وآثر البعض الآخر أن يعتزل الفتنة ، وأن يعتصم منها ولو بشناخيب الجبال .

(١) الدار الخضراء : قصر الخلافة بدمشق ، وكانت متصلة بالجدار القبلى من مسجد بنى أمية فى مكان الصاغة والقباقبية وحارة النقاشات الآن ، وفى بقعة منها اليوم (المصبغة الخضراء)

(١٣) ثبات عثمان بن عفان على الحق

لما أسلم أبو بكر رضى الله عنه دعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من وثق به ، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان ، فخنق عليه عمه الحكم ، وأوثقه كتافا ، وقال : إنك تخرج عن ملة آبائك إلى دين محمد ، والله لا أحلك أبدا حتى تدع ما أنت عليه . فقال عثمان : والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه ؛ فلما رأى الحكم صلابته فى الحق تركه .

(١٤) الشجاعة النادرة الباهرة

كل واحد هاجر من مكة إلى المدينة مختفيا إلا عمر ؛ فإنه تَقَلَّدَ سيفه ، وتَنَكَّبَ قوسه ، ومضى قبل الكعبة ـ والملأ من قريش بفنائها ـ فطاف بالبيت سبعا ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على الحلق واحدة فواحدة ، وقال لهم : « شاهت الوجوه ؛ لا يرغم الله إلا هذه المعاطس . من أراد أن تثكله أمه ، وييتم ولده ، وترمل امرأته ـ فليلقنى وراء هذا الوادى ؟ » فلم يتبعه أحد منهم ، وهاجر فى حمايته نحو عشرين من مستضعفى المسلمين بمكة .

(١٥) الاقدام العظيم

قد شهد الزبير المشاهد كلها مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وقاتل فى غزوة بدر قتالا شديدا حتى كان الرجل يدخل يده فى الجراح فى ظهره ، وفى غزوة أحد جعله النبى صلى الله عليه وسلم رئيس خيل بإزاء خالد بن الوليد . ومن يعرف مقدرة خالد الحربية يعرف مقدار ثقة النبى بمقدرة الفتى الزبير . وفى هذه الغزوة خرج رجل من المشركين على بعير له ، فدعا للبراز ، فأحجم عنه المسلمون حتى دعا ثلاثا . فقام إليه الزبير حتى استوى معه على البعير ، ثم عانقه ، فاقتتلا فوق البعير ، ومازال به حتى وقع على الأرض ، فوقع عليه وذبحه ، فسر النبى منه سرورا عظيما وقال : (لكل نبى حوارى ، وإن

حوارى الزبير .) ثم قال: لولم يبرز إليه الزبير لبرزت إليه، لما رأى من إحجام الناس عنه.

والزبير هو فاتح حصن بابليون المشهور؛ فإنه لما أبطأ فتح مصر على عمرو بن العاص بعث إليه سيدنا عمر مددا على رأسه الزبير، وعده عليه بألف رجل، كما عد عليه المقداد وبطلين آخرين كل واحد منهم بألف رجل، فلما طال الحصار الذى ضربه المسلمون على حصن بابليون قال الزبير: إنى أهب نفسى لله، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فأعد العدة لما عزم عليه، ودك الخندق فى الموضع الذى اختاره للهجوم، وكتم أمر الوقت الذى اختاره لذلك بمهارة غريبة، ثم نفذ خطته بسرعة عجيبة تحت جنح الظلام، فنصب سلما، وأسنده إلى سور الحصن دون أن يلحظه العدو، ثم تسلق السلم حتى أوفى على الحصن شاهرا سيفه بيده، ونادى: الله أكبر. فهلعت قلوب من فى الحصن، وأبدوا مقاومة لم تجدهم شيئا، ورأى قوادهم أنه لا فائدة من المقاومة بعد هذه المباغتة، فسلموا الحصن لعمرو. وكان الفضل فى ذلك لفتانا الزبير.

(١٦) الشجاعة الأدبية والاقدام

محاورة بين عبادة بن الصامت والمقوقس

بعث عمرو بن العاص عشرة نفر، أحدهم عبادة بن الصامت، لمفاوضة المقوقس، وكان طول عبادة عشرة أشبار، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم، وألا يجيبهم إلى شىء دعوه إليه إلا إحدى هذه الثلاث الخصال: الإسلام، أو الجزية، أو القتال. وكان عبادة أسود. فلما ركبوا السفن إلى المقوقس، ودخلوا عليه - تقدم عبادة، فهابه المقوقس لسواده، وقال: نحوا عنى هذا الأسود، وقدموا غيره يكلمنى. فقالوا جميعا: إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما، وهو سيدنا وخيرنا، والمقدم علينا، وإنما نرجع جميعا

إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله . فقال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغى أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا ! إنه - وإن كان أسود كما ترى - فإنه من أفضلنا موضعا ، وأفضلنا سابقة ، وعقلا ، ورأيا ، وليس ينكر السواد فينا . فقال المقوقس لعبادة : تقدم يا أسود وكلمنى برفق ، فإنى أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك على ازددت لك هيبة . فتقدم إليه عبادة فقال :

قد سمعت مقالتك ، وإن فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل كلهم مثلى وأشد سوادا منى ، وأفظع منظرا ، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منى ؛ وأنا قد وليت ، وأدبر شبابى ، وإنى مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعا ، وكذلك أصحابى ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله ، واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدوا ممن حارب الله لرغبة فى الدنيا ، ولا حاجة للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا ، وما يبالى أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك إلا درهما ؛ لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره ، وشملة يلتحفها ، وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه . وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله تعالى ، واقتصر على هذا ؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ؛ إنما النعيم والرخاء فى الآخرة . بذلك أمرنا الله ، وأمرنا به نبينا ، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا فى الدنيا إلا ما يمسك جوعته ، ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضا ربه وجهاد عدوه .

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟ لقد هبت منظره ، وإن قوله لأهيب عندى من منظره ، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض ، وما أظن ملكهم إلا سيتغلب على الأرض كلها . ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال :

أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقالتك ، وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها ، ولقد توجه لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده ، قوم معروفون بالنجدة والشدة ، ممن لا يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم ، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل دينارين ، ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به .

فقال عبادة : ياهذا ، لا تغرّن نفسك ولا أصحابك ، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم - فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به ، ولا بالذى يَكْسِرُنا عما نحن فيه إن كان ماقلتم حقا ، فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم ، وأشد لحرصنا عليهم ؛ لأن ذلك أعذر لنا عند الله إذا قدمنا عليه . إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنته ، ومامن شىء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك ، وإنا منكم حينئذ على إحدى الحسنيين : إما أن تعظم لنا غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله عز وجل قال لنا فى كتابه : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » : وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، وألا يرده إلى بلده ، ولا إلى أرضه ، ولا إلى أهله وولده ، وليس لأحد مناهمٌّ فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده ، وإنما همنا ما أمامنا . وأما قولك : إنا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا - فنحن فى أوسع السعة : لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه ، فانظر فى الذى تريدفبيّنه لنا ؛ فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ، ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك

فى الباطل ، بذلك أمرنى الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل إلينا :

إما إجابتكم إلى الإسلام الذى هو الدين الذى لا يقبل الله غيره ، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته - صلوات الله عليهم - أمرنا الله تعالى أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه ، فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا ، وكان أخانا فى دين الإسلام ، فإن قبلت أنت وأصحابك فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة ، ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم . وإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، نعاملكم على شىء نرضاه نحن وأنتم فى كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم فى شىء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك عنكم ، إذ كنتم فى ذمتنا وكان لكم به عهد علينا . وإن أبيتم فليس بيننا إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذى ندين الله تعالى به ، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره ، فانظروا لأنفسكم .

فقال المقوقس : هذا لا يكون أبدا ، ما ترون إلا أن تتخذونا عبيدا ما كانت الدنيا . فقال عبادة : هو ذلك ، فاختر ما شئت . فقال المقوقس : أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الخصال الثلاث ؟ فرفع عبادة يديه وقال :

لا ، ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شىء ، ما لكم عندنا خصلة غيرها ، فاختاروا لأنفسكم . فالتفت المقوقس عند ذلك لأصحابه وقال : قد فرغ القوم فما ترون ؟ فقالوا :

أو يرضى أحد بهذا الذل ! : أما ما أرادوا من دخولنا فى دينهم فهذا ما لا يكون أبدا ، نترك دين المسيح بن مريم وندخل فى دين لا نعرفه ! ! وأما ما أرادوا من أن يسبونا ويجعلونا عبيدا فالموت أيسر من ذلك ، لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مرارا كان أهون علينا . فقال المقوقس لعبادة : قد

أبى القوم فما ترى ؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم فى مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون . فقام عبادة وأصحابه .

فقال المقوقس لأصحابه : أطيعونى وأجيبوا القوم إلى خصلة واحدة من هذه الثلاث ، فوالله مالكم بهم طاقة ! ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبُنهم إلى ما هو أعظم كارهين . فقالوا : وأى خصلة نجيبهم إليها ؟ قال : إذا أخبركم : أما دخولكم فى غير دينكم فلا آمركم به ، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ، ولن تصبروا صبرهم ؛ ولا بد من الثالثة . قالوا : فنكون لهم عبيدا أبدا !! قال : نعم : تكونون عبيدا مسلطين فى بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيدا تباعون وتمزقون فى البلاد مستعبدين أبدا أنتم وأهلكم وذراريكم . قالوا : فالموت أهون علينا . وأمروا بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة ، وبالقصر من جمع القبط والروم كثير ، فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على من بالقصر حتى ظفروا بهم ، وأمكن الله منهم فقتل منهم خلق كثير ، وأسر من أسر منهم ، وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة ، وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه ، لا يقدرون على أن يتقدموا نحو الصعيد ، ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى ، والمقوقس يقول لأصحابه : ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم ، ما تنتظرون ؟ فوالله لتُجيبُنهم إلى ما أرادوا طوعا أو لتُجيبنهم إلى ما هو أعظم من ذلك كرها ، فأطيعونى من قبل أن تندموا . فلما رأوا منهم ما رأوا وقال لهم المقوقس ما قال ـ أذعنوا بالجزية ، ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونه .

(١٧) سرعة الخاطر حين المخاطر

موسى الهادى وأحد الخوارج

ذكروا أن موسى الهادى كان يوما فى بستان ، ومعه أهل بيته وخاصته ، وهو راكب على حمار وليس معه سلاح ، فدخل عليه حاجبه ، وأخبره أن رجلا من الخوارج جىء به أسيرا ، وكان الهادى حريصا على الظفر به ، فأمر بإدخاله ، فأدخل عليه بين رجلين قد أمسكا يديه . فلما رأى الخارجىُّ الهادى جذب يديه من الرجلين واستل سيف أحدهما ووثب نحو الهادى . ولما رأى ذلك مَنْ حول الهادى من أهله وخاصته فروا جميعا ، وبقى الهادى وحده ، فثبت على حماره بمكانه حتى إذا قرب الخارجى منه وكاد يعلوه بالسيف ، قال الهادى : اضرب ياغلام عنقه ! فالتفت الخارجى حين سمع ذلك فأسرع الهادى ووثب عن سرجه وقبض على الخارجى وانتزع منه السيف فذبحه به ، ثم عاد إلى ظهر حماره وتراجع إليه أهله وبطانته يتسللون ، وقد ملئوا رعبا وخجلا ، فلم يخاطبهم فى ذلك الهادى بحرف واحد .

ولم يكن بعد ذلك يفارقه سيفه ، ولم يركب إلا الخيل .

(١٨) المخاطرة بالنفس فى سبيل الجهر بالحق

روى زياد عن مالك بن أنس ، قال : بعث أبو جعفر المنصور إلىَّ وإلى ابن طاوس ، فأتيناه ، فدخلنا عليه ، فإذا هو جالس على فرش قد نضدت وبين يديه أنطاع قد بسطت ، وجلاوذة بأيديهم السيوف يضربون الأعناق ، فأومأ إلينا أن اجلسا ، فجلسنا ، فأطرق عنا قليلا ، ثم رفع رأسه ، والتفت إلى ابن طاوس ، فقال له : حدثنى عن أبيك . قال : نعم : سمعت أبى يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَشْرَكَهُ اللهُ فِى حُكْمِهِ فَأَدْخَلَ عَلَيْهِ الْجَوْرَ فِى عَدْلِهِ) فأمسك ساعة .

قال مالك : فضممت ثيابى من ثيابه مخافة أن يملأنى من دمه . ثم التفت إليه أبو جعفر . فقال : عظنى يابن طاوس . قال : نعم : يا أمير المؤمنين ، الله تعالى يقول : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ... إلى قوله : إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ »

قال مالك : فضممت ثيابى من ثيابه مخافة أن يملأ ثيابى من دمه ، فأمسك ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه ، ثم قال : يابن طاوس : ناولنى هذه الدواة . فأمسك عنه ، ثم قال : ناولنى هذه الدواة . فأمسك عنه ، فقال : ما يمنعك أن تناولنيها ؟ قال : أخشى أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها ؛ فلما سمع ذلك قال : قوما عنى . قال ابن طاوس : ذلك ما كنا نبغى منذ اليوم ، قال مالك : فما زلت أعرف لابن طاوس فضله .

ومن باب المخاطرة بالنفس فى سبيل الجهر بالحق ما يأتى :

حكى أن هشام بن عبد الملك قدم حاجا إلى بيت الله الحرام فلما دخل الحرم قال : ائتونى برجل من الصحابة . فقيل : يا أمير المؤمنين ، قد تفانوا قال : فمن التابعين ، فأتى بطاوس اليمانى ، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ، ولم يسلم : يا أمير المؤمنين . ولم يكنه وجلس إلى جانبه بغير إذنه وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب من ذلك غضبا شديدا حتى هم بقتله ، فقيل له : أنت يا أمير المؤمنين فى حرم الله وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون ذلك . فقال : ياطاوس ، ما حملك على ما صنعت ؟ قال : وما صنعت ؟ قال : خلعت نعليك بحاشية بساطى ، ولم تسلم بيا أمير المؤمنين ، ولم تكننى وجلست بإزائى بغير إذنى ، وقلت : يا هشام ، كيف أنت ؟ فقال له :

أما خلع نعلى فإنى أخلعهما بين يدى رب العزة فى كل يوم خمس مرات ولا يعاتبنى ، ولا يغضب على ، وأما عدم تسليمى بأمير المؤمنين فليس كل المؤمنين راضيا بإمرتك فخفت أن أكون كاذبا ، وأما قولك : لم تكننى -

فان الله عز وجل سمى أنبياءه فقال : يا داود ، ويا يحيي ، وياعيسى . وكنى أعداءه فقال : تبت يدا أبى لهب . وأما كونى جلست بإزائك فقد جاءنى الأثر عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : (إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام) ؛ فقال له : عظنى فقال له : جاءنى الأثر عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب : (إن فى جهنم حيات وعقارب تلدغ كل أمير لا يعدل فى رعيته .)

ومن الجهر بالحق ما يأتى :

لما قدم عبد الله بن على العباس الشام ـ وقد قتل من قتل من بنى أمية بعد ذهاب دولتهم ـ استدعى الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى وهو فى جنده وحشمه وقال له :

ماتقول فى دماء بنى أمية ؟

قال الأوزاعى : قد كانت بينك وبينهم عهود ، وكان ينبغى أن تفى بها . قال الأمير : ويحك ، اجعلنى وإياهم لاعهد بيننا

قال الأوزاعى : فأجهشت نفسى وكرهت القتل ، فتذكرت مقامى بين يدى الله ، فلفظتها فقلت : دماؤهم عليك حرام ! فغضب عبد الله بن على وانتفخت عيناه وأوداجه فقال : ويحك ولِمَ !

قلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلَّا بِإحْدَى ثَلَاثٍ : ثَيِّبٌ زَانٍ ، وَنَفْسٌ بِنَفْسٍ وَتَارِكٌ لِدِينِهِ)

قال : ويحك ، أليس الأمر لنا ديانة ؟ قلت : كيف ذاك ؟ قال : أوليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى لعلى ؟ قلت : لو أوصى لعلى ماحكم الحكمين ؟

فسكت وقد اجتمع غضبه . فجعلت أتوقع رأسى يسقط بين يديه . فأشار بيده هكذا ، وأومأ أن أخرجوه . فخرجت .

ومن هذه القصة يتجلى أمران : الأول أن عبد الله بن على ، وهو فى

ساعة تأسيس ملكه ، وانتصاره على خصمه ، واجتماع الأمر له ،واضطرام النار تحت الرماد من أنصار الحكم السابق الذين ينتظرون أملا فى النجاح لينتقضوا ويثوروا - اتسع صدره لاحتمال الجهر بالحق من الإمام الأعظم ولو أن أكبر حكيم فى فرنسا جادل وزيرا فرنسيا عند نشوب الحرب العظمى وأوضح له أن الألمان خير مما يزعمه فيهم ساسة فرنسا - مااحتمل ذلك منه ولأسلمه إلى محكمة عسكرية ! !

الأمر الآخر : أن الإمام الأوزاعى الذى كان يعلم أن جهره بالحق يعرضه للقتل ، وأجشت نفسه وكرهت القتل — لم يكتم حكم الله عند ماتذكر مقامه غداً بين يدى الله عز وجل .

ولا غرابة ؛ فالأوزاعى هو ذلك الطود من أطواد الإسلام الذى لما علم الثورى بمقدمه خرج إلى ملقاه وأخذ بخطام بعيره من القطار ووضعه على رقبته ، وجعل إذا مر بجماعة قال : الطريق للشيخ !

حقا لو بقيت هذه الجرأة فى إعلان الحق فى علماء الإسلام إلى اليوم مابقى على وجه الأرض عاقل يتردد فى قبول هذا الدين والدخول فى هدايته ، ولكنهم أضاعوا الإسلام فأضاعهم ، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم .

(١٩) مثل أعلى فى الاحتمال والصبر

النبى صلى الله عليه وسلم

قالت عائشة رضى الله عنها : مكثنا أربعة أيام ما طعمنا شيئا . فدخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ياعائشة ، هل أصبتم شيئا بعدى ؟ قلت : لا . فتوضأ ، وخرج يصلى هاهنا مرة ، وهاهنا مرة ، ويدعو . فجاء عثمان رضى الله عنه آخر النهار فقال : أين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأخبرته الخبر . فبكى . ثم خرج عثمان ، وبعث لنا دقيقا وتمراً وغيره ، ثم قال : هذا يبطىء

عليكم فأرسل خبزاً ولحما مشويا . ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هل أصبتم شيئا ؟ فأخبرته بما فعله عثمان . فلم يجلس حتى خرج إلى المسجد ، ورفع يديه ، وقال : اللهم ، إني رضيت عن عثمان فارض عنه (ثلاثا) .

ومن باب الاحتمال

(ا) كان عبد الله بن مسعود غلاما يافعا ، يرعى غنما لعقبة بن أبي مُعَيْط فما أن بُعِثَ رسول الله حتى أتاه وطلب منه أن يعلمه من القرآن المنزل عليه ، وآمن ، وكان سادس شاب آمن به ، ولم يكن له عشيرة تمنعه ، فاشتد أذى قريش عليه ، فهاجر إلى الحبشة فيمن هاجر إليها أول مرة . ولما طلبت قريش من ملك الحبشة أن يسلم إليها هؤلاء اللاجئين لم يسلمهم إليها ، بل حماهم كما تحمى الدول اليوم اللاجئين السياسيين ؛ فعمدت إلى الحيلة ، فبعثت من أخبرهم أن قومهم كلهم أسلموا ، فصدّق هؤلاء اللاجئون ، وعادوا إلى وطنهم ، فلم يجدوا إلا الأذى ينتظرهم ، ولم يمكن واحداً منهم أن يدخل مكة إلا بعد أن يأخذ جوارا من كبير فيها ، وكلهم وجد جوارا إلا هذا الفتى المسكين ، فلم يمكنه أن يدخل مكة ويتمتع ولو يوما بوطنه ، فعاد إلى الحبشة ، وكان بهذا ممن حاز شرف الهجرتين إليها .

(ب) أسلم عمار بن ياسر وهو فتى قد جاز الثلاثين بقليل : أسلم مع صُهيب ؛ إذ وجده على باب دار الأرقم ، فقال له : ما تريد ؟ فقال له : وما تريد أنت ؟ فقال عمار : أريد أن أدخل على محمد ، وأسمع كلامه . فقال صُهيب : وأنا أريد ذلك . فدخلا وسمعا الدرس الذي يلقيه النبي صلى الله عليه وسلم على أولئك الشبان ، فبهرهما كلامه ، وعرض عليهما الإسلام فأسلما ، وقد تقدمهما بضعة وثلاثون شابا .

ولما أسلم الفتى عمار أسلم أخوه ، وأبوه ، وأمه ؛ فيا لشد هول ما لاقت تلك الأسرة الغريبة المسكينة من قريش . فكان عمار يعذب بالنار في رأسه

وظهره ؛ حتى بَرِصَ ظهره ، وصار أبيض من أثرها ، ومر به رسول الله وهو يعذب بالأبطح فى رمضاء مكة هو وأبوه وأمه . فقال : صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة . واشتد العذاب بعمّار مرة ، وأكرهته قريش على أن يسب النبي ويذكر آلهتهم بخير ، فلما تركوه أتى رسول الله وهو يبكى ، فقال له : ما وراءك ؟ فقال : شر يا رسول الله ، وأخبره بما حصل منه ، فقال له : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئناً بالإيمان . فقال له : فإن عادوا لك فعد لهم . وعُذّب ياسر حتى مات فى العذاب .

وكذلك ابنه عبد الله ، وأعطيت سميّة لأبى جهل ، فقال لها : ما آمنت بمحمد إلا لأنك عشقته لجماله ؛ ثم طعنها فى قلبها فماتت . فقبحه الله ما كان أقساه على أولئك الغرباء .

بقى إذن هذا الفتى من هذه الأسرة المسكينة ، فهاجر مع النبى إلى المدينة ، وشهد معه غزوة بدر وغيرها . وفى خلافة أبى بكر شهد قتال مسيلمة ورآه من حضر يوم اليمامة وقد أشرف على صخرة يصيح : يا معشر المسلمين ، أمن الجنة تفرون ؟ إلىّ إلىّ أنا عمار بن ياسر ، هلموا إلىّ ، وكانت أذنه فى ذلك الوقت تتذبذب وهى مقطوعة من شدة ما قاتل . فيالله من هذا العزم الذى يهد الجبال ، وتخضع له أعناق الجبابرة !!

(ج) لم يكن لصهيب عشيرة فى مكة ، تمنع عنه أذى قريش ، فعذب عذابا شديدا كسائر إخوانه من الشبان المستضعفين . ولما أراد الهجرة إلى المدينة منعته قريش ، فافتدى منه نفسه بماله ؛ فلما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة قال له : رَبِحَ البيع يا أبا يحيى . وقد شهد مع رسول الله غزوة بدر ، وأحد ، والخندق ، والمشاهد كلها ، ويكفيه شرفا أن عمر لما ضربه أبو لؤلؤة أوصى أن يصلى عليه صهيب ، وأن يصلى بجماعة المسلمين ثلاثة أيام حتى يتفق أهل الشورى على من يكون خليفة . فما أعظم هذا الدين الذى يرفع مثل صهيب فى ضعفه وغربته ! وما كان أشد تواضع المسلمين واحترام بعضهم

لبعض ! ولعمر الحق إنهم لم يسودوا العالم إلا بهـذه الصفات الجليلة التى ما شقينا إلا بفقدها . هذا وقد توفى صهيب سنة ٣٩ هجرية ودفن بالمدينة .

(د) أسلم خبَّاب بن الأرَتّ وهو ابن ثلاث وعشرين سنة ، وكان سادس ستة فى الإسلام ، فيا لهول ما لاقاه خبَّاب من قريش عموما . ومولاته أم أنمار خصوصا : كان المتعصبون من قريش يلصقون ظهر هذا الفتى الذى لا ناصر له فى مكة بالرَّضف[1] ، ويلبسونه درعا من الحديد ، ثم يصهرونه فى الشمس ، وكانت مولاته تأخذ الحديدة المحماة فتضعها على رأسه ، فيصبر على ذلك كله صبر الأبطال . وقد ذهب مرة مع إخوانه من الشبان المستضعفين إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، يشكون إليه ما يلاقون من قريش فقالوا : لا تستنصر لنا . فجلس محمرا وجهه ، فقال : «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض ، ثم يجاء بالمنشار ، ويوضع على فَرْق رأسه فيشق ذلك عن دينه ، ولَيتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخشى إلا الله عز وجل ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تعجلون » وقد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة بدر من غزواته . ولما وقعت الحرب بين على ومعاوية كان من أنصار علىّ كأخيه عمار الذى كان يعذب معه .

وقد مات رحمه الله بالكوفة سنة ٣٧ هجرية ، وأوصى أن يدفن فى ظاهرها . وكان الناس إنما يدفنون موتاهم فى أفنيتهم ، وعلى أبواب دورهم ، فسنّ بذلك سنة حسنة تراعى الآن فى وضع المدافن بالمدن ، بعد أن تقدم الناس وعرفوا فائدة ذلك من علم الصحّة .

(ه) كان عامر بن فُهيرة مولى أبى بكر ، وكان مملوكا للطُّفَيل بن عبد الله أخى عائشة لأمها . أسلم وهو ابن ثلاث وعشرين سنة قبل أن يدخل

---

(١) الرضف : الحجارة المُحماة .

رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ، فكان سيده يعذبه على إسلامه حتى لا يدرى ما يقول ، فصبر على هذا العذاب ولم يرجع عن دين الإسلام . وقد اشتراه أبو بكر وأعتقه فيمن اشتراه وأعتقه من أولئك الشبان الأرقاء ، الذين أسلموا وعذبتهم قريش بما يقشعر لهوله البدن .

(و) أسلم مصعب بن عمير بن هاشم وهو ابن أربع وعشرين سنة . وكان أنعم غلام بمكة ، وأجوده حُلَّة ، وأحسنه لمَّة ، وأطيبه عطراً ؛ فلما أسلم كتم إسلامه عن أهله . وبصر به شخص من الجامدين على القديم يصلى ، فأخبر أهله وأمه ؛ فلما علموا ذلك أخذوه وحبسوه ولم يزل محبوساً إلى أن هاجر منهم إلى الحبشة ، ثم عاد إلى المدينة ليفقه أهلها ويقرئهم القرآن . وقد كان يصيب أولئك الشبان فى مكة شظف العيش فيصبرون عليه ، ولا ينال منهم ما ينال ذلك الفتى الذى تربى فى ذلك النعيم بين أبويه ، فجَهِد فى الإسلام جهداً شديداً ، وكان جلده يتحشف (١) كما يتحشف جلد الحية . وروى على ابن أبى طالب أنهم كانوا جلوسا مع رسول الله فى المسجد ، إذ طلع عليهم مصعب وما عليه إلا بردة له مرقوعة بفرو . فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم بكى للذى كان فيه من النعمة والذى هو فيه اليوم .

(ز) كان سعد بن أبى وقاص فتى باراً بأمه ؛ لا يخالف لها أمراً ، ولا يغضبها أدنى غضب ، وأسلم فيمن أسلم من شبان قريش ، وبقيت الأم على شركها فيمن بقى من شيوخ قريش وعجائزهم ؛ فقالت : ياسعد ، ألست تزعم أن دينك الجديد يأمرك بصلة الرحم وبر الوالدين ؟ فقال لها : بلى . قالت : والله لا أكلْتُ طعاما ، ولا شربْتُ شرابا ، حتى تكفر بما جاء به محمد ، وتمس أسافا (٢) ونائلة (٣) (صنمين بمكة) ؛ ثم مكثت يوما وليلة لا تأكل

---

(١) يتقلص

(٢) إساف : صنم وضعه عمرو بن لحى على الصفا (٣) نائلة صنم على المروة

ولا تشرب حتى ساء حالها . فلما رأى سعد ذلك قال لها : تعلمين والله يا أمه لو كان لك مائة نفس تخرج نفساً نفساً ، ما تركت دين هذا النبي صلى الله عليه وسلم ، فكلي إن شئت، أو لا تأكلي . فلما رأت ذلك أكلت ، ولكنها عمدت إلى حيلة أخرى ترجو نفعها ! :

هي أن تقتله تخلصاً من هذا العار فى زعمها ؛ فبينما هو ذاهب ذات يوم ، بعد أن صلى العشاء إلى البيت وجدها تصيح : ألا أعوان يعينونى عليه من عشيرتى أو عشيرته ، فأحبسه فى بيت وأطبق عليه بابه حتى يموت أو يدع هذا الدين المحدث ! فلما رأى ذلك رجع من حيث أتى ، وقال لها : والله لا أعود إليك ، ولا أقرب منزلك ، وهجرها زمنا يتضيف إخوانه ؛ فأثر ذلك فى نفسها أكثر مما أثر إسلامه . فأرسلت إليه : أن عد إلى منزلك ولا تتضيفن فيلزمنا عار ، وتقول له : البر لا يفارق دينه ولا يكون تابعاً . وتلك أنفة عربية ، وحمية جاهلية ، تركت أمر العرب فوضى قرونا عدة ، ليس لهم جامعة تجمعهم ولا رابطة تربطهم ، وكان حالهم فى تلك العصور كحال سكان أواسط إفريقية اليوم ، حتى عير كسرى بهم النعمان بن المنذر فيما جرى بينهما من الحديث المشهود .

ولقد كان كسرى على حق فى تفضيله الشعوب المتمدينة فى تلك العصور ، من فرس ، وروم ، وهنود ، وصينيين ـ على الشعب العربى الذى كان مثالا للفوضى والهمجية وقتئذ .

ولولا أن الله رحم العرب بالإسلام ، فقيد من تلك الحرية التى تجنح إلى الفوضى وعدم الإذعان للحق والنفور من التبعية لأى مخلوق كان ، ولو كان خليفة راشدا ، أو ملكا عادلا ـ لظلوا على تلك الحال التى عير كسرى بها النعمان ، وما كان لهم ذلك الملك الكبير ، وتلك الحضارة الراقية .

ثم أسلم عامر أخو سعد ، وأثر فيه موقف أخيه ، فتضاعفت مصيبة الأم ، وعادت إلى الحيلة التى جربتها وخابت فيها : فأضربت عن الطعام والشراب ،

ومضى الأخوان فى إسلامهما لا يسألان عنها ، وبقيت هى على شركها الذى شاخت عليه ، وصعب عليها أن تفارقه .

كان سعد هذا أول من أراق الدم فى سبيل الدعوة الإسلامية :

ذلك بأنه مكث النبى سنين يدعو إلى الإسلام فى هدوء ، والناس معرضون عنه ، لاتهمهم تلك الدعوة الهادئة ؛ وتأثير هذه الدعوة بطىء لا يجذب إلا شابًا من هنا وفتى من هناك ، ولا بد أن تحتك الأفكار ، ويرن صدى الدعوة فى الآذان ، ويكون هناك مقاومة شديدة لها تكون هى السبب فى إذاعتها ، وخلق أنصار لها ، فمن ينال شرف البدء بالقتال فى سبيل تلك الدعوة الطاهرة لتنتقل من الخفاء إلى الظهور وتنال ما قدر لها من الانتصار ؟

أدرك ذلك الشرف سعد : فبينما هو ونفر من أصحاب الرسول فى شعب من شعاب مكة ، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين ، فناكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم فاقتتلوا ، فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى جمل من العظام المنثورة هنا وهناك ، فشجه ؛ وكان ذلك أول دم أريق من المشركين فى تأييد الدعوة الإسلامية ، وفاتحة الحروب الكثيرة التى اضطر إليها الإسلام ، بعد أن سلك فى دعوته سبيل الحسنى فقوبل بالإساءة ، وطريق اللين فنوهض بالشدة .

ثبات سعد النادر

كانت غزوة أحد فى السنة الثالثة من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيها أمر النبى الرماة من أصحابه ألا يبرحوا مكانهم : نصر المسلمون على المشركين أو غلبوا . ثم دار القتال بين الفريقين ورجحت كفة المسلمين ، وانهزم المشركون ؛ فأخذ المسلمون يجمعون ما تركوا من غنائم . ورأى الرماة ذلك ، فانطلقوا أيضا يجمعون المال ، ونسوا أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكشفوا بذلك ظهر المسلمين ؛ ورآها فرصة سانحة ذلك القائد الباسل الخبير خالد بن الوليد ـ وكان لم يسلم إلى ذلك الوقت ـ فأتى المسلمين من

ورائهم وأخذهم على غرة وهم مشتغلون بجمع الغنائم ، فدهشوا ، وفر كثير منهم بعد أن كثر القتل فيهم ، وأشيع أن النبى قد قتل ، وهو بعد ثابت فى نفر قليل من أصحابه ، والسهام تصيبه من هنا وهناك ، وأصابه حجر فكسر رباعيته اليمنى وشق شفته السفلى ؛ وكان من ذلك النفر القليل سعد ، فلندعه يحدث عن نفسه فى ذلك الموقف الخطر ، قال :

قد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يناولنى النبل ويقول : ارم فداك أبى وأمى ، ارم أيها الغلام الحَزَوَّرُ (القوىّ) ، فرميت فى ذلك اليوم ألف سهم ، ما منها سهم إلاّ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ارْمِ فداك أبى وأمى .

وفى رواية عنه قال : أجلسنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامه ، فجعلت أرمى وأقول : اللهم سهمك فارم عدوك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم استجب لسعد ، اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته ، فكان مجاب الدعوة طول حياته ، حتى أنه لما سعى به نفر من الكوفة إلى عمر بن الخطاب فى خلافته أرسل جماعة يسألون عنه ، فكلما سألوا رجلا قال : خيرا وأثنى عليه معروفا ، حتى سألوا رجلا يقال له أبو سعدة ، فقال : إنه لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل فى القضية . فلما بلغ سعدا ذلك قال : اللهم ، إن كان كاذبا فأطل عمره ، وأدِمْ فقره ، وأعْمِ بصره ، وعرّضه للفتن . فبقى ، وافتقر ، وكبرت سنه ، فصار يتعرض للإماء فى سكك الكوفة ، فإذا قيل له : كيف أنت ياأبا سعدة يقول : شيخ كبير فقير مفتون أصابتنى دعوة سعد .

ومن باب الصبر والاحتمال :

أن عروة بن الزبير خرج إلى الوليد بن يزيد ، فوطىء عظما فما بلغ إلى دمشق حتى بلغ به كل مذهب ، فجمع له الوليد الأطباء فأجمع رأيهم على قطع رجله ، فقالوا له : اشرب مرقدا فقال : ماأحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى . فأحمى له المنشار وقطعت رجله ، فقال : ضعوها بين يدى

ولم يتوجع ثم قال : لئن كنت ابتليت فى عضو فقدعوفيت فى أعضاء ، فبينما هو كذلك إذ أتاه خبر ولده ، اطلع من سطح على دواب الوليد فسقط بينها فمات فقال : الحمد لله على كل حال لئن أخذت واحدا لقد أبقيت جماعة ! !

وقدم على الوليد وفدٌ من عَبْس فيهم شيخ ضرير فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره فقال : خرجت مع رُفقة مسافرين ، ومعى مالى وعيالى ولا أعلم عبسيا يزيد ماله على مالى ، فعرَّسنا فى بطن واد فطرقنا سيل ، فذهب ما كان لى من أهل ومال وولد غير صبى صغير و بعير فشرد البعير فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لآخذ البعير فسمعت صيحة الصغير ، فرجعت إليه فاذا رأس الذئب فى بطنه وهو يأكل فيه ، فرجعت إلى البعير فحطم وجهى برجليه فذهبت عيناى ، فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل ، فقال الوليد : اذهبوا به إلى عروة ؛ ليعلم أن فى الدنيا من هو أعظم مصيبة منه .

مثل رائع فى ضبط النفس

قال مجاهد : قال لى عمر بن عبدالعزيز : مايقول الناس فى ؟ قلت : يقولون : مسحور . قال : ما أنا بمسحور ، وإنى لأعلم الساعة التى سقيت فيها ، ثم دعا غلاماً له فقال له : ويحك ! ما حملك على أن تسقينى السم ؟ قال ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق ، فقال له : هاتها فجاءه بها فألقاها فى بيت المال . وقال : اذهب حيث لا يراك أحد .

وهذا منتهى الشهامة والمروءة ؛ لأنه لو أراد ذلك الخليفة أن يقتص من ذلك المجرم الأثيم الذى تعمد قتله واعترف بجريمته ـ لكان أقل عقاب له الإعدام ، لا أن يطلق سراحه حرا ويعفو عنه ؛ وما سمع الناس بأشرف ولا بأكرم من هذا الخليفة العظيم الذى دل بعمله هذا على أنه ملك فى جسم إنسان وأن طبيعته البشرية ممتازة بشريف الخصال

ومن باب ضبط النفس :

ماحكى عن جعفر الصادق رضى الله عنه - أن غلاماً له وقف يصب الماء على يديه فوقع الإبريق من يد الغلام فى الطست ، فطار الرشاش فى وجهه فنظر جعفر إليه نظر مغضب ، فقال : يامولاى ، والكاظمين الغيظ . قال : قد كظمت غيظى ، قال : والعافين عن الناس ، قال : قدعفوت عنك قال : والله يحب المحسنين . قال : اذهب فأنت حر لوجه الله الكريم.

(٢١) النفوس العالية تأبى النزول عن مكانها

دخل الخليفة هرون الرشيد الحرم ليطوف بالكعبة ، ومنع الناس من الطواف حتى يخلو المكان للخليفة وحده . فسبقه أعرابى وجعل يطوف معه ، فاغتاظ أمير المؤمنين ، والتفت إلى حاجبه ، يريد بذلك أن يمنع الرجل . فكلمه الحاجب ، فقال له الأعرابى : إنّ الناس سواء فى هذا المكان . فلما سمع منه الرشيد ذلك أمر حاجبه بتركه . فكان كلما أراد الخليفة أن يعمل شيئاً تقدم الأعرابى وسبقه . فلما انتهى الخليفة من الطواف والصلاة أرسل إلى الأعرابى ليجيء إليه . فقال الأعرابى : لاحاجة لى به ؛ فإن كان هو يحتاج إلىّ وجب عليه المشى إلىّ . فغضب حاجب الخليفة ، وحكى لأمير المؤمنين ماسمعه من الرجل . فقال الخليفة : إنه صادق فيما يقول ، وعلينا أن نمشى إليه . فقام حتى وقف بجوار الأعرابى ، وقال له : السلام عليك . فرد عليه السلام . ثم سأله الخليفة وقال له : ياأخا العرب ، أجلِسُ هنا بأمرك ؟ فقال له الأعرابى : ليس البيت بيتى ، وإنما هو بيت الله ، وكلنا فيه سواء . فدهش الخليفة من جوابه ، لعلمه أنه ما كان لأحد أن يجيب أمير المؤمنين بمثل هذا الجواب ، غير أنه أظهر له الحلم ولم يغضب منه ، وجلس بجانبه ، ثم أخذ يسأله عن أشياء كثيرة ، فأجابه عنها ، فسُرّ منه الرشيد ، وأمر له بعشرة آلاف درهم . ولكن هذا الرجل لم يقبلها منه . فسأله عن

أهله وبلده ، فعلم بعد ذلك أنه سيدنا موسى الرضا بن جعفر الصادق بن محمد ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين .

(٢٢) اعتزاز العالم بمكانته

ورد أبو نصر الفارابى إلى دمشق على سيف الدولة بن حمدان وهو إذ ذاك سلطانها فلما دخل عليه وهو بزى الأتراك وكان ذلك زيه دائما وقف ، فقال له سيف الدولة : اجلس . فقال : حيث أنا أو حيث أنت ؟ فقال حيث أنت . فتخطى رقاب الناس حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه ، وكان على رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان خاص يسارّهم به ، فقال لهم بذلك اللسان : إن هذا الشيخ قد أساء الأدب ، وإنى مسائله عن أشياء إن لم يعرفها فاخرجوا به . فقال له أبو نصر بذلك اللسان : أيها الأمير صبرا ؛ فإن الأمور بعواقبها . فعجب سيف الدولة منه وعظم عنده ، ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين فى كل فن ، فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل ، وبقى يتكلم وحده ثم أخذوا يكتبون مايقوله ، فصرفهم سيف الدولة وخلا به ، فقال له : هل لك فى أن تأكل ؟ قال : لا . قال : فهل لك أن تشرب ؟ قال : لا . فقال : هل تسمع ؟ قال : نعم . فأمر سيف الدولة بإحضار القيان ، فحضر كل ماهر فى الصنعة بأنواع الملاهى فخطّأ الجميع . فقال له سيف الدولة : هل تحسن هذه الصنعة ؟ قال : نعم . ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها فأخرج منها عيدانا وركبها ثم لعب بها ، فضحك كل من بالمجلس . ثم فكها وركبها تركيبا آخر فبكى كل من فى المجلس ، ثم فكها وغيّر تركيبها وحركها فنام كل من فى المجلس حتى البواب ، فتركهم نياما وخرج .

وهو الذى وضع القوانين وكان منفردا بنفسه لا يجالس الناس ، وكان مدة إقامته بدمشق لا يكون غالبا إلا عند مجتمع المياه أو مشتبك الرياض .

وهناك يؤلف كتبه ، وكان أزهد الناس فى الدنيا ، لا يحتفل بأمر مسكن ولا مكسب ، وسأله سيف الدولة فى مرتب من بيت المال . فقال : يكفينى أربعة دراهم . ولم يزل على ذلك إلى أن توفى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة بدمشق ، وصلى عليه سيف الدولة وأربعة من خواصه ، وقد ناهز ثمانين سنة .

(٢٣) نفسٌ عظيمة وقلبٌ شريحٌ

لما ولى عمر بن عبد العزيز خرج ليلة ومعه حرسىٌّ فدخل المسجد ، فمر فى الظلمة برجل نائم ، فعثر به ، فرفع رأسه إليه فقال: أمجنون أنت ؟ قال : لا . فهمّ به الحرسى . فقال له عمر : مَهْ ؛ إنما سألنى : أمجنونٌ أنت فقلت : لا !!

(٢٤) الزهد الحق

يكون الرجل ناسكا فى زماننا إذا أظهر الخشوع فى مشيته ، ورئيت أمارات الذلة والمسكنة فى وجهه ، إلى غير ذلك من الأمور التى تدعو إلى الكسل ، ولكن زهد عمر وسائر أصحاب رسول الله لم يكن من هذا الضرب المتكلف ، بل إن عمر رضى الله عنه كان ينكر من يتظاهر بذلك فى خلافته ، ورأت الشفقة بنت عبد الله فتيانا يقصدون فى المشى ويتكلمون رويدا ، فقالت : « ماهذا ؟ » قالوا : نساك . فقالت : « كان والله عمر إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، واذا ضرب أوجع ، وهو والله ناسك حقا » فهذا كان نسكه ـ رضى الله عنه ـ نشاطاً فى كل شىء ، وحزما ، وجدا ، واجتهادا ، وبه غلبوا العالم ، وأسسوا هذا الملك العظيم ، لا بهذا الكسل الذى نسميه ظلما نسكا .

(٢٥) تحرى مرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد قد

أطاف به أصحابه ، إذ أقبل على بن أبي طالب ، فوقف ، فسلم ، ثم نظر مجلسا يشبهه . فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجوه أصحابه : أيهم يوسع له ، فكان أبو بكر جالسا على يمين النبى صلى الله عليه وسلم ، فتزحزح له عن مجلس وقال : هاهنا يا أبا الحسن . فجلس بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أبي بكر . قال أنس : فرأيت السرور فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي بكر ، فقال : « يا أبا بكر ، إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل »

مظاهر الخلال الاجتماعية

(١) – أجل مثل فى الشعور بالمسئولية

قال عبد الرحمن بن عوف : دعانى عمر بن الخطاب ذات ليلة وقال : قد نزل بباب المدينة قافلة ، وأخاف عليهم إذا ناموا أن يسرق شىء من متاعهم . فمضيت معه . فلما وصلنا قال لى : نم أنت ، ثم أنه جعل يحرس القافلة طول ليلته .

ومنه ما ورد عن الأوزاعى : أن عمر بن الخطاب خرج فى سواد الليل ، فرآه طلحة . فذهب عمر ، فدخل بيتا ، ثم دخل بيتا آخر . فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا عجوز عمياء مقعدة ، فقال لها : ما بال هذا الرجل يجىء إليك ؟ قالت : إنه يتعاهدنى منذ كذا وكذا ، يحضر لى ما يصلحنى ، ويخرج عنى الأذى . فقال طلحة : ثكلتك أمك يا طلحة ! لعثرات عمر تَتَتَبَّعُ !

ومنه ما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ليلة من الليالى يطوف ويتفقد أحوال المسلمين ، فرأى بيتا من الشعر مضروبا لم يكن قد رآه بالأمس ، فدنا منه ، فسمع أنين امرأة ، ورأى رجلا قاعداً فدنا منه ، وقال له : من الرجل ؟ فقال له : رجل من البادية ، قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله . قال فما هذا الأنين ؟ قال : امرأة تتمخض قد أخذها الطلق . قال : فهل عندها أحد ؟ قال : لا . قال : فانطلق عمر والرجل لا يعرفه ، فجاء إلى منزله ، فقال لامرأته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب بنت فاطمة الزهراء رضى الله عنهما : هل لك فى أجر قد ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة تتمخض ليس عندها أحد . قالت : إن شئت . قال : فخذى معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدهن ، وأتت بقدر وشحم وحبوب . فجاءت به . فحمل القدر ، ومشت خلفه حتى البيت . فقال : ادخلى إلى المرأة . ثم

قال للرجل : أوقد ناراً . ففعل . فجعل عمر ينفخ النار ويضرمها ، والدخان يخرج من خلال لحيته ، حتى أنضجها . وولدت المرأة . فقالت أم كلثوم رضى الله عنها : ياأمير المؤمنين ، بشّر صاحبك بغلام . فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل ، وقال : واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين اهكذا تفعل بنفسك ؟ قال : يا أخا العرب ، من ولى شيئا من أمور المسلمين ينبغى له أن يطلع على صغير أمرهم وكبيره ، فإنه عنه مسئول ، ومتى غفل عنه خسر الدنيا والآخرة . ثم قام عمر رضى الله عنه ، وأخذ القدر وحملها إلى باب البيت ، وأخذتها أم كلثوم وأطعمت المرأة . فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم . فقال عمر للرجل : قم إلى بيتك ، وكل ما يبقى فى البرْمة ، وفى غد ائت إلينا . فلما أصبح جاءه فجهزه بما أغناه به وانصرف .

ومما يلحق بهذا الباب ما قيل من أن عمر بن عبد العزيز دخل مرة على زوجته فاطمة يسألها اذا كان معها درهم يشترى به عنباً ، فأجابته سلبا ، وكان هو أيضا لا يملك ذلك الدرهم ، فسألته فى دهشة : هل يعقل أن أمير المؤمنين لا يملك درهما يشترى به عنبا ؟ قال : إن ذلك خير من أن يعذب فى النار .

وما ورد عن وهب بن الورد أنه قال : اجتمع بنو مروان إلى باب عمر ابن عبد العزيز ، فقالوا لابنه عبد الملك : قل لأبيك : إن من كان قبله من الخلفاء كان يعطينا ويعرف لنا موضعنا ، وإن أباك قد حرمنا ما فى يديه . فدخل على أبيه ، فأخبره ، فقال لهم : إن أبى يقول لكم : «إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»

وما رواه عمر بن ذر إذيقول : لما رجع عمر بن عبد العزيز من جنازة سليمان قال له مولاه : مالى أراك مغتما قال : لمثل ما أنا فيه فليغتم ، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إلىّ فيه ولا طالبه منى .

(٢) — المحافظة على مال الدولة

قال فرات بن السائب : قال عمر بن عبد العزيز لامرأته فاطمة بنت عبد الملك وكان لديها جواهر أمر لها بها أبوها لم ير مثلها فى النفاسة وعلو القيمة: اختارى أحد أمرين : إما أن تردى حليك إلى بيت المال ، وإما أن تأذنى لى بفراقك ؛ فإنى أكره أن أكون أنا وأنت وهو فى بيت واحد. قالت : لا . بل أختارك عليه وعلى أضعافه . فأمر به ، فحمل حتى وضع فى بيت مال المسلمين ، فلما مات عمر واستخلف يزيد قال لفاطمة : إن شئت رددته إليك . قالت : لا . والله لا أطيب به نفسا فى حياته وأرجع فيه بعد مماته !!

(٣) — مثل أعلى للحاكم

فى المحافظة على ما تملكه الدولة ومنع أقاربه عن الانتفاع بجاهه

عن على بن أبى رافع قال : كنت على بيت مال على بن أبى طالب وكاتبه ، فكان فى بيت ماله عقد لؤلؤ كان أصابه يوم البصرة ، فأرسلت إلى بنت على ابن أبى طالب فقالت لى : إنه بلغنى أن فى بيت مال أمير المؤمنين عقد لؤلؤ وهو فى يدك ، وأنا أحب أن تعيرنيه أتجمل به فى يوم الأضحى ؛ فأرسلت إليها : عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام يا بنت أمير المؤمنين . فقالت : نعم عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام . فدفعته إليها ، وإذا أمير المؤمنين رآه عليها فعرفه . فقال لها : من أين جاء إليك هذا العقد ؟ فقالت : استعرته من ابن أبى رافع خازن بيت مال أمير المؤمنين ؛ لأتزين به فى العيد ثم أرده . فبعث إلىّ أمير المؤمنين فجئته ، فقال لى : أتخون المسلمين يا بن أبى رافع ؟ فقلت : معاذ الله أن أخون المسلمين ! فقال : كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذى فى بيت مال المسلمين بغير إذنى ورضاهم ؟

فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنها بنتك وسألتنى أن أعيرها العقد تتزيّن به ، فأعرتها إياه عارية مضمونة مردودة ، على أن ترده سالما إلى موضعه . فقال : ردّه من يومك . وإياك أن تعود لمثله فتنالك عقوبتى . ثم قال :

ويل لابنتى ! لو كانت أخذت العقد على غير عارية مضمونة مردودة لكانت إذاً أوّل هاشمية قطعت يدها فى سرقة . فبلغت مقالته ابنته ، فقالت له : ياأمير المؤمنين ، أنا ابنتك وبضعة منك ، فمن أحقُّ بلبسه منّى ؟ فقال لها : يابنةابن أبى طالب ، لاتذهبى بنفسك عن الحق ، أكل نساء المهاجرين والأنصار يتزّين فى مثل هذا العيد بمثل هذا ؟ فقبضته منها ، ورددته إلى موضعه .

ومن باب فرط المحافظة على مال الدولة ما يلى : لما ولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز قدم إليه صاحب المراكب مركب الخليفةفأبى ، وقال ائتونى ببغلتى .

وقال الحكم بن عمر : شهدت عمر بن عبد العزيز حين جاءه أصحاب المراكب يسألونه العلوفة ورزق خدمتها قال : ابعثْ بها إلى أمصار الشام يبيعوها لمن يريد ، واجعلْ أثمانها فى مال الله ؛ تكفينى بغلتى هذه الشهباء .

وروى المؤرخون أن أم كلثوم ابنة الإمام على وزوجة سيدنا عمر بعثت إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء وغير ذلك ودسته فى البريد فأبلغه لها ، فجمعت امرأة هرقل نساءها وقالت : هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم ، ثم أهدت لها ، وفيما أهدت لها عقد فاخر ، ولما انتهى به البريد إلى عمر أمره بإمساكه ، ودعا الصلاة الجامعة ، فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين ، وقال : إنه لا خير فى أمر أبرم من غير شورى ، ثم أخبرهم الخبر ، وسألهم عن أمر العقد : فكلهم أشار بدفعه إلى أم كلثوم ، فقال عمر : ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم . قال هذا ، وأمر برده إلى بيت المال ؛ ورد على أم كلثوم منه على قدر نفقتها .

(٤) – شدة التحرز

منَ استخدام مال الدولة فى المصلحة الخاصة

يقال : إن عمر بن عبد العزيز كان ينظر ليلا فى قصص الرعيّة فى ضوء السراج ، فجاء غلام له ، فحدثه فى شأن خاص بالأمير . فقال له عمر : أطفىء السراج ، ثم حدثنى ؛ لأن هذا الدهن من بيت مال المسلمين ، ولا يجوز استعماله إلا فى أشغال المسلمين ! !

وعن الفهرىّ عن أبيه قال : كان عمر بن عبد العزيز يقسم تفاح الفَىء ، فتناول ابن عم له صغير تفاحة ، فانتزعها من فِيه ، فأوجعه ، فسعى إلى أمه ، فأرسلت إلى السوق ، فاشترت له تفاحا . فلما رجع عمر وجد ريح التفاح ، فقال: يا فاطمة : هل أتيت شيئا من هذا الفىء ؟ قالت : لا ، وقصّت عليه القصة . فقال : والله لقد انتزعتها من ابنى لكأنما انتزعتها من قلبى ، لكن كرهت أن أضيّع نفسى بتفاحة من فىء المسلمين .

(٥) - ما أحوجنا إلى حكام يجيعون أنفسهم ليشبعوا رعيتهم

روى أن عمر رضى الله عنه استعمل على حمص رجلا يقال له عُمير بن سعد ، فلما مضت السنة كتب إليه عمر رضى الله عنه : أن أقدم علينا . فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه ماشيا حافيا عكازته بيده وأدواته ومزوده وقصعته على ظهره ، فلما نظر إليه عمر قال له : ياعمير ، أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن ، وقد جئت إليك بالدنيا أجرها بقرابها ، قال له : وما معك من الدنيا ؟ قال : عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوانا لقيته ، ومِزْودا أحمل فيه طعامى ، وإداوة أحمل فيها ماء لشربى ولطهورى ، وقصعة أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسى

وآكل فيها طعامى ، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معى .

فقام عمر رضى الله عنه من مجلسه إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه فبكى بكاء شديدا ، ثم قال : اللهم ألحقنى بصاحبى غير مفتضح ولا مبدل . ثم عاد إلى محله فقال : ما صنعت فى عملك يا عمير ؟ فقال : أخذت الإبل من أهل الإبل ، والجزية من أهل الذمة عن يد وهم صاغرون ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقى عندى منها شىء لأتيتك به . فقال عمر : عد إلى عملك يا عمير . قال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تردنى إلى أهلى فأذن له ، فأتى أهله ، فبعث عمر رجلا يقال له حبيب بمائة دينار وقال له : اختبر لى عمير وانزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله : أهو فى سعة أم ضيق ؟ فإن كان فى ضيق فادفع إليه مائة الدينار . فأتاه حبيب فنزل به ثلاثا ، فلم ير له عيشا إلا الشعير والزيت ، فلما مضت ثلاثة أيام قال : يا حبيب ، إن رأيت أن تتحول إلى جيراننا فلعلهم أن يكونوا أوسع عيشا منا ؛ فإننا والله وتالله لو كان عندنا غير هذا لآثرناك به . قال : فدفع إليه مائة الدينار وقال : قد بعث بها أمير المؤمنين إليك فدعا بفرو خلق لامرأته فجعل يصر منها خمسة الدنانير والستة والسبعة ويبعث بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفدها ، فقدم حبيب على عمر وقال :

جئتك يا أمير المؤمنين من عند أزهد الناس ، وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير ، فأمر له عمر بوسقين من طعام وثوبين فقال : يا أمير المؤمنين ، أما الثوبان فأقبلهما ، وأما الوسقان فلا حاجة لى بهما ؛ عند أهلى صاع من بر هو كافيهم حتى أرجع إليهم ! !

(٦) – العدالة تنشر الطمأنينة

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

أرسل قيصر رسولا إلى عمر بن الخطاب ؛ لينظر أحواله ويشاهد أفعاله .

فلما دخل المدينة سأل أهلها وقال : أين ملككم ؟ فقالوا : ما لنا ملك ، بل لنا أمير قد خرج إلى ظاهر المدينة . فخرج الرسول فى طلبه ، فرآه نائما فوق الرمل ، وقد وضع درّته كالوسادة . فلما رآه على هذه الحالة وقع الخشوع فى قلبه وقال : رجل يكون جميع الملوك لا يقر لهم قرار فى هيبته ، وتكون هذه حالته ! ولكنك يا عمر عدلت فنمت . وملكنا يجور ، فلا جرم أنه لا يزال ساهرا خائفا .

(٧) — العدل العالى

روى أنسٌ قال : بينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قاعد إذ جاءه رجلٌ من أهل مصر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا مقام العائذ بك . فقال عمر : لقد عذت بمجير فما شأنك ؟ قال : سابقت على فرس ابنا لعمرو بن العاص — وهو يومئذ أمير على مصر — فسبقته . فجعل يقمعنى بسوطه ويقول : أنا ابن الأكرمين ، فبلغ ذلك عمْراً أباه ، فخشى أن آتيك فحبسنى فى السجن فانفلتُّ منه ، فهذا الحين جئتك . فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص : إذا أتاك كتابى هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان . وقال للمصرى : أقم حتى يجىء . فقدم عمرو ، فشهد الحج . فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس ، وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام المصرى ، فرمى إليه عمر رضى الله عنه بالدرة . قال أنس : ولقد ضربه ونحن نشتهى أن يضربه ، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ! ! قال : يا أمير المؤمنين ، قد استوفيت واشتفيت . قال : ضعْها على صلعة عمرو . فقال : يا أمير المؤمنين ، قد ضربت الذى ضربنى قال : أما والله لو فعلت ما منعك أحد ، حتى تكون أنت الذى تنزع . ثم قال : يا عمرو ، متى تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ فجعل عمرو يعتذر إليه ويقول : إنى لم أشعر بهذا .

(٨) — التشدد فى العدالة تثبيتاً لمبدإ المساواة

أسلم [١] جبلة بن الأيهم فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . واتفق أن جبلة كان يطوف يوماً بالبيت ، فداس أعرابىٌّ من فزارة على طرف ردائه ، فلطم الفزارىّ على وجهه لطمة شديدة ، فاستعدى عليه عمر ، فقال له عمر رضى الله عنه : دعه يقتصّ منك (أو ما هذا معناه) . فقال لعمر : وهل أستوى أنا وهو فى ذلك ؟ فقال له : نعم الإسلام سوى بينكما . فقال جبلة : أجلنى إلى غد . فلما أصبح مضى إلى قيصر ملك الروم وارتد ؛ ثم ندم وقال هذه الأبيات :

تنصرت الأشراف من عار لطمة ... وما كان فيها ـ لو صبرت لها ـ ضرر
تكنفنى منها لجاجٌ ونخوةٌ ... فبعت بها العين الصحيحة بالعوَر
فياليت أمى لم تلدنى ، وليتنى ... رجعت إلى الأمر الذى قاله عُمر
وياليتنى أرعى المخاض بقفرة ... وكنت أسيرا فى ربيعة أو مضر
ويا ليت لى بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومى ذاهب السمع والبصر

ولما تنصر جبلة بن الأيهم ، ولحق بهرقل صاحب القسطنطينيّة ـ أقطعه هرقل الأموال والضياع ، وبقى ما شاء الله .

(٩) — فرط الحرص على كرامة العدالة

أتت امرأة يوما شريك بن عبد الله قاضى الكوفة ، وهو فى مجلس الحكم ، فقالت : أنا بالله ثم بالقاضى . قال : من ظلمك ؟ قالت : الأمير موسى بن عيسى ابن عم أمير المؤمنين : كان لى بستان على شاطىء الفرات فيه نخل ورثته عن أبى ، وقاسمت إخوتى وبنيت بينى وبينهم حائطا ، وجعلت فيه

(١) هو آخر ملوك بنى غسان ، وهم العرب الذين كانو يسكنون فيما يلى حدود الشام ، وكانوا تابعين لدولة الروم .

رجلا فارسيا يحفظ النخل ويقوم به . فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتى ، وساومنى ورغبنى فلم أبعه . فلما كان هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام وفاعل ، فاقتلعوا الحائط . فأصبحت لا أعرف من نخلى شيئا ، واختلط بنخل إخوتى . فقال : ياغلام ، أحضر طينة . فأحضرت فختمها وقال : امضى إلى بابه حتى يحضر معك .

فجاءت المرأة بالطينة المختومة ، فأخذها الحاجب ودخل على موسى فقال : قد أعدى القاضى عليك وهذا ختمه . فقال : ادع لى صاحب الشرطة . فدعا به . فقال : امض إلى شريك ، وقل : ياسبحان الله ! ما رأيت أعجب من أمرك ! امرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها علىّ . قال صاحب الشرطة : إن رأى الأمير أن يعفينى من ذلك . فقال : امض ، ويلك ! فخرج وقال لغلمانه : اذهبوا واحملوا إلى حبس القاضى بساطا وفراشا وما تدعو الحاجة إليه . ثم مضى إلى شريك . فلما وقف بين يديه أدّى الرسالة ، فقال لغلام المجلس : خذ بيده فضعه فى الحبس . فقال صاحب الشرطة : والله قد علمت أنك تحبسنى ، فقدمت ما أحتاج إليه فى الحبس . وبلغ موسى بن عيسى الخبر ، فوجّه الحاجب إليه وقال له : رسولٌ أدّى رسالة ، أى شىء عليه ؟ فقال شريك : اذهبوا به إلى الحبس مع رفيقه ، فحبس . فلما صلى الأمير موسى العصر بعث إلى إسحق بن الصباح الأشعثى ، وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضى شريك وقال لهم :

أبْلِغوه السلام ، وأعلِموه أنه قد استخفَّ بى ، وأنى لست كالعامّة . فمضَوا إليه وهو جالسٌ فى مسجده بعد صلاة العصر ، فأبلغوه الرسالة . فلما انقضى كلامهم قال لهم : مالى أراكم جئتمونى فى غبرة من الناس فكلمتمونى ؟ من هاهنا من فتيان الحى ؟ فأجيب : جماعة من الفتيان . فقال : ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس ؛ ما أنتم إلا فتنة وجزاؤكم الحبس . قالوا له : أجادٌ أنت ؟ قال : حقا ، حتى لا تعودوا لرسالة ظالم . فحبسهم .

فركب موسى بن عيسى فى الليلة إلى باب السجن ، وفتح الباب وأخرجهم كلهم .

فلما كان من الغد وجلس شريك للقضاء جاءه السجان فأخبره ، فدعا بالقمطر فختمه ووجه به إلى منزله ، وقال لغلامه : الحق بنقلى إلى بغداد ؛ والله ماطلبنا هذا الأمر منهم ، ولكن أكرهونا عليه ؛ ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز ؛ إذ تقلدناه لهم . ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد . وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى ، فركب فى موكبه فلحقه ، وجعل يناشده الله ويقول : يا أبا عبد الله ، تثبت ، انظر إخوانك تحبسهم دع أعوانى ! قال : نعم ؛ لأنهم مشوا لك فى أمر لم يجز لهم المشى فيه ، ولستُ ببارح أو يردّوا جميعا ، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدى فاستعفيته مما قلدنى . فأمر موسى بردهم جميعا إلى الحبس ، وهو واقف والله مكانه حتى جاء السجان فقال : قد رجعوا جميعا إلى الحبس . فقال لأعوانه : خذوا بلجام دابته بين يدى إلى مجلس الحكم . فمروا به بين يديه حتى أُدْخِلَ المسجد ، وجلس شريك فى مجلس القضاء ، فجاءت المرأة المتظلمة ، فقال : هذا خصمك قد حضر . فقال موسى : (وهو والمرأة بين يديه) : قبل كل أمر ، أنا قد حضرت ، فأولئك يخرجون من الحبس. فقال شريك : أما الآن فنعم : أخرجوهم من الحبس . ثم قال : ما تقول فيما تدعيه هذه المرأة ؟ قال : صدقَتْ . قال: ترد ما أخذت منها ، وتبنى حائطها سريعا كما كان . قال : أفْعَلُ ذلك . قال لها : أبقى لك عليه دعوى ؟ قالت : بيت الرجل الفارسى ومتاعه . قال موسى بن عيسى : ويرد ذلك كله . ثم قال أبقى لك عليه دعوى ؟ قالت : لا ، وبارك الله عليك وجزاك خيرا . قال : قومى . فقامت

فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه فى مجلسه وقال : السلام عليك أيها الأمير ، أتأمر بشىء ؟ فقال : أى شىء آمر وضحك . فقال له شريك : أيها الأمير ، ذاك الفعل حق الشرع ، وهذا القول الآن حق الأدب .

فقام الأمير وانصرف إلى مجلسه وهو يقول : من عظم أمر الله أذل الله له عظماء خلقه !!

(١٠) - مثل نبيل من أمثال العدالة

حدث الشيباني قال : جلس المأمون يوما للمظالم . فكان آخر من تقدم إليه - وقد همّ بالقيام - امرأة عليها هيئة السفر ، وعليها ثياب رثة . فوقفت بين يديه فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فنظر المأمون إلى يحي بن أكثم . فقال لها يحي : وعليك السلام ، يا أمة الله تكلمي فى حاجتك . فقالت :

يا خير (١) منتصف يهدى له الرّشد ويا إماما به قد أشرق البلدُ
تشكو إليك عميدَ القوم أرملةٌ عدا عليها ، فلم يُترَكْ لها سبدُ
وابتزّ مِنّى ضياعى بعد منعتها ظلما ، وفرّق منى الأهل والولدُ

فأطرق المأمون حيناً . ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

فى دون ماقلت زال الصبرُ والجلدُ عنى ، وقرّح منى القلب والكبدُ
هذا أذان صلاة العصر ، فانصرفى وأحضرى الخصم فى اليوم الذى أعِدُ
والمجلس السبت، إن يقضَ الجلوس لنا ننصفكِ منه . وإلا المجلس الأحد

فلما كان يوم الأحد جلس ، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة . فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فقال : وعليك السلام . أين الخصم ؟ فقالت : الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين ، وأومأت إلى العباس ابنه . فقال : يا أحمد بن أبى خالد خذ بيده ، فأجلسه معها مجلس الخصوم فجعل كلامها يعلو كلام العباس . فقال لها أحمد بن أبى خالد : يا أمة الله ، إنك بين يدى أمير المؤمنين ؛ وإنك تكلمين الأمير ، فاخفضى صوتك . فقال المأمون:

(١) يصح أن يكون للقصة أصل بيد أن الشعر تظهر عليه الصنعة

دعها يا أحمد ؛ فإن الحق أنطقها وأخرسه . ثم قضى لها برد ضيعتها . وظلم العباس بظلمه لها . وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوغر [1] لها ضيعتها ، ويحسن معاونتها ، وأمر لها بنفقة .

(١١) - روح المساواة

قد كان أصحاب رسول الله كلهم متشبعين بروح المساواة ، لا يبلغ أحد ما بلغوه فى تواضعهم للناس ، واحتقارهم كل تعاظم وتغال فى الملابس والمآكل والمشارب وغيرها . وكيف لا يكونون كذلك ، وقد رباهم رسول الله على هذه الخلة القويمة ، وكان ينهاهم أن يقوموا ويغالوا فى تعظيمه كما تفعل الأعاجم مع ملوكها .

وإنا نذكر أمثلة من روح المساواة عند أبى بكر ، الذى امتد حكمه على جزيرة العرب : حجازها ، وتهامتها ، ونجدها ، وغير هذا من أقطارها ، وعلى العراق والشام ، وصاحب الجيوش الظافرة المدوّخة جيوش الأكاسرة والقياصرة .

ونؤكد لمن يتغنّون «بديموقراطية» الغرب من شباننا ، أن هذه الديموقراطية التى سنذكرها لم يصل إليها فى الغرب ملك ، ولا رئيس جمهورية ، ولا وزير ولا مدير ، وإنما كل الذى يروونه ويتغنون به مظاهر ديموقراطية كاذبة ، ينطوى تحتها أفظع ضروب «الأرستقراطية» ، المتأصلة فى نفوس الغرب من قديم الزمان . ولم تصل الى ملوك بنى أمية الذين ظهروا فى الإسلام بمظهر «الأرستقراطية» إلا بطريق العدوى منهم لمجاورتهم لهم بالشام . وقد أنكر عمر رضى الله عنه فى خلافته على معاوية الذى صار أول ملوك بنى أمية - ظهوره بهذا المظهر «الأرستقراطى» ، وكان واليا على الشام ، فاعتذر له معاوية بأنه فى وسط الروم الذين لا يحترمون الرجل إلا إذا ظهر بهذا المظهر . فلما صار ملكا استمر ظاهرا به ، وتبعه فى ذلك ملوك بنى أميه ، إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز

---

(١) يجعلها من غير خراج

رحمه الله . وقد تبع ملوك بنى أمية فى ذلك ملوك بنى العباس وغيرهم :

ا ـ كان أبو بكر تاجراً قبل خلافته ، فلما صار خليفة لم يغير هذا من نفسه شيئا ، بل شرع يغدو إلى السوق ، فيعامل آحاد الناس ، ويبيع ويشترى ، كأنه واحد منهم وليس حاكما عليهم ، إلى أن أشير عليه أنه لا يمكن الجمع بين الخلافة والتجارة ، وأن الواجب التفرغ إلى المسلمين ، فترك التجارة وتفرغ لهم .

ب ـ ولما ترك التجارة وتفرغ لهم رضى لنفسه من بيت المال بستة آلاف درهم فى السنة ، ينفق منها على نفسه وعياله ، وذلك يساوى الآن مائة وعشرين جنيها مصريا ، لا يرضى بها الآن كاتب صغير فى الحكومة المصرية ، بل كل الحكومات الشرقية والغربية . هذا فى حين أن ملوك الغرب والشرق فى زمانه كانت كل أموال رعاياهم وما يجبونه منهم تحت تصرفهم ، ينفقونها فى مآكلهم ومشاربهم ، وما إلى ذلك من وجوه التبذير التى لم يكن لها حد .

حـ ـ كان أبو بكر يشمل فى قسمته ما فى بيت المال ، الحر والعبد ، والذكر والأنثى ، والسابق فى الإسلام وغيره . وهذه المساواة من أسمى ما يتطلبه الاشتراكيون فى هذا العصر ، وقد راعاها أبو بكر فى حكمه قبل أن يفكروا فيها بمئات من السنين . وقد قيل له : لتقدم أهل السبق على قدر منازلهم . فقال : إنما أسلموا لله ، فوجب أجرهم عليه ، يوفيهم ذلك فى الآخرة ؛ وإنما الدنيا بلاغ .

ى ـ كان عمر بن الخطاب يتعاهد عجوزا عمياء فى بعض حواشى المدينة من الليل ، فيستقى لها ، ويقوم بأمرها . وكان كثيرا ما يأتى فيجد شخصا غيره قد سبقه إلى ذلك . فرصده عمر ليعرفه ؛ فاذا هو أبو بكر خليفة المسلمين . فقال عمر : أنت هو لَعَمْرِى .

هـ ـ ولما قربت وفاته ، أبت عليه نزعة المساواة أن يستأثر بالخلافة لأولاده . وكان له ولدان . محمد ، وعبد الرحمن ، فجعلها بعيدة عنهما ،

واختار عمر بن الخطاب ؛ لتظل من حقوق الشعب ، فلا يستأثر بها أحد المسلمين . ولو عف عنها من أتى بعده مثل عفته ماانقسم المسلمون هذا الانقسام الشنيع . وهو إذا كان قد سن بذلك لأمراء المسلمين حق اختيار من يلي بعدهم ، على خلاف مافعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد يسيء بعضهم استعماله - فلا ضرر عليه من ذلك ، إذا ما كان هو قد أحسن الاختيار ، وأتى للمسلمين بذلك الفاروق ، الذى لم ينبغ مثله فى الإسلام إلى الآن . فرحمه الله ! ماكان أعرفه بالرجال :

ومن روح المساواة :

حدث أبو الثوار بياع الكرابيس [1] : أن عليا أتاه ومعه غلام له ، فاشترى منه قميصى كرابيس ، فقال لغلامه : اختر أيهما شئت ، فأخذ أحدهما وأخذ علىٌّ الآخر ، فلبسه . ثم مدّ يده وقال : اقطع الذى يفضل من قدر يدى فقطعه وكفه ، ولبسه وذهب .

فهذه هى المساواة الصحيحة يامن تتغنون بديموقراطية الغرب ، وتنكرون على الشرق والإسلام مدنيته الحقة ، ولكنكم معذورون ؛ لأنكم لاتطالعون من تاريخ آبائكم بقدر ماتطالعون من تاريخ رجال الغرب . نسأل الله لكم الهداية والتوفيق .

(١٢) — استقلال القضاء

لما توجه على كرم الله وجهه إلى صفين افتقد درعا له ، فلما انتهت الحرب ورجع إلى الكوفة أصاب الدرع فى يد يهودى ، فقال لليهودى : الدرع درعى لم أهب ولم أبع . فقال اليهودى : درعى وفى يدى ، فقال : نسير إلى القاضى فتقدم على إلى شريح القاضى . فقال له شريح : قل ياأمير المؤمنين . فقال :

(١) الكرباس : ثوب من القطن معرب

نعم : هذه الدرع التى فى يد هـذا اليهودى درعى ولم أبع ولم أهب ، فقال شريح اليهودى : ماتقول ؟ قال : درعى وفى يدى . فقال شريح : ألك بينـة ياأمير المؤمنين ؟ قال : نعم . قنبر والحسن يشهدان أن الدرع درعى . فقال شريح : شهادة الابن لاتجوز للأب . فقال على : رجل من أهل الجنة لاتجوز شهادته !! سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . فقال اليهودى : أمير المؤمنين قدمنى إلى قاضيه ، وقاضيه قضى عليه ! أشهد أن هذا هو الحق ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله وأن الدرع درعك .

ولا غرو ، فالحق أبلج والباطل لجلج .

(١٣) - البراعة فى السياسة

كان لعبد الله بن الزبير أرض قريبة لأرض معاوية ، فيها عبيد له يعمرونها ، فدخلوا أرض ابن الزبير ، فـكتب إلى معاوية : « أما بعد فإنه يامعاوية إن لم تمنع عبيدك من الدخول فى أرضى كان لى ولك شأن ! » فلما وقف معاوية على الـكتاب دفعه إلى ولده يزيد ، فلما قرأه قال له : مارأيك ؟ قال يزيد : أرى أن ترسل إليه جيشا أوله معنا وآخره عنده ، يأتيك برأسه . فقال : عندى أحسن من ذلك ، واستدعى بدواة وقرطاس ، وكتب :

وقفت على كتابك ، يابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ساءنى والله ماساءك ، والدنيا هينة عنـدى فى جنب رضاك ، فقد كتبت على نفسى رقما بالأرض والعبيد ، وأشهدت علىَّ فيه ، ولتضف الأرض إلى أرضك والسلام »

فـكتب عبد الله :

« وقفت على كتاب أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - فلا عدم الرأى الذى أحله من قريش هذا المحل والسلام » .

فلما قرأه دفعه إلى ابنه يزيد . فلما رآه اصفر وجهه . فقال له معاوية : « يابنى إذا رميت بهذا الداء فداوه بهذا الدواء » .

(١٤) - تكريم الجيش وقائده سياسة عالية

أول من أدرك هذه السياسة العالية أبو بكر رضى الله عنه ؛ إذ خرج يشيع جيش أسامة راجلا ، وأسامة راكب . فقال له أسامة : « ياخليفة رسول الله ، لتركبن أو لأنزلن » فقال : والله لانزلت ولاأركب ، وما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله .

ومن السياسة العالية

النصيحة الآتيـة

نصح سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه قائد جيشه أسامة ، حين أرسله لغزو العدو : « لاتخونوا ، ولا تغـدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ، ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ؛ ولا تَعْقروا نخلا ، ولا تحرقوه ؛ ولا تقطعوا شجرة مثمرة ؛ ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا للأكل . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رءوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسَّيف خفقا » .

(١٥) - حيطة فى الأوامر ، واعتماد على حكمة المأمور

مما يروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدم من المدينة إلى الشام على حمار فتلقاه معاوية فى موكب نبيل ، فأعرض عنه عمر ، فجعل يمشى إلى جنبه راجلا ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل فأقبل عليه ، وقال

يامعاوية ، أنت صاحب الموكب مع مابلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك قال : نعم ياأمير المؤمنين . قال: ولم ذلك ؟ قال : لأنا فى بلاد لا تمنع الجواسيس ، ولا بد لهم مايردعهم من هيبة السلطان : فإن أمرتنى بذلك أقمت عليه ، وإن نهيتنى عنه انتهيت . قال: إن كان الذى قلت حقا فإنه رأى أريب ، وإن كان باطلا فإنها خدعة أديب ، فلا آمرك ولا أنهاك عنه .

(١٦) – فرط الحرص على الائتلاف

روى أن معاوية كتب إلى مروان والى المدينة أن يأخذ البيعة لابنه يزيد فخطب مروان فقال :

إن أمير المؤمنين رأى أن يستخلف عليكم ولده يزيد ؛ سنة أبى بكر وعمر ؛ فقام عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، فقال : بل سنة كسرى وقيصر ، إن أبا بكر وعمر لم يجعلاها فى أولادهما ، ولا فى أحد من أهل بيتهما

ثم حج معاوية سنة ٥١ هـ وأخذ البيعة لابنه ، فبعث إلى ابن عمر فتشهد وقال : أما بعد يابن عمر ، إنك كنت تحدثنى أنك لاتحب أن تبيت ليلة سوداء ليس عليك فيها أمير ، وإنى أحذرك أن تشق عصا المسلمين أو تسعى فى فساد ذات بينهم فحمد ابن عمر الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد فإنه قد كان قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك بخير من أبنائهم ، فلم يروا فى أبنائهم مارأيت فى ابنك ، ولكنهم اختاروا للمسلمين حيث علموا الخيار ، وإنك تحذرنى أن أشق عصا المسلمين ولم أكن لأفعل ، وإنما أنا رجل من المسلمين فإذا اجتمعوا على أمر فإنما أنا رجل منهم . فقال معاوية : يرحمك الله .

(١٧) – تشجيع الجهر بالحق

من مناقب الخليفة المستنصر بالله أبى جعفر – أن الوجيه القيروانى مدحه بقصيدة يقول فيها :

لو كنت فى يوم السقيفة حاضرا كنت المقدمَ والإمامَ الأروعا

فقال له قائل فى حضرته : أخطأت ؛ قد كان حاضرا العباس جد أمير المؤمنين ولم يكن المقدم إلا أبا بكر . فأقر ذلك المستنصر ، وخلع على القائل وأكرمه.

(١٨) - استماع الحاكم لنصيحة المحكوم

فمن ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج ، ويده على المعلى بن الجارود السَّعيدى ، فلقيته امرأة من قريش ، فقالت له : يا عمر . فوقف لها فقالت : كنا نعرفك مدة عميرا ، ثم صرت من بعد عمير عمر ، ثم صرت من بعد عمر أمير المؤمنين ، فاتق الله يابن الخطاب ، وانظر فى أمور الناس ؛ فإن من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ، ومن خاف الموت خشى الفوت . فقال المعلى إيهاً يا أمة الله ! فقد أبكيت أمير المؤمنين . فقال له عمر : اسكت . أتدرى من هذه ؟ هذه خولة بنت ثعلبة التى سمع الله قولها (١) من سمائه ، فعمر أحرى أن يسمع قولها ويقتدى به .

ومن ذلك ما جاء عن الأوزاعى قال : بعث إلىَّ المنصور وقال : لم أبطأت عنا ؟ قلت : وما تريد منا ؟ قال : لأستفيد منكم . فقلت له : مهلا فإن عروة ابن رويم أخبرنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ جاءَتْهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقَبِلَهَا شَكَرَ اللهُ لَهُ ذَلِكَ ، وَمَنْ جاءَتْهُ وَلَمْ يَقْبَلْهَا كَانَتْ عَلَيْهِ حُجَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » مهلا ؛ فإن مثلك لاينبغى له أن ينام . إنما جعلت الأنبياء رعاة لعلمهم بالرعية : يجبرون الكسير ، ويسمنون الهزيل ، ويردون الضالة ، فكيف بمن يسفك دماء المسلمين ويأخذ أموالهم ؟ أعيذك بالله أن تقول : إن قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم تدعوك إلى الجنة . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت فى يده جريدة يستاك بها ، فضرب بها قرن أعرابى فنزل عليه جبريل عليه السلام وقال : يا محمد ، إن الله تبارك وتعالى لم يبعثك جبارا ، موئسا ، مقنطا ، تكسر قرون أمتك ،

(١) يشير إلى قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها »

أبْعِدِ الجريدةَ من يدك . فدعا الأعرابيّ إلى القصاص من نفسه ، فكيف بمن يسفك دماء المسلمين ؟ إن الله عز وجل أوحى إلى من هو خيرٌ منك داود عليه السلام : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ » واعلم أن ثوباً من ثياب أهل النار لو عُلق بين السماء والأرض لمات أهل الأرض من نتن ريحه ، فكيف بمن يتقمصه ؟ ولو حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل من جبال الدنيا لذابت كما يذوب الرصاص حتى تنتهى إلى الأرض السابعة ، فكيف بمن تقلدها ؟

(١٩) – الصدق فى النصيحة للحاكم

حج سليمن بن عبد الملك ، فلما قدم المدينة للزيارة بعث إلى أبى حازم الأعرج وعنده ابن شهاب . فلما دخل قال : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين ؟ قال فى المخرج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا من حلها ، ولا تضعها إلا فى أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما قلدك . قال: عظنى أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك . قال : يا أبا حازم ، أشِرْ علىّ . قال : إنما أنت سوق ؛ فما نفق عندك حُمِل إليك من خير أو شر ، فاختر أيّهما شئت . قال : مالك لا تأتينا . قال : وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين ؟ إن أدنيتنى فتنتنى ، وإن أقصيتنى أخزيتنى ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندى ما أخافك عليه . قال: فارفع إلينا حاجتك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ؛ فما أعطانى منها قبلت ، وما منعنى منها رضيت .

ومما يشبه هذا من الانتفاع بالموعظة فى أى صورة صورت ما روى :

أن هرون الرشيد حبس أبا العتاهية وجعل عليه عينا ؛ ليخبره بما يقول . فرآه يوما قد كتب على الحائط :

أما والله إن الظلم لوم وما زال المسيء هو الظلوم

إلى الديان يوم الدين نمضى وعند الله تجتمع الخصوم

فعلم الرشيد بذلك ، فبكى ، وأحضره ، واستحله ، وأعطاه ألف دينار .

وما جاء عن الأصمعى من أن الرشيد صنع يوما طعاما كثيرا ، وزخرف مجالسه ، وأحضر أبا العتاهية ، فقال له : صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا . فقال :

عش ما بدا لك سالما فى ظل شاهقة القصور

فقال : أحسنت . ثم قال : ماذا ؟ فقال :

يسعى عليك بما اشتهيت لدى الرواح وفى البكور

فقال : أحسنت ثم ماذا ؟ فقال:

فإذا النفوس تقعقعت فى ظل حشرجة (١) الصدور

فهناك تعلم موقنا ما كنت إلا فى غرور

فبكى الرشيد ، وقال الفضل بن يحى : بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فحزنته ، فقال : دعه ؛ فإنه رآنا فى غمرة فكره أن يزيدنا .

(٢٠) ـ ما أحوج الحكام إلى علماء نصحاء

قال الفضل بن الربيع : حج هرون الرشيد سنة من السنين ، فبينما أنا نائم ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : أجب أمير المؤمنين . فخرجت مسرعا . فقلت : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إلى أتيتك فقال : ويحك ؛ قد جال فى نفسى مالا يخرجه إلا عالم فانظر لى رجلا أسأله عنه . فقلت : هاهنا سفيان بن عيينة ،فقال : امض بنا إليه ؛فأتيناه ، فقرعت عليه الباب فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين . فخرج مسرعا فقال :

(١) الغرغرة عند الموت وتردد النفس

يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إلىّ أتيتك ، فقال : جـد لما جئنا له . فحادثه ساعة ثم قال له : أعليك دين ؟ قال : نعم . فقال : يا أبا العباس اقض دينه ، ثم انصرفنا فقال : ما أغنى عنى صاحبك شيئا . فانظر لى رجلا أسأله . قلت : ها هنا عبد الرازق بن همام . فقال : امض بنا إليه . فقرعت عليه الباب فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إلىّ أتيتك فقال : جد لما جئنا له . فحادثه ساعة ثم قال له : أعليك دين ؟ قال : نعم ، فقال : يا أبا العباس اقض دينه ، ثم انصرفنا فقال : ما أغنى عنى صاحبك شيئا . فانظر لى رجلا أسأله : فقلت :

ها هنا الفضل بن عياض فقال : امض بنا إليه فأتيناه فإذا هو قائم يصلى فى غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يردّدها ، فقرعت عليه الباب فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين فقال : مالى ولأمير المؤمنين ؟ فقلت : سبحان الله . أما تجب عليك طاعته ؟ ففتح الباب ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بايدينا فسبقت كف الرشيد كفى إليه ، فقال : أواه من كفّ ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله تعالى ! . فقلت فى نفسى : ليُكلّمنه الليلة بكلام نقى من قلب تقى ، فقال : جد لما جئنا له رحمك الله تعالى فقال :

وفيم جئت ؟ حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شِقْصا [1] من ذنب ما فعلوا ، ولكان أشدهم حبالك أشدهم هربا منك ، ثم قال : إن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القَرظى ورجاء بن حَيْوَةَ فقال لهم : إنى قد ابتليت بهـذا البلاء فأشيروا على ، فعدّ الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة .

(١) نصيبا

فقال سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا ، وليكن إفطارك فيها على الموت ، فقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى فليكن كبيرُ المسلمين عندك أبا ، وأوسطهم عندك أخا ، وأصغرُهم عندك ولداً : فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك ،

وقال رجاء بن حَيْوَة : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى فأحبّ للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم متى شئت مت . وإنى لأقول هذا ولأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام ، فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم ؟ من يأمرك بمثل هذا ؟ ، فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشى عليه ، فقلت له : ارفق بأمير المؤمنين فقال : يابن الربيع ، قتلته أنت وأصحابك ، وأرفق به أنا ، ثم أفاق هرون الرشيد فقال : زدنى . فقال : يا أمير المؤمنين ، بلغنى أن عاملا لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه شكا إليه سهرا فكتب له عمر يقول :

يا أخى ، اذكر سهر أهل النار فى النار وخلود الأبدان ، فان ذلك يطرد بك إلى ربك نائماً ويقظان ، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك وينقطع الرجاء منك . فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه فقال له عمر : ما اقدمك ؟ فقال له : قد خلعت قلبى بكتابك لا وليت ولاية أبدا حتى ألقى الله عز وجل . فبكى هارون بكاء شديداً ثم قال زدنى قال :

يا أمير المؤمنين ، إن العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم جاء إليه فقال : يارسول الله ، أمّرنى إمارة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ياعباس ، نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها ؛ إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت ألا تكون أميرا فافعل . فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا ، ثم قال : زدنى يرحمك الله ، فقال : ياحسن الوجه أنت الذى يسألك الله عن هذا

الخلق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غش لرعيتك ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة . فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا ثم قال له : أعليك دين ؟ قال نعم : دين لربى يحاسبنى عليه فالويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن سألنى ، والويل لى إن لم يُلهمنى حجتى . فقال هرون : إنما أعنى دين العباد . قال : إن ربى لم يأمرنى بهذا ، وإنما أمرنى أن أصدق وعده وأطيع أمره ، قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » فقال له هرون : هذه ألف دينار خذها وأنفقها على عيالك وتَقَوَّ بها على عبادة ربك ، فقال : سبحان الله ! ! أنا دللتك على سبيل الرشاد تكافئنى أنت بمثل هذا سلمك الله ووفقك ، ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده . فقال لى هرون : إذا دللتنى على رجل فدلنى على مثل هذا ؛ فإن هذا صفوة الأخيار اليوم .

(٢١) — مثل أعلى فى الاقرار بالفضل لأهله

جرى بين الحسين بن على بن أبى طالب وأخيه محمد بن الحنفية رضى الله عنهما كلام فانصرفا متغاضبين فلما وصل محمد إلى منزله أخذ رقعة وكتب فيها :

(بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد بن على بن أبى طالب إلى أخيه الحسين ابن على « أما بعد » فان لك شرفا لا أبلغه ، وفضلا لا أدركه ، فاذا قرأت رقعتى هذه فالبس رداءك ونعليك وسِرْ إلىَّ فترضنى ، وإياك أن أكون سابقك إلى الفضل الذى أنت أولى به منى والسلام)

فلما قرأ الحسين رضى الله عنه الرقعة لبس رداه ونعليه ثم جاء إلى أخيه محمد فترضاه .

(٢٢) — كرامة العلم والعلماء

بعث هرون الرشيد إلى الإمام مالك يستحضره ليسمع منه ابناه : الأمين، والمأمون . فحضر كما أمر . فقال له الرشيد : يا أبا عبد الله ، ينبغى أن تختلف إلينا حتى يسمع منك صبياننا « الموطأ » . فقال مالك رضى الله عنه : أعز الله أمير المؤمنين . إن هذا العلم من بيتكم ، فإن أعززتموه عز ، وإن أذللتموه ذل ، والعلم يُؤتَى إليه ، ولا يأتى إلى أحد . فقال الرشيد : صدقت . ثم قال لابنيه : الأمين ، والمأمون : اخرجا إلى المسجد حتى تسمعا مع الناس . فقال مالك : بشرط أن يجلسا حيث ينتهى بهما المجلس. فقبل الرشيد ذلك .

(٢٣) — حسن الأدب فى الارشاد

سيدنا الحسن وسيدنا الحسين رضى الله عنهما

مرّ الحسن والحسين على شيخ كبير يتوضأ وهو لا يحسن الوضوء ، فاتفقا على إرشاد الرجل إلى ذلك ، فتحاكما إليه فى أيهما يحسن الوضوء ، وتوضأ كل منهما أمامه . فلما وجد الرجل كلا منهما يجيد الوضوء علم أنه هو الذى لا يحسنه ، فشكر لهما حسن إرشادهما ، وأعاد الوضوء بكيفية صحيحة .

(٢٤) — أحق الناس بتكريم المعلم الأمراء

كان الكسائى يؤدب الأمين والمأمون ابنى هرون الرشيد ، فأراد يوما النهوض من عندهما ، فابتدرا إلى نعله ليقدماها له ، فتنازعا أيهما يقدمها له ، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردا منها . فلما رفع الخبر إلى الرشيد وجه إلى الكسائى ، فلما دخل عليه قال له : من أعز الناس ؟ قال : لا أعلم أعز من أمير المؤمنين . قال : بلى ، إن أعز الناس من إذا نهض تقاتل

على تقديم نعله وليا عهد المسلمين حتى يرضى كل منهما أن يقدم له فردا منها ، فأخذ الكسائى يعتذر حاسبا أنه أخطأ .

فقال الرشيد : لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوما وعتبا ، ولألزمتك ذنبا ، وما وضع مافعلا من شرفهما ، بل رفع من قدرهما وبين عن جوهرهما ، ولقد تبينت مخيلة الفراسة بفعلهما ؛ فليس يكبر المرء وإن كان كبيرا عن ثلاث : تواضعه لسلطانه ، ولوالديه ، ولمعلمه . ثم قال : وقد عوضتهما مما فعلا عشرين ألف دينار ، ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما .

ومن هذا الباب ماأثر عن هرون الرشيد :

كان هرون الرشيد يتواضع للعلماء . قال أبو معاوية الضرير وكان من علماء الناس : أكلت مع الرشيد يوما ، فصب على يدى الماء رجل ، فقال لى ياأبا معاوية ، أتدرى من صب الماء على يدك ؟ فقلت : لا . يا أمير المؤمنين. قال : أنا . فقلت : ياأمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا إجلالا للعلم ؟ قال : نعم

(٢٥) ـ الاحتفاظ بكرامة العلم

مع رعاية مراسم الأدب فى حق الحكام

مالك بن أنس ، وهرون الرشيد

قال عتيق بن يعقوب الزبيرى : قدم هرون الرشيد المدينة ، وكان قد بلغه أن مالك بن أنس عنده الموطأ يقرؤه على الناس . فوجه إليه البرمكى وقال له : أقرئه السلام ، وقل له يحمل الكتاب فيقرؤه على . فأتاه البرمكى فأخبره . فقال له : أقرئه السلام ، وقل له : إن العلم يزار ولا يزور ، وإن العلم يؤتى ولا يأتى . فأتاه البرمكى فأخبره ، وكان عنده أبو يوسف القاضى فقال : ياأمير المؤمنين ، يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك بن أنس فى أمر فخالفك ! اعزم عليه . فبينماهم كذلك إذ دخل مالك بن أنس ، فسلم وجلس ؛ فقال له الرشيد : يابن أبى عامر ، أبعث إليك فتخالفنى ، فقال مالك : ياأمير

المؤمنين ، أخبرنى الزهرى عن خارجة بين زيد بن ثابت عن أبيه قال : كنت أكتب الوحى بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فكتبت : « لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ » ، وكان ابن أم مكتوم عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إنى رجل ضرير وقد أنزل الله تعالى فى فضل الجهاد ماقد علمت . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لاأدرى . وقلمى رطب ماجف حتى ثقل فخذ النبى صلى الله عليه وسلم على . ثم أغمى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يازيد ، اكتب « غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ » . يا أمير المؤمنين ، حرف واحد تعب فيه جبريل والملائكة من مسيرة خمسة آلاف عام ، ألا ينبغى لى أن أعزه وأجله ؟ وإن الله تعالى رفعك وجعلك فى هذا الموضع ، فلا تكن أنت أول من يضع عز العلم فيضع الله عزك . قال : فقام الرشيد فمشى مع مالك إلى منزله ليسمع منه الموطأ ، وأجلسه معه على المنصة . فلما أراد أن يقرأ على مالك قال لمالك تقرؤه على ؟ قال : ياأمير المؤمنين ، ماقرأته على أحد منذ زمان . قال الرشيد : فيخرج الناس حتى أقرأه أنا عليك . فقال : إن العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ينفع الله به الخاصة . فأمر أن يقرأه معن بن عيسى القزاز عليه : فلما بدأ بالقراءة قال مالك رضى الله عنه لهرون الرشيد : ياأمير المؤمنين ، أدركت أهل العلم ببلدنا وإنهم ليحبون التواضع للعلم . فنزل الرشيد عن المنصة فجلس بين يديه ! !

(٢٦) ــ إجلال مكارم الأخلاق

مما يروى عن على بن أبى طالب أنه قال : سبحان الله ! ! ماأزهد كثيرا من الناس فى الخير ! عجبا لرجل يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه أهلا للخير ، ولا يرجو ثواباً ، ولا يخاف عقابا ، وكان ينبغى له أن يسارع إلى

مكارم الأخلاق ؛ فإنها تدل على سبل النجاح ، فقام إليه رجل فقال : ياأمير المؤمنين ، أسمعته من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم : لما أتى بسبايا طيء وقفت جارية بهافقالت : يامحمد ، إن رأيت أن تخلى سبيلي ، ولا تشمت بي أحياء العرب ؛ فإني ابنة سيد قومي ، وإن أبي كان يفك العاني ويشبع الجائع ويكسو العاري ، ولا يرد طالب حاجة قط ، أنا بنت حاتم الطائي . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : خلوا عنها ؛ فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق .

(٢٧) — المروءة النادرة

لما أفضت الخلافة إلى بني العباس اختفت رجال بني أمية ، ومنهم إبراهيم ابن سليمان بن عبد الملك ، وكان رجلا عالما عاملا أديبا كاملا وهو في سن الشبيبة ، فأخذوا له أمانا من السفاح . فقال له يوما : حدثني عما مر بك في اختفائك قال : كنت مختفياً بالحيرة في منزل شارع (١) على الصحراء ، فبينما أنا على ظهر البيت إذ نظرت أعلاما سودا قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة فتخيلت أنها تريدني فخرجت من الدار متنكرا ، حتى أتيت الكوفة ولا أعرف أحداً أختفي عنده فبقيت في حيرة ، فاذا أنا بباب كبير رحبته واسعة ، فدخلت فيها فاذا رجل وسيم حسن الهيئة على فرس قد دخل الرحبة ومعه جماعة من غلمانه وأتباعه ، فقال : من أنت وما حاجتك ؟ فقلت : رجل خائف على نفسه ، وقد استجار بمنزلك ، فأدخلني منزله ، ثم صيرني في حجرة تلي حرمه ، وكنت عنده في ذلك على ما أحبه من مطعم ومشرب وملبس لا يسألني عن شيء من حالي ؛ إلا أنه يركب في كل يوم ركبة فقلت له يوما : أراك تدمن الركوب ففيم ذلك ؟ قال :

---

(١) على طريق نافذ

إبراهيم بن سليمان قتل أبى صبرا ؛ وقد بلغنى أنه مختف فأنا أطلبه لأدرك منه ثأرى . فكثر والله تعجبى ، وقلت : القدر ساقنى إلى حتفى فى منزل من يطلب دمى ، وكرهت الحياة . فسألت الرجل عن اسمه واسم أبيه ، فأخبرنى ، فعلمت أن الخبر صحيح ، وأنا الذى قتلت أباه . فقلت له : ياهذا ، قد وجب على حقك ، ومن حقك أن أدلك على خصمك ، وأقرب إليك الخطوة . قال : وماذاك ؟ قال : أنا إبراهيم بن سليمان قاتل أبيك ، فخذ بثأرك . فقال : إنى أحسبك رجلا قد مضهُ الاختفاء ، فأحببت الموت . فقلت لا . والله ، ولكن أقول لك الحق : يوم كذا وكذا .

فلما علم صدقى تغير لونه واحمرت عيناه وأطرق مليا ، ثم قال : أما أنت فستلقى أبى عند حكم عدل فيأخذ بثأره ، وأما أنا فغير مُخفر ذمتى فاخرج عنى ؛ فلست آمن عليك من نفسى ، وأعطانى ألف دينار ، فلم آخذها منه ، وانصرفت عنه . فهذا أكرم رجل رأيته بعد أمير المؤمنين .

(٢٨) — مثل صادق فى المروءة

كان عمر بن الخطاب بمنى ، فعطش ، فانتهى إلى عجوز فاستسقاها ماء ، فقالت : ماعندنا . فقال : لبنا . فقالت : ماعندنا . فبدرت جارية فقالت لها تكذبين وماتستحين ! ثم قالت لعمر : هذا السقاء فيه لبن . فسأل عمر عن الجارية ، فإذا أبوها ثقفى . فخطبها على عاصم بن عمر ، فزوجها منه . فولد له منها أم عاصم . فتزوجها عبد العزيز بن مروان . فولدت له عمر بن عبد العزيز بن مروان رحمة الله عليه .

(٢٩) — سخاء عثمان بن عفان فى سبيل الاسلام

لم يكن عثمان رضى الله عنه فتى حرب وجلاد ، وقليل فى أرباب الجمال من يكون رجل حرب وجلاد . ولكنه كان المحسن الكبير ، المضحى فى الاسلام

بماله الغزير ، وله فى ذلك مواقف تفوق الحرب والضرب . منها موقفه فى غزوة تبوك ، وقد تجهز النبى صلى الله عليه وسلم لحرب الروم ؛ وهم ذلك الشعب القوى الحاكم على ممالك لاتحصى فى الشرق والغرب ، وكان المسلمون وقتها فى عسر وضيق شديد ؛ ولذلك سمى جيشها « جيش العسرة » وهنا ظهر كرم عثمان ؛ وأين منه كرم حاتم ؟ فجهز نصف الجيش من ماله ، وكان الجيش ثلاثين ألفا . فتصدق بعشرة آلاف دينار ، وأعطى ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، وخمسين فرسا ، بل فى رواية أخرى : إن الجمال كانت تسعمائة ، والخيل كانت مائة .

وقد أثر هذا الكرم العظيم فى النبى صلى الله عليه وسلم أيما تأثير ، حتى رئى من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعا يديه الكريمتين يدعو لعثمان ويقول : اللهم ، عثمان رضيت عنه ، فارضَ عنه .

(٣٠) — مثل عال فى السخاء وتفريج الكرب

عن ابن عباس قال : قحط الناس فى زمان أبى بكر . فقال أبو بكر : لا تمسون حتى يفرِّج الله عنكم . فلما كان من الغد جاء البشير إليه قال : قدمت لعثمان ألف راحلة بُراً وطعاماً . قال : فغدا التجار على عثمان ، فقرعوا عليه الباب ، فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه . فقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : قد بلغنا أنه قدم لك ألفُ راحلة بُراً وطعاماً ؛ بِعْنَا حتى نوسع به على فقراء المدينة : فقال لهم عثمان : ادخلوا . فدخلوا ، فإذا ألف وِقْر قد صُبَّ فى دار عثمان . فقال لهم : كم تربحونى على شرائى من الشام ؟ قالوا : العشرة اثنا عشر . قال : قد زادونى . قالوا : العشرة أربعة عشر . قال قد زادونى . قالوا : العشرة خمسة عشر قال : قد زادونى . قالوا : من زادك ونحن تجار المدينة ؟ قال : قد زادنى الله لكل درهم عشرة ، فهل عندكم زيادة ؟ قالوا : لا . قال : فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة .

(٣١) — سخاء الزبير بن العوام والثقة المالية به

حسن حال الزبير فى الإسلام ، وأثرى إثراء عظيما . فكان له ألف مملوك يؤدون له الخراج ، فما يدخل إلى بيته منه درهم ، بل يتصدق به كله . وكان موضع ثقة أصحاب الرسول ، حتى إن كثيراً منهم : كعثمان ، وابن عوف ، والمقداد ، وابن مسعود ـ أوصوا إليه بعد وفاتهم . فكان يسهر على مصالح ورثتهم ، ويحفظ لهم أموالهم . ولهذه الآثار الجليلة ، والخصال الحميدة التى تحلى بها ـ مدحه حسان بن ثابت شاعر الرسول ، ففضله على الجميع حيث يقول فيه :

أقام على عهد النبى وهديه ... حواريه والقول بالفعل يعدل
أقام على منهاجه وطريقه ... يوالى ولى الحق ، والحق أعدل
هو الفارس المشهور والبطل الذى ... يصول ، إذا ما كان يوم محجّل
وإن امرأ كانت صفية أمّه ... ومن أسد فى بيته لمرفل (١)
له من رسول الله قربى قريبة ... ومن نصرة الإسلام مجد مؤثل
فكم كربة ذَبّ الزبير بسيفه ... عن المصطفى والله يعطى ويجزل
إذا كشفت عن ساقها الحرب حشها ... بأبيض سباق إلى الموت ، يرقل (٢)
فما مثله فيهم ، ولا كان قبله ... وليس يكون الدهر ما دام يذبل (٣)

(٣٢) — مثل فى الجود والكرم

أتى رجل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، فقال : يابن عباس ، إن لى عندك يداً ، وقد احتجت إليها . فصعّد فيه بصره وصوّبه ، فلم يعرفه . ثم قال له : ما يدك عندنا ؟ قال : رأيتك واقفاً بزمزم ، وغلامك يمتح (٤) لك من مائها ، والشمس قد صهرتك ، فظلّلتُك بطرف كسائى حتى شربت . قال :

(١) مؤمر (٢) يرقل : يسرع (٣) اسم جبل (٤) يخرج

إنى لأذكر ذلك ؛ وإنه يتردد بين خاطرى وفكرى . ثم قال لقيمه : ما عندك؟ قال : مائتا دينار ، وعشرة آلاف درهم . قال : ادفعها إليه ، وما أراها تفى بحق يده عندنا . فقال الرجل : والله لو لم يكن لإسمعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه .

(٣٣) - إعطاء السائل ولو كان ظاهره الغنى

كان أحمد بن طولون كثير الصدقة ، وكان راتبه منها فى الشهر ألف دينار سوى ما يطرأ عليها من نذر أو صلة وسوى ما يطبخ فى دار الصدقة ، وكان الموكل بصدقته سليم الخادم ، فقال له سليم يوما : أيها الأمير ، إنى أطوف القبائل وأدق الأبواب لصدقاتك ، وإن اليد تمد إلى ، وربما كان فيها الخاتم الذهب والسوار الذهب أفأعطى أم أرد ؟ فأطرق طويلا ، ثم قال : كل يد امتدت إليك فلا تردها .

(٣٤) - مثل فى علو الهمة

كان الأرقم بن أبى الأرقم عظيم الهمة ، كبير النفس ، ذا مروءة وكرم . فلما رأى إخوانه مشتتين منتشرين فى مكة ، لا يجدون مكانا يجتمعون فيه بالنبى صلى الله عليه وسلم ؛ ليعرفوا منه أحكام الدين الجديد الذى ملك عليهم نفوسهم ، وحلا لهم ذوق العذاب فى سبيله - قدم لهم داره ؛ وكانت فى أصل الصفا ، فكانت نادى هؤلاء الشبان ، والمعهد الأول الذى تلقوا فيه الدروس الدينية عن النبى عليه السلام ، وسمعوا مواعظه الشريفة ، وأخبار من سبقهم من الأنبياء وما لاقى أتباعهم من عذاب واضطهاد ، ودرسوا آثار الخالق فى الأرض والسموات ، فعرفوا بهذا كثيرا من مسائل العلوم الطبيعية والرياضية مع العلوم الدينية وغيرها . وكانت مدة الدراسة فيه أربع سنين ، عرفوا فيها تلك العلوم ، وطرق الدعوة والتبشير بهذا الدين الجديد . وكان من خريجى

هذا المعهد الأرقمي أبطال بدر ، وأحد ، وحنين ؛ والقواد الذين دوخوا ممالك الفرس والروم : كسعد ، والزبير ، وأبي عبيدة . وكان منهم السياسيون المحنكون الذين بذوا رجال السياسة في عصرهم : كأبي بكر ، وعمر . وكان منهم العلماء النابغون الذين وضعوا أساس العلوم والمعارف لمن أتى بعدهم من علماء المسلمين : كعبد الله بن مسعود . فلو لم يكن لفتانا الأرقم إلا هذه الدار التي جعلها معهدا لهؤلاء الشبان ، وكانت هذه آثارها ـ لكفاه بها شرفا وفضلا . وقد شهد مع الرسول غزوة بدر ، ثم استعمله على الصدقات . وعاش إلى سنة ٥٥ هجرية .

(٣٥) ـ مثل جليل في علو الهمة

لما هاجر عبد الرحمن بن عوف آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع . فقال له سعد : إن لي مالا ، فهو بيني وبينك شطران ولي امرأتان ، فانظر أيهما أحببت حتى أخلعها . فقال له : لا حاجة لي في أهلك ومالك ، بارك الله لك فيهما . دلني على السوق . وتاجر الفتى ، فأثرى في الإسلام إثراء عظيما . وقدم له مرة سبعمائة بعير تحمل البُرَّ ، والدقيق ، والطعام ؛ فلما دخلت المدينة سمع لأهلها رجة ، فتصدق بها وبما تحمل في سبيل الله . وتصدق على عهد رسول الله بشطر ماله أربعة آلاف ، ثم تصدق بأربعين ألفا ، ثم تصدق بأربعين ألف دينار ، ثم حمل على خمسمائة فرس وخمسمائة راحلة في سبيل الله ، وأوصى بخمسين ألف دينار في سبيل الله ولمن يبقى ممن شهد بدرا ، لكل رجل أربعمائة دينار ، فكانوا مائة رجل . وخلف بعد وفاته مالا عظيما من ذهب ، قطع بالفئوس حتى مَجِلت منه أيدي الرجال . وكان له أربع نسوة صُولِحَتْ واحدة منهن على ثمانين ألفا .

فهذا صاحب رسول الله ومقدار جمعه للمال ؛ فلينظر أولئك الذين يزهدون المسلمين في جمع المال ، حتى أصبحوا أفقر خلق الله في بلادهم ، وصاروا

بعد الفقر يمدون أيديهم إلى الأجانب ؛ ليأخذوا منهم المال بالربا الذى حرّمه الله عليهم .

ومن علو همته وشرف نفسه ما فعله حينما أدخله عمر فى الستة الذين اختارهم لِيلىَ الخلافة بعده واحدٌ منهم ؛ فإنه جمعهم ، وعرض عليهم أن يخرج كل واحد منهم نفسه منها ويختار للمسلمين ، فلم يجيبوه إلى ذلك . فقال : أنا أخرج نفسى من الخلافة وأختار للمسلمين . فما أكبر تلك النفس ! وما أعلى همتها ! لو كانت كل النفوس على غِرارها ما تقاتلت على الخلافة وفرقت كلمة المسلمين . وقد مات رحمه الله سنة ٣١ هجرية .

(٣٦) — مثل آخر فى علو الهمة

خرج العباس وأهل بيته يريدون الكوفة ؛ ليظهروا بها ويظهروا أمرهم فقابله داود وقال له : يا أبا العباس تأتى الكوفة وشيخ بنى أمية مروان بن محمد بحران مطل على العراق فى أهل الشام والجزيرة ، وشيخ العرب يزيد بن هبيرة فى العراق فى جند العرب فقال : يا أعمى ، من أحب الحياة ذل ، ثم تمثل بقول الأعشى :

فما ميتة إن متها غير عاجز بعار إذا ما غالت النفس غولها

(٣٧) — مثل فى علو الهمة

حكى أن رجلا من الشيعة كان يسعى فى فساد الدولة ، فجعل المهدى لمن دل عليه أو أتى به مائة ألف درهم ، فأخذه رجل من بغداد ، فأيس من نفسه فمر به معن بن زائدة ، فقال له : يا أبا الوليد ، أجرنى أجارك الله . فقال معن للرجل : مالك وماله ؟ فقال : إن أمير المؤمنين طالبه قال : خل سبيله قال : لا أفعل . فأمر معن غلمانه ، فأخذوه غصبا ، وأردفه بعضهم خلفه ومضى الرجل ، فأخبر أمير المؤمنين المهدى بالقصة ، فأرسل خاف

معن ، فأحضره ، فلما دخل عليه قال له : يامعن أتُجير عليّ ؟ قال : نعم . ياأمير المؤمنين ، قتلت فى طاعتكم عددا كبيرا ، فما ترونى أهلا لأجير رجلا واحدا استجار بى ؟ فاستحيا المهدى وأطرق طويلا ، ثم رفع رأسه وقال : قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد قال : إن رأى أمير المؤمنين أن يصل من استجار بى فيكون قد أجاره وحباه قال : قد أمرت له بخمسين ألف درهم . فقال معن : يا أمير المؤمنين ، ينبغى أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية ، وإن ذنب الرجل عظيم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُجزل صلته فليفعل قال : قد أمرت له بمائة ألف درهم . فرجع معن إلى منزله ودعا بالرجل ودفع له المال ووعظه وقال له : لا تتعرض لمساخط الخلفاء ،

(٣٨) – الوفاء بالوعد

لما أُتِىَ عمر بن الخطاب بالهرمزان أسيراً دعاه إلى الإسلام ، فأبى عليه ، فأمر بقتله . فلما عرض عليه السيف قال : لو أمرت يا أمير المؤمنين بشربة من ماءٍ فهو خيرٌ من قتلى على الظمأ . فأمر له بها فلما صار الإناء فى يده قال : أنا آمن حتى أشرب ؟ قال : نعم . فألقى الإناء من يده وقال : يا أمير المؤمنين ، الوفاء نور أبلج . قال : لك التوقف حتى أنظر فى أمرك . فلما رفع عنه السيف قال : الآن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . فقال له عمر : ويحك ! أسلمت خير إسلام فما أخرك ؟ قال : خشيت يا أمير المؤمنين أن يقال : إن إسلامى إنما كان جزعا من الموت . فقال عمر : إن لفارس حلوماً بها استحقت ما كانت فيه من الملك .

ثم كان عمر رضى الله عنه يشاوره بعد ذلك فى إخراج الجيوش إلى أرض فارس ويعمل برأيه .

(٣٩) – آية الوفاء والمحافظة على الكرامة

قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب حين أيقن بزوال ملكه : قد احتجت إلى أن تصير مع عدوى ، وتظهر الغدر بى ؛ فإن إعجابهم بأدبك ،

وحاجتهم إلى كتابتك تدعوانهم إلى حسن الظن بك . فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى ، وإلا لم تعجز عن نفع أسرتى بعد مماتى . فقال عبد الحميد : إن الذى أمرت به أنفع الأشياء لك وأقبحها بى ، وما عندى غير الصبر معك حتى يفتح الله عليك ، أو اقتل معك ! !

(٤٠) — مثل نبيل فى المكافأة

أخرج البيهق من طريق الحسن بن حبيب قال : سمعت الربيع يقول : رأيت الشافعى ركب حماراً ، فمر على سوق الحذائين ، فسقط سوطه من يده . فوثب غلام من الحذائين ، فمسح السوط بكمه ، وناوله إياه . فقال الشافعى لغلامه : ادفع تلك الدنانير التى معك لهذا الفتى . قال : ما أدرى إن كانت تسعة أم سبعة .

(٤١) - توفية الناس حقوقهم

عن أبى مطر البصرى : أنه شهد عليا أتى أصحاب التمر وجارية تبكى عند التمار ، فقال : ماشأنك ؟ قالت : باعنى تمرا بدرهم ، فرده مولاى ، فأبى أن يقبله . فقال : ياصاحب التمر ، خذ تمرك وأعطها درهمها ، فانها خادم ،وليس لها أمر . فدفع عليا . فقال المسلمون : تدرى من دفعت ؟ قال : لا . قالوا : أمير المؤمنين . فصب تمرها وأعطاها درهمها ، وقال : أحب أن ترضى عنى فقال : ما أرضانى عنك إذا أوفيت الناس حقوقهم !!

(٤٢) - المعاونة وحسن الجوار

كان سعيد بن العاص يحب مساعدة غيره ومعاونته ، فأراد جاره ابن أبى الجهم أن يبيع داره ، فأعطاه المشترى فيها مائة ألف درهم . فقال ابن أبى الجهم : وبكم تشترى جوار سعيد ؟ فقال المشترى : مارأيت جوارا يباع ! فرجع ابن

أبى الجهم عن البيع وقال : لاأدع جوار رجل يحب معاونتى : إن غبت سأل عنى ، وإن رآنى رحب بى ، وإن سألته أعطانى ، وإن لم أسأله ابتدأنى بالعطاء، فلما بلغ ذلك سعيدا بعث إليه بالثمن وأبقاه فى داره .

(٤٣) - مثل رائع فى القيام بحقوق الجوار

إن أبا حنيفة رضى الله عنه كان له جار إسكاف يعمل نهاره ، فاذا رجع إلى منزله ليلا تعشى ثم شرب . فاذا دب الشراب فيه غنى وقال :

أضاعونى، وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ولا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم ، وأبو حنيفة يسمع صوته كل ليلة . وكان أبو حنيفة يصلى الليل كله ، ففقد أبو حنيفة صوته . فسأل عنه . فقيل : أخذه العسس منذ ليال . فصلى أبو حنيفة الفجر من غده ثم ركب بغلته وأتى إلى دار الأمير ، فاستأذن عليه ، فقال : ائذنوا له ، وأقبلوا به راكبا ، ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط . ففعل به ذلك ، فوسع له الأمير من مجلسه وقال : ماحاجتك ؟ فقال : أشفع فى جارى . فقال الأمير : أطلقوه وكل من أُخِذَ فى تلك الليلة ، فأطلقوهم أيضا ، وذهبوا . وركب أبو حنيفة بغلته ، وخرج الاسكاف يمشى وراءه . فقال له أبو حنيفة : يافتى ، هل أضعناك ؟ فقال : بل حُفِظْتُ ورُعِيت . جزاك الله خيرا عن حرمة الجوار

(٤٤) — مقابلة الاساءة بالاحسان

لما فعل المشركون بالنبى عليه السلام مافعلوا يوم أحد ، وطلب منه أن يدعو عليهم - قال : اللهم ، اغفر لقومى؛ فانهم لا يعلمون . وحسبك فى هذا الباب مافعله مع مشركى قريش الذين آذوه واستهزءوا به وأخرجوه من دياره وأصحابه ، ثم قاتلوه وحرضوا عليه غيرهم من مشركى العرب ، حتى

تمالأ عليه جمعهم ، ثم لما فتح الله عليه مكة مازاد عن أن عفا وصفح ، وقال: ماتقولون أنى فاعل بكم؟ قالوا : خيرا ؛ أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وعن أنس كنت مع النبي عليه السلام وعليه بُرْدٌ(١) غليظ الحاشية ، فجذبه أعرابى بردائه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد فى صفحة عنقه ثم قال : يامحمد ، احمل لى على بعيرىَّ هذين من مال الله الذى عندك ؛ فإنك لاتحمل لى من مالك ولا من مال أبيك . فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال : ويقاد منك ياأعرابى مافعلت بى . قال : لا . قال : لِمَ ؟ قال : لأنك لاتكافىء بالسيئة السيئة !! فضحك عليه السلام ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر .

(٤٥) — الاحسان إلى المسىء أسمى ضروب الأخلاق

خرج زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنه إلى المسجد ، فسَبَّه رجل ، فقصده غلمانه ليضربوه ويؤذوه ، فنهاهم زين العابدين وقال لهم : كفوا أيديكم عنه . ثم التفت إلى ذلك الرجل وقال : ياهذا ، أنا أكثر مما تقول ، ومالاتعرفه منى أكثر مماعرفته ، فإن كان لك حاجة فى ذكره ذكرته لك . فخجل الرجل واستحيا . فخلع عليه زين العابدين قميصه ، وأمر له بألف درهم . فمضى الرجل وهو يقول : أشهد أن هذا الشاب ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٤٦) — مثل رائع من أمثلة مقابلة الاساءة بالاحسان

حكى أن المأمون أشرف يوما على قصره ، فرأى رجلا يكتب بفحمة على حائط قصره . فقال المأمون لبعض خدمه : اذهب إلى ذلك الرجل ، فانظر

(١) البرد : ثوب مخطط

ما كتب ، وأتنِي به. فبادر الخادم إلى الرجل مسرعا ، وقبض عليه ، وقال : ما كتبت ؟ فإذاهو قد كتب بيتين أولهما :

ياقصر ، جمع فيك الشؤم واللوم   متى يعشش فى أركانك البوم ؟

ثم إن الخادم قال له : أجب أمير المؤمنين . فقال الرجل : سألتك بالله لاتذهب بى إليه . فقال الخادم : لابد من ذلك . ثم ذهب به فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين ، وأعلم بما كتب ، قال له المأمون : ويلك ! ماحملك هذا فقال : ياأمير المؤمنين ، إنه لايخفى عليك ماحواه قصرك هذا من خزائن الأموال ، والحلى والحلل ، والطعام والشراب ، والفرش والأوانى ، والأمتعة ، والجوارى ، والخدم ، وغير ذلك مما يقصر عنه وصفى ، ويعجز عنه فهمى ؛ وإنى قد مررت عليه الآن وأنا فى غاية الجوع والفاقة ، فوقفت مفكرا فى أمرى ، وقلت فى نفسى : هذا القصر عامر عال ، وأنا جائع ولا فائدة لى فيه ؛ فلو كان خرابا ومررت به لم أعدم رخامة أو خشبة أو مسمارا أبيعه وأتقوت بثمنه . أوماعلم أمير المؤمنين رعاه الله قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء فى دولةامرىء   نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وماذاك من بغض له ، غير أنه   يرجّى سواها ، فهو يهوَى انتقالها

فقال المأمون : ياغلام ، أعطه ألف درهم . ثم قال : هى لك فى كل سنة مادام قصرنا عامرا بأهله مسرورا بدولته . وأنشدوا فى معنى ذلك :

إذا كنت فى أمر فكن فيه محسنا   فعما قليل أنت ماض وتاركه
فكم دحت الأيام أرباب دولة   وقد ملكوا أضعاف ماأنت مالكه

(٤٧) — صفح وأريحية

مما يحكى أنه كان بين غسان بن عباد وبين على بن عيسى عداوة عظيمة ، وكان الأخير ضامنا أعمال الخراج والضياع ببلده ، فبقيت عليه بقيةمقدارها

أربعون ألف دينار ؛ فألح المأمون عليه بطلبها وأمهله ثلاثة أيام : فإن أحضر المال وإلا يضرب بالسياط حتى يؤديه أو يتلف . فانصرف عليٌ من دار المأمون آيسا من نفسه ، وهو لايدرى وجها يتجه إليه ، فدله كاتبه على غسان بن عباد فقال له : على ماييني وبينه من العداوة ؟ فقال : نعم ؛ فإن الرجل أريحى كريم .

فلما دخل على غسان تلقاه بالجميل ، وقال له : إن دخولك إلى دارى له حرمة توجب بلوغ مارجوته منى مع مابيننا من العداوة ، فاذكر حاجتك . فقص عليه قصته ، فقال : أرجو أن يكفيكه الله تعالى ، ولم يزد على ذلك شيئا ، فنهض على وخرج آيسا نادما على قصده ، غير أنه لم يصل إلى داره حتى حضر إليه كاتب غسان ومعه المال وسلمه إليه ، فأخذه وأسرع إلى دار المأمون ، فوجد غسان قدسبقه إليها ودخل على الخليفة ، وقال: ياأمير المؤمنين إن لعلى ابن عيسى بحضرتك حرمة وخدمة ، وقد لحقه من الخسران فى ضمانه ماتعارفه الناس ، وقد توعدته بما أطار عقله ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يخفف عنه بعض ماعليه فهى صنيعة ومنة . ولم يزل يتلطف به إلى أن حط عنه النصف ، فقال غسان : على أن يشرفه أمير المؤمنين بخلعة تقوى نفسه، ويعرف بها مكان الرضا عنه .

فأجابه المأمون إلى ذلك ، وخرج على بالخلعة ، ولما وصل إلى داره أرسل إلى غسان عشرين ألف دينار وشكره على جميع فعله معه ، فرفض غسان قبول المبلغ ، وقال لكاتبه : إنى لم أشفع له عند أمير المؤمنين إلا لتوفر عليه وينتفع بها . فعلم عيسى فضل غسان عليه ، فلم يزل يخدمه إلى آخر العمر .

(٤٨) – كرم وعفو

يحكى عن معن بن زائدة أنه أتى بجملة من الأسرى فعرضهم على السيف، فقال له بعضهم : أصلح الله الأمير ، نحن أسراك ، وبنا جوع وعطش فلا

تجمع علينا الجوع والعطش والقتل. فأمر لهم بطعام وشراب فأكلوا وشربوا ومعن ينظر إليهم، فلما فرغوا قال الرجل: أصلح الله الأمير. كنا أسراك، ونحن الآن أضيافك، فانظر ماتصنع بأضيافك. قال: قد عفوت عنكم. فقال الرجل: أيها الأمير، ماندرى أى يوم أشرف: يوم ظفرك بنا أو يوم عفوك عنا؟ فأمر لهم بمال وكسوة.

(٤٩) — جود ونبل فى العطاء

حكى الأصمعى قال: كان سعيد بن العاص يسمر ومعه سماره إلى أن ينقضى حين من الليل، فانصرف عنه القوم ليلة ورجل قاعد لم يقم، فأمر سعيد باطفاء الشمعة، وقال: ماحاجتك يافتى؟ فذكر أن عليه ديناً أربعة آلاف درهم، فأمر له بها، وكان إطفاؤه للشمعة أكثر من عطائه.

(٥٠) — غرس الشجاعة المعنوية فى قلوب الرعية

سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم

جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فأصابته رعدة؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم: (هَوِّنْ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ القَدِيدَ [1]).

(٥١) — مثل رائع فى التفدية

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حافياً لحفى. فحمله أبو بكر رضى الله عنه على كاهله حتى انتهى إلى الغار. فلما أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يدخل الغار قال أبو بكر: والذى بعثك بالحق نبياً لا تدخله حتى أدخل فأسبره

(١) اللحم القديد: المشرح طولا

قبلك . فدخل أبو بكر رضى الله عنه فجعل يلتمس بيده الغار فى ظلمة الليل ؛ مخافة أن يكون فيه شىء ، يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم . فلما لم ير فيه شيئا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الغار

وروى أن أبا بكر رضى الله عنه ، رأى فى الغار أجحاراً متعددة ، فصار يقطع ثوبه ويسد به الأجحار ؛ فبقى جحر لم يفضل له شىء من الثوب ، فجلس قريباً منه ، ووضع عقبه عليه وسدّه ، فجعلت الحيات والأفاعى تضربه وتلسعه ، فصارت دموعه تنحدر ، وكان النبى قد نام وجعل رأسه فى حجره ، فصار يتجلد ولا يوقظه ، فسقطت دموعه على وجه النبى ، فتنبه ، فقال : مالك ؟ قال : لدغت . فَتَفل عليه ، فذهب ما يجده . فلما أصبح سأله النبى عن ثوبه ، فأخبره الخبر ، فتوجه ودعاله وقال : « اللهم ، اجعل أبا بكر معى فى درجتى فى الجنة . فنودى : إنه قد استجيب لك »

(٥٢) — روح التفدية

لسيدنا علىّ مواقف عظيمة فى نصرة الاسلام : منها موقفه حين عزم النبى عليه السلام على الهجرة إلى المدينة التى وجد فيها أنصارا له ، وعزمت قريش على منعه أو قتله ، لتنتهى من أمره ، وقد عزم على الهجرة خفية فى ليلة من الليالى ، وأن يختار من الشبان الذين آمنوا به شاباً ينام على فراشه حتى لا تعلم قريش فتطلبه قبل أن يبعد عن مكة ، فقدم سيدنا علىّ نفسه لهذه التفدية ، وهو يعرف أن قريشاً عازمة على اغتيال النبى ، وقد تنفذه فيه فتقتله بدله ، فنام الفتى مكان ابن عمه الذى خرج من بلده ، كما خرج موسى من مصر خائفاً يترقب ، وتم للنبى صلى الله عليه وسلم ما أراد ، فكانت قريش تنظر طول الليل ، فترى عليا نائماً على فراشه ، فتظنه هو وتطمئن ، حتى إذا أصبحوا رأوه عليا ، فقالوا : لو خرج محمد لأخذ عليا معه ، وهكذا

تمت الحيلة ، وأفلت النبى منهم بفضل الله وتفدية علىّ رضى الله عنه .

ومنها موقفه فى فتح خيبر ، وقد تعذرت حصونها القوية على المسلمين ، ولم يكن للعرب عهد بفتح الحصون ، فما أن سير النبى إليها عليا حتى تغلبت شجاعته عليها مع أنه كان فى ذلك الوقت يشتكى عينيه .

ومنها موقفه فى غزوة الخندق وقد أحاطت قريش ومن انضم إليها بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم ، وخرج عمرو بن ود فارس العرب المشهور ، فقال : من يبارز ؟ فقال على : أنا له يا نبى الله . فقال النبى : اجلس ، فإنه عمرو ابن ود . ثم كرر عمرو النداء ، وجعل يوبخ المسلمين ويقول : أين جنتكم التى تزعمون أن من قتل منكم دخلها ؟ فقال على : أنا له يا نبى الله . فقال له : اجلس ؛ فانه عمرو بن ود . ثم نادى عمرو الثالثة ، فقال على : أنا له يا رسول الله . فقال له : إنه عمرو بن ود . فقال على : وإن كان عمرا ، فأذن له . فلما رآه عمرو قال له : من أنت ؟ فقال : على . فقال : ابن أبى طالب ؟ قال : نعم . فقال : غيرك يابن أخى من أعمامك من هو أشد منك ، وإنى أكره أن أريق دمك . فقال على : وأنا والله ما أكره أن أريق دمك . فلما سمع ذلك ذلك عمرو غضب ، وكان راكباً فرسه ، وعلىٌّ واقف على قدمه ، فقال له : كيف أقاتلك وأنت على فرسك ؟ ولكن انزل معى . فنزل عمرو وسل سيفه كأنه شعلة نار ، فعقر فرسه ، وضرب وجهه ، وأقبل على سيدنا على ، فاستقبله بِدَرَقَتِهِ ، فضربه عمرو فيها فقدها وأثبت فيها السيف ، وأصاب رأس على فشجه ، وهنالك ضربه على رضى الله عنه على حبل عنقه فسقط قتيلا ، وكبر المسلمون فرحا بذلك ، ورجع على إلى رسول الله وهو متهلل . فقال له : كيف وجدت نفسك معه ؟ فقال : وجدته لو كان أهل المدينة فى جانب وأنا فى جانب لقدرت عليهم .

(٥٣) – روح التفدية أيضا

وقف طلحة بن عبيد الله فى غزوة أحد موقفاً جليلا ، وأبلى فيها بلاء عظيما ، ووقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، واتقى عنه النبل بيده حتى شلت أصبعه ، ولما وقع رسول الله فيما كان هناك من حفر حمله على ظهره حتى صعد صخرة كانت هناك ، وأصابه فيها نيف وسبعون جراحة : من طعنة ، وضربة ، ورمية . ونزف به الدم حتى غُشِيَ عليه ، ورش أبو بكر رضى الله عنه وجهه بالماء حتى أفاق ، فلم يكن همه إلا رسول الله ، فسأل عنه أبا بكر ، فقال له : هو بخير ، وهو أرسلنى إليك ، فقال : « الحمد لله ؛ كل مصيبة بعده جلل (١) وقليلة » فهذا ما قدمه من نفسه فى تلك الغزوة التى نكب فيها المسلمون ، وأما ما قدمه من ماله فبلغ سبعمائة ألف درهم ، وكذلك أنفق من ماله فى غزوة تبوك حتى سماه المصطفى عليه السلام : « طلحة الفياض » .

(٥٤) – قدوةٌ حسنة فى الحلم والاحتمال

شتم رجلٌ أبا حنيفة وهو فى درسه وأكثر ، فما التفت إليه ، ولا قطع كلامه ، ونهى أصحابه عن مخاطبته . فلما فرغ وقام تبعه إلى باب داره . فقام على بابه وقال للرجل : هذه دارى ، إن كان بقى معك شىء فأَتِمَّه حتى لا يبقى فى نفسك شىء . فاستحيا الرجل .

وفى قصة أخرى أنه تبعه ، فلما دخل جعل يسب ويشتم فلم يجبه أحد . فقال : أتعدونى كلباً ؟ فقيل من داخل الدار : نعم .

---

(١) الجلل : العظيم والصغير ضد

(٥٥) — فَوقٌ فى الحِلم

كان عروة بن الزبير إذا أسرع إليه رجل بشتم أو قول سيّء لم يجبه ، رفعا لنفسه عنه . فجرى بينه وبين على بن عبد الله كلام فأسرع إليه . فقال له على : خفّض عليك أيها الرجل ؛ فانى أتركك اليوم لما كنت تترك له الناس .

(٥٦) — الصفح الجميل

ا — حكى عن المأمون أنه قال ليحيي بن أكثم يوما : سر بنا نتفرّج . فسارا . فبينما هما فى الطريق وإذا بمقصبة خرج منها رجل بقصبة للمأمون يتظلم له . فنفرت دابته منه فألقته على الأرض صريعا . فأمر بضرب ذلك الرجل . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه ، ويتجاوز الأدب وهو كاره لتجاوزه ، ولو أحسنت الأيام مطالبتى لأحسنت مطالبتك ، ولأنت على رَد مالم تفعل أقدر منى على رَدّ ما قد فعلت . فبكى المأمون وقال : بالله أعد علىّ ما قلت . فأعاده . فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكثم وقال : أما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل بأصغريه ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : المرء بأصغريه : قلبه ، ولسانه . والله لا وقفت لك إلا وأنا قائم على قدمى . فوقف ، وأمر له بصلة جزيلة ، واعتذر إليه . فلما همّ المأمون بالانصراف قال الرجل : يا أمير المؤمنين ، بيتان قد حضرانى ثم أنشد :

ما جاء بالوفر إلا وهو معتذرٌ ولا عفا قطُّ إلا وهو مقتدرُ
وكلما قصدوه زاد نائلهُ كالنار يؤخذ منها وهى تستعرُ

ب — كان معن بن زائدة قد أمر بقتل جماعة من الأسرى : فقام إليه أصغر القوم ، فقال له : يا معن ، أتقتل الأسرى عطاشا ؟ فأمر لهم بالماء . فلما سُقوا قال : يا معن ، أتقتل ضيفانك ؟ فأمر معن بإطلاق سراحهم .

(٥٧) — مثل حسن فى التلطف بالعمال

حدث سليمان الوراق قال : ما رأيت أعظم حلما من المأمون ! دخلت عليه يوما وفى يده فص مستطيل من ياقوت أحمر له شعاع قد أضاء له المجلس وهو يقلبه بيده ويستحسنه ؛ ثم دعا برجل صائغ وقال له : اصنع بهذا الفص كذا وكذا واحلل فيه كذا وكذا ، وعرَّفه كيف يعمل به ؛ فأخذه الصائغ وانصرف .

ثم عدت إلى المأمون بعد ثلاث فتذكره ، فاستدعى بالصائغ ، فأتى وهو يرعد وقد امتقع لونه . فقال المأمون : ما فعلت بالفص ؟ فتلجلج الرجل ولم ينطق بكلام . ففهم المأمون بالفراسة أنه حصل فيه خلل ، فولى وجهه عنه حتى سكن جأشه ، ثم التفت إليه وأعاد القول . فقال : الأمان يا أمير المؤمنين . قال : لك الأمان . فأخرج الفص أربع قطع ، فلما خرج الرجل من عنده قال: أتدرون كم قيمة هذا الفص ؟ قلنا : لا . قال : اشتراه الرشيد بمائة ألف وعشرين ألفا .

(٥٨) — الاحسان إلى الخدم

ا ـ قال عبدالله بن طاهر : كنت عند المأمون يوما ، فنادى بالخادم : ياغلام . فلم يجبه أحد . ثم نادى ثانيا وصاح : ياغلام . فدخل غلام تركى وهو يقول : أما ينبغى للغلام أن يأكل ويشرب ؟ كلما خرجنا من عندك تصيح : ياغلام يا غلام ، إلى كم ياغلام ! فنكس المأمون رأسه طويلا ، فما شككت فى أن يأمرنى بضرب عنقه . ثم نظر إلىّ فقال . يا عبد الله ، إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ، ساءت أخلاق خدمه ؛ وإذا ساءت أخلاقه ، حسنت أخلاق خدمه ؛ وإنا لا نستطيع أن نسىء أخلاقنا لنحسن أخلاق خدمنا ! !

ب ـ يروى أن زين العابدين استدعى غلاما له ، وناداه مرتين فلم

يجبه . فقال له زين العابدين : أماسمعت ندائى ؟ فقال : بلى . قد سمعت . قال : فما حملك على تركك إجابتى ؟ قال : أمنت منك ، وعرفت طهارة أخلاقك فتكاسلت . فقال : الحمد لله الذى أمن منى عبدى .

حـ ـ عن النضر بن سهل عن أبيه قال : قال عمر بن عبد العزيز لجاريته يوما : روحينى حتى أنام ، فروحته فنام . فغلبها النوم فنامت . فلما انتبه أخذ المروحة يروحها . فلما انتبهت ورأته يروحها صاحت . فقال لها عمر : إنما أنت بَشَرٌ مثلى ، أصابك من الحر ما أصابنى ، فأحببت أن أروحك كما روحتنى .

(٥٩) ـ فرط الرأفة بالحيوان

ا ـ بلغ الامام أحمد بن حنبل أن رجلا وراء النهر يروى أحاديث ثلاثية . فرحل الامام أحمد إليه . فلما ورد عليه وجده يطعم كلبا . فسلم عليه أحمد رضى الله عنه ، فرد عليه السلام . ثم اشتغل باطعام الكلب ، ولم يُقبِلْ على الامام . فوجد الامام أحمد فى نفسه شيئا ، إذ أقبل الرجل على الكلب ولم يلتفت إليه ، فلما فرغ الرجل من طعمة الكلب التفت إلى الامام وقال : لعلك وجدت فى نفسك ، إذ أقبلت على الكلب ، ولم أقبل عليك . قال : نعم . فقال : حدثنى أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صل الله عليه وسلم قال : (مَنْ قَطَعَ رَجَاءَ مَنِ ارْتَجَاهُ قطعَ اللهُ رَجَاءَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَلَنْ يَلِجَ الجَنَّةَ) . ثم قال الرجل : أرضنا هـــذه ليست بها كلاب ، وقد قصدنى هذا الكلب فخفت أن أقطع رجاءه . فقال الامام أحمد : يكفينى هذا الحديث .

ب ـ جاء فى طبقات ابن السبكى رحمه الله تعالى أن الشيخ أحمد الرفاعى رضى الله عنه لما نام يوم الجمعة جاء الهر فنام على كمه . فاستيقظ وقت

الصلاة ، فقطع كمه ولم يزعجه . فلما فرغ من الصلاة وذهب الهر أعاد كمه إلى موضعه . رضى الله عنه .

(٦٠) – إيثار منقطع النظير

ا ـ حصل لعلى بن أبى طالب ولأهله جوع ، فأخذ من يهودى صوفا لتغزله فاطمة رضى الله عنها بثلاثة آصع من شعير . فغزلت أول يوم شيئا منه ، وطحنت صاعا وخبزته ، فلما أرادوا الأكل طرق بابهم مسكين ، وقال : السلام عليكم بأهل بيت النبوة ، أنا مسكين من مساكين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أطعمونى شيئاً لله ، فدفعوا إليه الأقراص . وفى اليوم الثانى جاءهم يتيم ، وقال : السلام عليكم ياأهل بيت النبوة ، أنا يتيم من أيتام أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أطعمونى شيئا لله ، فدفعوا إليه الأقراص . وفى اليوم الثالث جاءهم أسير ، وقال : السلام عليكم ياأهل بيت النبوة ، أنا أسير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أطعمونى شيئا لله ، فدفعوا إليه الأقراص ، وباتوا على الماء ، فجاع الحسن والحسين رضى الله عنهما جوعا شديدا . فخرج على إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخبره بذلك ، فطاف على نسائه فلم يجد شيئا . ثم جاء أبو بكر يشتكى الجوع . فقيل : يارسول الله ، إن المقداد بن الأسود عنده تمر ، فخرجوا إليه فلم يجدوا شيئا . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه : خذ هذه السلة ، واذهب إلى تلك النخلة ، وقل لها : إن محمدا يقول لك : أطعمينا من تمرك . فرمت عليهم رطباً بإذن الله تعالى ، فأكلوا حتى شبعوا ، وأرسلوا إلى فاطمة وولديها مايشبعهم . فأنزل الله تعالى فى حق على : (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » الآية .

ب — عن الحسن : أن رجلا جَهَدَه الجوعُ ، ففطن له رجل من الأعيان ، فلما أمسى أتى به رحله ، فقال لامرأته : هل لك أن نطوى ليلتنا

هذه لضيفنا ؟ قالت : نعم ، قال : فإذا قدمتِ الطعام فادنِي إلى السراج كأنك تصلحينه فأطفئيه ، ففعلت وجاءت بثريدة كأنها قطاة فوضعتها بين أيديهما ، ثم دنت إلى السراج كأنها تصلحه فأطفأته ، فجعل الأنصارى يدع يده فى القصعة ثم يرفعها خالية . فأطلع على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبح الأنصارى صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أسلم أقبل على الأنصارى وقال : « أنت صاحب الكلام الليلة » ففزع الأنصارى وقال : أى كلام يا رسول الله ؟ قال : « كذا وكذا » : قوله لامرأته . قال : « كان ذاك يا رسول الله » قال : « فوالله لقد عجب الله من صنعكما الليلة » .

حـ — فى ثمرات الأوراق : لما سعى غلام خليل بالصوفية إلى الخليفة بالزندقة أمر بضرب أعناقهم : فأما الجنيد فإنه استتر بالفقه ، وأما الشحام والرقام والنورى وجماعة فقبض عليهم وبسط النطع لضرب أعناقهم ، فتقدم النورى ، فقال له السياف : أتدرى لماذا تتقدم ؟ قال : نعم . قال : فما يعجلك ؟ قال : أوثر أصحابى بحياة ساعة ، فتحير السياف ، ونما الخبر إلى الخليفة ، فردهم إلى القاضى ؛ ليعرف أحوالهم . فألقى القاضى على أبى الحسن النورى مسائل فقهية ، فأجاب عن الكل ، ثم أخذ يقول : إن لله عبادا إذا قاموا قاموا بالله ، وإذا نطقوا نطقوا بالله ، وسرد حتى بكى القاضى ، فأرسل إلى الخليفة يقول : إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم . فأكرمهم وأطلقهم .

ء — ومن شهى المجتنى من ثمرات الأوراق : ما نقله أبو الحسن على بن عبد المحسن التنوخى فى المستجاد : أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه لما بات على فراش النبى صلى الله عليه وسلم ليفديه بنفسه أوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام : « إنى آخيت بينكما ، وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر ، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ » فاختار كل منهما

الحياة ! فأوحى الله إليهما : « أفلا كنتما مثل على بن أبى طالب . آحيت بينه وبين نبي محمد ، فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره الحياة ؟ اهبطا إلى الأرض واحفظاه من عدوه. فكان جبريل عند رأسه، وميكائيل عند رجليه ، وجبريل ينادى : بخ بخ يابن أبى طالب يباهى الله بك الملائكة فصدق عليه قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ »

(٦١) — رأفة وإيثار

خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له ، فنزل على نخل قوم فيها غلام أسود يقوم عليها ، فأتى بثلاثة أقراص من الخبز فدخل كلب فدنا منه فرمى إليه بواحد فأكله ثم رمى إليه بالثانى والثالث فأكلهما . وعبد الله ينظر إليه فقال : ياغلام ، كم قوتك كل يوم ؟ قال : مارأيت، قال : فلم آثرت الكلب ؟ قال : لأن أرضنا ماهى بأرض كلاب ، وإخاله جاء من مسافة بعيدة جائعا ، فكرهت رده قال : فما كنت صانعا اليوم ؟ قال : أطوى يومى هذا فقال : عبد الله بن جعفر : الأمر على السخاء ، والله إن هذا لأسخى منى ؛ فاشترى النخل والعبد فأعتقه ووهب ذلك له .

(٦٢) — يقدر المرء بدينه

قدم عقيل بن أبى طالب على معاوية ، فأكرمه وقربه وقضى عنه دينه ، ثم قال له فى بعض الأيام : ياعقيل ، أنا خير لك من أخيك على قال : صدقت ؛ أخى آثر دينه على دنياه ، وأنت آثرت دنياك على دينك ، فأنت خير لى من أخى ، وأخى خير لنفسه منك لنفسك .

(٦٣) — فضل الانسان بقدر ما يسديه إلى الناس

من النفع العام

كان الامام أحمد بن حنبل يعظم الامام الشافعى رضى الله عنهما ، ويذكره

كثيراً ويثني عليه . وكانت له ابنة صالحة : تقوم الليل ، وتصوم النهار ، وتحب أخبار الصالحين الأخيار ، وتود أن ترى الشافعى لتعظيم أبيها له . فاتفق مبيت الامام الشافعى عند أحمد رضى الله عنهما فى وقت . ففرحت البنت بذلك ، طمعاً فى أن ترى أفعاله ، وتسمع مقاله . فلما كان الليل قام الامام أحمد إلى وظيفة صلاته وذكره ، والامام الشافعى مستلق على ظهره ، والبنت ترقبه إلى الفجر . فقالت لأبيها : رأيتك تعظم الامام الشافعى ، وما رأيت له فى هذه الليلة لا صلاة ، ولا ذكرا ، ولا وردا . فبينما هما فى الحديث إذ قام الامام الشافعى ، فقال له أحمد : كيف كانت ليلتك ؟ فقال : ما رأيت ليلة أطيب منها ، ولا أبرك ، ولا أربح . فقال كيف : ذلك ؟ قال : لأنى رتبت فى هذه الليلة مائة مسألة وأنا مستلق على ظهرى ، كلها فى منافع المسلمين . ثم ودعه ومضى . فقال أحمد بن حنبل لابنته : هذا الذى عمله الليلة وهو نائم أفضل مما عملته وأنا قائم .

قال أحمد بن حنبل رضى الله عنه : ما صليت صلاة منذ أربعين سنة ، إلا وأنا أدعو للشافعى . فقال له ابنه : يا أبت ، أى رجل كان الشافعى حتى تدعو له كل هذا الدعاء ؟ فقال الامام أحمد : يا بنى ، كان الشافعى كالشمس للدنيا ، والعافية للناس . فانظر يابنى : هل من هذين خَلَف . ؟

(٦٤) - مزاولة العظيم أعمال بيته لا تنقص من قدره

عمر بن عبد العزيز

عن رجاء بن حيوة قال : سمرت ليلة عند عمر بن عبد العزيز ، فاعتل السراج . فذهبت أقوم لأصلحه ، فأمرنى عمر بالجلوس . ثم قام فأصلحه . ثم عاد فجلس فقال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز ، وليس من المروءة أن يستخدم الرجل ضيفه .

(٦٥) ـ التزام الصدق فى حال الخطر

لجأ هارب من أعدائه إلى سيدنا على الخواص رضى الله عنه ، وطلب إليه أن يخفيه من أعدائه . فقال له : نم هنا . ثم ألقى عليه حزمة من الخوص فلما أتى إليه أعداء الرجل وسألوه عنه ، قال لهم : هاهو ذا تحت الخوص فظنوا أنه يسخر منهم ، فتركوه ، ونجا الرجل من أيديهم ببركة الصدق .

(٦٦) ـ مقت الكذب فى أى صورة من صوره

الامام البخارى رضى الله عنه

خرج البخارى رضى الله عنه يطلب الحديث من رجل ، فرآه قدهربت فرسه ، وهو يشير إليها برادائه ، كأن فيه شعيرا ، فجاءته ، فأخذها . فقال للرجل : أكان معك شعير ؟ قال : لا ، ولكن أوهمتها . فقال البخارى : لا آخذ الحديث عمن يكذب على البهائم .

(٦٧) ـ أثر الصدق فى النفوس

اتهم رجلان بالمؤامرة على الحجاج أمير الكوفة ، فأودعا السجن ، ثم أحضرا بين يديه لينالا جزاءهما من العقاب : فقال أحدهما : إن لى عليك حقا ياأمير المؤمنين . فقال: وماهو ذاك ؟ فقال له : دفعت عنك فى مجلس يوم كذا . فأجابه الحجاج : إن هذه الدعوى تحتاج إلى بينة ، فأين هى ؟ فقال له الرجل : صاحبى هذا كان حاضرا بالمجلس . فقال له الحجاج : أحقا مايقول صاحبك ؟ فقال : نعم . فقال له : وهل دفعت أنت عنى كذلك ؟ فقال : لا . فقال له : ولم ذلك ؟ فقال له : لكراهتى إياك . فعند ذلك قال الحجاج : قد عفوت عن الرجلين : أما الأول فلحقه علينا ، وأما الثانى فلصدقه .

(٦٨) – الشجاعة فى الحق والنجاة بسبب الصدق

خطب الحجاج يوماً فأطال . فقال رجـل من الحاضرين : الصلاة ! فان الوقت لاينتظرك ، والرب لايعذرك ؛ فأمر بحبسه . فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون . فقال الحجاج : إن أقر بالجنون خلصته . فقال الرجل : لايسوغ لى أن أجحد نعمة الله التى أنعم بها على ، وأثبت لنفسى صفة الجنون التى نزهنى الله عنها . فلما رأى صدقه خلى سبيله .

(٦٩) – الصدق وسيلة الفلاح

قال الشيخ عبد القادر الكيلانى رضى الله عنه : بنيت أمرى على الصدق ، وذلك أنى خرجت من مكة إلى بغداد أطلب العلم ، فأعطتنى أمى أربعين ديناراً ، وعاهدتنى على الصدق . فلما وصلنا أرض همدان خرج علينا عرب فأخذوا القافلة ، فمرّ واحد منهم وقال : ما معك ؟ قلت : أربعون دينارا . فظن أنى أهزأ به فتركنى . فرآنى رجل آخر فقال : ما معك ؟ فأخبرته ، فأخذنى إلى كبيرهم ، فسألنى ، فأخبرته . فقال : ماحملك على الصدق ؟ قلت : عاهدتنى أمى على الصدق ، فأخاف أن أخون عهدها . فصاح ، ومزق ثيابه وقال : أنت تخاف أن تخون عهد أمك ، وأنا لا أخاف أن أخون عهدالله ! ثم أمر برد ما أخذوه من القافلة ، وقال : أنا تائب لله على يديك . فقال من معه : أنت كبيرنا فى قطع الطريق ، وأنت اليوم كبيرنا فى التوبة . فتابوا جميعا ببركة الصدق .

ولاغرابة فقد قيل : « إن كذبٌ أنجَى فصدق أخْلق »

(٧٠) – مقت السعاية

روى أن الخليفة المستنجد بالله أبا المظفر سجن رجلا كان يسعى بالناس ،

فجاءه رجل وبذل فيه عشرة آلاف دينار ، فقال له الخليفة : أنا أعطيك عشرة آلاف مثلها ودلني على آخر مثله ؛ لأحبسه ، وأكف شره عن الناس .

(٧١) — أدب الاستئذان

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وابنته السيدة فاطمة رضى الله عنها

روى عن عمران بن حصين رضى الله عنه أنه قال : كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه . فقال : يا عمران ، إن لك عندنا منزلة وجاها ، فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقلت : نعم ، بأبى أنت وأمى يارسول الله . فقام وقمت معه حتى وقفت بباب منزل فاطمة . فقرع الباب وقال : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فقالت : ادخل يارسول الله . قال : ومن معى ؟ قالت : ومن معك يارسول الله ؟ فقال : عمران بن حصين . فقالت : والذى بعثك بالحق نبيا ماعلى إلا عباءة . فقال : اصنعى بها هكذا وهكذا وأشار بيده . فقالت : هذا جسدى فقد واريته ، فكيف برأسى ؟ فألق إليها ملاءة خلقة كانت عليه فقال : شدى بها على رأسك . ثم أذنت له فدخل .

كان من نتائج تخلق المسلمين بالأخلاق العالية التى جاء بها دينهم أن شهد لهم خصمهم شهادة باهرة تتجلى فى القصة الآتية :

قدمت منهزمة الروم على هرقل وهو بأنطاكية ، فدعا رجالا من عظمائهم فقال : ويحكم ! أخبرونى ماهؤلاء الذين تقاتلونهم ؟ أليسوا بشرا مثلكم ؟ - يعنى العرب - قالوا : بلى . قال : أفأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافا فى كل موطن . قال : ويلكم ! فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم ؟ فسكتوا . فقال شيخ منهم : أنا أخبرك أيها الملك من أين تؤتون . قال : أخبرنى . قال :

إذا حملنا عليهم صبروا ، وإذا حملوا علينا صدقوا ، ونحمل عليهم فنكذب ، ويحملون علينا فلا نصبر . قال : ويلكم ! فما بالكم كما تصفون وهم كما تزعمون ؟

قال الشيخ : ما كنت أراك إلا وقد علمت من أين هذا ، قال له : من أين هو؟ قال : لأن القوم يصومون بالنهار ، ويقومون بالليل ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يظلمون أحدا ، ويتناصفون بينهم ؛ ومن أجل أنا نشرب الخمر ، ونزنى ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغصب ، ونظلم ، ونأمر بما يسخط الله ، وننهى عما يرضى الله ، ونفسد فى الأرض .

قال : صدقتنى ، والله لأخرجن من هذه القرية ، فما لى فى صحبتكم خير وأنتم هكذا .

الضمير

تمهيد

(١) شرعة الأخلاق

إن شرعة الأخلاق توجب على الفرد أن يكون فى جميع أحواله مع الحق له أو عليه ، لا مع الحال التى تسمى حقا فى رأى من تنفعه وباطلا فى رأى من تضره .

والحق فى نظر الأخلاق ما كانت فيه مصلحة بنى الانسان باعتبار النظام الذى يشملهم ، لا مصلحة فريق منهم باعتبار النظام الذى يخصهم .

وشريعة الأخلاق هى المرشد المصرف للأفعال على جهة واضحة من الحكمة ، وطريقة لائحة من المنفعة ، والإنسان إذا عطل من الأدب النفسى شرع لنفسه ما لا يصنع الشيطان أخبث منه ، بل ما يركض فيه الشيطان ركضا . وقلما انتفع من لا أدب له بشريعة من الشرائع ، وإن كانت فى الغاية التى لا مذهب وراءها فى تهذيب النفس ودرء المفاسد . وخير الآداب ما كانت ترمى إلى تأسيس الخلق الانسانى المحض الذى لا يضعف معه الضعيف ولا يقوى معه القوى ، والذى يجعل الأدب عقيدة لا فكرا ، ويجعل وازع كل امرىء فى داخله ، فيكون هو الحاكم والمحكوم ؛ إذ يرى بضميره عين الله لا تنفك ناظرة اليه .

من أجل ذلك كان مما لا بد منه بسط القول فى هذه الكلمة التى صغر مبناها وعظم معناها :

كنت ممن يرون أن كلمة الضمير لا تدل على المعنى الذى يقصده الفرنجة من لفظ : (Concince) .

وكنت أوثر واحدة من ثلاث : القلب ، أو النفس ، أو واعظ القلب ؛ فقد جاء فى الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ) وفى رواية أخرى : (اسْتَفْتِ نَفْسَكَ وإن أفتاكَ الْمُفْتُونَ »

وجاء فى حديث آخر لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والاثم قال : (الْبِرُّ مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَاطْمَأَنَّ لَهُ الْقَلْبُ ، وَالْإِثْمُ مَا جَالَ فِي الصَّدْرِ وَخِفْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ)

وجاء فى حديث آخر : (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ، وَعَنْ جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : أَيُّهَا النَّاسُ ، هَلُمَّ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ جَمِيعاً وَلاَ تَتَفَرَّقُوا ، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ لَهُ : وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ : فَالصِّرَاطُ الْإِسْلاَمُ ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللهِ ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ ، وَالدَّاعِي مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ)

بيد أن لكلمتى القلب والنفس معانى مختلفة ، ولا يصرفها إلى المعنى المراد من الضمير إلا السياق والقرينة المعينة ؛ والكلمات الاصطلاحية يجب أن تكون دالة على معانيها دلالة محدودة ؛ وكذلك كلمة واعظ القلب لا تفى بجميع ما يعنى من الضمير ؛ لأنه عند علماء الأخلاق يوصف حينا بالصلاح وآخر بالفساد ، وواعظ القلب لا يكون إلا صالحا .

من أجل ذلك كله آثرت استعمال كلمة الضمير ، ولأنى عثرت على ما يؤيد هذا الاستعمال ؛ فقد جاء فى شعر ابن هرمة يمدح الخليفة المنصور :

إذا ما أراد الأمر ناجى ضميره ٭ فناجى ضميرا غير مختلف العقل

(ب) معنى الضمير

١ – هبك أبصرت طفلا مشرفا على الغرق ، أو طالبا اقترب من سيارة أو قطار وكاد يقضى عليه ، أو أعمى كاد يتردى فى هاوية وفى استطاعتك إنقاذه . أفلا تشعر بأن قوة خفية فى نفسك تحثك على فعل الواجب معه وتشجعك على مد يد المساعدة له ؟ فان أنت أنقذته تشعر بارتياح وسرور عظيمين ، مهما لاقيت فى سبيل ذلك من تعب وتعرض للخطر .

٢ – هبك كنت مسافرا فى قطار ، فوجد أحد المسافرين كيسا مملوءا بالنقود والتقطه ، وحاول إخفاءه ووعدك بمكافأة مالية ، إن أنت سكت ولم تظهر الجريمة . أفلا تشعر بأن قوة فى نفسك تحذرك مشاطرة هذا الخائن خيانته ، وتحاول أن تصدك عن قبيح فعله ؟ فاذا استمر يرجوك فساعدته على إخفاء الجريمة وتركت له الكيس – فانك تحس بعد ذلك ندما شديدا على إفلات ذلك المجرم من يد القانون ومساعدته على إجرامه ، وتشعر بأن صوتا يناديك من أعماق قلبك أن قد أجرمت وقصرت وكنت من الخائنين .

تلك القوة الخفية النفسية التى تأمرك بفعل الخير وترتاح إليه وتهون على نفسك ما تلاقى من المتاعب فى سبيل الواجب وتنهاك عن فعل الشر وتؤنبك على اقترافه هى ما يسمى (الضمير) :

فالضمير هو تلك القوة الروحية الخفية التى يشعر بها الانسان فى نفسه تحثه على فعل الواجب وتحسنه له ، وتشجعه عليه ، وتبعث فيه الطمأنينة والسرور عند فعل كل حسن نافع ، وتهون عليه ما يلقى من الأذى فى سبيل نصرة الحق وأداء الواجب ، وهى التى تقبح له القبيح ، وتوبخه على عمله ويحس وخزها وشدة تبكيتها إذا طاوع هوى النفس وعصى تلك القوة ، أو قصر فى أداء الواجب ؛ ركونا إلى الراحة وطمعا فى لذة قصيرة المدى . وتلك لعمرى النفس اللوامة كما سبقت الاشارة إلى ذلك فى الجزء الأول

أقوال العلماء فى حقيقة الضمير وضروبه

أولا — ذهب فريق من العلماء إلى أن الضمير وليد الاجتماع ؛ لأن الانسان مع كونه فردا مستقلا يسعى لحفظ حياته ، ويهيء لها مكانا فى المجتمع لا يسعه إلا الرضا بتقييد حريته واحتمال المسئوليات المختلفة تبعا لنظام الجماعة وعاداتها ، وله فى هذه الحالة ذاتان : ذات شخصية يحرص على بقائها وصونها ، وذات قومية تشعر بأن سلوكه يجب أن يطابق سلوك الجماعة ؛ لأن فى نفعها نفعه وفى ضررها ضرره ، فحرصه على الذات القومية يجب ألا يقل عن الحرص على الذات الشخصية .

ثانيا — قيل : إن الضمير غرزى بدليل وجوده عند الهمجيين سكان البوادى الذى يترك الواحد منهم أهله وولده فى سبيل نصرة قومه ، ويرى الجبن فى ذلك عارا ومنقصة ، وبقوة هذه الغريزة فاقت شعوب شعوبا ، تضافرت القبائل وتألفت الشعوب وتكونت الأمم .

وبقوة هذا الضمير يشعر الفرد بأنه جزء من نظام محكم له ذات قائمة بنفسها يجب أن يقف حياته على إسعادها ؛ لأن سلامته ورفاهيته تتوقفان على سلامتها ورفاهيتها ، وكذلك يشعر بأن الحق والصواب ما كان فى مصلحة الجماعة .

وقد استخلصوا مما تقدم أن الضمير قوة مستقلة عن سائر القوى العقلية ، لها نفوذ خاص مسيطرة على جميع الغرائز ، إذا خالفته آلمها وأنبها ، وفيه يتفاضل الناس ، وبه يمتازون على الحيوان ؛ وهو عامل من عوامل الرقى الخلقى فى الأفراد والجماعات ، فكلما كان حساسا شريفا سما بالناس إلى المثل الكامل ، وكلما كان ضعيف الاحساس بطيء الشعور — نزل بهم إلى الدرجة السفلى ، فالأمة التى يموت ضميرها تكثر فيها الخيانة والسرقة والكذب والاجرام ، ويؤدى بها ذلك إلى الانقراض .

ثالثا — ذهب فريق آخر إلى أن الضمير ذوق خلقى ، يسترشد به الانسان

فيما يحسن ويقبح وماينفع ويضر ، وأهل هذا المذهب يشبهون هذاالذوق بحاسة من الحواس الظاهرة ، لا، بل إنهم أسموه الحاسة الباطنة التى يفرق بها الانسان بين الحق والباطل ، والخير والشر ، كما تفرق حاسةالذوق بين الحلو والمر ؛ وبنوا على ذلك أن حكم الانسان على الأشياء بأنها من باب الخير أو من باب الشر ناشىء عن حالة غير قارة تملك عليه قلبه ولبه ، وتدفعه إلى اعتداد الشىء حسنا أو قبيحا نافعا أو ضارا ، لاعن تجربة وخبرة أو إعمال فكر وروية ؛ إذ حد الخير عندهم ماارتضته هذه الحاسة الباطنة ، وحدالشر مااستهجنته . ومن زعماءهذا المذهب الفيلسوف الانجليزى (شافتسبرى)[1] والفيلسوف(هتشِنسن)[2]

رابعا — وهناقوم يقولون : بأن الضمير يتكون من التجربة والاختبار ، وإن أكبر مقوماته العادة والعرف والتعليم وتعارض الأفكار بين الناس وهيمنة الجماعة بعضها على بعض ورافع لواء هذا المذهب(استيوارت)[3] الانجليزى :

يدعم أهل هذاالمذهب رأيهم بقولهم : إن الجماعات الانسانية فى بدء تكوينها قد تواضع كل منها بحكم ضرورة الاجتماع والعيشة على آداب ورسوم فصلوا بها الحسن والقبيح والنافع والضار ، وجعلوا لرؤسائهم سلطانا يخولهم معاقبة المسىء وإثابة المحسن ، وعلى توالى العصور والأجيال درج أفراد الجماعات رجالا ونساء على إكبار ما ألفوه مصطلحا عليه ، والوقوف عند حده ، فنبت فى

---

(١) شافتسبرى(١٦٧١ - ١٧١٣ م) أحد فلاسفة الانجليز الخلقيين ، وصفوة مذهبه أنه يجب على الانسان أن يحب الناس كما يحب نفسه ،ولايسمى فاضلا إلا إذا تحقق ذلك .

(٢) هتشنسن (١٦٩٤ - ١٧٤٦ م) وهو زعيم الطائفة الاسكتلندية التى تقول إن فى الانسان حاسة باطنة ترشد إلى مافيه نفع لصاحبه .

(٣) جون استيوارت ميل(١٦٩٤ - ١٧٤٦ م) وهو من أكبر أنصار النفعية كما تقدم فى الجزء الأول .

قلوبهم معنى رعاية الحقوق والواجبات لهم أو عليهم ؛ بيد أن توالى الأحقاب الكثيرة . أنساهم أصل هذه المواضعات ، فنشأ الخلف لا يشاهد إلا شئونا مأموراً بها وأخرى منهياعنها ، وأن اتباع الأولى يستوجب المثوبة والثناء ، واقتراف الأخرى يوجب العقوبة والازدراء ، ودليل مزعمهم هذا :

هو أن نظرة فى أحوال الجماعات التى لا تزال على الحال الفطرية تكشف للباحث أنهم مجردون من الضمير الخلق ؛ لأنهم لم يصلوا بعد إلى تفهم معنى الواجب والحق ؛ لخلو جماعاتهم من قوى منظمة مهيمنة تسيطر عليهم وتبين لهم ما يجب فعله وما يجب تركه . وتثيب المطيع وتعاقب العاصى .

ومن أدلتهم قولهم : إن الواقع يشهد بأن أية أمة متمدينة لو رفع عنها سلطان الأمر والنهى لصار أمرها إلى الفوضى والاضطراب ، فتنهار أركان الضمير الخلق ، وتندك صروحه ، وتصبح الأفئدة الانسانية أثرا بعد عين . فكيف بالجماعات التى لم تذق للتمدين طعما .

ولقد أدرك هذا السر العظيم عثمان بن عفان رضى الله عنه ، إذ يقول : إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن .

ومما أيدت به هذه الطائفة مذهبها قولهم : إن الشىء الواحد تراه جماعة بضميرها الخلق حسنا وأخرى تراه قبيحا ، وإنه ليس هناك من سبب لتباين النظر سوى الاختلاف فى الزمان والمكان والعادات والمواضعات وما إليها ، وإلى ذلك يشير بسكال[1] إذ يقول : العدل والظلم أمران يختلفان على حسب اختلاف البقاع : فالانتقال بضع درجات جغرافية يجعل العدل ظلما والظلم عدلا ؛ وأى شىء أعجب من أن يكون الفاصل بين العدل والظلم نهرا أو بحرا أو جبلا .

نقد هذا المذهب

لقد انبرى فريق من العلماء للرد على أهل هذا المذهب فقالوا : إذا سلمنا بأن من أكبر مقومات الضمير الخلق المواضعات والعادات والآداب

(١) بسكال (١٦٢٣ — ١٦٦٢ م) فيلسوف خلقى من أكبر أنصار الشاكين

والرسوم - لانسلم بجواز القول بأن أولى الأمر هم الذين يضطلعون بانفاذها وحراستها ، ويعاقبون المخالف ويكافئون المتبع ؛ لأن الضمير الخلقى ما كان ليتكون من إنفاذ العقوبة ، واجتناب سخط الرؤساء وبنى العشيرة ؛ فالخوف وهو من الرذائل لا تنشأ عنه فضيلة كالضمير الخلقى الذى هو من أقوى الروادع وأجلها أثرا . والحق فى رأى الناقدين أن أمتن الأركان التى يقوم عليها سلطان الجماعة وتؤسس عليها الآداب والرسوم — هو الواجب الذى يكاد يظهر فى ثنيات ماتزعمه جماعة بنى الانسان من آدابها ورسومها لاخوف العقوبة واتقاء الملامة .

ألا ترى أن هذه الجماعات على اختلاف ضروبها ونحلها تحاول دائمـا أن تحث على الواجب ، وتدعى من أجله أن كلمتها مقدسة لا يباح نقضها أو مخالفتها ؟ أضف إلى ذلك أنها لا تفتأ تقول فى تعزيز عدالة قوانينها : إنهـا راعت فى هذه القوانين ما تعتقده من المبادىء الخلقية التى وجدت بالفطرة فى النفوس البشرية كالعدل والاباء والاستمساك بالدين .

ومن وجوه نقدهم قولهم :

لو أن الضمير الخلقى لم يكوّن إلا من العادات والمواضعات وما إليها ما استطاع أن ينقد هذه العادات والمواضعات ، ويستهجن كثيراً منها . فنقده إياها ومحاولته تقويم معوجها دليل على أن فيـه بفطرته مقوّما آخر هو الواجب ، يحدوه إلى كسر قماطر الرسوم العتيقة ، وبلوغ ما أعد للنفس من الكمال الخلقى .

ويقول الناقدون أيضاً : إن أمهات الأصول الخلقية تكاد تقوم كلها على ركن الواجب المغروس فى جميع الفطر . وما اختلف الناس فى العمل بهذه الأصول إلا لعلل خارجة عن الواجب نفسه : فنها المنفعة والهوى ؛ فطالما ساقا النفوس البشرية إلى إتيان المنكر واتباع الباطل وخذل الحق ، وانتهاك حرمات العدل والانصاف ، ولا تعدم النفوس أسباباً ومعاذير تتلمسها وتسوقها

شفيعاً لها ، وتقوية لضلالها وبهتانها ، وإلى ذلك يشير الفيلسوف (ليبنز[١]) إذ يقول :

لو رأى الناس فى القواعد الهندسية المضبوطة التى لا يتطرق إلى صحتها الشكوك والريب منافاة لشهواتهم وأهوائهم، كما يرون فى القواعد الخلقية لجحدوها ووصفوها بالسفاهة والبطلان .

ومنها المألوف والمحاكاة ، فقديما هجر الناس النظر بعين الحكمة فى أمهات القواعد الخلقية ؛ تمسكا بما ألفوه ودرجوا عليه ومحاكاة لأسلافهم :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ » (سورة المائدة)

خامساً – ذهب العقليون إلى القول بأن للضمير مقوماً كبير الأثر جليل الفعل (وهو العقل) وقد بلغ من خطره أن يقول الفيلسوف الألمانى (كنت [٢]) : إن الضمير الخلقى هو العقل العملى ، وإن العقل فى الواقع ضربان :

ا – عقل نظرى : وهو الذى يُنَقِّرُ عن حقائق الأمور وأسبابها ومصائرها ، ويزن ما يأتيه بنو الانسان من التجارب ، وما تنفتق عنه عقولهم من كل مستحدث خيراً كان أو شراً ،

ب – وعقل عملى : وهو الذى يرتب الأعمال ويجعلها درجات ، فيضع كلا منها فى الدرجة اللائقة به ، ويجعل لها حدوداً ورسوماً ، ويميزها

(١) (١٦٤٦ – ١٧١٦ م) فيلسوف ألمانى كان أكثر الناس شبها بأرسطو فى سعة الاطلاع وقوة العارضة والاحاطة بكثير من مختلف العلوم ، بيد أنه لم يبتكر مذهبا جديدا بل استوعب آراء المتقدمين واستخلص منها مذهبا حسنا .

(٢) (١٧٢٤ – ١٨٠٤ م) فيلسوف ألمانى كان مثلا حسنا للنظام والضبط فى معيشته وتفكيره ومنطقه .

بألفاظ ليس فيها إبهام ، وهذا الضرب من العقل هو مادة الضمير الخلق الذى يفرق بين صنوف الخير والشر ، ويبين رتب الخير وما أعد لفاعليه من المثوبة والجزاء .

وخلاصة آراء أهل هذا المذهب أن الضمير الخلق ضرب من العقل يجعل صاحبه لا يألو جهداً فى صوغ خير النظم التى يجب أن تتبعها الجماعة الانسانية فى شئون معاشها ومعادها ، وإن العقل النظرى يسبقه إلى تلمس هذا النظم ليهتدى بها الإنسان فى أعماله وأحواله وأقواله .

وصفوة القول أن المرضى من المذاهب فى الضمير الخلق - هو أن الخير الذى هو أساس واجبات الحياة جميعها هو الغاية المنشودة التى تتوق إلى إدراكها الطبائع البشرية أحادا وجماعات ، وبدهى أن الطبائع فى جملتها لا تكون كاملة فى بدء نشأتها ، بل تكون مغمورة بكثير من الثياب الحيوانية ، وكلما ازدادت تجارب الانسان وتجلى له أن كماله الخلق مرتبط بكمال أسرته ، لا ، بل بكمال أمته والعالم جميعه - نحى عن نفسه هذه الثياب واحداً بعد آخر ؛ فانكشفت له حقيقة الانسانية التى تمتح سعادتها وهناءتها من معين الواجب ، وحسبك برهانا على صحة هذا أن سلطان الضمير الخلق فى عصرنا هذا على المستمسكين بالآداب الخلقية والقواعد التهذيبية الصحية - أكثر نفوذاً وأجل أثراً .

الضمير والابتداه

قوة الابتداه تختلف باختلاف الأفراد والأمم والقبائل ، وبها يسارع الهمجى إلى حمل سلاحه للدفاع عن قبيلته ، والسياسى إلى حل المشكلات بالمداولات منعا للحرب والتدمير .

وبدهى أن الابتداه لا يكون السداد دائما حليفه ، بل قد يجانبه ، وفى كلا الحالين ينبرى الضمير للحكم عليه تحسيناً أو تقبيحا وهو فى حكمه هذا لا يعتمد

على سبب أو تعليل ؛ لأنه صوت داخلى يصدر على الفور دون تعقل إلا إذا التبس عليه أمران فيكون الحكم للتعقل .

وحكم الضمير قضاء إلهى غرس فى الذهن مبادىء الحق والصواب فأصبحت راسخة فيه رسوخ الغرائز الوراثية ، وتزيدها قوةً التربيةُ الدينية والاجتماعيةُ والاختبار الشخصى وسعة المعلومات التاريخية . وإذا التبس الأمر على الضمير احتاج إلى مرشد يستعين به فى إصدار أحكامه ، وتلمَّس دليلا يوضح له طريق الصواب ، والأدلاء خمسة :

١ ـ الدليل الطبعى وهو توقع الآلام الجسدية التى تنشأ عن مخالفة السنن الطبعية كالاسراف فى المآكل والمشارب وما إليهما .

٢ ـ الدليل السياسى وهو توقع العقاب عند مخالفة القوانين .

٣ ـ الدليل الاجتماعى وهو موافقة الرأى العام وثناؤه أو سخطه وذمه .

٤ ـ الدليل الدينى وهو الخوف من العقاب فى الآخرة ورجاء الثواب فيها .

٥ ـ الدليل الخلقى وهو ارتياح النفس وسرورها ، أو قلقها ونفورها بموافقة السداد أو مخالفته .

الضمير حاكم تعتوره مؤثرات منوعة

الحكم يستلزم محكمة وهى قائمة فى نفس الانسان فى شخصيته العاقلة يمثلها الضمير الذى يعتبر شارعا وقاضيا ومنفذا ، فهو شارع حين يميز بين الخطأ والصواب والحق والباطل ، وقاض حين يحكم على الشىء بأنه معروف أو منكر ، ومُنفِّذ حين يسر النفس بنتيجة الفعل الحسن أو يؤلمها بنتيجة الفعل السيئ .

والمؤثرات هى ما يلى :

١ ـ الضمير يتأثر بالعواطف والانفعالات والعرف والعادات ، فهو عرضة للخطأ والصواب فى الحكم : فاذا استجارك هارب مذنب فخبأته ، ثم جاء مطاردوه وسألوك عنه فأنكرته حرصا على حياته ـ فقد أفسدت العاطفة

الحكم . والأم التى ترضع طفلها المريض الذى نهيت عن إرضاعه ـ قد تغلبت عليها العاطفة فأساءت إلى طفلها .

لهذا يجب أن تتهم العواطف وتحذر ويكبح جماحها بالتعقل وتحرى الصالح بحيث تقف عند حد الصواب وتميز بين النافع والضار .

ب ـ والضمير ضعيف أمام العرف ؛ لأنه يحكم بما جرى عليه العرف حكما آليا لا دخل لتعقله فيه ولا لارادته . وفى التاريخ كثير من أعمال العرف التى يستنكرها العقل : كوأد البنات ، ودفن الزوجة حية مع زوجها الميت ، والرق ، والحكم الفردى المطلق ، والتعدى على الحريات ، واستعباد النساء ؛ فالضمير المستسلم لأحكام العرف لاعتقاد أنها واجبة الرعاية يعد ضعيفا لايحفل بحكمه ، والضمير الحر السليم لايخضع لسيطرتها إلا إذا تبين عدلها وصوابها ، بل ينصب نفسه فى كل قضية ميزانا للحق والعدل بين الناس فاذا وجد أعمال العرف منصفة اتبعها وإلا خالفها وحض على مخالفتها ، وإذا رأى أن عصيانها يسبب فوضى الجماعة أوضررا بالناس ارتكب أخف الضررين ؛ لأنه يبتغى السلام العام ، والسعادة الشاملة :

فالاشتراكيون مثلا يرون أن النظام الفردى مجحف بالعمال ، وضميرهم يحكم بفساده ويعمل على هدمه ، ولكنهم لايحاولون قلبه بثورة ؛ لئلا يكون ضرر الثورة أعظم من ضرر هذا النظام .

حـ ـ والضمير كذلك متأثر بالآراء الاجتماعية وإن كان الرأى الاجتماعى قلما يكون عاما مطلقا بدليل اختلاف الأحزاب ، فحين يقدم المرء على فعل يتساءل الضمير عن مطابقته لعادات الجماعة ومراسمها واستحسان الرأى العام له أو استقباحه ، ونفعه لقومه أو إضراره بهم ، وبعد ذلك يصدر حكمه المؤسس على التعقل والروية ، ليكون بعيدا عن الخطأ .

د ـ ومما يعرض للضمير أنه يستعرض الأعمال بعد وقوعها : فإن كان ذو الضمير هو الذى وقعت منه فهو بين أمرين :

إما فرح مغتبط ، إن أكد إقراره ، وأيد ماضى استحسانه .

وإما آسف ندم على ما اقترف ، إن أبدى استهجانا أو امتعاضا .

وإن كان غيره وهو له مشاهد ـ فحكمه عليه : إما الاكبار والاجلال إن كان لرضاه نائلا ، وإما الاحتقار والزراية به إن كان لغضبه وسخطه مستحقا .

هـ ـ ومما يعرض للضمير أنه قبل أن تتم له أسباب كماله ويبلغ درجة صفائه تبرز فيه قوتان متجالدتان : قوة تدعو أصحابها إلى الخير وتنهاهم عن الشر ، وأخرى تغريهم وتضلهم ، فتعقبهم الندامة والحسرة .

أما مثل التى تدعو إلى الخير فما أورده فكتور هوجو فى كتابه البائسين بلسان جان فلجان [1] إذ يقول فى مناجاته نفسه : إن مكانى فى السجن لايزال بحمدالله خاليا يطالعنى منذ ذهبت بورقة(٢) ذلك الغلام، وإنى لأشعر كأن قوة باطنة تسوقنى إليه فهو مدركى ، وإن أمعنت فى الهرب . ولشد مايُرْمضنى أن يقيموا فيه بديلاً منى، وإن هو إلا عاثر قد رمى به نحس طالعه فى أيديهم فأخذوه بى ، فأصبحت بفضل ذلك آمنا فى سربى فأنا مقيم هناك فى لباس ـ جان ماتيو (٣) ، وأنا مقيم هنا فى لباس مادلين(٤) ، ولكن أيسعنى فى مروءتى أن أترك هذا البائس يدفن فى السجن ، كما تدفن التوابيت دفنا لا قيام معه ولكن تحت جنادل الخزى والعار ؟ أم كيف يحمل بى أن أتقلب هنا فى النعم ، وهو يتقلب هناك فى النقم . . . . . ؟ إن لكل حى غاية يعمل على إدراك مداها ، وقد كانت لى غاية أرى أنى قد بلغتها فلم أخفق مرة فى التنكر وخدعة الشرطة ، ولكنها غاية خاوية من روح الفضيلة أمن أجلها

---

(١) جان فلجان : شخص سلب غلاما قطعته الفضية

(٢) قطعته الفضية

(٣) هو الذى اعتقدته الحكومة جان فلجان اللص الهارب فقبضت عليه وأودعته السجن

(٤) هو شيخ قرية فرنسية تسمى منترال سيرمير

يا ترى فعلت ما فعلت ؟ لقد كان خيراً لى أن أعمل على بلوغ القصد الأسمى فأنجو بالروح لا بالجسد ، وأنزل منازل الأبرار ، فلن أعق نفسى بعقوق ذلك العابد . فمالى أفتح باب الماضى على مصراعيه ، وقد أمرنى العابد أن أوصده ، فسوءة لى ، لقد أصبحت لصا تتعوذ منه أبالسة الشطار ، فانهم ربما سلبوا المرء متاعه ولم يختلسوا نفسه ، فكم من سليب قد نجا بحشاشته . أما أنا فقد سرقت من ذلك البائس وجوده ، وابتززت حياته ، وسلبت راحته واغتصبت مكانه تحت الشمس . وليس القاتل بدونى فى قبح الصنيع ، على أنى لم أحسن القتلة فهو اليوم فى سجنه ميت حى .

ذلك لعمرى أبشع أنواع الاجرام . فمالى لا أفتديه بنفسى فأسترد ذلك الاسم وأعود كما كنت (جان فلجان) المجرم الأثيم ؟ فاذا طبت بذلك نفساً بعثت بين الخلق من جديد ، وخرجت من هذا الجحيم خروجا لا يعقبه رجوع ، فاذا فررت منه إلى السجن فانما أفر من جحيم الروح إلى جحيم الجسد ، وشتان بين العذابين ، ولئن لم أفعل لأكونن من الخاسرين . وليس بمغن عنى ما قدمته بين يدى آخرتى من عمل دنياى ، إذا ما عدل بى طبعى إلى الخوَر ، فحال بينى وبين ما اعتزمته . . . ولئن أقدمت على ذلك لأقدمن على ما يحجم عنه الناس .

تلك هى المفاداة وإن عزّت على النفس ، وذلك هو النصر وإن كان أليما ، فلنخط هذه الخطوة ، فقد شاء القدر ألا أكون نقيا عند الله حتى أكون دنسا عند الناس . . . إذا كان هذا الرجل من السرقة كما يزعمون ـ فان عقابه لا يتعدى عمر الشهر فى السجن . فما له كتب عليه أن يطوى فيه حياته ؟ فلو لا أنهم أخذوه بى وحل به شؤم اسمى « جان فلجان » الذى لبسه كارها ما حشروه فى زمرة المجرمين لانتزاعه تفاحتين أو ثلاثا من شجرة لغيره ، وما كان نائب الملك ليصنع به ما صنع لولا أن علم أن له سوالف غير محمودة ، وأنه يحمل ذلك الاسم الممقوت . . . ثم نفض عنه

غرور دنياه ، وقطع ما بينه وبين الأرض ، واتجه إلى السماء يستنزل المعونة والعزاء ، وقال :

سبيلي أن أقوم بالواجب ، فلست أتوقع شراً مما أنا فيه ، فهي تركت الأقدار تجري على أذلالها ، ولبثت في القرية بين سيجان من العز والشهرة وحسن الأحدوثة التي أعلم دون غيري أنها متبلة بالجريمة ؛ فأي نفس زكية ترضى بأمثال تلك النعم إذا ما علقت بها اللعنة ؟ على أنني إذا طبت نفساً بالاحتساب وقضيت العمر في السجن مقيداً مغلولا في لباس من العار لا يستمطر رحمة القلوب - بلغت بذلك مرتبة الرضا وهذا أمر قد فرغ منه القدر ، وما خلقت لأنقض في الأرض ما أبرم في السماء ، فأنا اليوم بين أمرين : إما فضيلة تحتها عار ، وإما عار تحته فضيلة .

ما أشأم هذا الاتفاق الذى رمى (بجان ماتيو) بين أيديهم فأخذوه بي ، وأنظرني ها هنا حتى مكنت لنفسي فملكت يومي وبلغت من الثروة ما بلغت . . . .

فسلام على عيش لبسته مضطراً وخلعته كارهاً ، فلقد آن للنفس أن تودع ما هي فيه تستبدل الإذلال بالاجلال ، والضيق بالسعة ، والنصب بالدعة ، وللعين أن تستبدل عبوس السجان ببسمات الشكر عند الاحسان ، وللأذن أن تستبدل رنات السلاسل بتغريد البلابل عند إقبال الربيع في وشيه البديع ، وللرجل أن تستبدل الحجل في القيود بالتنقل بين المروج والنجود ، وللأنف أن تستبدل ريح صدأ الحديد بأريج الزهرات والورود ، وللجنب أن تستبدل خشونة المضاجع بلين فراش المخادع . وواها من وحشة سجن الوحدة ، والتقلب في ألوان الشدة ، وفي ذمة الله أيتها الدار ؛ فما كان أخصب أيامك وأقصر أعوامك ! وأنت أيتها الخادم العجوز ، فما كان أيمن صباحك وأبرك صلاحك ! وقد آن لي وأنا العاثر المجدود - أن أستدبر عيشا أخضر ؛ لأستقبل عيشا أغبر ، ، وألبس رداء أحمر نسجته يد البلاء الأكبر وخاطه

الشقاء لمن يسوقه القضاء ؛ اللهم غفرا

وأما مثل التى تدعو إلى الشر والتغرير فما جاء فى الكتاب المقدم الذكر على لسان (جان فلجان) أيضا إذ يقول :

مالى أرانى على غير استواء وأنا بمنجاة من المكروه ، وكنت أفرق [١] من طريق واحد طالما قدرت أن تدهمنى منه الدواهى ، ولكنه قد سد بحمد الله فأصبح « جافير » [٢] لا يجد إلى سبيلا ، وأصبحت فى مأمن من شر ذلك الرجل الذى ركبت فيه غريزة كلب الصيد ؛ فكم وقفته على أثرى ، حتى كاد يكشف عن أمرى ، على أنها قد خانته هذه المرة فجرته على أثر غيرى ، فلينقلب على عقبيه ، وليشتغل به عنى وليدعنى أستروح روائح الأمن فقد طال عهدى بها ، وليقبض على (جان فلجان الجديد) ، وليبرح المدينة متى شاء ، فكل أولئك لم أكن عنه مسئولا ، فحسبى ما كابدت من ألم وعانيت من جزع . فلو أن رائيا رآنى الساعة ماشك فى أنى قريب عهد بالافاقة من سقم أو بالافلات من براثن حادث . وإذا تأنقت الأقدار فى مكروه ذلك الانسان فتلك مشيئتها ، وأنى للمرء أن يدفع القدر عن غيره ، إذا هو أعجزه أن يدفعه عن نفسه ! وإنى لا أرى مسوغا لما كنت فيه من الجزع ؛ فان الأمل الذى كنت أتنسمه طوال السنين والشىء الذى كان يملأ على أحلامى قد ظفرت به : ذلك هو الأمن وهو بغيتى . فمالى لا أشكر الله تعالى على تلك النعمة ؟ فلعله قد ارتاح لى وتقبل منى ، وأراد أن أجرى فى طريق ، فقد أخذت نفسى بصحبة الفضيلة ، ورددتها إلى التقى حتى قرت ، ورضتها على البر حتى سكنت . فكيف أنسى يوم دخلت على ذلك العابد فنفضت إليه جملة مامر بى ، فأفرغ فى أذنى كلمات وعيتها حتى الموت ، فلأمضين على هذا السنن ؛ فتلك مشيئة الله . . .

فهبنى ذهبت اليوم وكشفت عن نفسى فساقونى إلى السجن ، وخلوا سبيل (جان ماتيو) فماذا يحل بعدى بهذا البلد الذى أغاثه الله بى ! فأقمت فيه

(١) أخاف (٢) كبير الشرط

المصانع ، وأيقظت الصناعة ، وشيدت دورا للعاملين وأخرى للعاملات ، وكفلت الأيتام ، وحبست الأرزاق على الزمنى ، وكنت لهم بمنزلة الوقود من التنور ، واللحم من القدور ، فهم يستمدون منى حياتهم ، وأنا محور تجارتهم وموئل غفاتهم ومثابة أرزاقهم ، وبى أخصب عيشهم ، واخضرت أعوادهم ولم يكونوا من قبل شيئا مذكورا . . . ومالى أحسن الظن « بجان ماتيو » فأدفع عنه الإثم ؟ فلأمكثن هنا ، وأثمر هذا المال ، فاذا أحسنت عليه القيام . . . ولدلى فى مدى عشر سنين ألفى ألف أنفقها فى وجوه البر ، وليس بى أن أعمل لنفسى فلست ممن يتربحون فى الجميل ، فاذا استبحر البلد وماج بأهله ولدت القرية مدينة ، وولدت الدسكرة قرية ، وأطلع العراء ضيعة ، فتحيا الصناعة ، وتنمو المصانع ، وتكثر المناسج ، وتسعد الأمة فيموت البؤس وتموت بموته الآثام ، فلا قتل ولا سرقة ولا فسق ولا فجور . أأستحيى نفسا أثيمة وأميت أنفسا زكية وأتوقع على هذا أجراً ؟ » اه

تلك دسيسة يسوقها الضمير المضل فتنخدع بها بعض النفوس وتذهل عن قول الله تعالى : (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)

بلى . إن مثل هاتين القوتين الرشيدة والسفيهة مع النفس — مثل المدين والدائن كلما أتت الأولى بعمل صالح نقص دينها وخف حملها ، وكلما اقترفت الأخرى عملا سيئاً زاد وزرها وثقل عبئها . أما الضمير الخالص من شوائب الخلاف فهو رقيب لا يغفل يمنع صاحبه من أن يستحسن الفعل لنفسه ويستقبحه لغيره ، أحكامه صحيحة لا تعدد فيها ، فصاحبه لا يستطيع أن يحكم فى عمل من الأعمال بأنه خير إذا أراده هو أو فعله ، وأنه شر إذا أراده غيره أو فعله وعلة ذلك أن حكمه — وهو خال من المنازع والمشاغب — يصدر عن الأعمال فى ذاتها دون تأثر بفاعلها . حتى كان من ذلك أن قال فريق من الخلقيين القائلين بوجود الضمير الخالص : إن الذى يتشدد على غيره فى

حكم خلقى - فكأنما تشدد على نفسه، ومن سلك هوادة مع غيره فكأنما سلكها مع نفسه، وأن من يعمل عملا كان قد استهجنه من قبل - فانما هو فاسق عن سنة ضميره، وهو واجد لامحالة أنه مقسم الخاطر؛ إذ القوة الرشيدة فيه تريد التزام الحق واجتناب الباطل، والسفيهة الخارجة تبغى الهوى والمخاتلة والرياء. ولشد ماتقاسى النفس الانسانية من صنوف الآلام والتعذيب إذا صارت ميدانا تتكافح فيه قوة رشيدة طائعة وأخرى سفيهة عارمة

أهمية الضمير الفاضل

لامرية فى أن الضمير الفاضل هو الجدير بالبحث وكشف النقاب عن وجه الحاجة إليه: ذلك بأن النفس لا بد لها من مَرَدّ ترجع إليه فى أعمالها قبل الفصل وبعده، فإذا حدثت صاحبها بعمل مّا فلامناص له من أن يتريث فلا يقدم عليه قبل أن يتبين ما فيه من النفع والضر والخير والشر، حتى إذا كان نافعاً حسناً أمضاه، وإن كان ضاراً قبيحاً اجتنبه. فما النبراس الذى يستضاء به إذا أشكل الأمر وادلهم الخطب؟:

يقول فريق من الخلقيين: إن الضمير الفاضل هو المرشد الذى لايضل، والرائد الذى لا يكذب أهله، إشارته مطاعة، ونصيحته متبعة، كل مايرتضيه ويأمر بفعله فهو الخير فى ذاته البالغ حد الكمال الذى يجب العمل به وجوباً لا تسوغ مخالفته ولا يمكن تبديله

ولقد أضافوا إلى ذلك أن عمله غير مقصور على الإرشاد والهداية قبل حصول الفعل، بل إذا صدر الفعل دون أخذ رأيه ألفيته انبرى لدرسه وتقصى علله وعواقبه؛ ليتبين هل وزنه صاحبه بميزان الواجب وقدره بمقياس الخير؟ فإذا كان فعل ذلك حق تكريمه وإجلاله وإلا باء بالسخط والاحتقار، ولا يقصد بنظره فى العمل بعد وقوعه وحكمه عليه إلا تبيان ما يجب أن يكون الخير الخلقى، وما يجب أن يستتبع فعله من المثوبة والعقوبة

من حيث الأخلاق .

وخلاصة القول فى رأى هـذا الفريق - أن ما يرتضيه الضمير الفاضل ويحض عليه من الأفعال هو الخير المطلق ، وما يحكم عليه مما وقع بأنه قد جاء بباعث الواجب فهو الخير الفاضل ؛ فلو أنك أسديت إلى مسكين قدراً من المـال لعد ذلك من باب الخير المطلق ؛ بيد أنه لا يكون خيراً إلا إذا كنت مسوقاً إلى فعله بدافع الواجب لذاته لا طوعاً لرغبة أو ميل ، أو توقعاً لجلب منفعة ، أو دفع مضرة .

ومعنى هـذا أن العمل قد يعد فى باب الخير المطلق ، وهو من الوجهة الخلقية مذموم كما لو فعل بنية غير خالصة مثلا . وقد يكون الفعل ممدوحاً خلقيا ، وهو معدود من ضروب الشر : كأن يكون صاحبه يجهل مضرته وقبحه وهو ينوى به فعل الخير .

وقالت طائفة أخرى : إن حكم الضمير الفاضل على الأعمال سواء أكان قبل حصولها أم بعده - مشوب بصفة من الشعور ، تتفاوت قلة وكثرة ودواماً وانقضاء معللين ذلك بقولهم : إنه ما كان للضمير الفاضل أن يرتضى الإقدام على عمل ما ويعتده خيراً نافعاً إلا لأنه يمتح من عاطفة حب الخير وإكباره ، ويستعين بالرغبة فى اجتناب الشر ومقته والنفور منه : ومعنى هذا فى رأيهم أن الانسان فى عمله الخير يتكىء على ركنين : الأول ميله إلى إتيان المحامد وإكبار جلائل الأفعال ، والآخر خوفه من الشر ودواعيه وتحقيره فعله وفاعليه .

هل يكتفى بالضمير فى الحكم والهداية ؟

ذهب فريق من الخلقيين إلى أن الضمير فى ذاته صوت باطن فطرى معصوم من الخطأ ، مبرأ من الزيغ والزلل ، يوحى إلى صاحبه ما فيه الخير والرشاد ، ويهديه إلى صراط الواجب ، وهذا مذهب لا يؤخذ على إطلاقه ؛

لأن فطر الناس على سلامتها أصلا يعتورها مايسقمها ، وطباعهم على نقاوتها أولا يعرض لهاما يكدرها ، فلو اتبع كل فى أقواله وأعماله وأحوالهما توحى بهفطرته - لأضحى الناس هملا أو سدى ، ينقادون لنزعاتهم المتشعبة ، وهذا يفضى إلى اضطراب نظام عالم الأخلاق ، وانهيار بنيانه ، فيصبح بنو الانسان كسائر الحيوان يخلطون شئونهم دون بصر وروية . وبهذا تظهر حكمة إرسال الرسل واضحة جلية .

وتاريخ الإنسان شاهد عدل على أن إرسالهم كان نعمة ورحمة ، وأن شرائعهم هداية وحكمة ؛ فقد فصّلوا للناس ما به تقويم أنفسهم ، وكبح شهواتهم ، وبينوا لهم حقوقهم وواجباتهم ، ووضعوا لهم أصول الفضيلة ، وكشفوا وجوه الرذيلة ، فقالوا : إن الأولى محمودة العاقبة وإن كانت محفوفة بالمكاره والمشقة ، والأخرى سيئة المغبة وإن كانت محفوفة بالشهوة واللذة .

بيد أن الضمير قد يكون مذكرا واعظا يزعج النفوس بصياحه ، إن مال بها الهوى عن شريعة الانصاف والعدالة . وهو الذى حدث عنه برزويه [1] إذ يقول :

لما همّت نفسى بمداواة المرضى ، وعزمت على ذلك - آمرتها ثم خيّرتها بين الأمور الأربعة التى يطلبها الناس ، وفيها يرغبون ولها يسعون فقلت : أى هذه الخلال أبتغى فى عملى ؟ وأيها أحرى بى فأدرك منه حاجتى ؟ : آلمال ؟ أم الذكر ؟ أم اللذات ؟ أم الآخرة ؟

وكنت وجدت فى كتب الطب أن أفضل الأطباء من واظب على طبه لا يبتغى إلا أجر الآخرة ، فرأيت أن أطلب الاشتغال بالطب ابتغاء الآخرة ، ورجاء أجر المنقلب ، لا أبتغى مكافأة الدنيا ولا تعجيلها فلا أكون كالتاجر الذى باع ياقوتة ثمينة كان يصيب بثمنها غنى الدهر بخرزة

(١) فى كتاب كليلة ودمنة

لا تساوى شيئا ، مع أنى قد وجدت فى كتب الأولين أن الذى يبتغى بطبه أجر الآخرة لا ينقصه ذلك حظه من الدنيا ، وأن مثله مثل الزارع الذى يبذر حبـه فى الأرض ويغمرها ابتغاء الزرع ، لا ابتغاء العشب ، ثم هى لامحالة نابت فيها ألوان العشب من يانع الزرع ؛ فأقبلت على مداواة المرضى ابتغاء أجر الآخرة ، فلم أدع مريضا أرجو له البرء وآخر لا أرجو له ذلك إلا أنى أطمع أن يخف عنه بعض المرض - إلا بالغت فى مداواته جهدى . ومن قدرت على القيام عليه قمت عليه بنفسى ولم أرد ممن فعلت معـه ذلك جزاء ولا مكافأة ، ولم أغبط أحدا من نظرائى الذين هم مثلى فى العلم ولا من هم فوقى فى الجاه والمـال وغيرهما مما لا يعود بصلاح ولا حسن سيرة قولا ولا عملا .

ولمـا كانت نفسى تتوق إلى ذلك وتنازعنى أن تنال مثل فعالهم كنت آبى لها إلا الخصومة وأقول لها : يانفسى ، أما تعرفين نفعك من ضرك ؟ ألا تنتهين عن طلب مالا يناله أحـد إلا قل انتفاعه به وكثر عناؤه فيه واشتدت المعونة عليه وعظمت المشقة لديه بعد فراقه ؟ . . . .

يانفسى ، لاتملى من عيادة المرضى ، ومداواتهم واعتبرى كيف يجهد الرجل فى أن يفرج عن مضيم واحد كربة واحدة ، ويستنقذه منها رجاء الآخرة ، فكيف بالطبيب الذى يفعل كثيرا من ذلك مع كثيرين ! إن هذا لخليق أن يعظم رجاؤه ، ويوثق منه بحسن الثواب . اه

الضمير هو الذى يترجم عنه سيدنا على رضى الله عنه إذ يقول :

هيهات أن يغلبنى هواى ، ويقودنى جشعى إلى تخيّر الأطعمة ؛ ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له فى القرص ، ولا عهد له بالشبع ، أو أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى وأكباد حرّى أو أكون كما قال القائل :

وحسبك داء أن تبيت ببطنة   وحولك أكباد تحن إلى القدّ

أأقنع من نفسى بأن يقال : أمير المؤمنين ، ولا أشاركهم فى مكاره الدهر

أو أكون أسوة لهم فى خشونة العيش ؟ فما خلقت ليشغلنى أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسلة شغلها تقممها (١) ، تكترش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها. أو أترك سدى، وأهمل عابثا، أو أجرّ حبل الضلالة أو أعتسف طريق المتاهة ؟

الضمير هو الذى يحدث عنه (تولستوى) بقوله: تبًا لنا؛ نسرف فى المأكل والمشرب والملبس، ونتقلب فى فرش النعيم وإخواننا يتضورون جوعا، يفترشون الغبراء ويلتحفون بالزرقاء.

الضمير هو الذى يسوق ساسة الشعوب، وزعماء الأمم فيأمرهم أن يفتدوا بحياتهم دينهم ووطنهم، ويصدهم عن إضاعتهما فى سبيل نيل شهوة كاذبة، أو نضار يقدم إليهم، وكم من سياسى تبدو على وجهه سمات البشر والارتياح ونفسه مقسمة بين قوتين متجالدتين:

إحداهما تدفعه إلى ركوب متن الأهوال والمخاطر، وتحذره متابعة الرغبات وأخراهما تسول له اجتناب النصب والركون إلى الدعة والترف. فتتغلب الأولى على الأخرى بالمصابرة والمثابرة وينال مجد الدنيا ونعيم الآخرة، وأما إذا تغلبت الثانية على الأولى فهنالك الخزى فى الدنيا، والعذاب المقيم فى الآخرة.

تربية الضمير

١ — قد بان مما تقدم ما للضمير من المكانة فى سلوك الأفراد والجماعات، وأنه ليس معصوما من الخطأ، بل هو مرتبط بنمو الطفل الخلقى وما يؤخذ به من سنن التربية الخلقية ولا مرية فى أن هذا النمو معقود بقوتى الادراك والارادة:

أما الادراك فهو مصباح الارادة يضىء لها المحجة؛ لأنها عمياء لا تستطيع وحدها ان تبصر طريقها، فهو يكشف لها عن أسباب الأشياء وحقائقها،

(١) التقاط القمامة

ويقودها إلى اختيارها ويعرفها القيم الأدبية لأعمالها، وهو الذى يهدى الضمير إلى صحيح الأحكام

وأما الارادة فبعد أن تستكمل صفاتها الثلاث تنفذ الأحكام التى قطع الضمير بصحتها :

أما الصفات الثلاث فهى :

ا — التروى والبحث فى الأسباب الباعثة على مايراد من العمل سلبا وإيجابا، من حيث تمشيه مع الواجب والشرف، أو الميل إلى المصلحة والهوى

ب — الحرية والاختيار، لأن الأعمال التى مصدرها الاكراه والالزام ليست من خلائق الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

حـ — النية وهى عقد العزيمة على العمل أو اجتنابه.

حقا: إن الارادة متى اجتمعت لها هذه الصفات الثلاث أصبح لها نفوذ كبير بين ملكات النفس، وهيمنته على العواطف والميول، وصارت توجه الجسم إلى ما فيه صلاحه ونفعه. وبقدر ما يُمنح الانسان من هذه الارادة وصحتها تكون قوة ضميره وصحته، واستعداده للوصول إلى معرفة حقيقة السلوك المحمود وتقدير العلاقة الحقيقية بين الأعمال الخلقية المختلفة، وقد قال بعض السلف: من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه علمه: « إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب » وإن الله جل شأنه يقول: (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا، وَهُوَ مُؤْمِنٌ — فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً)

ومثل الضمير فى عرف علماء الأخلاق — كمثل دولة مستقلة فيها الضمير صاحب الكلمة العليا، وهو الذى يُقدّر الأعمال ويحكم عليها بالقبول، أو الرفض، وفيها الادراك وهو الذى يبين ما فى الأعمال من وجوه الخير والشر؛ وفيها الارادة وهى التى تنفذ الأمر بلا توان، فالسلطات ثلاث:

سلطة تَشْرِيع: وهى قوة الادراك التى توضح الطريق وتحددها.

وسلطة القضاء: وهى الضمير الذى يحكم بسلوك طريق الخير

وسلطة التنفيذ : وهى الارادة التى تنفذ أمر الضـمير ، وتوجب على صاحبه سلوك الطريق التى رسمها الادراك وأقرها الضمير .

ومن أجل ذلك كانت الارادة الثابتة من أكبر دعائم الضمير وهى التى عناها الله جـل شأنه فى كتابه الكريم إذ يقول : « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ »

لذلك لابد من تربيتها تربية حقة . وخير وسيلة إلى ذلك أن يكون ما يُلقنه النشء من المعلومات والآداب خاليا من الحشو والخزعبـلات مصوغا فى قالب سهل مع التدرج متمشيا مع سنة الفطرة ، وأن يكون الغرض الأسمى الذى يرمى إليه المربى هو التأثير فى إرادته تأثيرا يدفعه إلى حب الخير وعمله . وليعلم المربى أن الطفل مدفوع إلى أعماله بدون تفـكير ولا روية ؛ لأنه خاضع لانفعالاته النفسية ، متأثر بها أيما تأثير ، وليس فى نفسه من البواعث السيئة مايدفعه إلى ما يقع منه من الخطأ ، وهو فى الوقت نفسه قاصر عن تصور ما يترتب على أعماله من العواقب الوخيمة ! ومن أجل ذلك وجب العمل على قهر انفعالاته وتحويلها إلى سبيل الخير والاصلاح ، وأن يجعل قاعدته العامة « الوقاية خير من التداوى » .

ومعنى هذا أن يحول بين الطفل وعمل الشر ، وألا يتركه حتى يقع منه فيعالجه ، فقد يئول الترك إلى تـكوين عادة من العادات السيئة وتماديه فى اقترافها ، وفى إرجاعه عنها بعض الصعاب .

وليرقب المربى ما يعرض للنشء من مفصلات السلوك التى لايستطيعون التغلب عليها بأنفسهم ، ثم يأخذ فى معاونتهم على حلها . وليحذر عند النصح والارشاد أن يغمس الخاطىء فى بحر من البلاغة ، فليست هناك من فائدة ما ، بل فى ذلك إيقاظ الانفعالات والميل إلى التمرد والخروج ، وإنمـا سبيل النصح أن تـكون عبارته قليلة جزلة نسيجها المهارة والحذق ولهذا النصح مكانان :

ا - المنزل وهو أوسعهما مجالا وأعونهما على أن يربى فى الطفل الشعور بالخلة الأدبية التى تجعل صاحبها على بينة من أنه فرد من مجموع الأمة يُسر بسرورها ويحزن لحزنها، ويحافظ على قوانينها وشريعتها.

ب - المدرسة وفيها قدر كاف من الفرص لتربية الضمير: كترك الخاطىء منفردا فى خلوة يرجع فيها إلى نفسه، ويحاسبها على ما اقترفت.

وخزات الضمير

الضمير كما أبنا المرجع الذى ترد إليه الأمور والقاضى الذى يفصل فى جميع الشئون فيظهر بِشره للخير، ويعبس للشر: إن جاء العمل حسنا نظر إلى النفس نظرة سرور واغتباط، وإن جاء قبيحا وخيم المغبة أنبها وتابع عليها وخزاته وقوارصه، حتى لقد يلتهب القلب من سعير وخزه، أو ينصدع الكبد من لواذع توبيخه. فان وقف عمله عند هذه الملامة فتلك مرتبة التأنيب فحسب، وإن تعداها إلى العزم الصادق على اجتناب أمثال ما وقع، وتدارك ما فرط من التقصير، فتلك التوبة، وحدُّها فى الشرع - ترك المعاصى فى الحال، والعزم على تركها فى الاستقبال، وتدارك ما سبق من التقصير فى سابق الأحوال، وهى واجبة من كل ذنب:

فان كان الذنب بين العبد وربه لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط: أحدها أن يقلع عن المعصية، والثانى أن يندم على فعلها، والثالث أن يعزم على عدم العودة إليها أبدا. فان فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها:

فان كان مالا أو نحوه رد إليه، وإن كانت غيبة استحله منها.

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة والاجماع على وجوب التوبة:

قال الله تعالى: (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

وقال تعالى: « اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلى اللهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ؛ فإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)

ولما سئل سيدنا على كرم الله وجهه عن الاستغفار قال : هو درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معان :

أولها الندم على ما مضى ، والثانى العزم على ترك العودة إليه أبدا ، والثالث أن تؤدى إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة ، والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدى حقها ، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذى نبت على السحت فتذيبه بالأحزان ، حتى تُلصِق الجلد بالعظم ، وينشأ بينهما لحم جديد ، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : أستغفر الله .

أصناف الناس من حيث ضمائرهم

الناس من حيث ضمائرهم أربعة أصناف :

صنف أفسدتهم البيئة وحب الذات ، وانغمسوا فى الجرائم وألفوها فماتت ضمائرهم ، وأصبحوا لا يحترمون دينا ولا عرفا ولا قانونا : أولئك هم سفلة الناس وشرارهم . ومنهم سواد المجرمين وأهل السجون .

وصنف ضعف سلطان ضميرهم عليهم فلا يعملون الواجب إلا خوفا من الناس : أولئك هم المراءون الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم .

وصنف يرتاح ضميرهم إلى احترام القوانين السماوية والوضعية ، والعمل بها سرا وعلانية ؛ لأنهم يرونها ضرورية لنظام هذا العالم : أولئك يرعون حقوق الله والناس فى سرهم وعلنهم ، ويؤدون الأمانة ولو أمنوا العقوبة ،

لا يغشون فى البيع والشراء ، وإن أمنوا أعين الرقباء وهذا الصنف بلا شك أرقى من سابقيه .

وصنف قوى ضميرهم وسما شعورهم ، وألهموا الصواب فى أعمالهم ، وهم يعرفون الحق ويهيمون به ، ويعملونه لذاته ؛ تهون عليهم أفئدتهم وأموالهم فى سبيل نصرة الحق : أولئك هم أفاضل الناس وخيارهم ، وهم المثل الكامل لأصحاب الضمائر الحيّة والنفوس الأبية . شأنهم الإصلاح واحترام الحقوق والواجبات ، ودأبهم عمل الخير ونصرة الحق ، لا يخشون فيه لومة لائم ولا يصدهم عنه وعد ولا وعيد ، وفى مقدمتهم النبيون والصديقون والمصلحون .

السلوك

تمهيد

(ا) معنى السلوك

لا يعد الفعل سلوكا إلا إذا صدر عن إرادة واختيار ، ولا يكون خلقيا إلا إذا فحص عنه العقل وحكم بخطئه أو صوابه ؛ فالسلوك فعل مقيد بالوجهة الخلقية خاضع لحكم العقل ، وهو مجموع أفعال الإنسان التي تتغير بتغير الأحوال والدواعي وتختلف باختلاف الأشخاص وقوة إرادتهم ودرجة تعقلهم ، فكل فرد يسلك سلوكه مدفوعا بمحرك خلقي قاصدا أمرا مرغوبا فيه ، وبذلك يختلف عن الحيوان الذي يتحرك بمحض الغريزة والشهوة ؛ فهو يهجم على الطعام من غير أن يرمي إلى غرض الشبع ؛ بدليل أنه يشبع ولا يمتنع عن الطعام ، بخلاف الإنسان ؛ فإنه قد يريد أن يأكل وقد لا يريد مع أنه جائع ، وإذا أكل قصد من أكله الشبع وقد يتصور الشبع قبل أن يأكل .

ومن هذا كان فعل السلوك يرمي إلى غرض معين مقصود قبل حدوثه ، مراد دون غيره ، وبه يتميز العاقل من المجنون والبالغ من الطفل والمتعلم من الجاهل .

وطرق السلوك تختلف باختلاف الأحوال الملابسة لها : فأحوال الشخص الذاتية من علم وجهل ، وغنى وفقر وقوة وضعف ، وصحة واعتلال ، والبيئة التي يعيش فيها ـ تجعل له أحوالا خاصة .

فاذا كان في سفينة أشرفت على الغرق فوجوده في هذه الحال ، ومعرفته السباحة أو جهله إياها ووجود زوارق النجاة ، أو عدم وجودها ـ كل ذلك يعين له حالا خاصة بسلوكه ، وشخصيته حينئذ غير شخصيته في حين آخر

وقد يأمر الربان أهل المروءة بترك زوارق النجاة للنساء والأطفال ومن لا يعرفون السباحة ، فيطيع أهل المروءة متأثرين بهذه الحال ، وتكون المروءة من الأمور الباعثه على الطاعة

(ب) أطوار السلوك

إن نظرة فى تاريخ الجماعة الإنسانية تبين أن مثل السلوك كمثل سائر السنن الكونية يعتورها التدرج والتحول : فأهل البدو ومن ماثلهم ممن لم يزكوا بالدين ولم تهذب مداركهم مطالعة سير الأمم من قبلهم - لاسلوك لهم بالمعنى الخلق ؛ لأنهم لايهتدون فى أعمالهم بالروية والفكر والنظر إلى مقاصد الأمور ، بل بمحض الشعور والفطرة ، وليس معنى هذا أن الواحد منهم يأتى ويذر من الأعمال ماشاء له الهوى ، بل هو مكلف أن يرعى مالقبيلته من المواضعات ومادرجوا عليه من العادات . ويسير على مقتضاها ، وإن خفيت عليه مقاصدها وحجب عن إدراك غاياتها .

فاذا ماجاوزت الجماعة الانسانية مرحلة البداوة ، ولاح لها بصيص من ضوء الحضارة العقلية - فكرت فيما لديها من العادات والمواضعات ، ثم هذبتها بالمحو والاثبات ، وجعلتها حدوداً بها يحفظ النظام ، وتحقن الدماء وترفع منائر العدل ، ويؤخذ للمحق من المبطل ، وللضعيف من القوى .

ولما كانت الأحداث لاتدخل تحت حصر ؛ إذ أنها تتجدد على مر الأيام والسنين ، وكانت صيغ الحدود عند العقل فى هذا الطور مشعرة بالقهر والسطوة والاخافة ، عليها مسحة من الجمود والغلظة ، جنح العقل الانسانى إلى العدول بعض الشىء عن الوقوف عند الألفاظ ومدلولاتها ، ولجأ إلى الاهتداء بنور المقاصد المخبوءة فى ألفاظ الحدود وعباراتها ، واستشفاف حكمة الاغراض التى حدت إلى وضعها .

حقا : إن الانسان لم يبلغ بعد من الحياة الخلقية مايجعله يهجر العادات

والمواضعات ، ويطرح الوقوف عند ألفاظ ماسنه من القوانين والحدود ويكتفى بالاسترشاد بالمبادىء النظرية الخلابة ، فكثير من الطوائف البشرية على بلوغها من الرقى الخلقى الرتب الرفيعة ـ لايزالون يحاكون أسلافهم فى كثير من أعمالهم ، ويترسمونهم فى غالب أحوالهم ، يخضعون للعقيدة ، ويركنون إلى العادة والمألوف .

وصفوة القول أن الحياة الخلقية من حيث هى لها ثلاثة أطوار :

طور العادات المحضة والمواضعات الصرفة المؤسسة على التقبل والمحاكاة :

وطور التدبر والنظر .

ثم طور الاستعصام بالمبادىء وماانطوت عليه من الحكم والأسرار .

بيد أن أعمال بنى الانسان لها محركات وبواعث ومقاصد : فهل تجعل الأعمال وحدها مناط الحكم الخلقى ، أو تندرج فيه المقاصد والبواعث والمحركات أو بعضها ؟ :

ذهب العلماء فى الاجابة عن هذا مذاهب شتى لايسعنا إيرادها كما هى إشفاقاً على القارىء من العناء والنصب فى استخلاص المرضى منها ، بل اكتفينا بإيرادها خالصة من شوائب التعقيد والتناقض جهد المستطاع بادئين بذكر آراء بعض علماء المشرق ، ومن بعدهم جمهور علماء المغرب :

رأى الغزالى فى كتابه إحياء العلوم

قال : لما كان سلوك بنى الانسان مقدرا بقدر نياتهم وجب بسط القول فى حقيقة هذه النية ومايسبقها من البواعث والمحركات ، فنقول :

يسمع الغر ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » فيقول فى نفسه عند تدريسه أو تجارته : نويت أن أدرس لله ، أو أتجر لله ظانا أن ذلك نية ، وهو فى ذلك واهم : فما هذا إلاحديث نفس وحديث لسان وفكر ، أو انتقال من خاطر إلى خاطر ،

والنيـة بمعزل من جميع ذلك وإنما هى انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ذاهر لها أن فيه غرضها إماعاجلا وإما آجلا .

والميل إذا لم يكن ـ لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الارادة ، بل ذلك كقول الشبعان : نويت أن أشتهى الطعام وأميل إليه ، ومثل هذا محال ؛ لأنه لا طريق إلى اكتساب ميل القلب إلى شىء إلا بتحصيل أسبابه ، وذلك مما قد يقدر عليه ، وقد لا يقدر عليه . وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ، فاذا لم يعتقد الانسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصـده . وذلك مما لا يقدر على اعتقاده فى كل حين ، وإذا اعتقـد فانما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منـه ، وذلك لا يمكن فى كل وقت ، وللدواعى والصوارف أسـباب كثيرة تختلف باختـلاف الأشخاص والأحوال والأعمال .

يتبين مما تقدم أن الانسان إن أمكنه تحصيل النية فهى بطبيعتها غير داخلة تحت الاختيار .

من أجل ذلك كان كثير من السلف يمتنع عن عمل بعض أعمـال الخير إذا لم تحضرهم النية ، وهم فى ذلك أهل فكر ثاقب ونظر سديد ؛ لأن النية روح العمل ، والعمل بغير نية صادقة رياء وتكلف . فمن حضرت له نية فى مباح ولم تحضر فى فضيلة فالمبـاح أولى ؛ وانتقلت الفضيلة إليه ، وصارت الفضيلة فى حقه نقيصة ، ولا غرو ؛ فانما الأعمال بالنيات

لهذا كان العفو عن المسىء عند المقدرة عليه أفضل بلا مراء من الانتصار للنفس ، بيد أن الانتصار إذا صحبه مقصد ونية كان أفضل من العفو دون نية ، وكذلك لو قصدت من الأكل والشراب راحة النفس والترفية عنها لتقوى على العبادة والقيام بمصالح الناس والسعى فى الخير لهم ـ كان الأكل والشرب وترويح النفس خيرا من صوم وصلاة ليس معهما نية ، بل لو مل

الانسان العبادة لمواظبة عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه - لكان اللهو أفضل له من الصلاة

قال أبو الدرداء : إنى لأستجم نفسى بشىء من اللهو ، فيكون ذلك عونا لى على الحق . وقال على كرم الله وجهه : روّحوا هذه القلوب ؛ فإنها إذا أكرهت عميت اه بتصرف

وقال الغزالى فى مقام آخر : إن النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد ، وهو حال وصفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل : العلم يقدمه ؛ لأنه أصله وشرطه . والعمل يتبعه ؛ لأنه ثمرته وفرعه ؛ وذلك لأن كل عمل اختيارى لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم وإرادة وقدرة ؛ لأن الانسان لا يريد مالا يعلمه فلا بد أن يعلم ، ولا يعمل ما لم يرد فلا بد له من إرادة ،

ومعنى الارادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقا للغرض، إما فى الحال، وإما فى المآل ؛ فقد خلق الانسان بحيث يوافقه بعض الأمور ، ويلائم غرضه ، ويخالفه بعض الأمور ، فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضار المنافى عن نفسه ، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشىء الضار والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من ذاك ؛ فان من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله ، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها ، فخلق الله الهداية والمعرفة ، وجعل لها أسبابا وهى : الحواس الظاهرة والباطنة .

ثم من أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ، ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه ؛ إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ، ولفقد الداعية المحركة إليه . فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والارادة ، بيد أنها لا تكفيه ، فكم من مشاهد طعاما راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا ، فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول ، والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة ، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة ، والداعية تنتظر العلم والمعرفة ،

أو الظن ، أو الاعتقاد : وهو أنه يقوى فى نفسه كون الشىء موافقا له ، فاذا جزمت المعرفة بأن الشىء موافق ولا بد أن يفعل وسلمت من معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الارادة ، وتحقق الميل ، فاذا انبعثت الارادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء . فالقدرة خادمة للارادة ، والارادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة .

وجملة القول أن المحرك الأول هو الغرض المطلوب ، وهو الباعث ، والانبعاث هو القصد والنية ، وانتهاض القدرة لخدمة الارادة بتحريك الأعضاء هو العمل .

بيد أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد ، وقد يكون بباعثين اجتمعا فى فعل واحد ، وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد منهما منفردا ملبى بانهاض القدرة ، وقد يكون كل واحد وحده قاصرا عن هذا الانهاض ما لم يجتمعا ، وقد يكون أحدهما كافيا دون الآخر ، غير أن الآخر انتهض عاضدا له ومعاونا ، فالأقسام أربعة :

الأول ـ أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما إذا هجم على الانسان سبع ، فكلما رآه قام من موضعه ، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع ؛ فانه رأى السبع ، وعرفه ضارا ، فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه ، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث ، فيقال : نيته الفرار من السبع ولا نية له فى القيام لغيره . وهذه النية تسمى خالصة ، ويسمى العمل بموجبها إخلاصا بالاضافة إلى الغرض الباعث ، ومعنى هذا أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته .

الثانى ـ أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالانهاض لو انفرد ، ومثاله من المحس : أن يتعاون رجلان على حمل شىء بمقدار من القوة ، وكان يكفى أن يحمله أحدهما لو انفرد . ومثاله فى غرضنا : أن يسأل إنساناً قريبُه الفقير حاجة فيقضيها لفقره وقرابته ، وقد وقر فى نفسه أنه كان يقضيها

بباعث القرابة لولم يكن فقيرا ، وبباعث الفقر لو لم يكن قريبا ، أى لو جاء إليه قريب غنى أو فقير أجنبى وسأله حاجة لقضاها له ، فثانى الباعثين يسمى مرافقا

الثالث ـ ألا يستقل كل واحد لو انفرد ولكن قوة مجموعهما تنهض القدرة كما إذا سألك قريبك الغنى جنيها فمنعته ، وسألك الأجنبى الفقير قرشا فرددته ، ثم سألك القريب الفقير جنيها فأعطيته ، فيكون انبعاث الداعية عندك بمجموع الباعثين القرابة والفقر ، وكذلك الرجل يتصدق تحصيلا للثواب والثناء ، فلو كان منفردا مابعثه قصد الثواب على الاعطاء ، ولو كان السائل فاسقا لاثواب فى التصدق عليه مابعثه مجرد الرياء وحب المحمدة على الاعطاء ، ولو اجتمعا حملاه على الاعطاء ، وهذا الضرب من الباعث يسمى مشاركة .

الرابع ـ أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه ، والثانى لايستقل ، بيد أنه لما أضيف إلى الأول كسبه معونة وتسهيلا ، ومثاله فى المحس : أن يعاون الضعيفُ الرجلَ القوى على الحمل ، ولو انفرد القوى لاستقل ، ولو انفرد الضعيف لم يستقل ، غير أنه إذا عاونه سهل العمل عليه وخففه ، ومثاله فى غرضنا : أن يكون للانسان ورد فى الصلاة وعادة فى الصدقات ، فكان من المصادفات أن حضر فى وقتها جماعة من الناس ، فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم ، وهو يعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله ، ويعلم أن عمله لو لم يكن طاعة ما كان مجرد الرياء يحمله ، فهو شوب تطرق إلى النية ، ويسمى هـــذا الضرب من الباعث معينا .

وخلاصة القول ـ أن العمل (السلوك) تابع للباعث عليه ، فيكتسب الحكم منه والأعمال لا حكم لها فى نفسها ، وإنما الحكم للمتبوع وهو النية اهـ بتصرف

وهذا هو مصداق قوله تعالى: « قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ » أى نيته كما فسرها الحسن البصرى ومعاوية بن قرة المزنى وقتادة (راجع شرح القسطلانى على البخارى ص ١٤٧ ج أول ، وقوله عليه الصلاة والسلام: (الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَلِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى : فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَاهَاجَرَ إِلَيْهِ) هذه الرواية ثبتت عن عمر رضى الله عنه ، إذ روى النية بالافراد وحذف إنما . ولقد جاء فى رواية ابن مسعود: « إِنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَالْحِسْبَةِ » (أى الاخلاص) ولقد جاء فى تفسير الفخر الرازى عند الكلام على قوله تعالى : « لِلَّهِ مَافِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ـ مانصه :

يروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما نزلت هذه الآية جاء أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ وغيرهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : سمعنا وأطعنا . واشتد ذلك عليهم فمكثوا كذلك حولا ، فأنزل الله تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا » فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَاحَدَّثُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ مَالَمْ يَعْمَلُوا أَوْ يَتَكَلَّمُوا بِهِ)

فمن هذا يتبين أن الخواطر وأحاديث النفس على قسمين : منها مايوطن الانسان نفسه عليه ويعزم على إدخاله فى الوجود ، ومنها مالا يكون كذلك ، بل تكون أمورا خاطرة بالبال لايمكن دفعها عن النفس ، وإن كانت مبغضة إلى صاحبها . فالقسم الأول يؤاخذ عليه ، وعلى الآخر لايؤاخذ . ويؤيد

ذلك قوله تعالى : « لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ » (سورة البقرة)

وجاء فى تفسير المغفور له الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده رواية المنار عند الكلام على الآية المقدمة الذكر ماحصله :

إن ما يكسبه القلب ويعمله مستوجب للجزاء سواء فى ذلك الملكات الفاضلة وضدها والمقاصد الشريفة وضدها : انظر إلى قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » ـ تجد أن الحب الذى هو من أعمال القلب الثابتة فى النفس قد جعل مناط الحكم ، وبهذا ينكشف سر قوله تعالى : « وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ » أى ماثبت فيها واستقر . ويدخل فى ذلك الكفر والمنازع الراسخة والصفات الثابتة من الحب والبغض فى الجور وقصد السوء وفساد النية وخبث السريرة . وهذه الأعمال والصفات هى الاصل فى الشقاوة ، وعليها مدار الحساب والجزاء .

ولولا أن للأعمال البدنية آثاراً فى النفس تزكيها أو تدسيها ما آخذ الله تعالى فى الآخرة أحداً عليها ؛ لأنه تعالى لا يعاقب الناس حبا فى الانتقام ، ولا يظلم نفساً شيئا ، ولكنه جعل سنته فى الإنسان أن يرتقى أو يتسفل نفساً وعقلا بالعمل ، فلهذا كان العمل مجزياً عليه فى الدنيا والآخرة ؛ فإن أثره فى النفس هو متعلق الجزاء .

ومما لا شك فيه أن الخواطر السانحة والوساوس العارضة وأحاديث النفس التى لا تصل إلى درجة القصد الثابت والعزم الراسخ ليست داخلة فيما يستحق الجزاء ؛ لأنها غير ثابتة ولا مستقرة ، ولأن المؤاخذة عليها تكليف ما ليس فى الوسع ، وذلك ينافى الحكمة الالهية البالغة ، والرحمة الربانية السابغة

ومما لا يؤاخذ عليه النسيان والخطأ ، وحسبنا ما روته مجلة المنار نقلا عن الأستاذ الأمام المغفور له الشيخ محمد عبده ، إذ يقول فى تفسير قوله تعالى : « رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا » - ما نصه :

من الناس من قال : إن الخطأ والنسيان لا مؤاخذة عليهما ؛ لأن الناسى والمخطىء لا إرادة لهما فيما فعلوه نسيانا أو خطأ ، وهذا قول بعيد من الصواب ؛ لأن الانسان لو رجع إلى نفسه انكشف له أن الناسى يصح أن يؤاخذ : فيقال له : لِمَ نسيت ؟ إذ النسيان قد يكون من عدم العناية بالشىء وترك إجالة الفكر فيه وترديده فى النفس ليستقر فى الذاكرة فتبرزه عند الحاجة إليه ، ولذلك ينسى الانسان مالا يهمه ويحفظ ما يهمه ، فاذا كان النسيان غير اختيارى فسببه الذى بيناه آنفا اختيارى ، ولذلك يؤاخذ الناس بعضهم بعضا بالنسيان لا سيما نسيان الأدنى لما يأمره به الأعلى :

فاذا عهدت إلى من لك عليه سلطان أو فضل بأن يفعل كذا أو يجيئك فى يوم كذا فنسى ولم يمتثل - فانك تسأله وتؤاخذه بما ترميه به من الاهمال وعدم العناية بأمرك ، وقد آخذ الله جل جلاله آدم عليه السلام على ذنبه ثم تاب عليه مع قوله فيه : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا »

وكذلك الخطأ ينشأ من التساهل وعدم الاحتياط والتروى ، ولذلك أوجبت الشريعة الضمان فى إتلاف الخطأ والدية فى جنايته : فاذا أراد امرؤ أن يرمى صيداً فأصاب إنسانا فقتله كان مؤاخذاً فى الشريعة ، وكذلك فى القوانين الوضعية : فثبت أن المؤاخذة على النسيان والخطأ مما جاءت به الشريعة وجرى عليه عرف الناس فى معاملاتهم وقوانينهم .

وقال ابن مسكويه فى كتابه تهذيب الأخلاق فى بيان أن مناط الحكم الخلقى النية والقصد ما ملخصه : إن أعمال الخير ومظاهر الفضيلة قد تجىء على يد من ليس بخير ولا ذى فضيلة : فمن الناس من يعمل عمل الأعفاء

وليس بعفيف ، ومنهم من يفعل فعل الشجعان وليس بشجاع ، ومنهم من يعمل عمل العدول وليس بعدل ،

فلا ينعت بالعفة خلقيا من أعرض عن الشهوات من المآكل والمشارب وغيرها من اللذات انتظارا لأكثر مما يحضره أو جهلا بها : كالأقوام الباقين على الفطرة الذين نبتوا فى الفيافى والقفار وفوق قمم الجبال ، أوجمودا فى ميولهم ، ونقصانا فى تركيبهم ، أو لأنه حيل بينهم وبينها (ومن العفة ألا تجد) فلا يستطيعون إليها سبيلا ، إنما الجدير بنعت العفة من صرف نزعاته وميوله بحسب الرأى السديد والتميز الصحيح ، واختار العفة لنفسها لا لغرض آخر غيرها ، وآثرها لأنها فضيلة فحسب ، ثم تناول كل واحد من ميوله بمقدار الحاجة ، ومن الوجه الذى ينبغى ، وفى الوقت الذى ينبغى ، وعلى الحال التى تنبغى .

ليس قمينا بالاتصاف بفضيلة الشجاعة من باشر الحروب وصبر على المكاره ، وأقدم على ركوب متن الأهوال لمال يجمعه أو لمآرب يقضيها ، فمن كان شأنه فى الحروب نيل شىء مما تقدم فهو مدفوع بطبيعة الشره ، لا بطبيعة الفضيلة التى تدعى شجاعة .

لو كان مجرد الصبر على المكاره مؤهلا للاتصاف بفضيلة الشجاعة لاستحق ذلك أهل الجرائم الذين يمتنعون عن الاعتراف ، فيصبرون على ضرب السياط ، وتقطيع الأعضاء ، بل والصلب وسمل العيون ، وقطع الأيدى والأرجل ، وضروب التمثيل والنكال طلبا لاسم وشهرة بين قوم مثل حالهم من سوء الاختيار ونقصان الفضائل .

ليس جديرا بالشجاعة أيضا من يعملها خوفا من لائمة عشيرته ، أو خشية سقوط جاهه ، أو من وقع له أن غلب أقرانه مرات كثيرة فأقدم على عملها ثقة منه بالعادة الجارية ، وجهلا بمواقع المصادفات .

كذلك ليس حريا بها العشاق الذين يركبون الأهوال فى طلب المعشوق

رغبة منهم فى الشهوات ، أو حرصا على متعة العين لا طلبا للفضيلة أو اختيارا للموت الجميل على الحياة الذميمة كما يفعل الشجاع الحق .

الجدير بصفة الشجاعة فى نظر الخلقيين من قاوم ميوله وثبت على رأيه ومذهبه فى الدفاع عن دينه ووطنه ، واستمات دون الذود عن إقامة الشريعة العادلة التى تكفل المصالح الدنيوية والأخروية ، ووقر فى نفسه أن مدة عمره قصيرة . وأنه لا محالة ميت عاجلا أو آجلا ، فأنف الفرار من الأذى ، وأدرك أن اختيار الفرار إنما هو استبقاء لشىء لا محالة فان زائل : هو حياة قصيرة ممقوتة مملوءة بالأكدار والذل وضروب الصغار .

لو كان مظهر الشجاعة دليلا قاطعا على اتصاف صاحبها لكان شجاعا من يثب من سطح عال فى وقت الأمن والطمأنينة ، أو يصعد مرتقى صعبا دون أن يكون قصده كشف حقيقة جغرافية مثلا ، أو يحاول عبور بحر عظيم سابحا ، أو يساور وحشا ضاريا دون ضرورة تدعو إلى ذلك . إن مثل من وصفنا خليق بأن يسمى « مطرمذا [1] » مائقا لا شجاعا مقداما .

إن الشجاع الحق هو الذى يستهين بالشدائد فى الأمور الجميلة ويصبر على الأمور الهائلة ، ويستخف بما يستعظمه عوام الناس حتى بالموت لاختيار الأمر الأفضل ، ولا يحزن على مالا درك فيه ، ولا يضطرب عند مايفدحه من المصائب ، ويكون غضبه إذا غضب بمقدار مايجب ، وعلى من يجب ، وفى الوقت الذى يجب ، وكذلك يكون انتقامه على هذه الشرائط ؛ فإن الحكماء قالوا : إن من لا ينتقم يلحق قلبه ذبول ، فاذا انتقم عاد إلى حاله من النشاط .

والانتقام محمود مادام فى حدود الشجاعة : فليس بمحمود عمل من يقدم على قرن قوى أو خصم ألد لا تستطاع مقاومته ؛ لأن ذلك تغرير بالنفس ، بل جدير تربص الفرصة ، واستعمال الروية والبصيرة .

---

(١) الصلف المتمدح بما ليس فيه

ليس حريا بفضيلة السخاء من بذل أمواله طلبا للسمعة والرياء أو تقربا إلى الحكام، أو لاتقاء سفيـــه أو عياب، أو بذلها لمن لا يستحق من أهل اللهو والمجون، أو لطمع فى أكثرمنها تجارة ومرابحة، بل الجدير بهذه الفضيلة من أنفق فى وجوه البر والخير، وآتى ذوى القربى حقوقهم. ووصل الفقراء والمساكين وأمد دور العلم وملاجىء الأيتام، قاصدا وجه الغنى الكريم. لا يرتضى الخلقيون أن يسموا بالعدل من عمل به فى بعض الشئون رياء ونفاقا يبتغى به اقتناص كرامة أو جمع حطام أو تحصيل شهوات، بل العادل فى فى الحقيقة هو الذى يعدل قواه وأفعاله وأحواله كلها، حتى لا يزيد بعضها على بعض، ثم يتبع ذلك فيما هو خارج عنه من المعاملات قاصدا فى جميع ذلك فضيلة العـــدل نفسها، لا غرضا آخر سواها؛ فانما الأعمال بالنيات اه بتصرف.

وأورد ابن مسكويه فى مقام آخر كلاما يعرب عن رأيه فى الحكم الخلقى على الأعمال إذ يقول:

ترجع أعمال الضرر إلى أربعة أمور:

آحدها ـ أن ينزع المرء ويميل إلى أن يصيب الناس أذى دون أن يجد فى ذلك لذة أو اغتباطا، بل ربما كان متألما به كارها له إلا أن قوة الميل الفطرى تحمله على اقتراف ذلك.

وثانيها ـ أن يتعمد الاضرار بغيره على سبيل الايثار له والالتذاذ به، كمن يمشى بالوشاية والسعاية عند الحكام، ليزيل نعمة لا يصل إليه منها شىء.

وثالثها ـ أن يقصد فعلا ما فيعرض منه فعل آخر خطأ لا يقصد به الاضرار ولا الالتذاذ، بل بالعكس يحزن ويكتئب لما جاء على يديه من الخطأ.

ورابعها ـ أن يقع منه العمل اضطرارا لا اختيارا، كمن ركب دابة فصدمت

صديقا له فقتله ، فهو لم يبدأ العمل وليس له فيه قصد :

أما الأول فنى حكم المعذر المعفو عنه ،

وأما الثانى فلئيم الطباع ذميم الأخلاق حقيق بشديد العقاب .

وأما الثالث فغير ملوم .

وأما الرابع فمعذور لا يجب عليه عتب ولا عقوبة ، ثم قال :

إن السكران أو الغضبان أو من فى حكمهم جـدير باللوم والعقوبة إذا جاء على يديه عمل صحبه ضرر لغيره ؛ لأن مبتدأ أفعالهم منهم : فالسكران أزال عقـله باختياره ، والغضبان اختار الانقياد إلى قوة الغضب ، فركب به متن الشطط اه بتصرف قليل .

رأى جمهور الخلقيين من العلماء الغربيين

تمهيد

الانسان حر مختار

لما كانت إرادة الانسان تستمد من بواعث بعضها شريف وبعضها دنىء قد لا ينم عليها العمل ، فلا نرى إلا أعمالا ونتائج ـ وجب أن نتعرف هذه البواعث سواء أكانت قريبة أم بعيدة كما تقدم حتى نقدر العمل الخلق قدره . هذا هو الذى حدا بعلماء الأخلاق إلى أن يتساءلوا : آلقيمة الخلقية للعمل الظاهر وحده ؟ أم للنية فقط ؟ أم لهما معا ؟ :

يرى علماء الأخلاق أن المسئولية لا تتحقق إلا إذا وجد الاختيار ، فلا ينبغى أن يثاب الإنسان أو يعاقب على ما فعل ، بل على ما قصد أن يفعل ، فلا يعتدون بغير النية ؛ لأنها وحدها منشأ ما للعمل من قيمة . ويؤيدون رأيهم بأن القانون المدنى نفسه رغم اهتمامه بالعمل الظاهر ـ لا يعول إلا على النية .

ومن هنا جاء الفرق الذى قرره بين الجريمة المسبوقة بالإصرار والخالية منه : فنتيجة الجريمة فى الحالين واحدة بالإضافة للمجتمع ، ولكن القانون يعاقب عقابا شديدا على سبق الإصرار ؛ لأنه يدل على تأصل الشر فى النفس .

كذلك يفرق بين الجريمة والشروع فيها : فهو يعاقب على الشروع ، ولو أن المجتمع لم يلحقه ضرر ؛ إذ لم يوجد فى هذه الحال مجنى عليه ، ولكن وجد الجانى . غير أن القانون يقف متى عدل المجرم بإرادته عن المضى فيما شرع فيه ؛ لأنه يقدر له هذا الرجوع إلى الخير ويرى فيه ضمانة للنظام .

فمن هذه الأمثلة نرى أن حكم القانون غالبا وحكم الضمير دائما إنما يتعلقان بنية الأعمال لا بإنفاذها .

نعم : قد توجد أحوال ينقص فيها الاختيار إما مباشرة وإما بستر الفعل من غير أن تزول التبعة وذلك حينما نكون نحن السبب فى هذا النقص للعقل أو الاختيار :

فالطبيب المستنير الذى يدرس ما استطاع علة المريض وخواص الدواء ، ثم يقدمه إليه يكون بريئا إذا جهل استحالة الدواء قاتلا لسبب ما بدل أن يكون شافيا . ولكن أيستطيع أن يعتقد لنفسه البراءة إذ لم يوفه حقه من الفحص والدرس ؟ بدهى أنه لا يعتقد ، وبدهى كذلك أن خطأه هذا وإن كان عظيما يخالف أشد المخالفة حاله لو تعمد إعطاء السم مكان الدواء .

كثيرا ما نصادف فى الحياة أحوالا مشابهة لهذه الحال : فقد نأتى الشر غير عامدين ، فينبغى أن لا نعتقد لأنفسنا البراءة لحسن الأسباب ؛ إذ كنا نستطيع - لو عنينا - أن نخلص من الخطأ الذى تورطنا فيه : فالقاضى الذى يرى العدل ويحيد عنه فى حكمه شر المجرمين ، وإذ أخطأ العدل لعدم عنايته كان مجرما كذلك ، ولكن إجرامه فى هذه الحال أقل من إجرامه فى الحال السابقة ، وحينئذ عليه أن يقوم بالتعويض المدنى ؛ إذ يوجب عليه ضميره إيجابا مطلقا أن يعوض ما استطاع من ماله الضرر الذى جاء من طريقه .

وقد روى عن « شاميلار » وزير لويس الرابع عشر نادرة فى العدل تستحق أن تكون نموذجا لمن يتصرفون فيما لأبناء جلدتهم من ثروة وشرف : فقد كان مقررا للبرلمان فى قضية حكم فيها ، ثم جاءه المحكوم عليه وجعل يذكر ما لحقه من ضياع ثروته ويعلن شكواه من الحكم عليه ذاكرا صكا يرى أنه يكسبه الدعوى فأجابه « شاميلار » وكان يسمع له بلطف وصبر : « إن هذا الصك كان يكسبه الدعوى حقا لو أنه قدم ولكنه ليس بين أوراق القضية » .

ولما أصر المشتكى راجع « شاميلار » الأوراق فاذا فيها ذلك الصك الذى كان أهمل النظر فيه . هناك استفزت عزيمته وطلب من المشتكى أن يغدو عليه . وإذ لم يكن الحكم يقبل الاستئناف فقد مضى « شاميلار » ليلة يجمع من المال ما يوازى الضرر الذى أصاب صاحبه ، فلما اجتمع له هذا المال قدمه إليه مخرجا نفسه بذلك من كل ثروته .

وهو لم يَعْدُ فى ذلك أن أدى واجبه ، ولكن ما أجمل أداء الواجب إذا صحبه بذل عظيم ! !

على هذه المبادىء ينبغى أن تقدر الأعمال التى تقع فى حال السكر أو الغضب : فالرجل الذى يضطرب عقله اضطرابا شديدا ، فيضرب آخر ضربة مميتة غير متعمد ليس كمن يريد القتل وينفذه هادئا وهو مع ذلك مجرم ، فان كان سكران فلتعرضه للسكر لاقتراف الجريمة ، وإن كان مغضبا فلأنه جعل لهذه الشهوة ذات الأخطاء المعروفة سلطانا عليه ولم يقهرها .

وهناك حال لم يتفق عليها علماء الأخلاق وهى : أيعذر العامل إذا لم يخطىء فى العمل نفسه بل فى المبادىء التى يحكم بها عليها ؟

لنضرب مثلا لايضاح ذلك :

الطبيب الذى يقدم السم معتقدا أنه دواء مخطىء فى الصميم من عمله . فلو أن هذا الطبيب كان طبيب نيرون ثم اختار أن يعطيه السم معتقداً أنه يعمل خيرا لا شرا فهو مخطىء فى جوهر مهنته غير مقدر مبلغ سفهه . فهذا الذى نريد أن نعرف أيبرئه خطؤه أم لا ؟

فالقانون الانسانى لا يرى مثل هذا الخطأ مبرئا ؛ إذ لا يرضى أى مجتمع أن يخالف مخالف قانونه آمنا لا يلام ولا يسأل ، فذلك خروج على القانون الطبعى . نعم هنا حال فذة بعذر المخطىء فى الصفة المعنوية للعمل وهى حال البله :

فالقاضى الحكيم هو الذى يقدر منشأ الخطأ قدره ، فيفحص عنه ليعلم

أدعت إليه رذيلة من الرذائل أم أوحى به شعور شريف ؟ أفكان من اليسير قهره ؟ أم أتيحت فرص للاسترشاد فأهمل ؟ ولم كان هذا الاهمال ؟

وهو الذى ينظر للعمل نفسه ؛ ليتبين : أوقع الخطأ فى وصفه مباشرة أم فى رأى ذائع يبيح العمل الردىء لغرض شريف ؟ فالسرقة عمل ردىء : فلنفرض أن شخصا ارتكب السرقة معتقدا بنية خالصة أن السرقة حق له ، فخطؤه ناشىء عن أمرين : اعتقاده مذهباً يبيح السرقة ، أو أنه إنما يسرق مبلغاً صغيراً من لص غنى ليسدى به معروفاً إلى شريف بائس . فالخطأ مطوى فى كلتا الحالتين :

أما فى الأولى : فلأن من المحال أن نقبل مذهبا تخالف نتائجه أحكام الأخلاق من غير أن ندنس عقلنا وإرادتنا .

وأما فى الثانية : فلأن صفة الأعمال ثابتة لا يغيرها ما يضمره العامل .

ولشرح ذلك نبدأ بالكلام فى وصف المجرم الذى أخطأ فى الوصف المعنوى للعمل لمذهب يعتقده :

ذلك بأن للقوانين الخلقية صفة ليست لغيرها من قوانين العقل ، فكما أن قلب القوانين المألوفة للعقل ليس إلا جنونا فقلب القوانين الخلقية اتباعا للهوى أو للرأى ليس إلا سقوطا .

كذلك للقوانين الخلقية تحول دون مخالفتها من غير اشمئزاز - فاذا ما أصاب الشقاء نفسا فاضطرها إلى أن تذهب مذاهب تبيح القتل والسرقة لم تصلح هذه المذاهب عذراً من الأغلاط . وإذا أخذ المجرم العادى بجريمة واحدة وجب أن يؤخذ هؤلاء بكل ما تؤدى إليه مذاهبهم من الجرائم . فاذا كان للمجتمع أن يشفق على أصحاب هذه المذاهب فخليق به أن يشفق على من ضلوا بهم وليس ذلك من الصواب فى شىء :

وهاك أخطاء فى الصفة المعنوية للأعمال قد تكون أكثر شيوعا من الناشئة عن اتخاذ المذاهب :

(١) فقد نميز — ونحن مخطئون ـ بين اقتراف الاثم والمساعدة على اقترافه ؛ فما كان للقانون الانسانى ولا للضمير أن يفرقا بين مقترف الاثم ومن يشاركه فى اقترافه ؛ فالاجرام إنما هو الاشتراك فى انتهاك حرمة الأخلاق

(٢) قليلا مانخطىء فى الطبيعة الجنائية لكل اشتراك مدبر يجر إلى نفع الشريك . ولكن كثيرا ما يكون الاجرام نتيجة الطيش أو الضعف أو الكبرياء . أو التساهل فى غير موضعه تشجيعا لما يأتى به غيرنا من العبث ، فنظن أن شيئا من الندم على ذلك يكفى لارضاء الضمير ، وليس كذلك لمخالفته الواجب .

(٣) خطأ آخر منتشر فظيع : هو اعتقادنا أنا غير مشتركين فى عمل ردىء متى استفدنا منه من غير أن نشترك فيه ، ولكنا فى الواقع شركاء غير مباشرين فالاستفادة منه إعلان للرضا عنه . وفوق هذا نقترف جريمة أخرى بحيازتنا من هذا العمل ربحا غير مشروع . فليس هناك إلا فرق ضئيل بين السرقة وبين إحراز ثروة مصدرها غير مشروع

مما تقدم يتبين أن إباحة الشر وجعله طريقا للخير على علم بأنه شر مذهب مرفوض ممقوت على شهرته .

لقد ميزنا فيما مضى بين ظاهر العمل والنية ، وبينا أن العمل لا يتم دائما كما نريد ، وأن إرادة العمل لا العمل نفسه هى التى تكون موضوع حكم الضمير :

أردت شفاءك فقتلك الدواء لأمر أجهله ، فلست مأخوذا بموتك . وأردت قتلك فقدمت إليك ما كان فيه شفاؤك ، فأنا قاتل أمام الله والضمير . قد رأينا حالة كان القتل فيها بريئا لأنه غير مقصود ، وقد يكون مقصودا وبريئا معا كقتل الجندى عـــدوه دفاعا عن الوطن ، وهذا هو الفرق بينه وبين القاتل انتقاما لذلك.

لذلك وجب أن نفرق بين الأعمال تبعا للنية : فهناك فرق بين من يخرج عن ثروته لقومه ووطنه، ومن يخرج عنها طلبا للأجر والعوض : فالأول شريف نبيل المقصد ، والثانى تاجر معتاض .

إن النية السيئة تحيل الخير شرا ، ومحال أن تجعل النية الخيرة الشر خيرا ، ولذلك خطرت إرادة الشر علينا مطلقا ، فلا يصح أن يقال : إن حظر الشر مشروط ، وإن قوانين الأخلاق تبيح لنا الشر القليل فى سبيل الخير الكثير .

يقول الضمير : لا تقتل . لا تسرق . لا تحنث . لا تزن - بصيغة قاطعة مطلقة . فتلمس الأسباب واتخاذ المذاهب والميل مع الهوى ، وعدم الاصغاء لصوت الضمير - هو الذى يجعلنا نستبيح الخروج على القانون للمنفعة ، والقتل للانقاذ ، والسرقة للاعطاء .

إذا ساغ لمعترض أن يعترض على القانون الانسانى الذى قد يخطىء ويظلم - فكيف يسوغ له ذلك بالنسبة إلى القانون الالهى فيذهب مذهبا أساسه - « صواب مخالفة الحق فى سبيل المنفعة » زاعما أنه خروج عن حق صغير فى سبيل منفعة كبرى . نعم قد تكبر المنفعة وتصغر ، ولكن الحق مهما كان أمره فلن يكون صغيرا . وعجيب ألا نتساهل فيما يمس الجاه والمال ، ثم نتساهل فى الأخلاق . إذا كانت الأخلاق من وضع الانسان كانت محل نظر ، وإذا كانت من عند الله فالخضوع لها واجب ، وقد يكون حكمها شديدا ولكنه لا ينقض .

علم الأخلاق كما نفهمه - استفتاء ساذج للضمير وشرح واضح لما يوحى به .

ومتى تحققنا وجود قانون خلق من عند الله كان من العبث أن نبحث عنه : أمفيد هو أم غير مفيد ؟ فانا مأخوذون بطاعة هذا القانون ؛ لأنه يجلب الخير ويدرأ الشر ، ولن يخرج عليه خارج إلا ليقضى على نفسه بالشقاء .

إن المذهب القائل : « إن الغاية تشفع للوسيلة » ، وإن استهوى النفوس

ـ من أشنع المذاهب وأسوئها أثرا : يضيع النظام ويقيم الفوضى مقامه ، ويفسد الأخلاق ؛ لأنه مطية للشهوات وسبيل السيئات

إن من أهل النظر من ينتصرون للجرائم الناجحة ، فيرون أن النجاح مسوغ ، ويعيبون على الخلقيين إصغاءهم لصوت الضمير ، ويصفونهم بقصر النظر وعجز العقل ، ويتحدثون عن كبار المنافع الانسانية ، وإنقاذ الشعوب من معاذير الطغاة والطامعين ، وكان عليهم حقاً ألا يتحدثوا عنها إلا زارين عليها ؛ فإن المنفعة الأولى للإنسانية ألا تستحيل الجريمة بفضل أولئك المادحين إلى عمل من أعمال البطولة ، وألا تمس قضية الحق والواجب بأذى

لا يتفق العمل مع الأخلاق حتى يكون عدلا وتظهر نية العامل حتى لا يستحيل العمل العدل غير أهل للمثوبة ؛ فان العدل يقدر كل مالنا من عمل ونية ، ولن نستطيع أن نجد منه مهربا .

القانون والحرية

هما القطبان الضروريان لفلسفة الأخلاق

فحين لا ينطق العدل ، وحين تتضارب البواعث على العمل ـ نكون أحرارا فى الاختيار . ولما كان كل من المنفعة والشهوة الشديدة خصما للانسان كان خليقا أن يتعود قهرهما ؛ فكل انتصار عليهما خير حتى ولو لم يكن العدل موضوع الخصومة ؛ لأن هذا الانتصار يزيد قوتنا على أنفسنا ، ويضاعف أملنا فى الظفر حينما ندافع عن العدل ، ويمكننا أن نضع مبدأ : هو أن العدل إذا لم يكن موضوع الجهاد بين شهوتين كان من الحكمة أن نتخير من هاتين الشهوتين أبعدهما عن الخصوص وأدناهما إلى العموم .

فينبغى إذن أن نؤثر حب الله على حب بنى الانسان ، وحب بنى الانسان على حب النفس ، وفى حب النفس ينبغى ان نؤثر حب الكرامة على حب اللذة الذى هو أدنى إلى الأثرة ، وفى حب بنى الانسان ينبغى أن نؤثر حب الوطن كله على حب الأسرة والمنزل .

هنا يعرض سؤالان: الأول: ما العدل؟ والآخر: هل تجب الطاعة المطلقة للعدل متى حكم دون رعاية للمنفعة الخاصة؟

أما جواب الأول ـ فالعدل وضع الشيء في محله وإيصاله إلى مستحقه، لا وضع المصالح حيث تكيفت، واستجلاب المنافع من حيث تهيأت، ودفع المضار عمن به حلت: ألا ترى لو أن حكومة تصدقت على الأغنياء، وعفت عمن استوجب العقوبة ـ لكانت قد أحسنت إليهم، وأنعمت عليهم. غير أنها وضعت الشيء في غير محله، وأنزلته عند غير مستحقه، والأمور إذا عدل بها عن مواضعها، وقصد بها غير مقاصدها.. ظهر فيها الخلل وتبين فيها النقص. والعدل شيء تألفه النفوس، وتعتقده القلوب، وتطمئن إليه. ويحلو للمحقق مره، ويسهل على الموفق صعبه. ولهذا ينطاع للحق، وينقاد للقصاص، ويخضع للحكم: قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ»

تأمل قول بعض الحكماء: «عدل السلطان خير من خصب الزمان. وأفضل الأزمنة زمان أئمة العدل» وقول بعض الأدباء: إنما تصلح الامامة بمن لا يسلم الاسلام، ولا يفارق الفرقان، ولا يمل الملة، ولا يعدل عن العدل.

قال جمهور الخلقيين من العلماء الغربيين: النية هي الغاية التي يراد تحصيلها، والباعث ما يدفع صاحبه إلى اقتراف عمل معين. والقصد توجه العقل، وانبعاثه إلى تحصيل غاية مرومة، فهو حركة عقلية.

والنية في عرفهم ذات ضروب مختلفة:

فمنها نية قريبة، وأخرى بعيدة:

مثل ذلك أن ينوي اثنان إنقاذ امرىء من الغرق: بيد أن أحدهما يريد تنجيته من مخالب المنون إشفاقا عليه واستحياء له، والآخر يحول بينه وبين الغرق ليقتله قصاصا، فقد اتفقا على الغاية القربى، وهي إنقاذه وتنجيته، واختلفا في شأن مصيره.

ومنها نية ظاهرة ، وأخرى باطنة :

ومثل ذلك أن فيلسوفاً مر بنهر فأبصر به كلباً أيشرف على الغرق ، فسارع إليه فأنقذه ، وبينا هو يجففه إذ قدم عليه رهط فلما شاهدوا صنيعه طفقوا يفيضون عليه آيات الثناء والمدح، فما عتم أن قال لهم : ما أنجيته رحمة به أو إشفاقا عليه ، وإنما هو الذعر استولى على قلبي ، فلم يسعني إلا أن أحول بينه وبين المنية ؛ ليذهب عني الألم وتهدأ نفسي .

ومن هذا يتبين أن النية الظاهرة هي تنجية الكلب ، والباطنة تهدئة رُوع المنقذ ، وإزالة ما ساور نفسه من الذعر والوجل .

ولقد جاء « في كليلة ودمنة » ما ينبيء عن ميل مخالف لهذا إذ يقول : « لم يؤجر مأجور بأعظم من أجر من استحيا نفسا هالكة ، ولا عوقب معاقب بأشد من عقاب من كف عن ذلك ، وهو قادر عليه ولو بمشقة ما خلا ذهاب نفسه »

ومنها نية مباشرة ، وأخرى غير مباشرة : ومثل ذلك أن ينوي خارج على « الحكومة » نسف قطار فيه خلق كثير بينهم حاكم هو المقصود بالأذى : فالنية المباشرة هي إهلاك الحاكم فحسب ، وغير المباشرة قتل من عداه ممن معه ؛ لأنه على يقين من أن الأذى لا محالة واصل إلى جميع من يقلهم القطار .

ومنها نية جلية ، وأخرى خفية ، (والمراد بالخفية ما تتحدث به النفس ويبقى فيها مكتوما) . ومثل ذلك : زعيم ينهض يطلب لأمته رد حقوقها المسلوبة ، ويسترجع مكانتها المنصوبة : فالنية الجلية هي أن يحاول أن ينتزع لها حقوقا من اليد الغاصبة الباطشة ، وغير الجلية ما قد تكون النفس منطوية عليه من كسبها الشهرة وتحصيلها بعد الصيت ، وحسن الأحدوثة . وهناك أقسام أخرى لا حاجة لذكرها .

الباعث

هو ما يحدو بالإنسان ويدفعه إلى أن يهمّ بعمل ما : فباعث الغضب مثلا هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها ، وباعث الحزن ما تكرهه ممن فوقها ، وباعث الحلم استنكاف السباب وقطعه .

أو الاستهانة بالمسيء ، أو القدرة على الانتصار التي هي من مستلزمات سعة الصدر وحسن الثقة بالنفس ، كما أشار إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ) .

وقول بعض الحكماء : (ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعا من السطوة)

أو الرحمة للجهال الذين لا يفقهون ، كما فعلت عائشة رضى الله عنها حين اغتاظت على خادم لها ، ثم رجعت إلى نفسها فقالت : « لله در التقوى ؛ ما تركت لذى غيظ شفاء » ، وكمثل معاوية رضى الله عنه : إذ قسم قطافا ، فأعطى شيخا من أهل دمشق قطيفة ، فلم تعجبه فحلف أن يضرب بها رأس معاوية ، فجاءه ، فأخبره ، فقال له معاوية : « أوف بنذرك ، وليرفق الشيخ بالشيخ »

ومثل الغضب الحزن وما يشابهه من مختلف أنواع الشعور التى لا تصلح أن تكون مناطا للحكم الخلق ؛ لأن المرء الذى يقترف العمل خوفا وفرقا مثلا لا يصح أن يقال : إنه عمل عملا يؤاخذ عليه أو يثاب إلا إذا ساغ إسناد العمل إلى الحجر يرمى به الغرض .

دع عنك أن السلوك فى نظر الخلق هو العمل المقصود المبيت ؛ فالشعور بوجوب العمل لا يكفى ، بل لا بد من تصور الغرض من العمل ومزاياه ومثالبه .

من أجل ذلك كان استشعار الشفقة وحده غير موجب للعمل ، وإلا حق على من شهد تمثيل رواية الرئيسة المتهمة مثلا وترقرقت الدموع فى عينيه - أن يسارع إلى إنقاذها والذود عنها .

نعم إن الشعور ذريعة مفضية إلى العمل : ومثل ذلك أنك رأيت إنسانا فى حال بئيسة ، فوجدت من نفسك عطفا عليه وحدبا فمثلت بذهنك أنك إن أسديت إليـه شيئا بدلت من حاله وخففت عنه بؤسه وشقاءه : فتجميل حاله ، وتفريج كربته ـ هما المقصد المرغوب الذى يجدر أن يحملك على إصلاح حال أخيك وإنقاذه من النوائب التى تداهمه ، وهذا المقصد هو مناط الحكم الخلقى :

ألم يأتك نبأ الخليفة المأمون حين حرم ندب البرامكة والبكاء عليهم : فقد أمر بالقبض على شيخ بلغه أنه يبكيهم ويندبهم ، بيد أنه لما مثل بين يديه لم يشأ أن يجعل ماظهر من شعور الشيخ مناط الحكم عليه ، بل أراد أن يتبين نيته ومقصده ، فسأله : بماذا استوجبت البرامكة منك ماتفعله فى خرائب دورهم ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، إن للبرامكة عنـدى أيادى خطيرة ، فلقد لبثت فى ديارهم ثلاث عشرة سنة ، وأولادى معى ، نتقلب جميعا فى الحرير والديباج ، حتى خفى على النـاس : أمن البرامكة أنا ؟ أم رجل غريب اصطنعونى ؟ فلما جاءتهم البلية ، ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد مانزل ـ أجحفنى عمرو بن مسعدة وألزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج مالا يفى دخلهما ، فلما تحامل على الدهر كنت فى أواخر الليل أقصد خرابات القوم فأندبهم ، وأذكر حسن صنيعهم لى ، وأشكرهم على إحسانهم ، فعنـد ذلك أمر المأمون برد كل ماله إليه . فعلا نحيب الرجل وبكاؤه ، فقال له المأمون مايبكيك ؟ فقال : إن عملك هذا معى هو من صنيع البرامكة ، فلو لم أندب ديارهم وما صلت إلى أمير المؤمنـين ، وماغمرنى عطفـه وفضـله . فقال

المأمون : لقد قلت حقا ! فعليهم فابك ، وإياهم فاشكر ، ولهم فأوف ، ولإحسانهم فاذكر .

فمن هذا القصة يتبين أن المأمون بما فطر عليه من نفوذ البصيرة وجودة الذهن وسلامة الخلق أراد ألا يحكم حتى ينقب عن مناط الحكم ، فلما تبينه فى حسن النية والقصد جازى صاحبه بما هو جدير به .

العلاقة بين الباعث والنية

يتبين مما تقدم أن هناك رابطة قوية بين الباعث والنية ، ونضيف إلى ذلك أن نقول : الباعث لنا على عمل ما هو ذلك الدافع الذى يحدو بنا إلى اقترافه وذلك الدافع هو بلا نزاع عنصر من عناصر النية والمثل خير موضح :

إذا هم المصلح بدعوة فربما كان للباعث الذى جال بخاطره وجهان :

الأول — إصلاح حال بنى الانسان وإسعادهم

والثانى ـ كسب الشهرة لنفسه وبعد الصوت . وكلا هذين الوجهين داخل فى نيته ، غير أنه قد يكون مدركا مع هذا أن دعوته ربما أورثت إطلاق عقال الحرب وإذكاء نارها، فيعم الاضطراب، ويخيم الشقاء ، وتهب ريح الفناء والدمار ، وأنه ربما أوذى فى نفسه وماله وبنيه . فاذا صح أن هذه الشئون جائلة بخاطره فليس من المعقول أن يقال : إنها غير داخلة فى نيته . ومن أجل ذلك هى متغلغلة فى ثنيات العاقبة البراقة التى يبغيها من دعوته ، بيد أنه من المحقق أن هذه الأمور المخيفة ليست داخلة بحال من الأحوال فى تكوين الباعث الذى حدا به إلى تلمس إدراك ما يبغيه من النجاح ، ويرجوه من الظفر . هذا هو مبلغ المغايرة بين الباعث والنية .

ميزان الحكم على الأعمال والعاملين

(١) الحكم على الأعمال

الحكم تقرير أن الأعمال مطابقة للمبدأ الخلق أو غير مطابقة، وهو يحصل من مقابلة التصرفات والأفعال البشرية والموازنة بينها، ولا يحكم على الفعل إلا إذا كان صادرا عن إرادة نفسية بشرية؛ فلا حكم على هياج البحار، ولا فيضان الأنهار، ولا افتراس الوحوش، ولا على الجندى الذى ينفذ أمر قائده.

وليس المراد به الحكم على ذات الشىء أو الفعل، كأن نقول: هذا سهل أو صعب وذاك رخيص أو غال، بل المراد الحكم عليهما بالقياس إلى مبدأ مقرر ووضع معين. فللحكم عنصران: الأول - الموضوع الذى نحكم فيه، والثانى. المبدأ الذى نستند عليه. وإسناد الحكم إلى الموضوع طبقا للمبدأ المقرر يختلف باختلاف مقتضيات الأحوال، وبحسب رسوخ المبدأ أو قبوله للتغيير: فاذا كان المبدأ سنة طبعية ثابتة فلا معنى للحكم فيها كشروق الشمس صباحا وغروبها مساء، وسقوط الحجر على الأرض إذا رمى من عل، وكذلك إذا كان مقتضى الحال ثابتا فلا معنى للحكم، أما إذا كان قابلا للتغيير بحسب الزمان والمكان وحال النفس فلا غنى عن الحكم: فتعمد القتل جريمة؛ لأنه ينافى المبدأ الخلق، ولكنه ليس جريمة فى حرب الدفاع عن النفس أو الوطن. والغيبة إثم، ولكن المظلوم قد يضطر إليها لبث شكواه.

ومبادىء الحكم الرئيسة هى: الجمال والقبح، الجودة والرداءة، اللذة والألم، الصواب والخطأ، الحق والباطل، الفضيلة والرذيلة:

الجمال والقبح - يقعان تحت حكم الذوق العقلى أو الاحساس العصبى؛ لأن الاحساس يقرر حلاوة الحلو ومرارة المر. والذوق العقلى يقرر جمال النغم والصور والقصيدة، ويستقبح النهيق وسوء الترتيب.

أما الجودة والرداءة ـ فيقعان تحت حكم الشعور الوجدانى الذى يقرر أن إغاثة الملهوف مروءة فهى عمل جيد ، والاعتداء على الضعيف ردىء ؛ لأنه ظلم ، والظلم مبدأ ردىء .

واللذة والألم ـ يقعان تحت حكم الشعور الوجدانى تارة وتحت حكم الاحساس العصبى تارة أخرى : فالأول يقرر أن الربح لذة والخسران ألم ، والثانى يقرر أن الراحة بعد التعب لذة ، وأن العمل الشاق أليم .

والصواب والخطأ ـ يقعان تحت حكم التعقل : فهو الذى يقرر أن اجتياز المأسدة خطأ ؛ لأنه مجازفة ، وأن السير فى الطريق المطروق صواب لأمنه .

والحق والباطل ـ يقعان تحت حكم الضمير فهو الذى يقرر أن إيفاء الدين حق ، وأن اهتضام مال الغير باطل ؛ لمخالفته المبادىء القانونية .

والفضيلة والرذيلة ـ تقعان تحت حكم النبالة الانسانية ، فهى التى تقرر أن حب غيرك كنفسك فضيلة ، وأن بغض الناس رذيلة ، وأن الكرم فضيلة والبخل رذيلة .

وكلما سمت القوة الحاكمة كان حكمها فى باب الأخلاق كبير القدر جليل الخطر ؛ لأنها حينئذ تخشع أمامها العيون وتعنو لها الجباه ، وتلك غاية تتراجع عنها سوابق الهمم ، ويقصر عن إدراكها المتناول .

وكلما نزع الشعور والوجدان عن قوس التعقل ، وائتمرا بمشورته ـ كان الحكم أقرب إلى السداد والاصابة .

(٢) ـ الحكم على العاملين

كما يحكم على العمل بأنه خطأ أو صواب يحكم على العامل بأنه مصيب أو مخطىء باعتبار إرادته ، ولا غرو فإنما الأعمال بالنيات : فاذا رمى زيد عمرا بتفاحة ليأكلها فأصابت عينه وفقأتها فالفعل سىء والفاعل حسن النية ؛ أما

لو رماه بها ليفقأ عينه فتلقفها بيده وأكلها فالفاعل مخطىء والفعل صواب، فاصابة الحكم تتوقف على الفعل وما اقترن به من النية: فاذا كانت الارادة صالحة، والوسيلة مرضية، والداعي حسنا وجب الحكم بالحسن

ويجب أن تكون هذه الارادة مقرونة بالتعقل بعيدة عن التهور؛ ليكون الانسان مصيبا فى أعماله، وإن أخطأ نُسِبَ خطؤه إلى الأحوال العارضة لا إلى الداعى: فاذا وضع الصياد طعما للسمك ليصيده فأكله السمك وشبع به ولم يعلق بالشص - عد العمل بالنسبة للسمك سيئا؛ لأنه كان ينوى إيذاءه، وكذلك إذا أعطى مرب إنسانا مالا قاصدا الحصول منه على فائدة مضاعفة فاتجر آخذ المال به فربح فقضى دينه وأثرى كان الفعل سيئا تبعا لنية الفاعل التى هى مناط الحكم

على أن المقاصد والنيات تختلف من حيث الغاية وتتفاوت فى درجة الصواب باختلاف التعقل والتبصر فى عواقب الأمور؛ فاذا أعان شخص آخر على عمل رجاء إنجاحه فيه وكان المعان جاهلا طائشا، فلم يحسن القيام بالعمل، وأخفق فيه - كان المعين حسن النية ولكن تعقله غير صالح. ومثله من أعطى جائعا خمسة قروش ليسد بها حاجة حافزة فسكر بها وعربد فنيته حسنة ولكن تعقلة ناقص؛ إذ لم يتعرف وجه الحاجة ويسدها. ولو أعطاه رغيفا بدل القروش لأحسن.

ولا يصح الحكم بالخطأ أو الصواب على المحرك الغرزى؛ إذ لا إرادة للانسان فيه: فاذا فوجىء إنسان بأفعى بين رجليه فخاف وهرب - فلا يعد جبانا؛ لأن هروبه كان بمقتضى الغريزة التى تحافظ على الحياة. أما إذا رآها من بعد وتعقل ضررها وروى فى منع أذاها ولم يقتلها - فحينئذ نحكم عليه بالجبن.

وضرب الغضبان، وعربدة السكران وإن كانا بلا إرادة منهما فيهما المؤاخذة؛ لأن الأول لم يقاوم أسباب الغضب، بل سارع إلى تلبيتها، والآخر ابتدأ الشرب بارادته.

ومن هذا نحكم على من يستسلم لغرائزه وعواطفه وانفعالاته بأنه ضعيف الارادة عاجز عن ضبط هواه وأن شخصيته غير صالحة .

وصفوة القول أن الذى يراعى فى الحكم الخلقى حتى يكون صحيحا هو نية العامل ، وأن الحكم صدر تبعا لنيته ومقاصده :

فالرجل الذى يقف مالا على عمل خير ، فيتولاه قوم سفهاء وينفقونه فى غير وجهته ، ويستعينون به على المفاسد والشرور ـ يحكم على عمله بأنه خير ولاينظر إلى نتيجة العمل مادامت النية عمل الخير

والقائد الذى ساق دولته إلى الحرب دفاعا عن وطنه واثقا بالفوز قاصدا خير أمته ، ثم خانه الحظ ، فانهزم جيشه وغلبت أمته ـ لايحكم على عمله بأنه شر ؛ لأنه ماقصد إلا الخير .

والمحسن الذى يرى شيخا فانيا يسير فى البرد القارس أو الحر اللافح يحمل متاعه فوق ظهره ، فيحن عليه ، ويعيره سيارته لنقله إلى حيث يشاء ، ثم تتردى هذه السيارة فى هوة فيقضى على الرجل ـ لايقال : إنه أتى شرا ، بل عمله الخير المحض ؛ لأنه مانوى إلا الخير .

والسمسار الذى يروج أرضا يعتقدها فاسدة التربة ، ويُغرر ببعض الناس فيشتريها فيجد فيها كنزا ثمينا وتأتى له بالخير والثراء ـ يحكم على عمله بأنه شر ؛ لأنه قصد شرا ، وإن كانت النتيجة نفعا للمشترى .

فالمعول عليه فى الحكم الخلقى إنما هو النية : فاذا كانت خيرا فالعمل خير ولو أدى إلى ضرر ، وإن كانت شرا فالعمل شر ولو أدى إلى نفع .

نرى من هذا أن العمل قد يقصد به الخير فيفضى إلى شر ، وقد يراد به الشر فيؤدى إلى خير ، وقد يكون يطلب به النفع فيورث ضرا ، وكذلك العكس ، وأن الرجل الطيب الخير قد يصدر عنه الضرر أحيانا . ولكن لايحكم عليه بأنه شرير . نعم قد تكون المسئولية من جهة التفريط وعدم

الحيطة والنظر فى العواقب : فالقائد فى المثال السابق ، وإن كان عمله خيرا ـ يسأل عن تقصيره فى عدم التبصر بالعواقب والموازنة بين قوة أمته ، وقوة الأمة الأخرى ، فإن ثبت تقصيره فى ذلك أوخذ من هذه الوجهة فحسب ، ولكن هذا لا يصف عمله بأنه شر أصلا ، ومصداق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى »

أما الأعمال التى لا تصدر عن إرادة حرة فلا حكم عليها ، إذ لا اختيار فيها : فالبراكين والزلازل والعواصف والأمطار والوحوش ونحوها مهما دوت أو خربت من المدن والأقطار ـ لا يحكم على عملها ؛ إذ لا إرادة لها ولا اختيار .

موازنة بين الحكم الخلقى والحكم السياسى

يمتدح الخلقيون السيرة الحسنة ، واصطناع المعروف ، وبذل المال ، والسماحة والسعى فى منافع الناس ، وإيثارهم على النفس ، والوفاء بالعهد والإخلاص فى السر والعلانية ، ويستهجنون السيرة الرديئة ، والشح ، وفعل الأذى والأثرة ، ونقض العهد والنفاق ، والرياء : أيريدون بذلك أن التحلى بتلك الفضائل والابتعاد عن هذه الرذائل واجب على آحاد الأمم فحسب ؟ أم واجب كذلك على الجماعات القائمة بأمر سياستها وتدبير شئونها ؟

إن نظرة فى الأمور الواقعة التى يجب أن يتحاكم إليها العقلاء تكشف لنا أنهم لا يعنون إلا آحاد الأمم لا أهل الحل والعقد فيها ؛ لأنهم يرون أن حمل أولى الأمر على التزام مناهج الفضيلة فى سياستهم مناف لطبيعة العمران ، وحائل دون إقبال الزمان ؛ ذلك بأن رجل السياسة الذى يحاول أن يخلع ثوب دهائه ، ويقلع عن خليقة تحين الفرص ، ثم يتشح بثوب الفضيلة ، ويؤثر صفاء الباطن ، وحسن السريرة — إنما يعمل على خسران أمته وبلاده

وإضاعة حاضرها ومستقبلها ؛ لأن نظراءه من أهل السياسة فى الأمم الأخرى — يتربصون به الدوائر ، حتى إذا لمحوا منه غفلة هجموا على بلاده بخيلهم ورجلهم ومدافعهم وطائراتهم ، فساموا أهلها سوء العذاب ؛ ثم سلبوهم استقلالهم ، وابتزوا أموالهم ومصادر خيراتهم ، وجعلو عزيزهم ذليلا ، وعظيمهم حقيرا .

ها نحن أولاء نرى الدول تبذل غاية جهدها فى صنع البنادق والمدافع والمدرعات والغواصات والطرادات والطائرات والدبابات وما إليها من أدوات الهلاك والتخريب ، وأن أى دولة تطرح الحذر واليقظة ، وتأخذ فى أسباب التخلق بالأخلاق التى يدعو إليها مذهب « الانسانية » فتحول أسطولها الحربى إلى أسطول تجارى ، وتسرح الجيش ، وتدك المعاقل والحصون ؛ لتعيش عيشة هنيئة ، وتلتذ بلذة الرحمة والشفقة والاخلاص - لهى مغزوة فى عقر دارها ، خاسرة عزتها وكرامتها .

ومن المستنكرين لمذهب « الانسانية » الأستاذ « جوستاف لوبون » إذ يقول فى كتابه « جوامع الكلم » : إن الجرى على مذهب «الانسانية» ليس من الفضيلة فى شىء ؛ فالعمل به مضعف لقوة الأمم ، خاضد من شوكتها ودواعى الزجر فيها ، موهن لسلطان العقوبات وهيمنتها ، مفض إلى ازدياد الجرائم ، وانحلال عراها ، فلا تقوى بعد على الذود عن حماها ، والدفاع عن كيانها .

مما تقدم يتبين مؤيدا بالواقع أن الوجهة السياسية للأمم تتنافى مع الوجهة الخلقية : ألم تر أن « فردريك الأكبر كان قبل أن يولى - يدعو إلى التخلق بما يقتضيه مذهب « الانسانية » ، فلما تسنم العرش أجاز عمل كل شىء فى سبيل المصلحة العامة والسعادة الشاملة .

أضف إلى ذلك أن السياسة تستمد قسطا كبيرا من الرأى العام والرأى العام قلوب متحول : قال « بلونتشكى » : من تأمل أحوال الرأى العام عراه الدهش

والعجب ، وأدرك أن نظره إلى الأمور لا ينفذ إلى باطنها ؛ فقد تراه يحكم حكمين مختلفين على عملين من ضرب واحد على حسب مايراه من اختلاف المقصد والغاية : فلو أن قائدا منتصرا عاهد المغلوبين على أن يعاملهم بالعدل والانصاف على شريطة أن يسلموا إليه الحصون التى يتمنعون فيها ، حتى إذا سلموها إليه نقض عهده ، وخالف شروطه وعاملهم بالقسوة والجبروت — لرأيت الرأى العام يمقت هذا القائد وفعله ، فيقدح فى شرفه وذمته وأمانته وعهده ، بيد أن نقض العهد لو جاء من مغلوب فاستطاع أن يسوم غالبه سوء العذاب ويمثل به شر التمثيل — لرأيت الرأى العام نفسه يستحسن العمل ويحبذه وينوه بفاعله وينصره .

هذا هو مبلغ الحكم السياسى ، أما الحكم الخلقى فيستنكر بتاتا التنكيل والتعذيب والالتجاء الى الظلم والعسف والنزوع الى الجبروت والصلف .

ومما يؤيد قيام الفارق بين الحكم الخلقى والسياسى مانراه فى كتب التاريخ من إطراء القتل فى وقت واستهجانه فى وقت آخر :

نرى جمهور المؤرخين يستقبحون من بروتس قتله « قيصر » .ويعتقدون قتل « بولس الأول » عاهل روسية ضرورة سياسية . نراهم ينوهون باسم « وليم تل » قاتل حاكم النمسا ، ويعتقدونه بطلا مقداما ، ثم يستنزلون اللعنات على قاتل « هنرى الرابع » وقاتل « إبراهيم لنكولن » رئيس الولايات المتحدة الأمريقية معللين هذا وأشباهه بقولهم : اذا كان فى القتل خلاص للبلاد مما هى فيه من الظلم ، وكان بقاء الظالم فيها مفضيا إلى خرابها وضياعها ، ولم تكن هناك وسيلة سوى القتل — فأهل التاريخ لايرون جناحا فيه .

وإلى ذلك أشار الفيلسوف « إسبينوز » بقوله : إنه كلب عقور ، فاقتلوه »

يتبين مما تقدم أن علماء الغرب يرون أن النظر إلى أعمال السياسيين بالعين

الخلقية بعيد من السداد، لأنهم يسترشدون فى أعمالهم بالمصلحة العامة والمحافظة على الدولة :

فالشئون التى تدعو إليها مقتضيات السياسة والملك تغفل عندهم من أجلها الوجهة الخلقية إغلاقا لباب الضرر فى زعمهم ودفعا لصنوف الشرور التى لو لم تدرأ بما ظاهره شر لاستفحل الخطب، وتفاقم الأمر.

ولقد ألمع الشاعر الألمانى الشهير « غوته » إلى مبحث تحصيل الخير من طريق ما ظاهره الشر إذ يقول على لسان الشيطان فى قصة له تدعى «فوست» : أنا بعض من تلك القوة التى تصل إلى الخير من طريق الشر . ولقد فسر هذا بأن بنى الانسان متى أحسوا أن شيطانا يريد اقتراف شر بذلوا غاية جهدهم لاتقائه ودفع ضرره . فايجادهم وسائل درء الشر وصرفه هو خير جاء من طريق الشر . ولقد استفاد علماء النفس من هذ المبحث فقالوا : لا يخلو الانسان من قوى شريرة تنزع به إلى الفساد والعرامة، وأنه يجب على القائمين بالتهذيب والتربية أن يكافحوا هذه القوى ، حتى يهيمنوا على أمرها ، ويسخروها فى سبيل الخير وتحصيله . ثم عدوا هذا داخلا فى باب كسب الخير من طريق الشر .

تربية الحكم الخلقى

ليس الناس سواء فى حكمهم الخلقى على الأعمال ؛ إذ لا تتحد وجهات أنظارهم إليها ، ولا تتساوى عقولهم ولا استعدادهم : فبعضهم ينظر إلى العمل من حيث ما فيه من لذة شخصية ، وبعضهم ينظر إليه من جهة مايعود منه على المجموع

وكلما ارتقت نفسية الشخص كان نظره إلى العمل من جهة المصلحة العامة

أتم وأعم : فخير الأعمال فى نظره أجلبها للخير العام ، وشرها ما لحق ضرره المجموع :

ولذلك تختلف الأحكام الخلقية على العمل الواحد باختلاف التربية وأحوال الأمم ، فقد يعد الأمر حسنا عند شخص قبيحا عند غيره ، وقد يكون العمل الواحد خيرا عند أمة متوحشة شرا فى نظر الأمم المتحضرة : كوأد البنات قديما عند العرب دون غيرهم .

وقد كان الفرد فى الجهالة الأولى يقيس العمل بمقدار ما فيه من نفع لنفسه ، ثم لأسرته وقبيلته أولا ، ولا يعبأ بما يجره العمل على غير قبيلته من ضرر : فقد رأى أحد السائحين أن بعض القبائل فى إفريقية لا تنكر أن يسرق أحد أفرادها مالا لأية قبيلة أخرى . ولكنها تشدد النكير على من يسرق مالا من أحد أفراد قبيلته ، وقد تعاقبه بالموت .

ثم ارتقى الانسان قليلا واتسع فكره ، فأخذ يقيس العمل بمقدار ما فيه من نفع لأمته ، ونظر إلى الأمم الأخرى نظرة عداء ؛ كما كان اليهود يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه دون سواهم ، وليس لغير اليهودى عليهم حقوق ، ولا جناح على الواحد منهم إذا اعتدى على غير أمة اليهود : يدل على هذا قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ »

ولما تبودلت التجارات بين الأمم ، وتعددت طرق المواصلات ، وربطت الدول بعضها ببعض ، وعمت الثقافة والحضارة أعظم أنحاء المسكونة ، ووجدت القوانين الدولية والخلقية ـ نظر الناس فى حكمهم نظراً أوسع وأصبح الفرد يشعر بأن الانسان أخو الانسان : لا يظلمه ولا يقتله ، ولا فضل لأمة على غيرها إلا بالأعمال العظيمة .

ولهذا نرى الآن المخترعين والأطباء والعلماء ينظرون إلى إسعاد المجموع

جهد استطاعتهم ، فتهون عليهم أنفسهم وأموالهم فى سبيل خدمة الانسانية . ونفع العالم أجمع .

فأنت ترى أن الحكم الخلق يتبع الأفراد والأمم رقيا وانحطاطا ويمكن تربيته بما يأتى :

١ ـ تبصرة الانسان بأنه جزء من هذا المجتمع الانسانى يسعد بسعادته ويشقى بشقاوته ، حتى يراعى فى حكمه المصلحة العامة ، ويؤثر مصلحة أمته على مصلحة نفسه ، ويعتاد إنكار الذات وإيثار غيره على نفسه .

٢ ـ تخليص العرف العام مما فيه من خرافات وأباطيل ، حتى يتكون عرف صالح ، يحمل الناس على مراعاة الصالح العام فى حكمهم على الأشياء

٣ ـ تعليم الشعوب ونشر الثقافة الصالحة بين أفرادها وبخاصة المبادىء الدينية القويمة حتى تثقف العقول ، وتتهذب النفوس ، وتكون أقدر على وزن الأعمال وزنا رائده قصد الخير والشر فيها ، فتصدر الأحكام الصحيحة

٤ ـ العمل على تلطيف الشعور وتربية الوجدان الراقى وتقوية الضمير الحى بتشجيع الفنون الجميلة وتغذية الروح بالسير والآداب ، والمواعظ الدينية ، ودراسة عظماء الرجال الذين آثروا مصلحة أممهم على مصالحهم الشخصية ، فكانوا مثلا نافعة ، وأسنا حسنة .

وما تقدم من الموازنة بين الحكم السياسى والخلقى يعبر عن رأى علماء الأخلاق الغربيين

وجلى أن ذلك المذهب ينكره الاسلام ويعافه ، فانه لا يرى أن الخير لا يأتى إلا بخير وأن الشر لا يعقب إلا شرا ، ثم هو يمقت الخداع إلا فى ميدان القتال دفاعا عن العقيدة والوطن ، ويستهجن نقض العهود :

تأمل قوله عليه الصلاة والسلام حين سأله سائل : يأتى الخير بالشر ؟ فصمت ساعة ، ثم قال : « كَيْفَ قُلْتَ ؟ » قال : قلت يارسول الله ، أيأتى

الخير بالشر ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم : (إنَّ الخَيْرَ لَا يَأْتِي إلاَّ بِخَيْرٍ) وتدبر قوله تعالى : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الخَائِنِينَ » — تجد أن الاسلام يعلن أنه لا يسوغ لمسلم أن يضمر الخيانة لعدوه الذي عاهده ، ولو لاحت من العدوّ دلائل الغدر ومخايل الشر ، بل الخليق به أن يظهر النقض ، ويخبر عدوه إخبارا مكشوفا بأنه قطع ما بينهما من وصله ؛ ليستووا في العلم بنقض العهد ، وقال تعالى : « إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ » وقال : « كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ »

وهذا ما دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى رد أبي بصير إلى المشركين وقد جاء مسلما ؛ وفاء بالعهد ، وتمسكا بما حصل بينه وبينهم من عقد .

ولما تضرع إليه أبو بصير بقوله : أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ ـ قال له المصطفى صلى الله عليه وسلم : (انطلق إلى قومك ؛ فإنا لا نغدر)

نعم إن الاسلام حث على اتخاذ الحذر والحيطة ، فقال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا » وقال : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ »

وقد تقدم في بابي الخير ومظاهر الأخلاق الاسلامية ما يدل دلالة قاطعة على أن الاسلام لا يعدل بالفضيلة بديلا بأي صورة سياسية أو غير سياسية ، ومن أي شخص حاكما كان أو محكوما ، بل يعد الخروج على الفضيلة لأي مقتض فاحشة وبغيا ، قال تعالى : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ »

محاولات عملية لتعرف الأخلاق الانسانية

تمهيد

قد قرأنا فى مقتطف يناير سنة ١٩٣١ م مقالا قيما للكاتب الفاضل « أديب عباسى » فى هذا الموضوع فآثرنا نقله هنا بتصرف واختصار قال :

وهل فى وسع الانسان قياس الأخلاق ؟ أنتمكن يوماً من إدراك هذا الأمل البعيد ، ونضحى قادرين على سبر غور النفوس ؟ فنستطيع تمييز الكاذب من الذى شيمته الصدق ، والخائن من الأمين ، والخب الماكر من ذى الخلق الثابت المتين ، . هل من حيلة تعيننا على تمييز الشجاع من الجبان ، واللئيم من الكريم ، والزاهد من ذى الطماح الشديد ؟ وأى شىء أشهى إلى النفس ، وأمتع لها من أن نكون على بينة ممن نحتك بهم ، ويحتكون بنا ، ونخالطهم ويخالطوننا ؟ للعلم وحده حق الاجابة عن هذا : أيجيبنا الآن بما يحقق هذه الآمال ؟ أم يقر بالعجز فى هذه الناحية ؟ فتحل الخيبة محل الأمل . واليأس محل الرجاء : الحقيقة أن العلم ليس على استعداد ليجيب بالايجاب عن هذه الأسئلة ، غير أنه لم يبق جامداً إزاء هذه الناحية من نواحى الفحص عن النفس ، فان هناك محاولات يقوم بها نفر من علماء النفس لا الفلاسفة ، لأن المباحث الخلقية لا يرجى لها الخير من جانب الفيلسوف بل من « خبير العالم » وهو علم النفس الذى لم يتقدم خطوة واحدة إلا بعد أن أفلت من قبضة الفلاسفة ، وأضحى خاضعاً لتمحيص العلم وتدقيقه . نقول هذا ، لنسجل الحقيقة الواقعة ، لا لنحط من قدر الفلسفة والفلاسفة .

أما موطن هذه المحاولات فهو أمريكا « بلد المقاييس والموازين » ، وأما غرضها فهو الانتفاع منها عملا فى دور الدراسة والصناعة ، وفى عالم التجارة

والسياسة والتهذيب . وسنحاول فيما يلى بسط هذه المحاولات والطرائق القديمة والحديثة بايجاز :

الطرائق القـــديمة

من أقدم طرائق الحكم على أخلاق المرء النظر إلى تركيب الجسم والرأس والتفرس فى تقاسيم الوجـه (ومن هنالفظ الفراسة) ، وكانت أحكامهم فى هذا الشأن مبنية فى الغالب على أسس واهية من قياس التمثيل : نذكر على سبيل المثال ما جاء عن أرسطو وهو قوله : « أولئك الذين لهم رءوس كبيرة هم حكماء كما أن الكلاب حكيمة ، أما الذين لهم رءوس صغيرة فهم بلهاء كالحمير ، وأما الذين لا يستحيون ، فهم كالطيور لهم مخالب معكوفة »

وقد ظل الاعتقاد بامكان معرفة أخلاق المرء بالنظر إلى ملامح الوجه ، أو تركيب الرأس وغيره من أعضاء الجسم سائدا طيلة العصور القديمة ، ولم يَعدم هذا الرأى من يهب له عنايته الآن من علماء النفس والتشريح ؛ فيحاول أن يبنيه على أساس يشبه أن يكون علميا ؛ إذ نسمع اليوم من يقول بالحكم على أخلاق المرء من النظر إلى صورته الشمسية وفحص نتوء الرأس ؛ إلا أن هذا الاستدلال بعد كثير من الفحص والتجربة ظهر عديم الجدوى قليل الفائدة ؛ فاتجه البحث اتجاها آخر وهو محاولة إيجاد صلة ثابتة بين بعض التغيرات (الفزيولوجية) فى الجسم ، والأخلاق .

والمباحث فى هذا الباب كثيرة ومعقدة نكتفى بايراد بعضها على سبيل المثال :

١ — قد وجد بعض علماء « الفزيولوجيا » أن متوسط سرعة التنفس قبل قول الكذب تنقص عنه بعده إذا كان قائل الكذب يعلم أنه سيحاسب على كذبه .

٢ — وإذا قرر المرء الصدق كان تنفسه فى البداية أسرع منه فى النهاية

٣ — ضغط الدم يزداد عند ما يتعمد المرء تشويه الحقيقة .

٤ — يعترى الجسم تغيير كهرباوى يقويه ، حينما يحاول المرء إخفاء الحقيقة .

٥ — ومن الباحثين من يزعم أن هناك علاقة بين مقدار ما فى الدم من ثانى « أكسيد الكربون » وبين التلعثم .

٦ — قد توافرت الأدلة على أن هناك علاقة وثيقة بين سلوك المرء فى أحوال خاصة ، وبين مفرزات بعض الغدد الصماء : كما فى حالة الخوف والغضب والانشراح ، يد أن المباحث فى هذا الباب لا تزال ناقصة مضطربة النتائج ؛ فليس من الحيطة العلمية أن يركن إليها تمام الركون .

الاختبارات النفسية الحديثة

ولما لم تجد البحوث المتقدمة انبرى نخبة من علماء النفس فى أمريكا ينظمون الاختبارات الدقيقة لقياس بعض الصفات الخلقية ، وأخصها صفة الأمانة والخداع بأنواعهما لما لهاتين الصفتين من الأثر العظيم فى شئون التربية والتهذيب .

وهذه الاختبارات كثيرة نوردمنها مثالين ؛ ليدرك القارىء طبيعتها : وهما اختبار المسارقة ، واختبار ورقة الشمع :

١ ـ أما اختبار المسارقة فيجىء على طرق شتى : منها أن يؤتى للتلاميذ المراد قياس خلق الأمانة فيهم بقطع من الخشب تكوّن شكلا معينا لدى ضم بعضها إلى بعض بطريقة معينة ، وقد درس احتمال النجاح فى هذه العملية « والعينان مغمضتان » ـ فوجد أن نسبة الاصابة إلى الخطأ كنسبة ١ : ١٦ أى أن المرء يجرب ست عشرة مرة ليصيب مرة واحدة

أما نسبة احتمال النجاح مرتين متواليتين فهى كنسبة ١ : ٢٥٦ ، ولثلاث مرات فهى كنسبة ١ : ٥٠٩٦

فاذا أصاب أحد المختبرين فى مرات متوالية فى تركيب هذا الشكل حكم بأنه فتح عينيه .

٢ ـ واختبار ورقة الشمع هو أن يؤتى بدفتر ذى أربعة أوجه :

الوجه الأول فيه عدد من الكلمات التى يراد إيراد أضداد لها وكتابة مقابلها ، والوجه الثانى والرابع أبيضان ،

« والوجه الثالث عليه اختبار ثان ، يطلب من التلاميذ أن يرسموا فيه شكلا معينا ، وهـذا الوجه مثبت عليه بماسكات أربع ورقة من الشمع تظل التعليمات واضحة تحتها :

توضع دفاتر من هذا النوع بين أيدى الطلبة المراد امتحانهم فى خلق الأمانة ، ثم يطلب إليهم أن يفتحوا الوجه الثالث ويشرعوا فى عمل الاختبار وهو رسم الشكل ، وعندما ينتهون يطلب إليهم أن يطبقوا الدفاتر بحيث يصبح الوجه الأول إلى أعلى ، ثم يشرعون فى الاجابة عن اختبار الأضداد ، وعند نهاية الوقت المعين يؤخذ الاختبار المرسوم على الصفحة الثالثة مع ورقة الشمع للتصحيح ، ويخرج الممتحنون والمراقبون بحجة التصحيح ولا يبقى فى غرفة الامتحان إلا رئيس الممتحنين ، ويشرع هذا يقرأ على الطلبة الأضداد الصحيحة ، وفى الوقت نفسه يعطى التلاميذ فرصة تامة للخداع : ككتابة ضد لم يكتب أو محو آخر وكتابة غيره بدلا منه ، مع أن الاجابة تكتب بقلم رصاص : وذلك كأن يخرج الرئيس من الغرفة بحجة إحضار شىء ما ، أو أن يأتى من يدعوه إلى خارجها ، ثم تؤخذ هذه الأوراق ، وتقابل باجابتهم الأولى التى ترك أثرها على ورق الشمع ، فيعرف عندها الخادع من الأمين ، وجزاء من يحاول الخداع ولو مرة واحدة « صفر » عن هذا الاختبار ، وتضم هذه النتائج إلى نتائج الاختبارات الأخرى .

وكان من أسبق الباحثين إلى هذا النوع من الاختبارات الأستاذ بيل فُولْكَرْ

(Bale Volker) فقدأعدهذا عددا كثيرامن الاختبارات دعاها(اختبارات الإجابة غير المحتملة) وهى فى ظاهرها اختبارات سهلة ، ولكن حينما تحدد طريقة الاجابة عنها يكون احتمال الاجابة الصحيحة ضعيفا جدا كالاجابة « والعينان مغمضتان » إلا أن اللذين كان لهما القدح المعلى فى هذا الباب هما الأستاذان « سيشورن » من كلية المعلمين فى جامعة كولومبيا ، وماى من جامعة بايل :

عمد هذان الأستاذان إلى الاختبارات القليلة التى عملها فولكر وعدلاها بحيث أصبحت تلائم غرضهما ، وأجريا جميعها على عدد كثير من التلاميذ فى مدارس مختلفة ، وقد طبعا هذا البحث فى كتاب جليل دعواه : « بحث فى الخداع »

ولم يحاول الأستاذان أن يختبرا من الصفات الخلقية غير هاتين الصفتين « صفة الأمانة ، وصفة الخداع » أما بقية الصفات الأخرى فقد أرجأا قياسها إلى بحوث أخرى يجريانها فى المستقبل ، ولذلك نحن مقدمون على عصر من البحث العلمى فى الأخلاق قد يأتينا بالمدهشات ، ويضطرنا إلى تصحيح كثير من آرائنا فى مسائل التربية الخلقية .

ونسرد هنا النتائج العامة التى خرجا بها من بحثهما :

١ — أظهرت هذه الاختبارات أن التلاميذ المتقدمين فى السن على وجه الاجمال أميل إلى الخداع من صغار السن ، والاناث أكثر ميلا من الصبيان فى المسائل التى لها مساس بالشئون المنزلية ، فى حين أن الذكور يفوقونهن خداعا فى غير هذه الشئون ، وفى بعض الاختبارات يتساوى ميل الجنسين إلى الغش ، ومن هذا يستنبط المؤلفان أنه ليس هناك كبير فرق بين الجنسين من حيث الاحساس بالشرف وعدمه .

٢ — وأبانت هذه الاختبارات فساد الاعتقاد السائد بأن الميل إلى الخداع يقترن دائما بالذكاء ، بل بالعكس : أظهرت هذه الاختبارات أن البلاهة تسير

جنبا إلى جنب مع الميل إلى الخداع والسرقة والكذب ، ولكن يجب ألا يفوت القارىء أن هذه النتائج هى فى كل الأحوال حكم على المجموع ، فهى لاتدل على ميل تلميذ بعينه إلى هذه الناحية أو تلك ، وإنما تدل على ميل التلاميذ على الاجمال ، ولذا تجد تلميذا قليل الذكاء ولكنه فى الوقت نفسه أمين ، كذلك قد يكون من الأذكياء من هو أكثر الناس غشا .

٣ — وظهر من هذه الاختبارات أيضا أن التلاميذ الذين استحكمت فيهم العاطفة بحيث تصعب زحزحتهم عن مواقفهم العاطفية فى الغضب والرضا والحزن والفرح والحب والكره هم أقل الناس ميلا إلى الخداع من كثيرى التقلب .

٤ — ثم أبانت هذه الاختبارات أنه ليس هناك علاقة بين أحوال الجسم « الفزيولوجية » وبين الميل إلى الغش والخداع ؛ فقد أظهرت المباريات الرياضية أن ضعاف الأجسام من التلاميذ ليسوا أقل من رفاقهم أقوياء الجسم تبريزاً فى ميدان الشرف خلافا لما اشتهر من أن التلاميذ الضعاف يميلون فى المباريات الرياضية إلى الغش ؛ ليخفوا ضعفهم البادى

٥ — ووجد هذان الأستاذان أن التلاميذ الأغنياء كانوا أقل ميلا إلى الخداع من التلاميذ الفقراء .

٦ — وظهر أن للثقافة البيتية ارتباطاً بميل الأبناء إلى الخداع : فقد وجد أن أبناء الأسر المثقفة تثقيفاً عاليا ، والتى تعامل أبناءها بالعطف واللين — أميل إلى الأمانة من أبناء الأسر قليلة الثقافة ، والتى تقسو فى معاملة بنيها .

٧ — ووجد أن هناك آصرة شديدة بين مهنة الأبوين وبين ميل أبنائهما إلى الخداع : فالتلاميذ الذين يشتغل أبناؤهم بالمهن العالية كالهندسة والطب والتعليم كانوا أقل ميلا إلى الخداع من أبناء الطبقات الأخرى .

٨ — وظهر أيضا أن التلاميذ الذين تفوق سنهم متوسط أعمار التلاميذ فى فصولهم يكونون أميل إلى الخداع ، ولعل هذا ناشىء من إحساسهم

بالتخلف (بالنسبة إلى أعمارهم) ، فهم يحاولون أن يعوضوا ذلك بالخداع . أما صغار السن من الطلبة فقد استبان أنهم دون المتوسط فى الميل إلى الغش

٩ — وأغرب ما أظهرته هذه الاختبارات أن التلاميذ الذين ينالون درجات عالية فى السلوك كانوا فى الحقيقة أكثر الناس ميلا إلى الخداع : فكأنما فى هذه الدرجات من إغراء يحمل التلاميذ الخداعين على أن يلبسوا فى سلوكهم الظاهر رداء يخفى حقيقتهم ، فلما جاءتهم هذه الاختبارات أظهرت دخائلهم .

١٠ — ومن أغرب ما أظهرته هذه الامتحانات أيضا أن هناك تناسبا طرديا بين سلوك الأساتذة وميل التلاميذ فى فصولهم إلى الخداع والسرقة والكذب .

١١ — وظهر أن التلاميذ الذين يشتركون فى جماعات ومؤسسات غرضها الأول تعليم التلاميذ وتعويدهم الأمانة كفرق الكشافة وما إليها ـ ليسوا أكثر أمانة من غيرهم . وهذا ما يدعو إلى النظر فى هذه الجماعات وما يبذل فيها من جهد ومال .

١٢ — على أن أهم ما دلت عليه هذه الاختبارات وما يرجى أن يغير مناهج التهذيب الخلق تغييراً كبيراً ـ هو أن الميل إلى الخداع ليس مطرداً عند الشخص الواحد :

فالتلميذ الذى يتعمد الغش فى حال معينة ليس من الضرورى أن يغش فى جميع الأحوال ، والتلميذ الذى ترتجف أوصاله حين يهم بأن يمد يده إلى جيب صديقه بقصد السرقة قد لا يجد غضاضة فى سرقة أسئلة الامتحانات من غرفة الأساتذة . وهذا مشاهد أيضا فى سلوك الناس خارج المدرسة : ففلان — قد يكون عالما دينيا فاضلا ورعا لا تحدثه نفسه قط بالاستيلاء على مال غيره مهما بلغت منه الفاقة والخصاصة ، لكنه لا يحجم عن أن يستخرج من بطون الكتب والمجلات مقالا لأحد كبار الكتاب ، ثم يرسلها

إلى صحيفة أو مجلة دون أن يشير إلى مصدرها ، فيذهب القوم يكيلون له من المدح والاطراء ما يكاد ينسيه أنها ليست له .

ومن هنا يرى هذان الأستاذان أن التهذيب الخلق يجب أن يكون خاصا إفراديا : أى أنك إذا رمت أن تعود بنيك الأمانة أو غيرها من الخلال الحسنة وجب أن تودعهم بيئات خاصة تجعل اتصافهم بها وممارستهم لها أمرا طبعيا مألوفا ، وإذا أردت أن تغرس فيهم خلق الصدق لا يجزىء أن تلق عليهم كل يوم عظة فى فضيلة الصدق وأثرها ومنزلتها ، كما لا يجزىء أن تدرب ابنك على سوق السيارة ؛ لتجعله قادرا على امتطاء الدراجة .

ومن أجل ذلك يجب أن تودعهم بيئة يستمدون منها حياة الفضيلة ، وأن تجنبهم البيئات التى تحدوهم إلى مقارفة الرذيلة قسرا وإجبارا .

الوجهة الاسلامية

فى تعرف الأحوال النفسية

ا — تنتاب النفوس علل وأمراض يتفاوت وقعها وتختلف أعراضها ، ولا شفاء لهذه الأمراض ولا برء للنفوس منها إلا بتعرف علاجها ، والاهتداء إلى دوائها فيما شرع الله اللطيف الخبير فى كتبه السماوية ، وأجرى على ألسنة أنبيائه وأصفيائه من آيات الحكمة وفصل الخطاب ، وأودع سيرتهم من ضروب الإصلاح ومظاهر التقوى .

ووصف الأمراض النفسية وأحوالها لا يتاح إلا لكل نفاذ البصر ، قوى البصيرة ، رقيق الحجاب ، مؤيد من عند الله بتوفيق ، له فى طب النفوس جولات ، وبالفراسة الروحية واسع دراية ، ينظر بنور الله ويسمع ويحس ، ويصول ويسعى ، تكلؤه رعاية الله .

وقد تُخادع الأحوال الجسمية أطباء الأشباح ويحارون فى وصف أمراضها ، وربما يرون دم الاحتقان دما يمت إلى السلامة بأسباب ، ويستسمنون ذا ورم ، وتَغُرهم المظاهر ، فتغيب عنهم العلل .

والمدعون معرفة أحوال النفوس من العلماء والزهاد والفلاسفة والصوفية كثيرا ما يعزب عنهم التوفيق فى تعرف أسرار النفوس ؛ وما النفس إلا الروح فى بعض ماهياتها وتعاريفها : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »

ب — ليس فى الاسلام مقاييس مادية تقاس بها أحوال النفوس ، ولا مسابير تسبر بها أغوارها ، ولا كيفيات تستخدم فيها الحواس والجوارح

ويؤخذ فيها الناس على غِرة ، ويُجس حينئذ نبضهم ، وتقرأ الأسرار من أحوالهم .

برِئ الاسلام من ذلك التخمين والأخذ بالظن وترتيب النتائج على هذه المقدمات الفاسدة ؛ لأن الاسلام يخاطب العقول ويناجى اليقين ، ولا يعرف الحدس فهو ابن الفطرة ليله كنهاره .

وقد كدم فى غير مكدم ، وأجهد نفسه وأركبها الشطط .. ذلك الذى ظن أن تعرّف الأحوال النفسية يرجع إلى هذه القواعد والكيفيات ، ومادروا أن الله يتولى السرائر .

حقا قد اهتدى العارفون لكثرة ماعالجوا من أحوال المريدين والسالكين إلى مظاهر وعلامات تعتبر أقيسة عامة لتمييز الاخلاص من الرياء ، وبواطن النفوس وظواهرها ، وتهيأ لهم من ذلك شىء كثير أبصروه على نور من الله ومعرفة واسعة بالحلال والحرام ، واستيعاب لعلوم الكتاب والسنة ، ولم يلجئوا فى ذلك إلى ضروب من الحيل ، وإنما هى فراسة دينية ومنن رحمانية .

وقد صاغوا تلك الاختبارات فى قوالب من الوعظ والحكمة ، على محا كها يبين الزيف من السليم ، والصحيح من السقيم والنفوس المزكاة من المدسة .

وإنا لذا كرون لك طرفا منها تتعرف بهأحوال بعض النفوس :

١ - ينبغى للعاقل أن ينظر الى الأصول فيمن يخالطه ويعاشره ، ويشاركه ويصادقه ، ثم لينظر بعد ذلك فى الصور ؛ فإن صلاحها دليل على صلاح الباطن : أما الصور فانه متى صحت البنية ، ولم يكن فيها عيب - فالغالب صحة الباطن وحسن الخلق ، ومتى كان فيها عيب فالعيب فى الباطن أيضا . فاحذر من بهم عاهة ؛ فان بواطنهم فى الغالب ردية ثم مع معرفة أصول المخالط وكمال صورته لابد من التجربة قبل المخالطة . واستعمال الحذر لازم .

٢ - وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لرجل : أشر علىّ فيمن أستعمل . فقال : أما أرباب الدين فلا يريدونك ، وأما أرباب الدنيا فلا تردهم ، ولكن عليك بالأشراف ، فانهم يصونون شرفهم عما لا يصلح .

وروى أبو بكر الصولى قال : حدثنا الحسين بن يحيى عن إسحق قال : دعانى المعتصم يوما فأدخلنى معه الحمام ، ثم خرج ، فخلا بى ، وقال : يا أبا إسحق ، فى نفسى شىء أريد أن أسألك عنه : إن أخى المأمون اصطنع قوما فأنجبوا ، واصطفيت أنا مثله فلم ينجبوا . قلت : ومن هم ؟ قال : اصطنع طاهرا وابنه إسحق وآل سهل فقد رأيت كيف هم . واصطنعت أنا « الأفشين » فقد رأيت إلى ما آل أمره ، و « أساش » فلم أجده شيئا وكذلك « إيتاخ » ، « وصيف » قلت : يا أمير المؤمنين ، هاهنا جواب ، على أمان من الغضب ، قال : لك ذاك قلت : نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها ، واستعملت فروعا لا أصول لها فلم تنجب ، فقال : يا أبا اسحق ، مقاساة ما مر بى طول هذه المدة أهون على من هذا الجواب .

٣ - قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : .

بنيت الفتنة على ثلاث : النساء وهن فخ إبليس المنصوب ، والشراب وهو سيفه المرهف ، والدينار والدرهم وهما سهماه المسمومان . فمن مال إلى النساء لم يصف له عيش ، ومن أحب الشراب لم يمتّع بعقله ، ومن أحب الدينار والدرهم كان عبدا لهما ما عاش .

ومن كلام للخواص رضى الله عنه ما معناه : « علامة الصفاء ألا يستوى المرء المنقوش والمنفوش »

٤ - من عرف الشرع كما ينبغى ، وعلم حالة الرسول عليه السلام وأحوال الصحابة وأكابر العلماء - علم أن أكثر الناس على غير الجادة ، وإنما يمشون مع العادات : يتزاورن فيغتاب بعضهم بعضا ، ويطلب كل واحد منهم معايب أخيه ، ويحسده إن كانت نعمة ، ويشمت به إن كانت مصيبة ، ويتكبر عليه إن

نصح له ويخادعه لتحصيل شيء من الدنيا ، ويأخذ عليه العثرات إن أمكنه . فمن كان فيه ذلك كان مظلم النفس دنيء الطبع ،

٥ ـ الكمال عزيز والكامل قليل الوجود ، فأول أسباب الكمال تناسب أعضاء البدن وحسن صورة الباطن فصورة البدن تسمى خَلقا وصورة الباطن تسمى خُلقا ، ودليل كمال صورة البدن حسن السمت واستعمال الأدب ، ودليل صورة الباطن حسن الطبائع والأخلاق :

فالطبائع : العفة والنزاهة والأنفة من الجهل ، ومباعدة الشر ،

والأخلاق : الكرم والإيثار وستر العيوب وابتداء المعروف والحلم ؛ فمن رزق هذه الأشياء رقته إلى الكمال . وظهر عنه أشرف الخلال .

٦ ـ ومن حسن التدبير التلطف بالأعداء ، فإن ذلك يحول حالهم ، أو يكون سببا فى كف أذاهم : قال الله تعالى : « وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ »

وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن رجلا قد شتمهم أهدوا إليه وأعطوه ؛ فهم بالعاجل يكفون شره ، ويحتالون فى تقليب قلبه .

٧ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) ولقد دخل المتزهدون فى طرق لم يسلكها الرسول عليه السلام ولا أصحابه من إظهار التخشع الزائد على الحد والتنوق فى تخشين الملبس ، وأكثرهم فى خلوته على غير حاله فى جلوته ، وأنفع العلوم النظر فى سير الرسول عليه السلام وأصحابه : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » .

٨ ـ من العفة ألا تجد : فهناك أقوام لا يقترفون الذنوب لبعدهم عنها ؛ لأنهم ألفوا الترك ، ومقياس عفتهم أن يختبروا بإدناء مواضع الفتن منهم ؛

فإذا ثبتوا على ورعهم وتجافوا عن الآثام - فأولئك قويت نفوسهم وطهر سرهم وجهرهم .

٩ — من المتصوفين من لا يستوحشون من ظلم الناس، ثم يتصدقون على الفقراء ، وربما توانوا فى إخراج الزكاة ، وتكاسلوا باستعمال التأويلات فيها ، ثم إذا حضر أحدهم مجلس وعظ بكى كأنه يصانع بتلك الحال .

١٠ — وقال الامام الغزالى رحمه الله :

من علامات العالم العامل أن يكون حزيناً مفكراً مطرقاً صامتاً ، يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته ، لا ينظر إليه ناظر إلا كان نظره مذكراً لله تعالى ، وكانت صورته دليلا على عمله : فالجواد عينه مرآته ، وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم فى السكينة والذل والتواضع . وأما التهافت فى الكلام والتشدق والاستغراق فى الضحك ، والحدة فى الحركة والنطق - فكل ذلك من آثار البطر ، والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشدة سخطه ، وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله .

قال الحسن : الحلم وزير العلم ، والرفق أبوه ، والتواضع سرباله .

١١ — أفضل ما يعلم به علم ذى العلم وصلاح ذى الصلاح - أن يستصلح بما أوتى من ذلك ما استطاع من الناس ويرغبهم فيما رغب فيه لنفسه من حب الله ، وحب حكمته ، والعمل بطاعته ، والرجاء لحسن ثوابه من المعاد إليه ، وأن يبين الذى لهم من الأخذ بذلك والذى عليهم فى تركه ، وأن يُوَرِّث ذلك أهله ومعارفه ؛ ليلحقه أجره من بعد الموت .

١٢ — العجب آفة العقل ، واللجاجة قعود الهوى ، والبخل لقاح الحرص ، والمراء فساد اللسان ، والحمية سبب الجهل ، والأنف توءم السفه والمنافسة أخت العداوة .

١٣ — مما يدل على علم العالم معرفتهُ ما يدرك من الأمور ، وإمساكهُ عما لا يدرك ، وتزيينهُ نفسه بالمكارم ، وظهورُ علمه للناس من غير أن يظهر منه فخر ولا عجب ، ومعرفتهُ زمانَه الذى هو فيه ، وبصره بالناس ، وأخذه بالقسط ، وإرشاده المسترشد وحسن مخالفته خلطاءَه ، وتسويته بين قلبه ولسانه ، وتحريه العدل فى كل أمر ، ورحب ذرعه فيما نابه ، واحتجاجه بالحجج فيما عمل ، وحسن تبصيره .

١٤ — أعدل السير أن تقيس الناس بنفسك فلا تأتى إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك .

وأنفع العقل أن تحسن المعيشة فيما أوتيت من خير ، وأن لا تكترث من الشر بما لم يصبكَ .

ومن العلم أن تعلم أنَّكَ لاَ تعلمُ بِمَا لاَ تَعلمُ .

ومن أحسن ذوى العقول عقلا من أحسن تقدير أمر معاشه ومعاده تقديرا لا يفسد عليه واحدا منهما نفاذ الآخر ؛ فإن أعياه ذلك رفض الأدنى وآثر عليه الاعظم .

١٥ — من علامات اللئيم المخادع أن يكون حسن القول سيء الفعل ، بعيد الغضب ، قريب الحسد ، حمولا للفحْش ، مجازيا بالحقد متكلفا للجود ، صغير الخطر ، متوسعا فيما ليس له ، ضيقا فيما يملك .

١٦ — وكان يقال : الرجال أربعة : اثنان تختبر ما عندهما بالتجربة ، واثنان قد كفيت تجربتهما :

فأما اللذان تحتاج إلى تجربتهما ـ فان أحدهما بر كان مع أبرار ، والآخر فاجر كان مع فجار ؛ فانك لا تدرى لعل البر منهما إذا خالط الفجار أن يتبدل فيصير فاجرا ، ولعل الفاجر منهما إذا خالط الأبرار أن يتبدل برا ، فيتبدل البر فاجرا والفاجر برا .

وأما اللذان قد كفيت تجربتهما وتبين لك ضوء أمرهما فان أحدهما فاجر كان فى أبرار ، والآخر بر كان فى فجار .

١٧ — الورع لايخدع ، والأريب لايخدع :

ومن ورع الرجل أن لايقول مالايعلم ، ومن الأرب أن يتثبت فيما يعلم .

العقاب

لكل شر عقاب وأذى يرتد على الشرير ؛ لأنه يجاهد ضد المجتمع ويحارب رقيه ، والمجتمع يقاومه فيغلبه ، وان لم يظفر به لابد أن يناله شىء مما آذى به المجتمع ؛ لأنه عضو منه .

أما مانراه واقعا من إخفاق الأبرار ونجاح الأشرار فى الدنيا — فليس بعقاب للأولين ، بل تطهيرا لنفوسهم ، ورفعة لمكانتهم : كما أن نجاح الأشرار ليس بثواب لهم ، بل استدراجا ونقمة فى ثوب نعمة ، فلابد أن يرتد الشر على صاحبه فى الزمن القريب أو البعيد ، وإن لم يكو بناره فى حياته اصطلاه بعد مماته ، وقد يؤثر ذلك فى أعقابه ، فان الآباء قد يأكلون الحِصْرِم (١) والأبناء يَضْرَسُونَ (٢) « وَلْيَخْشَ الذينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ »

وبهذا ينتفى الحيف الذى يتراءى فى الوصية الثانية من وصايا سيدنا موسى عليه السلام : افتقد ذنوب الآباء فى الأبناء .

وأنواع العقوبات كثيرة : منها العقاب الطبعى : كسوء السمعة ، وتأنيب الضمير ، وعقوبة القوانين الوضعية ، وعقاب الله تعالى .

وقد وضعت العقوبات القانونية مناسبة للجرائم التى ترتكب ، ورأى واضعوها أن تكون تأديبا للمجرم حتى لايعود إلى الذنب ، وهو غرض

(١) أول العنب (٢) الضرس : كلال فى الاسنان، وبابه طرب

واضح إلا فى قتل القاتل حيث لا تأديب ، وإنما هو بتر لعضو فاسد ، كما رأوا أن يكون العقاب عبرة لغيره من المجرمين حتى يرتدعوا عن الاثم

فالسارق لم يحبس لأنه سرق فقط ، بل حبس ؛ ليرتدع اللصوص ، وتحفظ السلع .

ويرى الشرع أن تكون مناسبة الذنب ؛ فان الجزاء الحق من جنس العمل ؛ ليفهم المذنب أن شره واقع على رأسه .

بهذا كان القصاص : النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والسن بالسن

فالغرض الرئيسى من العقاب إشعار المعاقب أن الاخلال بالنظام والاعتداء على الشريعة يعرضان المجتمع للخطر ، ولا يقصد بجزاء المثل الانتقام ؛ بل تأييد السلطة والنظام ولو ظل متبعا كما جاء فى الشرائع الالهية ما انتشرت الجرائم هذا الانتشار المروع ، بل امحت أو اضمحلت .

والمعاقبة حق للحكومة وحدها ؛ لأن الفرد عرضة للانفعال النفسى وتأثير العواطف ؛ فقد يبالغ فى الانتقام ، أو لا يقدر عليه وتضيع الحقوق ، وتعم الفوضى ، وهذا لا ينافى أن أصل العقاب الانتقام ؛ لأن الطغيان والاعتداء يثير غضب المعتدى عليه ، ولا يسكن إلا بالإثئار ، وقد يتجاوز الانسان الحَدَّ فيه ، فيصبح معتدياً بعد أن يكون معتدًى عليه ؛ لذلك قُيِّدت طريقة الأخذ بالثأر تقييداً يضمن التعادل بين الجريمة والثأر .

وقد سارت الجماعات على وجوب تسليم مقاليدهم فى مثل هذه الأحوال إلى سلطة شارعة ممثلة فى شيخ قبيلة أو زعيم حتى لا يتجاوز الموتور حقه ، فتتسلسل الثارات .

وقد ساعد على ذلك عوامل الارتقاء المطرد فى الشعوب ، وشعور كل فرد بالرابطة التى تجعله يسالم أخاه ، ويكسب وده ، ويتسامح معه ، حتى انمحت فكرة الانتقام من العقوبة ، وأصبحت القوانين تجيز الصلح بين المتخاصمين

وبخاصة المسائل التى ليس ضررها عاما وخولت للقاضى أن يعتمد على وجدانه فى تقدير العقوبة ، وأن يتحرى العدل جهده ، وسوغت للمتهم أن يدافع عن نفسه ، ويظهر براءته .

وإذا بلغت الجماعة من الرقى الأدبى مبلغاً عظيماً صارت المسامحة أكثر ردعا من الاجرام ، وصار المجرمون يتوبون ويحتقرون الشر ، ويعظمون الشريعة المقدسة ، فيخيم السلام ، ويعيش الناس عيشة راضية .

وهناك طائفة تعذر فى سلوكها الاجرامى ، وتضعف مسئوليتهم حتى تمحى : كالمجنون أو المكره المجرد فعله عن الارادة والتعقل .

وقد حسب بعض المفكرين الاجرام مرضاً جنونياً ، واقترح أن يعالج المجرمون ، لا أن يعاقبوا ؛ لأن أفعالهم الاجرامية نتيجة تغلب الملابسات المحيطة بهم على إرادتهم وتعقلهم .

قيمة اليمين فى الشهادة

إذا لم يخف المجرم عقاب المجتمع ولا عقاب الحكومة ولا تأنيب الضمير ولا عقاب الله وتيسر له أن يفلت من القضاء ـ لا يدلنا عليه إلا الشاهد ، وهذا الشاهد قد يكون صالحا ، وقد يكون شريراً ، والشروط التى عينتها القوانين الوضعية لصلاحية شهادته ـ لا تكفى فى إثبات أنه شاهد عدل :

فمن أهم هذه الشروط ـ حلفه اليمين أمام القضاء ، وهو شرط لا قيمة له ؛ لأن الشاهد إذا كان صالحا فقوله حق من غير يمين ، وإن كان طالحا فلا يبعد أن يحلف زورا باسم الله أو اسم الشرف .

فالضمانة الواحدة لصحة الشهادة ارتقاء أدبية الأفراد وتمسكهم بالفضائل

الثواب

الثواب هو الجزاء على العمل ، والفرق بينه وبين العقاب أن أثره إيجابى

وأثر العقاب سلبي ، والثواب هو الذي يشحذ الهمم ، ويقوى العزائم ، يدخل السرور على النفس الراضية ، ويبعث روح الأمل فى الانسان ، فيسعى إلى الغاية ملتزما أمثل الطرق ، حتى يصل إلى تحقيق تلك المثوبة التى تنسيه آلام جده ، ويتعوض بحلاوتها مرارة ما لاقاه فى سبيلها ، ولولا رجاء المثوبة ما وجدت المنافسة ، وما جد عامل فى إتقان عمله ؛ فان العامل الذى يرى أن الجد والاجتهاد والاخلاص والسلوك الحسن أمور تستوجب المكافأة والاثابة ينمو فى نفسه باعث الجد والاستقامة .

أنواع الثواب : تختلف الاثابة باختلاف الأعمال والمثيبين والمثابين ؛ فمن كلمة طيبة وثناء حسن ، إلى أجر كبير أو صغير فى الدنيا والآخرة ، وعلى قَدْر العمل وتحمل المشقة فى إنجازه تكون المثوبة ، وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

ذرينى أنل ما لا ينال من العلا
فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل
تريدين إدراك المعالى رخيصة
ولا بد دون الشهد من إبر النحل

ورجاء المثوبة وتخليد الذكر يغرى الانسان ببذل روحه وماله وولده وكل عزيز لديه .

وأولى أنواع المثوبة بالعناية والطلب ما سبَّب للانسان السعادة الكاملة والهناءة الشاملة فى الدنيا والآخرة ، والمثيب الكريم يكافىء على الحسنة بخير منها ، وقد يجزى عليها بعشر أمثالها ، وقد يضاعف الجزاء إلى سبعمائة أو يزيد ، وقد يخفى أمره إعظاما لشأنه ، وليكون وقعه فى نفس المكافأ عظيم الأثر : «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها » : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضاعِفُ

لِمَنْ يَشَاءُ » : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

أثر الثواب فى التربية والتعليم

للثواب الأثر الطيب فى إصلاح نفوس الناشئة وتهذيب الأخلاق وإنماء روح الجد والعمل ، والوالد والمعلم إذا استعملا الحكمة والعدالة فى الإثابة أتت بنتيجة حسنة ، وصار العمل الطيب طبيعة فى الناشىء ، فينفع نفسه وأمته :

فالوالد الذى يعد ولده بجائزة إن هو سمع النصح وأطاع الأمر وينفذ وعده - يرى من ولده طاعة قد ينشأ عليها ولده ، فيشب مطيعا محبا للعمل ، إن أجيز أو لم يجز .

أما فى المدرسة فأجل غرض للثواب أن تدفع التلاميذ بالوسائل الحكيمة إلى أقوم طريق ، ويبعث فى نفوسهم السرور بعمل الخير ، ويعتادون الاجادة والاتقان وتحيي فيهم روح الأمل .

تذييل

اختلف العلماء فى حقيقة ثواب الآخرة : فمنهم من قاسه بنعيم الدنيا ، ودللوا على تعظيمه بالمبالغة فى تصويره ، ومنهم من رأى غير ذلك ، وعندى أن أسلم الطرق أن نقف عند حد ما سمع من الآثار ، ونعتقد أن كل ما يقال عنه من باب ضرب الأمثال للناس تقريبا للعقول وشحذا للهمم : كما اختلفوا فى وجوب إثابة المطيع وتعذيب العاصى . والحق أن العدل الالهى كفيل بذلك ، وأن الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور يجزى كل نفس بما كسبت : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

الحرية

(١) مجمل آراء علماء الغرب

الحر فى اللغة خلاف العبد أو الرقيق ، والحرية حالة الحر ، وهى خلاف الرق أو العبودية ، ويراد بها فى بحثنا هنا حالة يكون الانسان فيها قادراً على فعل شىء أو تركه بحسب إرادته واختياره ، وهى نوعان : داخلة ، وخارجة :

فأما الداخلة : فهى عبارة عن قوة الاختيار بين أمرين متضادين أو متخالفين ويعبر عنها بحرية الارادة ، وحرية الضمير ، وحرية النفس ، وبالحرية الأدبية ، إذا أريد بها الاختيار بين الخير والشر أدبياً . ويقابلها الاكراه والاضطرار .

وقد كانت هذه الحرية موضوعا لبحوث طويلة وجدال عنيف فى كل جيل :

فذهب بعضهم إلى أنها صفة من صفات الانسان الذاتية ، وشرط لازم لحالته الأدبية ، وذهب آخرون إلى أن جميع أفعال الانسان من طبعية وعقلية ناشئة عن القضاء والقدر ، وهذا مخالف لرأى جمهور علماء الكلام . واستناد الذين ذهبوا إلى القول بالقدر إلى أن علم الله السابق بجميع أعمال البشر يولد فيهم اضطراراً — قد نقضه أصحاب الرأى الثانى ببراهين سديدة ليس هنا محل استيفائها .

ولحرية الانسان دليل مباشر هو الضمير الذى ينبهه فى كل لحظة عند العمل إلى أنه كان قادراً ألا يعمل أو يعمل خلاف ما عمل ، ودليلها غير

المباشر مايفترض وجوده من رضا وندم ومشورة ومدح وذم وعقاب وثواب وهلم جرا .

والحرية درجات : فهى فى الانسان البالغ أكمل مما هى فى الولد ، وقد تضعف بالسكر والمرض والجنون ، وربما فقدت برمتها ، وتقوى بالتربية وتأثير الأدب والممارسة .

وقد اشتغل جماعة من الفلاسفة والعلماء فى مسألة كون الحرية هى نفس النعمة أولا ، ووقعت مناظرات كثيرة بين علماء الكلام فى هذا الباب والجدال الذى وقع فيها بين كل من إبيقورس وزنيون ، وبين القديس أوغسطنيوس وبيلاجيوس ، وبين اسكوت والقديس توما ، وبين لوك وكولين ولبنتس — هو من الأمور المشهورة ، وقد ألف بوصوى العالم الفرنسى رسالة جليلة فى حرية الضمير .

ومن المذاهب المضادة للحرية مذهب القدرية وليس هنا محله .

وأما الحرية الخارجة فهى على أنواع :

منها الحرية الطبعية : وهى عبارة عن كون الانسان قادرا طبعا على عمل ماراه موافقا مع قطع النظر على تعلقه بالمجتمع .

ومنها المدنية : وهى حالة يكون للانسان فيها قدرة على عمل كل مالم تنه عنه الشريعة أو النظامات

ومنها السياسية : وهى عبارة عن تمتع الانسان بالحقوق المعطاة بالنظام كل وطنى .

ومنها الحرية الجسدية : وهى حالة يكون للانسان فيها قدرة على الذهاب والاياب واستعمال أعضائه بلا مانع .

ومنها الحرية الفكرية : وهى أن يكون للإنسان فيها قوة على إظهار أفكاره بلا مانع فى كل مادة فلسفية أو سياسية أو غيرها

ومنها الحرية الدينية : وهى أن يكون قادراً على الاعتقاد بالمذاهب الدينية

التى يرى أنها صحيحة وعلى تعلمها دون معارضة . ومنها العبادية : وهى أن يكون له ماللأصحاب المذاهب والفرق الدينية من الحقوق فى تعليم مذاهبهم وإجراء مراسيمهم .

ومنها حرية الكتابة : وهى عبارة عما لأصحاب المطبوعات ولاسيما الصحف من الحقوق فى نشر آرائهم فى كل مبحث اختاروه أو أرادوا موافقته للأحوال.

ومنها الحرية الفردية المختصة بكل فرد من أفراد الأهلين : ويراد بها الحق الذى لكل إنسان فى عمل مايراه إلا فيما نهى عنه الشرع أو خالف النظام . وهذا الحق تمنحه نظامات كل البلدان الحرة وحكوماتها ، وتعاضده وتنتصر له .

ومنها الحرية الصناعية : وهى أن يكون الانسان قادراً على أن يتعاطى كل صناعة أو مهنة أو حرفة أرادها دون ممانعة .

ومنها الحرية التجارية : وهى أن يكون للتاجر حق تعاطى البيع والشراء فى الداخل والخارج مع مراعاة النظامات المحلية ، ويعبر عن هذه الحرية بحرية الأخذ والعطاء .

ومنها الحرية البحرية : وهى عبارة عما لكل أمة من الأمم من الحقوق بالسفر فى كل بحر دون أن يعارضهم معارض .

ومنها الحرية الدولية : وهى عبارة عن تخلص الدولة من كل حصر ضار بحقوقها واستقلالها ، وقد يراد بالحرية الاستقلال ومنها (حرية الولايات المتحدة) وغيرها من الأمم التى جاهدت فى سبيل استقلالها حتى استردته .

هذا وليس فى هذا العالم حرية حقيقية ؛ لأن جميع أنواع الحرية الآنف ذكرها مقيدة بقيود تجعلها طبعاً ناقصة . وقد توهم البعض فى معنى الحرية جواز فعل كل ما يخطر فى البال ، وهذا نوع من إساءة استعمال الحرية

والحرية من أجل المواهب التى اختص بها الجنس البشرى وامتاز عن

كل حى ؛ لأن الحيوان مقيد بفطرته ، لكن الانسان مطلق الارادة ، له أن يقبل هذا ويرفض ذلك ، ويعمل هذا ويترك ذاك ، فما قيام النطق فيه أى الجوهرة العقلية إلا بالحرية ، وإلا لم تكن أعمال صالحة وأخرى طالحة ، ولم يكن فضل ولا خمول ، وبها تثقف العقل ، وتدرب الفكر ، وقامت الاختراعات ، وظهرت مكنونات الطبيعة ، ولأجلها قامت النظامات وسنت الشرائع ، وساد التمدين ، وانتشر الأدب ، ولولاها ما بزغت شموس المعارف ، ولا سطعت أشعة العلوم ، ولا اتسعت دوائر حركات العالم ، ولا عرف النافع من الضار ، ولا امتاز العاقل من الجاهل والشريف من الوضيع ، والكريم من الصعلوك ؛ لأن كل واحد باستعمال حريته بلغ الدرجة التى امتاز بها من غيره حطة أو رفعة ، ولولا ذلك لكان الكل فى الحال سواء ، ولكانت السليقة هى القائد الأعظم كما فى الحيوانات .

ففقد الحرية - فقد الانسان بمعنى مايراد من حقيقته : أى كونه حيواناً ناطقاً أى ممتازاً بالعقل عن البهائم .

والحرية بالنظر إلى كونها إجرائية هى وحدها دليل البواطن ؛ لأنه لولاها لم يكن للطاعة فضل ولا للمعصية مساءة ، ولولاها لم تضطرم جمرة الشرور فى العالم .

ولما أساء الناس استعمالها جعلوا لها من أنفسهم قيوداً وحدودا ، فصارت أنواعاً كما رأيت ، ولذلك قد اختار بعض العقلاء - ومنهم روسو الفرنسوى - العزلة عن الناس لسوء حالة المجتمع ، وظن أن العزلة هى نفس التمتع بالحرية الصحيحة ، غير أن ذلك عند التروِّى مما يعود بالانسان إلى حال الوحشية ؛ لأن العالم لم يقم ولا وصل إلى هذه الدرجة من الكمال إلا بالمجتمع وحرية التعاضد .

هذه الحرية أتت بنتيجتين متضادتين فى العالم ؛ لأن الانسان من طبعه حب السعادة ؛ ليتمتع بوافر الحرية ، فبذلك وبمقدرته أحيانا على استخدام قواه

وسائر الوسائط الممكنة له - وصل إلى السيادة ؛ وإذ كانت الحرية قد أدت أولا إلى تكثير الشر - كان المقصود من السيادة القضاء عليه ، ووضع قيود جعلت مقاليدها بيد صاحب السيادة ، بيد أن صاحب السيادة دعته حريته إلى التورط فى الشرور ، كما دعت الدهماء قبل السيادة إلى مثل ذلك ، فطغى وبغى وعتا وتجبر وعسف وظلم واضطهد ، وبناء على ذلك حصل رد الفعل أى تولدت النتيجة الثانية من الحرية وهى حل ربقة الجور واسترداد الحرية فقاوم الشعب ملكه ، والرعية سلطانها ، والعبد سيده ، فعادت الحرية إلى مجراها فى أكثر الممالك المتمدينة ، ولكن لما كانت نتيجتها الأولى الشر كانت هذه الحرية مقيدة ومحدودة بحيث لا يتجاوزها الانسان إلى القبيح ، وهى هى الحرية الصحيحة المرتبطة بمشيئة الخالق ، فالشرور عن جادتها فى بعض ملابسات وأمكنة لا ينقض أساس صحتها ، ووجوب سيادتها .

(٢) — بعض نواحى الحرية فى الملة الاسلامية

حسبنا فى هذا المقام ما جاء فى رسالة الأستاذ الإمام :

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ، ولا يحتاج فى ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ، ويقدرها بإرادته ، ثم يصدرها بقدرة منّا فيه ، ويَعد إنكار شىء من ذلك مساويا لانكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل .

كما يشهد بذلك فى نفسه يشهده أيضا فى بنى نوعه كافة ، متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس ، ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب كسب رزق فيفوته ، وربما سعى إلى منجاة فسقط فى مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه إن كان لم يحكم النظر فى تقدير فعله ، ويتخذ من

خيبته أول مرة مرشداً له فى الأخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم ، وبوسائل أحكم . ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهى ، إن كان سبب الاخفاق فى المسعى منازعة منافس له فى مطلبه ؛ لوجدانه من نفسه أنه الفاعل فى حرمانه فينبرى لمناضلته . وتارة يتجه إلى أمر أسمى من ذلك إن لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخلٌ فيما لقى من مصير عمله : كأن هبت ريح فأغرقت بضاعته ، أو نزل صاعق فأحرق ماشيته ، أو علق أمله بمعين فمات ، أو بذى منصب فعزل .

يتجه من ذلك إلى أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته وأن وراء تدبيره سلطاناً لا تصل إليه سلطته : فان كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل إلى أن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد يُصرِّفه على مقتضى علمه وإرادته ـ خشع وخضع ورد الأمر إليه فيما لقى ، ولكن مع ذلك لا ينس نصيبه فيما بقى ؛ فالمؤمن ـ كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات ـ يشهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية عقلية كانت أو جسمانية ـ قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله .

وقد عرّف القوم شكر الله على نعمه . فقالوا : هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله .

على هذا قامت الشرائع ، وبه استقامت التكاليف ، ومن أنكر شيئاً منه فقد أنكر مكان الايمان من نفسه : وهو عقله الذى شرّفه الله بالخطاب فى أوامره ونواهيه .

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته وما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار ـ فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه ، واشتغالٌ بما لا تكاد تصل العقول إليه ؛ وقد خاض فيه الغالون من كل مِلة خصوصاً

من المسيحيين والمسلمين ، ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفا حيث ابتدءوا ، وغاية ما فعلوا أن فرّقوا وشتتوا :

فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلالها المطلق وهو غرور ظاهر .

ومنهم من قال بالجبر وصرح به

ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه ، وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف وإبطال لحكم العقل البدهي وهو عماد الايمان .

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدى إلى الاشراك بالله ، وهو الظلم العظيم - دعوى من لم يفهم معنى الاشراك على ما جاء به الكتاب والسنة ، فالاشراك اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ما منحه الله من الأسباب الظاهرة ، وأن لشىء من الأشياء سلطانا على ما خرج عن قدرة المخلوقين ، وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعينا به فيما لا يقدر العبد عليه : كالاستنصار فى الحرب بغير قوة الجيوش ، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله إليها ، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التى شرعها الله لنا .

هذا هو الشرك الذى كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم ، فجاءت الشريعة الاسلامية بمحوه ، ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الكونية إلى الله وحده ، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية :

الأول : أن العبد يكسب بإرادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته .

والثانى : أن قدرة الله هى مرجع لجميع الكائنات ، وأن من آثارها ما يحول بين العبد وإنفاذ ما يريده ، وأن لا شىء سوى الله يمكنه أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه

جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه فى توفيقه إلى إتمام عمله بعد إحكام البصيرة فيه وتكليفه أن يرفع همته إلى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد فى تصحيح الفكر وإجادة العمل . ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب إلى غير ذلك . وهذا الذى قررناه قد اهتدى إليه سلف الأمة ، فقاموا من الأعمال بما عجبت له الأمم ، وعول عليه من متأخرى أهل النظر إمام الحرمين الجوينى رحمه الله ، وإن أنكر عليه بعض من لم يفهمه

أكرر القول بأن الايمان بوحدانية الله لا يقتضى من المكلف إلا اعتقاد أن الله صرفه فى قواه فهو كاسب لايمانه ولما كلفه الله إياه من بقية الأعمال ، واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته ، ولها وحدها السلطان الأعلى فى إتمام مراد العبد بازالة الموانع ، أو تهيئة الأسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت إرادته .

أما التطلع إلى ما هو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الايمان كما بينا ، وإنما هو من شره العقول فى طلب دفع الأستار عن الأسرار .

ولا أنكر أن قوما قد وصلوا بقوة العلم والمثابرة على مجاهدة المدارك إلى ما اطمأنت به نفوسهم ، وتقشعت به حيرتهم ، ولكن قليل ما هم ؛ على أن ذلك نور يقذفه الله فى قلب من شاء ، ويخص به أهل الولاية والصفاء ؛ وكثر ما ضل قوم ، وأضلوا ، وكان لمقالاتهم أسوأ الأثر فيما عليه حال الأمة اليوم .

لو شئت لقربت البعيد فقلت : إن من بالغ الحكم فى الكون أن تتنوع الأنواع على ماهى عليه فى العيان ، ولا يكون النوع ممتازاً من غيره حتى تلزمه خواصه ، وكذا الحال فى تميز الأشخاص ؛ فواهب الوجود يهب للأنواع والأشخاص وجودها على ما هى عليه ، ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه ، ومن تلك الأنواع الانسان .

ومن مميزاته حتى يكون غير سائر الحيوانات أن يكون مفكرا مختارا فى عمله على مقتضى فكره . فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه ، ولو سلب شيئامنها لكان إماملكا أوحيوانا آخر ، والفرض أنه الانسان ، فهبة الوجود له لاشىء فيها من القهر على العمل . ثم علم الواجب محيط بمايقع من الانسان بارادته ، وبأن عمل كذا يصدر فى وقت كذا ، وهو خير يثاب عليه ، وأن عملا آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر ، والأعمال فى جميع الأحوال حاصلة عن الكسب والاختيار ، فلا شىء فى العلم بسالب للتخيير فى الكسب . وكون ما فى العلم يقع لا محالة — إنما جاء من حيث هو الواقع ، والواقع لا يتبدل .

ولنا فى علومنا الكونية أقرب الأمثال : شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لأميره باختياره يحل به عقوبته لا محالة ، لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة ، وليس لشىء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر فى اختياره ، لا بالمنع ولا بالالزام ، فانكشاف الواقع للعالم لا يصح فى نظر العقل ملزما ولا مانعا ، وإنما يريك الوهم تغيير العبارات وتشعب الالفاظ .

ولو شئت لزدت فى بيان ذلك ورجوت ألا يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح ، ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية ؛ لكن يمنعنى عن الاطالة فيه عدم الحاجة إليه فى صحة الايمان وتقاصر عقول العامة عن إدراك الأمر فى ذاته ، مهما بالغ المعبر فى الايضاح عنه ، والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد ؛ فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ، ولا يريدونه إلا موافقا لما يعتقدون . فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا فى مقاومته ، وإن أدى ذلك إلى جحد العقل برمته ؛ فأكثرهم يعتقد فيستدل ، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد . فان صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم : ويل للخابط ، ذلك قلب لسنة الله فى خلقه ، وتحريف لهديه فى شرعه — عرتهم هزة

من الجزع ، ثم عادوا إلى السكون محتجين بأن هذا هو المألوف ، وما أقمنا إلا على معروف ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الرقى الأدبى

كل له غرض يسعى ليدركه ، وتلك الأغراض متصلة يفضى بعضها إلى بعض ، وتنتهى بغاية قصوى يتجه إليها الانسان فى سلوكه ، وبهذا امتاز من غيره من المخلوقات . وهذه الغاية تختلف باختلاف درجات الناس :

فمنهم من يسعى إلى اللذات المادية ويكتفى بها كما يكتفى الحيوان الجائع بالشبع وهذا لا يقاس عليه ، لأن الغرض الأسمى هو (الكمال) لا هذه اللذات ، بدليل أن من يسعى لها فقط يتجشم عقبات ، ويتحمل آلاما تنافى غرضه ، ولو كان سعيه للسرور فقط لاجتاز إليه أقرب السبل وأقلها إيلاما

واختيار الانسان الأجود يدلنا على أن الغرض الأسمى للأعمال فى حياة الانسان هو أن يصوغ شخصه وذاته فى قالب الجمال النفسى ، حتى يصل بها أو يتدانى من المثل الكامل ، فهو ينتقل بذاته فى الكمال من مرحلة إلى أخرى ، وهذا التنقل هو التدرج الذى تجلى للعلماء فى القرن الماضى أنه عام فى جميع الخلائق الكونية من أجرام سماوية وجماد وحيوان وإنسان ، وإن كانت أشكاله تختلف باختلاف المخلوقات التى يتمشى فيها ؛ حتى إن « سبنسر » الذى طبق نظريات التدرج على أدب النفس قال : إن لكل نوع من أنواع الحياة حركات تسمى سلوكا ، ومن هذه الحركات ما يكون جيدا ، ومنها ما يكون رديئا تبعا لمقتضيات البيئة : فما وافق البيئة منها فهو الحسن ، وما خالفها فهو السيء ، والأول منهما سار ، والآخر ضار ، وإن شاب سرور السلوك ألم كان حسن الأعمال نسبيا باعتبار زيادة السرور على الألم . والغاية الخلقية العليا هى أن يظل سائرا فى سبيل التدرج متأثرا بمقتضيات البيئة والنوازع الداخلية .

ولكن « مكنزى » يرى أن معنى الرقى المشاكلة بين الانسان وبيئته : بمعنى أن الانسان يطبق تصوراته ومعلوماته على حقائق الطبيعة ، ويزعم أن له عادات وقوانين وأحوالا أحسن مما كان لأسلافه ، وأن له غاية خاصة يسعى إليها بتطبيق معارفه على البيئة . فاذا رأى أن أفكاره وتصوراته غير مطابقة تمام المطابقة لبيئته سعى فى تنمية معارفه ليتسنى له هذا التطبيق ؛ إذ يرى أن سبب هذا النقص عدم ملاءمة البيئة فهو يريد أن يكفيها بصورة تتناسب مع تصوراته .

وعلى كلا القولين فالغاية هى التى تعين السلوك ، غير أن «سبنسر» يجعل المناسبة بين الانسان وعمله فى العوامل الخارجة ، و « مكنزى » يجعلها فى الغاية التى يرمى إليها .

والعقل يسخر الكائنات للوصول إلى المثل الكامل ؛ إذ لو كانت الحركة الحيوية مقصورة على مصاقبة البيئة لكان التدرج بطيئا قليل التنوع ، ولظل الحى على حال واحدة دهوراً طوالا ، ولوقف العالم العقلى عن النمو ، وتبعه العالمان الاجتماعى والخلقى ؛ لأن الحياة العقلية نتيجة تفاعل بين الجهاز العصبى وقوة الطبيعة الخارجة من تخيل وذاكرة أو تفاعل بين القوى العقلية نفسها من تجريد واستدلال واستنباط .

ومنذ شرع الحى يصعد سلم الرقى ، ويدرك وجوب المشاكلة بينه وبين بيئته ، وهو يحاول التغلب على الكائنات ، ويسخرها لارادته بتغيير شكلها ومادتها ، واستخدم فى ذلك قواه العقلية التى ابتكرت كل وسائل الراحة والرقى من وسائل النقل والتخاطب والكتابة والقراءة والطبع وغيرها ؛ وابتدع عوالم جديدة ليس فى العالم الجمادى إلا مادتها : كالموسيقى والشعر والزخرفة وعلوم الرياضة النظرية .

فهذا عالم مستنبط من قوى العقل البشرى ، ونزعة الانسان إلى المثل

الكامل هي التي تحدوه فى هذا السبيل سبيل العالم العقلى ، واحتياجه إلى بنى جنسه كوّن له العالم الاجتماعى ، فتعاونا ثم نشأ عن ذلك العالمان الرياضى والفنى ، وتبعهما العالم الخلقى الذى يوجه تلك القوى نحو الكمال والجمال الخلقى الذى هو أرق من الجمال الفنى .

سنة الانتخاب الخلق

قال « دارون » : إن تدرج الأنواع الحيوانية فى مدارج الرقى يحدث من تنازع البقاء الذى ينجلى عن بقاء الأنسب . وهذا التنازع أخذ يضمحل بين الانسان بسبب النظم الاجتماعية ، أما التنازع العقلى فانه يكون ضد الآراء والعادات والأنظمة التى لا توافق المجتمع ، «لا ضد الأفراد والجماعات» ، فاذا امتاز عقل ببعض المواهب يكشف نمطا للسلوك أصلح لحياة المجتمع ، ويدعو الناس إليه : فمنهم من يظاهره ، ومنهم من يقاومه . وبمرور الزمان وكثرة التجارب يتجلى فيه وجه الحق . ولا يكون النجاح فى أنماط السلوك الجديد دليلا على الجودة ولا الاخفاق دليلا على الرداءة ؛ فقد يكون الرأى سديدا ، ولا ينجح لعدم ملاءمته للبيئة والعادات والمواضعات ، وقد يكون رديئا وينجح ؛ لأنه صادف هوى فى نفوس قوم لم ترتق عقليتهم ، فجروا عليه . فسر النجاح موافقة الأسلوب لأحوال المجتمع ؛ بدليل أن بعض الأرقاء كانوا راضين برقهم قانعين بعيشهم حين كان الرق مباحا ، فلما حُرِّم ورأوا أنهم صاروا أحرارا مكلفين السعى فى طلب الرزق بان لهم أن ذلك ظلم لهم .

والانتخاب الخلق سنة تقضى على الاضطراب ، وتقضى ببقاء الأفضل ، فاذا عمدنا إلى مقاومته بالحرص على التوازن الاجتماعى وقفنا فى سبيل التدرج الخلق ؛ لأن الرقى الخلق سلسلة معارك تتدرج فى ميدان النزاع ، ويكون

الفوز فيها للأصلح والأنسب . وعملية الانتخاب الخلقى هى التى تمحص الرغبات ، وتؤدى إلى السعادة .

سنن التدرج الارتقائى

تنازع الفضيلةُ الرذيلة فى أفعال الناس وأنظمتهم ، وكلما تغلبت الفضيلة كان السلوك حسنا ، وخطا التمدين خطوة فى سبيل الرقى ، وليس تغلب الفضيلة على الرذيلة مطردا ؛ فقد يتحسّن السلوك ويتبعه جودة النظام وملاءمته لخير العامة ، ثم تطرأ مقتضيات تحيل نفعه ضررا أو تخصصه بطائفة من الناس :

فمن ذلك رقى الصناعة الاختراعية التى وفّرت على الناس كثيرا من الوقت والمال ، ورفعت عن كاهل العمال تسعة أعشار التعب ، وكان المنتظر فيها تعميم الرخاء واليسر ومنع الجرائم والشرور ، ولكنها زادت فى جشع أصحاب رءوس الأموال وأورثت العمال فقراً اضطرهم إلى استعمال الوسائل غير الشريفة فى الارتزاق ، وأفسد أخلاق الأغنياء بتسهيل سبل التمتع بجميع اللذات ، إلى غير ذلك مما قوّض دعائم النظام الاقتصادى بما صار إليه المتمولون من الاستبداد بالعمال وامتصاص دمائهم .

وعناصر الحياة الخلقية أربعة رئيسة :

١ — مبدأ خلقى يُسَلّم به المجتمع ، ويُعتبر مثلا كاملا يسير عليه ويقتبسه الأفراد فى سلوكهم .

٢ — نظم اجتماعية تُحَدّد سلوك الأفراد .

٣ — أساليبُ السلوك التى صارت عادة للأفراد .

٤ — تشبع النفس بالروح الخلقية ، واتجاهها إلى الكمال . وهذا العنصر ثابت لا يقبل التغيير ، أما الثلاثة الأولى فقابلة للتجدد والتدرج ، وكلما حدث فى أحدها تغير أحدث تنافرا بينه وبين الآخرَين إلا إذا تدرجا معه :

مثال ذلك أن المساواة مبدأ عام يُقره الأفراد ، ويؤيده النظام ، وينفذه القضاء فى الأمور المدنية والسياسية ، ولكن سنة الاقتصاد لاتؤيد هذه المساواة لتفاوت الناس فى الجهاد والعمل ، ويتبع ذلك أن الموسرين ينفرون من معاملة الفقراء معاملة النظير لنظيره والأقوياء يعاملون الضعفاء معاملة السيد لعبده .

وكذلك السلام العام ؛ فإنه رغبة كل فرد ؛ لأنه وسيلة لحفظ الحقوق ، تؤيده القوانين ، وتسعى إليه الأمم مع أننا نراهم يسنون القوانين الحربية ، ويفتَنُّون فى اختراع المدمرات والمهلكات . والقوانين الدولية تجيز للأمة القوية أن تستعمر وتستعبد الأمم الضعيفة ، وأفراد تلك الأمم يؤيدون حرية الانسان فى بلادهم وينتهكون حرمة هذه الحرية خارجها ، فالتدرج الارتقائى فى الشعوب والأمم لا بد أن يُوفق بين المثل الكامل والنظام والعادة .

وهنا حدّد « سبنسر » مستندا إلى نظريات « دارون » التدرجَ المادىّ بأنه تحول البسائط المنفصلة غير المحدودة إلى مركبات متصلة محدودة الأشكال وقال : إن الكون كله مؤلف من التشتت المضطرب إلى التآلف المنظم . ووازن بين تركيب جسم الدودة والهِرّة ، واستنبط منه أن الجسم كلما كان أكثر تركيبا وأوفر أجهزة كان الحيوان أرقى ؛ ولهذا يعتبر الانسان أرقى الحيوان ؛ وكذلك العالم الاجتماعى ؛ فإنه كلما كان أكثر أنظمة كان أكثر رقيا ، وكلما تفرعت الأنظمة وتعددت زادت فى توثيق الروابط بين المجتمع ، ولا سبيل إلى ابتكار هذه الأنظمة وجعلها متمشا كلها مع البيئة إلا بالعبقرية التى ينجبها المجتمع فى دائرة من دوائر حياته ، سواء أكانت مادية كالطبع الذى ابتكره (غوتمبرغ) وتبعته حرية الرأى والبحث والعقيدة ، أم أدبية كالذى نراه كل يوم من المبادىء والأنظمة الجديدة التى تغالب القديمة فتغلبها .

والناس فى ذلك فريقان : فريق سار على نهج من سبقوه يكره التجديد والتدرج ، وفريق شحذت المتناقضات عقولهم ، ففكروا ، واهتدوا إلى نماذج للحياة توافق مزاج المجتمع وترفع من شأنه ، فأصلحوا كثيرا من أحوال الأمم ، وصارت مبادئهم أشد تأثيرا وأوسع انتشارا «وقليل ماهم»

مراحل التدرج الخلقى القومى

يتعذر تفصيل المراحل الخلقية التى قطعها المجتمع ؛ لأن المبادىء الخلقية سلسلة ممتدة من بدء الاجتماع متفرعة ، مشتبك بعضها ببعض ، ولكن يمكن إدماجها كلها تحت مبدأ عام هو المحبة ؛ إذ هى جماع الفضائل ، فالمحب يعدل ويصدق ويشفق ويساعد ، ويتحلى أمام محبوبه بجميع الفضائل ، بها يرتبط الأفراد ، وتتكون الأسرات . ولمَّا صارت المحبة سجية اجتماعية صارت عطفا من فرد على مجموع أفراد تجمعهم رابطة القرابة أو الجوار ، ثم صارت محبة للوطن الذى يأويهم ويغذيهم . ولما ارتبطت الأُسرات والقبائل والأمم برباط المنفعة والتعاون المتبادلين تفرع عنها العطف على الانسانية ، وتحولت إلى احترام من الصغير إلى الكبير ، وشفقة من الكبير على الصغير : فاحترم الابن أبويه وإخوته ، واحترم أفراد الأسرة زعيمهم احتراما يجعله الآمر المطاع ، وأطاعوه إطاعة تامة ، وأنزلوه منزلة فوق مرتبة الانسان ، إلى أن أرسل الله رسله الكرام بالهدى والحق المبين ، فوجهوا نظر الناس إلى الله الواحد القهار .

وقد بين موسى عليه السلام فى وصاياه أن المحافظة على النفس والصدق والأمانة والعفة والعدل كلها مشتقة من المحبة ، وبيّن عيسى عليه السلام أن الكون قائم على المحبة ، وجعلها دينُ الاسلام شرطا فى الإيمان : انظر قوله عليه الصلاة والسلام : (لَايُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَايُحِبُّ لِنَفْسِهِ)

نشوء الحكم والعدالة

عرفنا أن أول سلطة ظهرت فى المجتمع سلطة الأب فى الأسرة، ثم سلطة زعيم القبيلة التى تدرجت، وصار الزعيم ملكا واسع السلطة عظيم النفوذ، تتمثل فيه قوة الجماعة التى يحافظ على وحدتها ويجمع شتاتها. ولمّا كان لابد له من أن يقسو ويستبد ويتبع الهوى فى سلوكه - كان لا بد من نشوء العدالة والرحمة :

وقد جمع الحكام فى سالف الأزمان بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية، فكانت أحكامهم مؤيدة نافذة بعوامل الخوف من عقاب الدنيا وعقاب الآخرة، وكان المبدأ السامى عندهم حينئذ «مخافة الله» بدل «محبة الله»، وكان من وصاياهم الإلهية العدل الذى كان ولا يزال وسيلة لحفظ نظام المجتمع وأساس الملك، وقد ترقت سجية العدل فى الإنسان حتى صارت رحمة ورأفة وعفوا بما جاءه من الدين الذى جاء مناسبا لتدرجه الخُلق؛ إذ كان عدل موسى عليه السلام «السن بالسن»، ثم جاء عيسى عليه السلام بالتسامح: «من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر»؛ ثم جاء خاتم النبيين بما جمع بين القصاص والعفو: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ» ولمّا ضعُف الدين فى نفوس البشر ورأوا أن فى الجمع بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية تضييقا عليهم فى حريتهم، وأن مبادىء هذا النوع من الحكم لا تتمشى مع الزمن وأن أوامره التى يوحى بها الاستبداد عبء ثقيل — صاروا يحاولون الإفلات من النظام الدينى والتفريق بين السلطتين. ولمّا شعروا أن قوة الزعيم بقوتهم، وضعفه من ضعفهم — صاروا يستثقلون شبح الاستبداد، ويتطلعون إلى إبداء رأيهم فيما يعود عليهم نفعه، حتى نشأت بينهم فكرة «الديمقراطية» التى أسها المساواة بين الحاكم والمحكوم والغنى والفقير، فأخذت قوة الفرد تهن

وتضمحل ، وصار كل إنسان يتمتع بحقوقه السياسية والمدنية حتى النساء ، وما يسمونه « الديمقراطية » قد جاء به الإسلام على أكمل وجه وأوسع معنى .

تدرج الأمم

وهناك تدرج أوسع مدى يحدث بين كثير من الأمم ، وأهم آثاره :

(١) الحرب : لأن قدر المحبة بينها لا يكفى لحفظ كيان المجتمع ؛ لتوافر أسباب البغضاء . فتحتاج الأمم إلى صد غارات من ينازع الناس حياتهم وأرزاقهم .

لذلك كان شبوب الحرب بين القبائل والأمم لا مفر منه ، وكانت الشجاعة الحربية فضيلة ، ونظام الجندية مقدسا ، والسبي والاسترقاق واغتنام الغنائم مباحا . ولمَّا كان نظام الرق وافر النفع اتخذه رجال الحرب حرفة ، وصاروا يغزون الضعفاء ، ويأسرون أحداثهم ، ويبيعونهم للخدمة ، وقد شعر أهل القرن الماضى أن النخاسة شذوذ فى النظام فألغوها باتفاقات دولية .

(٢) الإنسانية العامة : كان الناس متباينين فى العادات والأخلاق والمراسم والعقائد ، وكان الاتصال بينهم قليلا لصعوبته أو للخوف من أن يكون وسيلة مطامع ، وبمرور الزمان سهل الاتصال ، وذهب ذلك الخوف ، واختلط الناس بعضهم ببعض ، واقتبس كل من عادات أخيه ومبادئه ، واشتركت الأمم فى المبدأ الرئيسى . وسُنت لذلك قوانين ومعاهدات ، وعقدت مؤتمرات : مما جعل البغض بين الناس يقل ، وصارت الأمم تقوى باتحادها وتآلفها وتكوينها كتلة اجتماعية عامة مبدؤها « حب الإنسانية » بدل « حب الوطن » وإن شئنا جعلنا حب الإنسانية حب الوطن ؛ لأن الدنيا وطن عام للانسان .

(٣) السبى والإقطاع : كانت الحروب بين الأمم قديما وسيلة طبعية لاشباع جشع الأقوياء من الضعفاء ، وكانت الأمة الغالبة تمثل بالمغلوبة رغبة

فى القضاء عليها : يذبحون أبناءهم ، ويسبون نساءهم ورجالهم ، ثم صاروا يعفون عنهم ويستخدمونهم فى الفلاحة ، وكان من نتائج ذلك اختلاط المغلوبين بالغالبين واندماجهم فيهم وصيرورتهم شعبا واحدا دما ولغة وقومية ، لكل منهم ما لأخيه ، وعليه ما عليه ، حتى أصبح المغلوبون بعد الخدمة سادة وبعد الفقر مُلاَّكا .

(٤) ارتقاء الوجهة الروحانية : التدرج الاجتماعى تابع لتدرج عقلى خاضع للبيئة الخارجة ، والتدرج الروحانى نتيجة تفاعل العقل مع الدواعى الجسمانية مع تأثير العوامل الخارجة ، وهو يصحب كل تدرج اجتماعى ، ويرتقى بارتقاء الأمة ، ويتغير من الوحشية والقسوة إلى اللين والمؤاخاة : فبعد أن كان الانسان القديم يستحل دم أخيه ومتاعه وعرضه أصبح الآن يعتقد أن الناس متساوون فى الحقوق والواجبات والحرية ، وصار يفدى الانسانية بكثير من سروره ، ويتألم لألم غيره : مما يدلنا على أن روحانية الجنس البشرى تدرجت فى الرقى ، وقربت من المثل الكامل ، وصارت آثار رقيها الآن أعظم منها فى كل زمان سابق ، فهاهى ذى الملاجىء الخيرية والمدارس المجانية والمستشفيات والاسعاف والرفق بالحيوان وغيرها من المبرات شاهد عدل ونموذج حسن للمبدأ الأسمى .

ولا يرد على هذا أن التدرج الخلقى تقتضيه الأحوال والدواعى الخارجة ؛ لأن إلغاء الرق ومنع النخاسة مثلا اقتضاهما اتساع مجال الصناعة والاحتياج إلى كثرة الأيدى العاملة ، واعتقاد أن العامل الحر يعمل أكثر مما يعمله العبد ، وجلى أن الدواعى الخارجة إن لم تؤيدها الروح الخلقية التى تقضى على الشهوات وتعمل لخير المجتمع ـ كانت لا أثر لها .

(٥) الدعاية إلى المبدأ الخلقى : ذلك لأن الفضائل تنظم السلوك وتجعله على النهج القويم ، وما لطف أخلاق الناس ، وكسر من حدة ظلمهم وشهواتهم ومنعهم عن الدنايا والرذائل ـ إلا العلم والعرفان ؛ بدليل أن حبس العلم عن

العامة واختصاص الكهنة بالسلطتين : الدينية والمدنية ، وحرمان الناس الوقوف على أسرار الشرائع والبحث فى العلوم - كانت فى العصور السابقة عقبة كأداء فى سبيل الرقى الأدبى .

ولما جاء الاسلام وبث روح « الديمقراطية » واتسعت دائرة الحرية نشطت النفوس من عقالها ، وقام الوعاظ والمؤلفون والمصلحون على اختلاف أنواعهم ومبادئهم ودياناتهم بالدعوة إلى العلم والمعرفة وحرية الفكر والقول ، فهدموا فى زمن قصير مابنته يد الاستبداد ، وقطع العالم نحو الرقى مراحل واسعة . واستمرارُ نشر المعرفة على هذا النحو والدعاية إلى العلم يفضى بالناس إلى أن يدينوا بدين الحق فى ظل راية الانسانية العامة .

أمران يضعفان الروح الخلقية

الأول اقتصادى :

ذلك بأن التدرج العلمى كشف كثيرا من سنن الطبيعة : كالبخار والكهرباء ، وأوجد وسائل كثيرة لاستخدامها فى الصناعة ، فتقدمت ، وتبع ذلك أن صار فريق من الناس يقبضون على ناصية المال الذى هو أساس الصناعة ، ويستخدمون كثيرا من العمال يكلفونهم فوق طاقتهم ويضنون عليهم بنُفَاثة السواك ، حتى أدى ذلك إلى انفجار بركان غضبهم ، فألفوا جماعات اشتراكية تطلب المساواة بتعديل هذه النظم العتيقة التى غمطت حقوقهم ، وأثقلت كواهلهم بكثير من الأعمال الشاقة : مما ينهض دليلا على أن الرحمة لم تجد بعد طريقا إلى القلوب ، وأن سلطان الأثرة قوى غالب .

الآخر الاستعمار :

وهو أثر من آثار (الأرستوقراطية) الدولية يستبيح به الأقوياء دماء الضعفاء وأموالهم وبلادهم ؛ بحجة أن الحق للقوة ، وأنهم مضطرون إلى ذلك لضيق أرضهم وكثرة عددهم ، وأن الضعفاء فى حاجة إلى من يأخذ

بناصرهم ، ويسير بهم فى سبيل الرقى العلمى والاجتماعى . وذلك إفك وبهتان ؛ لأن الحق حق وإن لم تؤيده القوة ؛ إذ لو احتاج إلى القوة فى تأييده لكان حق البقاء مقصورا على الأقوياء فقط ، وما احتاجت الأمم إلى المعاهدات الدولية التى تحفظ الحقوق وتنصر الضعيف .

أما أنهم يسيرون بالضعفاء إلى الرقى فهو نقاب يسترون به طمعهم ؛ لأن الواقع يشهد أنهم يحولون بينهم وبين نور المعرفة ، ويعملون على تأخرهم ، ليستطيعوا التحكم فيهم . على أنه لو كان الغرض من الاستعمار ترقية مداركهم لحصل ذلك برضا الفريقين وإرادتهما دون حرب أو شجار .

وأما ضيق بلادهم بذريتهم ففيه شىء من الحق ، ولهم أن يفتحوا البلاد المجهولة ، ويستعمروا الأرض القليلة السكان ، على شريطة ألا يبيدوا أهلها ولا يسخروهم ؛ لأنهم بشر لهم حق البقاء . وأما استعمار البلاد المملوءة بالسكان كآسيا وشواطىء إفريقية فلا مسوغ له ، لأنها موفورة السكان ، ولأهلها من التمدين والرقى ما يؤهلهم لمجاراة أمم أوربة ، فاستعمارهم محض اغتصاب يدل على نقص فى الروح الأدبية ، ومثلهم كمثل بنى إسرائيل الذين كانوا يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الحياة حق لهم دون سواهم .!!

وقد دل إخفاق المؤتمرات مع اختلاف ضروبها على أنه لا يرجى للعالم سلام إلا إذا أقصرت الأمم الغالبة عن باطلها وردّت جماح نهمها ، وفاءت إلى رشدها ، ولَزِمَتْ خلال الحمد من الوفاء بالذمام والأخذ بالفضل ، والكف عن البغى والإنصاف للخلق ، واجتناب الفساد فى الأرض ، والاعتبار بما أصاب الأمم الباغية قبلهم من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثُلاته ؛ وإلا فإن الله جلت حكمته إذا رأى من الأمم المستضعفة جدّ الصبر على الأذى فى سبيل أوطانهم والاحتمال للمكروه فى استرداد استقلالهم ـ

جعل لهم من مضايق البلاء فرجا ، فأبدلهم العز مكان الذل والأمن مكان الخوف ، وخلع عن الأمم العادية لباس كرامته ، وسلبهم غضارة نعمته ، وأبقى قصص أخبارهم عبرة للمعتدين : « سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً »

انتهى الجزء الثانى ويليه بمشيئة الله تعالى الجزء الثالث

والحمد لله أولا وآخر

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
الرحل	الرجل	٤	٢٢
ملبرانسن	ملبرانش	١٠	١٠
بنحو	بنمو	١١	١
كلَّهَا	كلُّها	١٣	٢
أصل	أهل	١٤	١٥
االجسر	الجسر	١٥	٥
اتبعُ	اتبعَ	١٥	٨
إعلام	أعلام	٢٠	١٢
منهِيًّ	منهِيٌّ	٢١	٢٣
عَزِزٌ	عَزِيزٌ	٢٣	١٥
عى	على	٢٤	٣
ج وهذا احتجا	وهذا احتجاج	٢٥	٢٣
وَاَ	وَاَوِ	٢٦	٢٢
رَبُّكُمْ	رَبُّكُمْ	٣٢	٣
يُوتُ	لا يَمُوتُ	٣٨	٨
يا مَعَاذُ	يا مُعاذ	٤٦	١٠
أطيعو	أطيعونى	٥٢	١٤
تكلون	توكلون	٥٤	٤
تفرق	تفرقا	٦٢	١٣
لا تعلمْ	لا تعلمَ	٦٢	١٥
آيا	آياتِىَ	٧٦	٤

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
نو	نُوَاةٍ	١٠١	٤
اهْتَرُوا	اهْتَزُوا	١١٤	١١
أما	وما	١١٩	١٥
أولوا	أولو	١٣٤	١٥
إتين	إيتن	١٣٥	٧
هتنج	هتنجس	١٥٠	٣
عل	على	١٧٢	١٥
مكابرا	مكاثرا	١٧٧	١٦
شئتُ	شئتَ	١٨٧	١٣
؟ عمل إليه	عمل بالامور	١٩٦	١٣
عدة	مرة	١٧٩	١
تعارض	تقارض	٣١١	١١
غفاتهم	عفاتهم	٣٢٢	٤
مفصلات	معضلات	٣٢٩	١٩
الترفية	الترفيه	٣٣٦	٢٢
للقوانين	القوانين	٣٥٠	١٧
خطرت	حظرت	٣٥٥	٥
يأتى	أيأتى	٣٦٨	٢٣
حدًا	أحدًا	٣٦٩	٧
يتزاورن	يتزاورون	٣٨٠	٢٣
اقتدة	اقتده	٣٨١	٢٢
حبٌ	حبٌّ	٣٩٢	٢٣

تقاريظ الجزء الأول من الخلق الكامل

بعد أن ظهر الجزء الأول من كتابنا (الخلق الكامل) تفضل حضرات العباقرة الألمعيين بتقاريظهم الآتية ، نوردها هنا على حسب تاريخ ورودها شاكرين لحضراتهم جميل صنعهم وحسن تقديرهم :

(١)

لحضرة صاحب الفضيلة الجليل كبير علماء الاسلام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر سابقا

حضرة صاحب العزة الاستاذ محمد أحمد جاد المولى بك :

السلام عليكم ورحمة الله (وبعد) فإنى عاجز عن شكرك لزيارتك وإهداء ذلك الأثر الجليل إلىّ « الخلق الكامل » كما أنى آسف جد الأسف لأنى لم أرك ، وأسأل الله أن يجزيك خير الجزاء عن الدين والخلق اللذين أنت نصيرهما ، وعامل على إحيائهما ، وأن يعد لك جزاء الصابرين وأجر المحسنين ولك تحيات المخلص

محمد مصطفى المراغى

(٢)

الخلق الكامل

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى من هيئة كبار العلماء :

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيد السادات سيدنا محمد معدن الأسرار ومنبع الأنوار ، وعلى آله وأصحابه الذين عملوا بارشاده ، ففازوا بسعادة الدارين ، وانتشر ذكرهم فى الخافقين ، فكانوا ملوكا فى الدنيا ملوكا فى الآخرة .

وبعد ، فانما يكمل الانسان ويعظم قدره ويعلو شأنه ويعيش عيشة رغدة هنيئة بأخلاقه الفاضلة وسجاياه الطيبة وخلاله الحميدة وأعماله المجيدة ، ويكون نجاحه فى أعماله وفوزه فى حياته على نسبة ما يتحلى به من سنى الأخلاق ورضى الصفات . والأمة لا يتسنى لها أن تتبوأ عرش عزها ، وتبنى شامخ مجدها ، وتوطد دعائم ملكها - إلا إذا أخذت من الفضائل بأوفر نصيب :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا   فليس وراءها للعز ركن

وما رأينا أمة ذلت بعد عز ، وهانت بعد كرامة ، وأدبرت أمورها بعد إقبال ، وصارت إلى التدهور والانحلال — إلا بعد أن انغمست فى حمأة الرذائل ، وتفشت فيها أوباء الشر والفساد :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم   فأقم عليهم مأتما وعويلا

ولا يغنى العلم وحده شيئا فى أمة فسدت أخلاقها وساءت طباعها وقبحت أعمالها ، بل قد يكون العلم أداة للشر ووسيلة للأجرام وداعياً إلى الافتنان فى طرق التدمير والهلاك : ولذلك قال بعض الحكماء : (نحن إلى قليل من

الأدب أحوج منه إلى كثير من العلم) وقال حكيم الشعراء :

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

ولعل ما تضجُّ منه السموات والأرض من الحوادث التى يموج بها العالم فى هذا العصر وقد عيت بها حيل المفكرين أكبر دليل على ما نقول : وذلك لأن الناس وجهوا عنايتهم إلى دراسة العلوم والفنون ونشرها بكل الوسائل الممكنة ، وأهملوا جانب الأخلاق .

إن الرجل لا يكون مصلحاً حقاً إلا إذا كانت وجهته قبل كل شىء تقويم أخلاق الأمة وتهذيب نفوسها وغرس الأصول الطيبة والمبادىء الصحيحة فى أفئدة الناشئين منها .

وبهذا كله نعرف قيمة ما يسديه الأستاذ الجليل والمربى القدير (جاد المولى بك) إلى أمته من وقت لآخر بتلك المؤلفات القيمة والكتب الخلقية العظيمة التى تهديها سواء السبيل ، وتسمو بها إلى الحياة الطيبة حياة الحكمة والرشد والفضيلة والمروءة وغيرها من الخلال التى تكفل لها السعادة والهناء ،

وأحدث ما أشرقت علينا شمسه من أسفاره الجليلة النافعة كتاب (الخلق الكامل) الذى طبع منه الجزء الأول ، وهو كما يدل عليه عنوانه نبراس يستضىء به المستبصرون ، وأقوم هاد يهتدى به الضالون ، وأنصح مرشد يسترشد به الناشئون . وهو يصور لنا نازعات المؤلف وميوله أجمل تصوير ، وينبئنا بما طبعت عليه نفسه الكريمة من حب الدين الحنيف وشغفه ببيان أسراره ونشر مزاياه ؛ فقد جعل القرآن رائده ونعم الرائد ؛ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فيما ذهب إليه من آراء وما استنبطه من أخلاق ، فكان موفقاً فيما حققه وبينه .

ولقد دل الكتاب على رسوخ مؤلفه فى العلم وإحاطته بكل ماله أدنى ملابسة بالأخلاق ؛ فهو يذكر آراء العلماء القدماء والمحدثين الشرقيين منهم

والغربيين ، ويضع الكثير منها على بساط البحث . ثم يعقب بحثه برأيه الخاص الناصح ، وهذه هى الطريقة المثلى فى المباحث العلمية القيمة ؛ يخرج منها المطالع وقد ألم بالموضوعات إلماماً حسناً ، وكون رأياً نافعا ، بل عرف خلاصة ممحصة وتحقيقات مبرهنة ، وقد نهج المؤلف فى كتابه خير منهج فى تقويم الأخلاق المعوجة وغرس المبادىء الفاضلة الشريفة واستئصال الرذائل الذميمة بأسلوب سلس قريب المأخذ سهل التناول لا يعزب عن فكر المتعلمين ، ولا ينبو عنه ذوق العلماء المتضلعين . ونحا فى تقسيمه وتبويبه أحسن منحى ؛ فأوجز فيما يجب فيه الايجاز ، وأطنب فيما يجب فيه الاطناب

انظر مثلا إلى ما قاله فى تربيته الطفل تجده قد عنى به أعظم عناية ، فبين ما يجب على أبويه ومن يتعهده بالتربية من تثقيفه بالمعلومات الصحيحة النافعة وطبعه على مكارم الأخلاق وشريف العادات والحيلولة بينه وبين ما يجره إلى مهاوى الرذيلة والأعمال الممقوتة ، وأوضح الطريق التى تتبع فى تثقيفه وتهذيبه ، حتى يشب فاضلا كاملا حصيف الرأى راجح العقل راقى الشعور سليم الوجدان ناهضا باحتمال أعباء الحياة وتكاليف الأيام طموحا إلى العلا سباقا إلى كل ما يرقى شأنه وشأن بلاده .

ومما راقنى منه فى هذا الباب أنه جعل تعاليم الدين هى الأساس لبناء الأخلاق الفاضلة وتشييد دعائم الإصلاح فى الأمم ، وأفاض فى بيان الذرائع التى تذرع بها الدين الإسلامى فى تكوين الأخلاق وتربية النفوس والأخذ بها من كل نواحيها إلى ما يحقق هناءها ويضمن سعادتها ، ولقد أعجبت كثيرا بما بينه المؤلف الفاضل من أسباب السعادة التى هى مطمح أنظار الناس ومنتهى ما تصبو إليه نفوسهم وتتوق إليه أفئدتهم ؛ فجلاها لهم ، وأوضح سبلها ، ومزق حجبها ، وقرب مأخذها ، وجعلها لبنا خالصا سائغا للشاربين .

وقصارى القول أن هذا السفر خير ما قرأناه فى كتب الأخلاق ؛ فهو

كتاب على جامع يشرح الموضوعات شرحا وافيا ويفيض فى بيان الطرق القويمة فى تربيته النفوس تربية فاضلة ، ولقد جاء خلاصة لما وصلت إليه آراء رجال الأخلاق إلى الآن فى الشرق والغرب ونتيجة اهتدت إليه عقولهم ، وانتهى إليه بحثهم . فما أجدر الناشىء باحتذائه والكبير باقتنائه . ولو أن هذا الكتاب ظهر فى أمة تقدره قدره لسارعت إلى اقتنائه والانتفاع بماجاء فيه ، وإن وزارة المعارف ومعاهد التعليم لتحسن صنعا إذا قررت مطالعته ودراسته للناشئين حتى يشبوا ذوى نفوس كريمة وشيم عظيمة وهمم عالية ومبادىء سامية ، تتكون بمافيه من فلسفة عقلية ودينية وموازنة صحيحة بين ماجاء عن حكماء الشرق والغرب قديما وحديثا ، فجزى الله المؤلف العظيم خير الجزاء وأكثر من أمثاله ، ونفع الأمة بجليل أقواله وعظيم أعماله اهـ .

يوسف الدجوى

(٣)

لحضرة صاحب العزة الجليل « محمد بك صادق جوهر » سكرتير عام الجامعة المصرية :

عزيزى الفاضل جاد المولى بك :

أقدم إليك جزيل الشكر على تفضلك باهدائى كتابك « الخلق الكامل » وإنى أهنئك على نجاحك العظيم فى هذا البحث القيم ؛ فقد أحسنت تقسيمه ، واستوعبت أصوله من علمية ودينية ، وأجدت التعبير ، ولكن لا غرابة ؛ فهذا هو « موضوعك »

فجزاك الله خيرا عن هذا المجهود الكبير ، وإنى أرجو للكتاب ما يستحقه من النشر خدمة للعلم والخلق .

وتفضلوا بقبول وافر تحيتى واحترامى ؟

صادق جوهر

(٤)

لحضرة صاحب العزة الجليل «أحمد بك عاصم» ناظر مدرسة دار العلوم العليا :

آخى وصديق الفاضل الأستاذ جاد المولى بك :

مرحبا بهديتك الثمينة وألف شكر لك على هذه التحفة القيمة ، وإنى وايم الحق ماعلمت مؤلفا رزق من التوفيق والالهام فى مؤلفه مارزقته فى خلقك الكامل ، فأخرجته للناس فى أجمل صورة دلت على بحث عميق فى جميع نواحى موضوع الكتاب ، وليس هذا بمستبعد عليك أو مستغرب فيك ، وخليق بمن كان كامل الخلق أن ينجح النجاح كله فى تصوير الخلق الكامل ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده الصالحين ، والله ذو الفضل العظيم ؟

عاصم

(٥)

لحضرة صاحب العزة الكبير « محمد بك رشدى » مراقب تعليم البنات بوزارة المعارف سابقا :

حضرة الصديق الجليل والعزيز الكبير :

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فانى عاجز - لسانى ويراعى - عن شكركم ؛ فكتابكم « الخلق الكامل » الذى تفضلتم فأهديتم نسخة منه إلى كان له أكبر الوقع وعظيم التقدير فى نفسى .

وقد تصفحت شيئاً منه مساء أمس عقب عودتى للمنزل فأعجبت به كل الاعجاب ؛ ففيه الأمثلة من « نقائصنا الخلقية » التى جئت لها أمثلة حية واقعية ناطقة بحقائق ثابتة . وأما الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة النبوية التى جئت بها فى سياق كل موضوع فهى البرهان الكامل على ماترمى إليه نفسك الوثابة من وقت لآخر فى كتبك ومحاضراتك الأسبوعية من إرساخ الدين فى القلوب .

فجزاك الله أحسن الجزاء ، وأثابك على عملك ، ونفع المؤمنين بك ، وأدام لى ودك .

والسلام عليك ورحمة الله . محمد رشدى

(٦)

للأستاذ القدير عبد الحميد حسن المحامى بالاسكندرية :

سيدى : أهدى إليكم أطيب تحية (وبعد) فلقد قرأت هديتكم فى الخلق الكامل ، فراعنى فى هذا الكتاب القيم عبارته السلسة ومعانيه الجزلة وبيانه البديع وبحثه المستفيض وشرحه الوافى واستيعابه الدقيق .

فأنعم به من رسالة صادقة فى الأخلاق وبحث شاف فى الفضيلة وتنقيب دقيق مؤد للكمال ؛ فهو خير كتاب أخرج للناس فى هذا العصر .

فلله درك من لوذعى ماهر وحكيم نطاسى وعلامة نابغة ؛ وضعت فأجدت واستوعبت فهديت . جزاك الله عن الأخلاق والآداب خيرا ؛ لما تستحقه من الاجلال والاعظام .

عبد الحميد حسن

المحامى

(٧)

لحضرة الأستاذ المحترم موسى أفندى عرفان بوزارة المعارف :

فى عالم التأليف

لعلك تشعر حين تقرأ أمثال الأستاذ « جاد المولى بك » فى مؤلفاته أو حين تسمعه فى أحاديثه ومحاضراته أو حين يسعدك الحظ بلقاه ـ لعلك تشعر بشعور يمتاز كثيرا عن ذلك الأثر الذى يحدثه غيره من المؤلفين والمحاضرين :

ذلك أن الأستاذ قد جمع بين الأدبين : أدب الشرق ومافيه من روحانية واشتراع ، وأدب الغرب ومافيه من جمال وخيال ، وإذن فلابد لك من مزيج من الأدبين يسوقه إليك ، كله قداسة وطهارة ، وكله فن وإبداع ، ولعل خير زعيم لك بذلك هو مؤلفه الجديد « الخلق الكامل » ذلك الكتاب الذى لاتلبث أن تبتدئه ، حتى يأخذك جماله ، ويروعك أسلوبه ، فيمر بك الوقت حلوا صافيا دون أن تشعر بمروره حتى لقد ينسيك شتى شئونك وأعمالك ، ويأسرك ، ويأسر فيك كل ناحية ، فلا تكاد تملك معه شيئا .

ولقد أسعدنى الحظ بقراءة كثير من الموضوعات فى هذا المؤلف ، فكان لقراءته فى نفسى أثر أيما أثر . وليس ذلك بغريب فهو نفثة من يراع رجل تأدب بآداب كتاب الله ، واغترف فى مناهل الحضارة الغربية ، فجاء كتابه جامعاً للثقافتين

وإنك لتستريح إليه حين تلقى منه ذلك القائد الخبير يرسم لك طريق الفضيلة ويسلكها أمامك ؛ لتهتدى به فى سبيل حياتك مع الناس .

ولقد ظهر هذا الكتاب الجليل فى وقت نحن أحوج ماتكون إليه ؛ إذ

طغى سيل العدوان على الدين الحنيف ، وهاجمتنا جيوش الأعداء من المبشرين ينفثون سمومهم فى أدمغة ضعيفى الأخلاق الذين أهمل تأديبهم ، وتركت تربيتهم ؛ فانحلت بذلك روابط المجتمع ، وأصبحنا فى فوضى من الخلق والآداب تنذرنا — إن لم نبادر بتلافيها — بالشر والبلاء المستطير .

ولقد تشعر بسرور لايدانيه سرور حينما تراه وقد تمشى مع كتاب الله مبينا أنه قانون سماوى ، جمع من الحكم والأخلاق مايكفل سعادة المجتمع الانسانى : أنظر إليه حين يقول : « إن تأثير الدين فى الأخلاق أمر ظاهر لايسع أحد إنكار سلطانه على القلوب وتأثيره فى النفوس : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » ثم يتدرج بك إلى أن العلم والتربية هما أساس سعادة المجتمع وعماد فلاحه ، وبهما الخير والهداية فى الدنيا ، وهما طريق الفوز فى الآخرة : « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ » ولقد يريك صورة صحيحة من الكمالات البشرية والخلال السامية — صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة مع العبادة وتهذيب النفس : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ » الآية هكذا قضى الله وقدر أن يكون الأستاذ على تقديره للسلف وحرصه على الاقتباس من الكتاب والسنة جديدا كل الجدة فى كتابه ؛ فهو يريك أن للخلق موازين وينابيع ، ويسردها لك فى دقة وإيضاح فى حديث شائق وأسلوب ممتع .

وها هو الكتاب قد ظهر للناس فى ثوبه القشيب يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم

وخلاصة القول أنه ينبوع الهداية صافيا ومنار الحكمة عاليا وعلم الارشاد هاديا ، جمع بين دفتيه آيات بينات وفضائل ساميات توصل إلى مراتب السعادة وأشرف الغايات

موسى عرفان موسى

(٨)

وكتبت جريدة الجهاد مايلي :

الخلق الكامل

طالعنا الأستاذ (محمد أحمد جاد المولى بك) المفتش بوزارة المعارف بمؤلفه الطريف « الخلق الكامل » ، وهو سفر جليل الشأن مستفيض الأبحاث ، جزل العبارة يكفى أن يكون موضوعه بحثا خلقيا ؛ ليكون خليقا بعناية القارىء ، وتقصى ما ضمن من مباحث ومبادىء لا غنى لمعلم أو متعلم عنها .

ولقد صدر الأستاذ مؤلفه النفيس بمنزلة علم الأخلاق وكونه من أشرف العلوم وأن قيمة المرء بخلقه وعمله ، وعزز هذه الحقائق بأدلة نقلية من الحديث الشريف وغيره ، ومن ثم عرض الأستاذ المؤلف إلى بحث الصلة بين الدين والأخلاق ؛ فما كان للنواهى الدينية ومقاصد الأوامر غرض إلا طهارة النفس وكمالها الانسانى الذى تسعد به فى الدنيا والآخرة ، وما بعث النبى إلا ليتمم مكارم الأخلاق .

وبعد أن بسط المؤلف هذه العلاقة تحدث عن الحاجة إلى علم الأخلاق وعدد أمثلة من نقائصنا الخلقية الذائعة ، ذكر منها احتقار الأعمال الحرة ، واعتبر ذلك نقيصة خلقية وعدم الحرص على العادات القديمة الطيبة والانغماس فى الترف ومحاكاة الفقير الغنىّ وتطلع الشباب إلى الزوجات الغنيات وغير ذلك .

ولقد عرف الأستاذ الفلسفة الخلقية وهى ذلك العلم الذى تبين للناس كيف يجب أن يعيشوا لا كيف يعيشون ، ولذا أطلق عليه بعضهم علم ما يجب . وتكلم عن موضوع الفلسفة الخلقية بعد أن بين ماهيتها .

ومن المباحث القيمة التى تناولها المؤلف نسبة الفلسفة الخلقية إلى سائر العلوم ، فتكلم عن نسبتها إلى علم حياة الحيوان وإلى علم النفس وإلى علمى المنطق والجمال والفلسفة الاجتماعية وعلم تدبير المال والسياسة .

وقد عنى المؤلف عناية خاصة فى سرد آراء المتقدمين والمتأخرين من العلماء فى الخلق ؛ ذلك أنه كثيرا ماتضاربت الآراء وتشعبت فى هذا البحث . فذكر قول ابن مسكويه من الخلق وأتى بما جاء فى كتاب إحياء العلوم للإمام الغزالى عن الخلق إذ عرفه الامام : بأنه عبارة عن هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية وذكر المؤلف تفصيل هذا التعريف المجمل .

ولم يقتصر المؤلف على ذلك ، بل ناقش ما قاله المحدثون من الفرنجة فى الخلق .

وعالج موضوع نزعات النفس ومحص آراء الباحثين : من رأى منهم أن النفس منطوية على الخير ، ومن رآها مفطورة على الشر ، ومن رآها قابلة للأمرين ، ومن ظن أنها خالية منهما . ثم انتقل إلى موضوع ينابيع الخلق فتكلم على مكونات الخلق على أساس رأى الفرنجة فيه : وهى الغرائز مع العواطف والانفعالات والاحساسات والعادة والبيئة .

وعرض الأستاذ فى إسهاب لطريقة دين الاسلام فى تكوين خلق الانسان وما سلكه من الوسائل فى تكوين هذا الخلق : ذلك المسلك الذى شملهم من جميع نواحيهم ، واستند الأستاذ فى ذلك إلى الآية الكريمة : «إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ» وذكر طرق التأديب التى حرص عليها الدين الاسلامى .

ومما أجاد فيه الأستاذ وأفاد ببحثه فى وسائل تقويم الخلق وأثر الأسوة فى تقويمه وأثر عبادة الله فيه وكونها أقوى أركانه ، ولا أدل على هذا من قوله : « إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » وقوله صلى الله

عليه وسلم: (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْداً) والأستاذ المؤلف كثيرا ما استند على الأدلة النقلية المختارة المنتقاة

وتكلم الأستاذ عن الموازين الخلقية: وهي العرف والفطرة والايثار والعاطفة واستمالة القلوب والاقتداء بالله والسعادة، وعن الميزان الأخير أطال البحث، وأفاض في أسباب السعادة: ومنها الايمان والفضائل والذرائع لمحاربة الهوى والاخلاص والصحة وما يجب لحفظ صحة النفس من معاشرة الأخيار والارتياض بالأمور الفكرية، إلى غير ذلك.

وبعد فقد حوى هذا السفر النفيس من المباحث الرائعة ما يشف عن علم فياض واطلاع واسع عرف بهما المؤلف، ولا جرم أن الأستاذ الفاضل بما ينتجه بين الحين والآخر من ثمار فكره يقدم أثمن ما ينتظره قراء العربية من العلماء الأعلام.

(٩)

صحيفة الأهرام أول يوليه سنة ١٩٣٣

الخلق الكامل

للأستاذ جاد المولى بك

المكتبة التازية الثمن ١٥ قرشا

للأستاذ «محمد أحمد جاد المولى بك» المفتش بوزارة المعارف ولع بالبحوث الخلقية وشغف بدراسة المسائل العلمية المتصلة بأصول الفضائل وكل ماينزع إلى الكمال الانسانى ، وله طريقة طريفة فى البحث والدراسة هيأتها له نشأته العلمية التى زودته بحظ كبير من الثقافة العربية والحضارة الغربية ، وقد أخرج الأستاذ حديثا الجزء الأول من كتابه : «الخلق الكامل» فكان مصداق ما عرف عنه من سعة العلم ورجاحة الفكر وحسن البيان

وكتاب «الخلق الكامل» يبحث فى موضوع الخلق عامة وخاصة فى الفلسفة الخلقية ونزعات النفس وينابيع الخلق والموازين الخلقية ، وتحت كل باب مما ذكرناه تفصيل واسع وإطناب كبير مما يجعل هذا الكتاب مرجعاً من المراجع الهامة فى أصول علم الأخلاق

ويقع الجزء الأول فى ٤٦٣ صفحة من القطع المتوسط وهو مطبوع طبعاً حسناً على ورق مصقول وثمنه خمسة عشر قرشا .

فنشكر للأستاذ جهده الحميد فى إخراج هذا المؤلف الجليل .

المراجع

ا ــ المراجع العربية

(١) القرآن الكريم
(٢) كتب السنة الصحيحة
(٣) نهج البلاغة
(٤) إحياء العلوم للغزالى
(٥) « البؤساء » ترجمة للمرحوم حافظ بك إبراهيم
(٦) مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية
(٧) دائرة المعارف للبستانى
(٨) سر النجاح (ملحق المقتطف)
(٩) الأخلاق والواجبات للشيخ عبد القادر المغربى
(١٠) مناهج الأدب للمرحوم أمين بك واصف
(١١) علم أدب النفس لمؤلفه نقولا الحداد
(١٢) الأدب الكبير لابن المقفع
(١٣) الأدب الصغير « «
(١٤) تاريخ أدب العرب للاستاذ الرافعى
(١٥) تاريخ الجماعة الاولى للشبان المسلمين لمؤلفه الأستاذ عبد المتعال الصعيدى
(١٦) المستطرف من كل فن مستظرف
(١٧) ثمرات الأوراق
(١٨) العقد الفريد

ب ــ المراجع الانجليزية

(1) Character & the Conduct of lifely Me Doucall.
(2) Methods of Ethies, by Sidgwick.
(3) Principles of Ethies, by spencer.
(4) Prolegomena to Ethies, by Green.
(5) Manual of Ethies, by Mackenzie.